أدب
الخصومة في الإسلام

الدكتــور

سالــم راشــد بن تريــس

القمــزي

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

تصريح وزارة الاعلام رقم / أ ع ش/ ٢٢٥٧
بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٨م
بناء على موافقة وزارة العدل والشئون الاسلامية والاوقاف رقم ٥/ ٣٣٦

دار الوسام

دار الوسام للطباعة والنشر

هاتف : ٦٠٣٢٨٥

ص ب : ١٥/٥٠٠٣ لبنان ـ بيروت

التوزيع ـ مكتبة دار الآداب ـ الشارقة ـ ت : ٥٢٢٩٥١

الامارات العربية المتحدة

اهــــداء

إلى من كانت السبب في وجودي ..

إلى من لها الفضل الأول في تربيتي وتعليمي ..

إلى والدتي العزيزة .. غفر الله لها وأسكنها فسيح جناته ..

أهدي هذه الثمرة من العلم الذي طالما حرمت نفسها من متعة الدنيا لتوفره لي .

فجزاها الله عني وعن كل مطلع ومنتفع بهذه الرسالة خيرًا ، وأجزل الله لها الثواب بنعيم الجنة عنده ،،، إنه سميع مجيب ..

شكر وتقدير

إن من أبلغ الأثر في عظم الكلمة حينما تكون صادرة من القلب، وأجمل ما يزينها العمل ... وذلك ما أقدم عليه رجل البر والخير بمكرمته الغالية، إيماناً منه بأن نشر العلم لا يقل ثواباً عن معلمه ومؤلفه.

والفضل دائماً يعرف لأهله، وإذا أراد اللّه لأمر خيراً يسر أسبابه وفتح أبوابه.

وإن الشكر والتقدير كل التقدير للسيد/ **عبد اللّه بن أحمد الغرير** الذي ما توانى لحظة حينما اطلع على مخطوطة هذا الكتاب، وصار يقلب صفحاته حتى آل على نفسه أن يكون له وسام خدمة العلم، وتسخير المال لنشره وتعميمه للمسلمين، منتظراً جزاء اللّه وثوابه عنده في أعلى عليين.

ويقدر اللّه أن تبرز هذه الرسالة على يد هذا السيد الكريم طباعةً ونشراً.

وها هو الكتاب بين يدي القارئ .. أسأل اللّه أن يثيب المتكفل بطباعته بما هو أهله، ويجازيه عنا خير الجزاء، إنه واسع عليم.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله والحمد لله ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا ..

أما بعد :

فيقول الله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] .

هذا هو الأصل الذي تقوم عليه الجماعة المسلمة ، وهذا هو المبدأ والشعار الذي يلتف حوله أفراد المسلمين وجماعاتهم ، وأن هذا المبدأ من أرقى ما عرفته البشرية في مجال الآداب الاجتماعية والعلاقات الإنسانية ولا غرو فإنه توجيه إلهي تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون منهجًا خاصًا له ولأمته في الحياة الدنيا ، كما يكون مبدأ عامًا للناس كافة ، لأن المنزل عليه رسول إلى الناس كافة .

والمتأمل في هذا النص القرآني يجد أنه ابتدأ بالعفو ، والذي هو التسامح ، والعفو أصل من أصول الشريعة الإسلامية ، حثت عليه ، وكافأت المتصفين به بأجزل العطاء وأعظم الثواب .

واشاعة الأمن والسلام في الأرض أمر اضطلعت به شريعة الإسلام دون الشرائع السماوية الأخرى ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؛ افشوا السلام بينكم** »[2] .

وما السلام والعفو والإيثار والنية الحسنة إلا عوامل ألفة المسلمين ، وأسس

---

١ الآية (١٩٩) من سورة الأعراف

٢ صحيح مسلم – كتاب الإيمان ، باب لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، جـ ٢ / ٣٥

وحدتهم ، من غيرها هم في فرقة وشتات ، وتناحر وخصومات ، ونزاعات وخلافات ، يقول عليه السلام : « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار** » قيل : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « **انه أراد قتل صاحبه** »[1] .

ولما كان الإسلام دين المعاملة ودين النصيحة ، وهما من أبرز وجوه العلاقات بين الناس اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو دينية على حد سواء ، فإنه لا بد أن يتنزل تشريعه مهذبًا للنفوس ، مبينًا لقواعد الآداب والقيم لكافة العلاقات، على اختلاف أنواعها وتباين مراميها ، لا سيما وأنه وهو يعتني بالعلاقات الإنسانية ، أشد ما بلغت اهتماماته بذلك أن اهتم حتى بحديث النفس ، وما يعزم عليه القلب من نية ، لأنها في نظر الإسلام شرط القبول لكل عمل مشروع ، يقول عليه السلام : « **إنما الأعمال بالنية ، وإنما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[2] .

نعم من كان يبتغي بعلاقاته مع الناس خيرًا ، ولا يهم في شأن من شئونه مع نفسه أو الآخرين إلا بنية يبتغي بها رضى الله تعالى ، فلا شك أنه من المؤمنين المتأدبين بشرع الله ، والعاملين بكتابه ، والمتبعين لسنة نبيه ، أما إذا كان المرء لا يجتمع مع الناس إلا في مصالح شخصية وأغراض دنيوية ، لحوحًا في منفعته ، خصيمًا في منازعته غيره ، لا يهمه إن كان الحق له أم عليه ، فهذا الذي لم تتهذب نفسه ، ولم تصفو سريرته، ولم يتعمق إيمانه ، وإن كان في عداد المسلمين .

فهو وإن دافع عن حقه ، ما دام أنه على نية غير صالحة ، فلا يعتمد في دفاعه إلا على طرق نهى عنها الشرع وحذر منها ، فإن وصل إلى ما يريد فإنما يقتطع من حق غيره ، وفي هذه الحالة يعد ظالمًا ، وإن فشل فقد نال جزاء عدم تقيده بآداب التقاضي من حسن الطلب وحسن الأداء .

---

١ صحيح البخاري – كتاب الفتن ، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، جـ ٩ / ٦٤

٢ صحيح مسلم – كتاب الإمارة ، باب قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنية » جـ ٥٣/١٣

وإن مما جهر به الإسلام وهو يدعو الناس إلى التوحيد ، أن دعاهم إلى الألفة ووحدة الصف وجمع الكلمة ، وذكرهم بماضيهم المفعم بالعداوة والبغضاء لبعضهم البعض ، قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[1].

وما إن نزلت هذه الآية وأمثالها من القرآن الكريم حتى تلقاها المسلمون الأوائل من فيه نبيهم ومعلمهم الأول محمد صلى الله عليه وسلم فوعوها حق الوعي وطبقوها بصدق واخلاص مما أشاد القرآن الكريم بحبهم لله ورسوله ، ومدحهم في موضع آخر فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾[2].

ولا غرو فقد تميزوا بأكبر من هذه الصفات بشهادة الحق سبحانه وتعالى لهم في كتابه العزيز إذ يقول سبحانه : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا** ﴾[3].

---

١ الآية (١٠٣) من سورة آل عمران.

٢ الآيتان (٩ ، ١٠) من سورة الحشر.

٣ الآية (٢٩) من سورة الفتح .

تلكم هي الصفوة التي اختارها الله لنشر دينه ، وألقى عليها تبعات إيصال الدعوة الإسلامية إلى أبعد ما يصل إليه المسلم في حدود الزمان والمكان ، فأدت ما عليها حين تمسكت بالكتاب والسنة ، وتأدبت بآدابهما ، مما شهد لها في ذلك العدو قبل الصديق .

وجاء عهد التابعين لإكمال المسيرة الخيّرة ، مقتفين آثار سلفهم الصالح بكل ما في الكلمة من معنى ، فامتدت بهم الرقعة الإسلامية إلى ما شاء الله أن تصل ، واهتدت بفضل دعوتهم وسمو أخلاقهم جموع كثيرة إلى الإسلام ، وما كادت تنتهي المائة الأولى من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى بدت دولة الإسلام في شموخ حضاري ، لم يتوفر لغيرها من الأمم في فترة زمنية قصيرة كهذه ، تركت لمن جاء بعدها تراثًا فكريًا رائعًا ، ونموذجًا سلوكيًا فذًا ، وقدوة عملية رائدة . والمد الإسلامي متصل في غير انقطاع إذا حافظت أمته على كتاب ربها وسنة نبيها قولاً وعملاً واتباعًا.

والمطلع على تاريخ الأمة الإسلامية يجد أنها مرت وما زالت تمر في أحوال من المتغيرات الدينية والاجتماعية والسياسية ، منذ انتهاء عصر الخلافة الراشدة إلى يومنا هذا ، وما ذاك إلا نتيجة عوامل داخلية وخارجية ، بغيتها الرجوع إلى عصر الخلاف والتفكك ، الأمر الذي جعل المسلمين ينشغلون عن التفقه في دينهم والتحاكم إلى كتابهم ، بأمور الدنيا والاهتمام بالمادة ، وأصبح أمر الآخرة عندهم من البدهيات والعادات ، لا يحتاج منهم اهتمامًا كما هو الحال في اصلاح الدنيا وإعمارها لكي تصبح دار خلد وبقاء .

فإفراطهم في حب الدنيا وتفريطهم في جانب الآخرة جعل الجهل يغزوهم في عقر معاقلهم العلمية والمعرفية ، كتاب الله بينهم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تغشاهم ويغشونها ، وسيرة السلف بين أيديهم ، ويأبون إلا العمى ، ويرفضون إلا تقليد الإمعة ، حتى تحكمت فيهم الأهواء ، فاتسمت تصرفاتهم السلوكية بجانب جهلهم بالدين والبعد عنه ، بالفظاظة والرعونة ، وكلما تشعبت بهم السبل وتشتت بهم الآراء ازدادوا فرقة وخلافًا .

والمتأمل في أحوال الناس وعلاقاتهم ، والخلافات الدائرة بينهم ، وطرق العلاج التي يتعاملون بها في حل هذه الخلافات ، يلمس بونًا شاسعًا في مقارنتها بحياة الرعيل الأول من المسلمين الذين كان القرآن خلقهم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقتهم ومنهجهم ، عاشوا عليها وماتوا على ذلك ، أما نحن اليوم فلا يجمعنا أدب القرآن ولا تهذيب السنة ، فيما يجري بيننا من خلاف ، امتلأت حياتنا بالجدل والمراء من غير دليل ولا برهان ، وبالغنا في الخصومة لحد الفجور والقطيعة ، حتى في مناظراتنا العلمية فقدنا ميزان التأدب والتهذيب ، كل ذلك وكأن القرآن الكريم لم يوجهنا بأدب ، ولم يرشدنا إلى خلق ، وكأنه لم يتسع لإخماد هذا الجدال وتلك الخصومات .

وما يصدر عن المسلمين اليوم فيما بين بعضهم البعض من ناحية ، وما بينهم وبين غيرهم من أهل الملل والطوائف من ناحية أخرى ، ليدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب ، رغم ما قام به العلماء من دور كبير في مجال التوجيه والإرشاد نحو التأدب والإلتزام بمنهج الإسلام وكثير من العلماء من تناول التوجيهات القرآنية المبينة لأسس الآداب والقيم بالشرح والتفصيل ، بغيتهم في ذلك المساهمة في نشر الوعي الإسلامي بين أفراد المجتمع المسلم كواجب من واجبات الدعوة الإسلامية التي تشرف بحملها هؤلاء العلماء الأفاضل .

بيد أن الناس وما هم فيه من انشغال بأمور الحياة ، ودخول التيارات المنحرفة على الفكر الإسلامي ، كل ذلك جعل الناس في غفلة عن آداب دينهم وسموه في التهذيب والأخلاق ، الأمر الذي يدعو إلى إظهار المنهج القرآني المتعلق بأدب المنازعات الناتجة عن الاختلاف والشقاق في اسلوب علمي متأدب قائم على الكتاب والسنة ، لهذه الأسباب فضلت أن يكون موضوع بحثي في هذه الرسالة العلمية – أدب الخصومة في الإسلام – وبغيتي في ذلك أن أساهم كطالب في جمع الأسس والآداب التي عنى بها القرآن الكريم ووضحتها السنة النبوية الشريفة حول الخلافات الدائرة بين المسلمين ، وأسباب وجودها ، وطرق العلاج المناسبة للقضاء عليها ، والآداب التي يجب أن يلتزم بها طرفا الخلاف إذا ما أرادا إحقاق الحق وإقامة العدل والإنصاف .

ومن ثم فإن هذا البحث ما هو إلا كواحد من الموضوعات المتعلقة بعلوم القرآن الكريم الذي لا ينقطع مده ، ولا تنتهي كلماته ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددًا** ﴾[1].

وان هذا البحث لذكرى ، لعل الله ينفع به المؤمنين ، ويرشد به الضالين ، ويظهر به الحق المبين في ميزان العدل من رب العالمين .

واني لأرجو بذلك وجه الله تعالى ، وما يقع فيه بحثي من سهو أو خطأ أرجو أن يغفره لي ، وأن يعين المسلمين من أرباب هذا العلم أن يضعوا الحق في نصابه، مستدركين على إخوانهم عثراتهم وأخطائهم ، سائلا الله المنّة والتوفيق وهو من وراء القصد ..

المؤلف

١ الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

الباب الأول

أدب الخصومة بين الماهية والمضمون

تمهيد :

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ومعجزته الباقية ، ودعوته الى عباده لتوحيده ، ونوره الذي بدد به ظلمات الجهل وأدران الطاغوت ، ختم الله به الرسالات ، وأنهى به عالم النبوات ، فكان كتاب عقيدة وشريعة ، وكتاب هداية وتوجيه ، وكتاب تبصرة وتفكير ، وكتاب علم وعمل[١] ، وكتاب حكم وقضاء ، وكتاب آداب وتهذيب ، وصدق الله العظيم حين وصفه بقوله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾[٢] .

وليس في الدنيا كتاب اشتمل على مسائل الحياة وربط بين أهدافها كالقرآن الكريم، الذي جعل بعض شئون الحياة أسبابا لغيرها ، وحل مشاكلها في بساطة ويسر[٣] .

أودع الله فيه أسراراً نفسية وحقائق روحية ، أعلت من قدر الانسان، ودفعت بإنسانيته نحو الكمال الأخلاقي والسمو الروحي ، يقول الله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا** ﴾[٤] .

---

١ عن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنت كلا ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) صحيح البخاري ، كتاب العلم / باب فضل من علم وعلم – جـ ١ / ٢٣٠ الآية ٣ من سورة المائدة

٢ الآية ٣ من سورة المائدة

٣ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم – ص ٧٤

٤ الآية ٩ من سورة الإسراء

وجاء القرآن دعوة إلى إيقاظ المشاعر ، وتنبيه الملكات ، وتوجيه النوازع نحو العمل الصحيح في الطريق المستقيم[1].

والقرآن الكريم بجانب انه مصدر التشريع الأول فانه لم يغفل الجانب التهذيبي للإنسان بصفة عامة ، والمسلم بصفة خاصة ، لذا فان أول من تخلق به معلم البشرية الأول سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– وكيف لا وقد أنزل عليه، وأمر بتبليغه ، وقد كان قدوة لأمته حتي وصفه ربه بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[2] .

وقد وصف نفسه بقوله – عليه السلام – : « **بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[3].

وإذا كان التهذيب القرآني جاء موجهاً إلى الإنسان باعتباره هو المكلف من بين المخلوقات بالعبادة والتوحيد ، وكان الإنسان كما يقول علماء الاجتماع ذا طبع إجتماعي، أي لم يوجد على ظهر الحياة منعزلاً ، ولا يستطيع أن يعيش بمنأى عن الناس ، إذ لا تقوم الحياة بالنسبة له الا بالإجتماع معهم والتداخل فيهم ، لحاجته إليهم وحاجتهم إليه وهذه سنة الله في خلقه ، إذن إذا كان الأمر كذلك فما جدوى تقرير التهذيب القرآني ؟ وما شأنه بالطبع الإجتماعي للإنسان ؟ .

كما قلنا في البداية ان الإنسان إجتماعي بطبعه ، لا يعيش إلا ضمن جماعة، مما يحتم عليه الأمر أن تنشأ بينه وبين من يعيش معهم علاقات نتيجة التعامل والإحتكاك والقضية منطقية ، جماعة تفضي الى تعامل يؤدي الى احتكاك ، ثم تباين واختلاف كل بما أدرك وفهم .

وحيث ينشأ الخلاف تبرز التصرفات ويتحدد السلوك لدرء هذا الخلاف ، وليس المهم أن ينشأ الخلاف ، لأن هذا أمر طبيعي ، ولكن المهم كيف نعالج هذا الخلاف ؟ .

---

١ الإعجاز في دراسات السابقين عن إعجاز القران ، ص ٣٦ ، ٤٢

٢ الآية ٤ من سورة القلم

٣ أخرجه مالك في الموطأ – ما جاء في حسن الخلق ، ص ٧٨٧

ومن أجل هذا جاء القرآن كأول دستور سماوي كامل ، ليؤسس قواعد القيم والأخلاق ، التي يجب أن تسود مجتمع الإسلام .

من هنا كانت حاجة المسلم للآداب القرآنية ماسة وضرورية لقوام الحياة العادلة، فكلما كان المسلم موجهًا طاقته نحو البر والخير ، يحب لغيره ما يحبه لنفسه ، بقدر ما يكون متمسكا بالقيم والتوجيهات السامية ، وكلما كان متخليا عنها نشأ الخلاف بينه وبين الآخرين ، حتى يصل الى درجة الخصومة التي لا يوجد فيها غالب ولا مغلوب .

ونحن في كل زمان ومكان بحاجة الى أن نرجع الى الله – سبحانه وتعالى – وأن نتذكر ما أوصانا به من خير فنعمل به ، وما نهانا عنه من شر فنبتعد عنه ، ولا سيما وأن الأمة الإسلامية مرت بفترات من الظلم والفتن ما يجعلها تستروح نسمات العدل الإلهي في كتاب الله ، لعل الله يريح به النفوس ، ولا شك أن من يتجنب طريق الفتن ، ولم يتماد في اتباع الهوى ، فسيكتب له الهدى ، وييسر للحسنى[1] .

يقول الله – تعالى – : ﴿ **وإن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾[2] .

ويقول – تعالى – : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى** ﴾[3] .

وعدل الله شامل لا يختص بطائفة دون أخرى ، فهو رب الخلق ولا بد أن يشمل عدله جميع الخلق ، ولكن عدله مرتبط بالإلتزام بكتابه وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – أما من غيرهما فلا يعد الإنسان إلا متبعاً للهوى حائداً عن الطريق متجاوزا لحدود العدل ، عادة ما يتسبب في نشوب الخلافات يحدث النزاع ويكثر الجدل، وهذا من صفات الطبع الإنساني ، يقول تعالى : ﴿ **ولقد صرفنا**

---

١ إن هذا القران يهدي للتي هي أقوم – ص ٦ – ٨

٢ الآية ١٥٣ من سورة الأنعام

٣ الآيتان من ٥ – ٧ من سورة الليل

في هذا القرآن من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلاً ﴾[1] .

ولا يمنع أن يكون هناك نزاع وجدل ، ولكن من غير المرغوب فيه أن يصل النزاع والجدل الى الفجور المفضي إلى الخصومة والقطيعة ، وهذا الذي نحن بصدد الدراسة فيه، والبحث عنه ٠٠ على سبيل أن الانسان وخصوصًا المسلم ، ليس حراً أن يخاصم كيف شاء ، ومتى ما شاء ، ولكن في ظل القرآن يروح ويجيء ، حيث هو المأدبة الحافلة بالطيبات من الرزق ، والمحملة بالهنييء الغدق من النعم ٠

يقول عليه السلام واصفاً القرآن : «**القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته**»[2] .

فكيف تناول القران الخصومة ؟ وماذا وضع لها من الآداب والتهذيب كي تندفع وتزول ؟ وما هو الأدب ؟ وما هي الخصومة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ؟٠ هذا ما سنجده موضحاً في الفصل الأول من هذا الباب ٠

---

١ الآية ٥٤ من سورة الكهف

٢ هذا الحديث فقرة من حديث طويل أوله (أن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، أن هذا القرآن هو حبل الله .... الخ) الحديث أورده صاحب كنز العمال / ج ١ ص ٥٢٦ رقم ٢٣٥٦ ، برواية ابن شيبة ومحمد بن نصر وابن الأنباري في كتاب المصاحف ، كما رواه الحاكم في مستدركه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن مسعود ، وأخرجه الدارمي في كتاب فضائل القرآن ٠ باب فضل من قرأ القرآن ج ٢ / ٤٣١

الفصل الأول

مفهوم الأدب والخصومة

لغةً واصطلاحاً

أولاً – تعريف الأدب

أ – مفهوم الأدب لغة واصطلاحاً :

تناولت معاجم اللغة هذه المادة بالشرح والتفصيل ، فقد جاء في لسان العرب[1] لإبن منظور ما مفاده أن :

(الأدب هو الذي يتأدب به الأديب من الناس ، وسمى أدب لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ، وأصل الأدب الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعي إليه الناس (مأدبة) ، ويقال : أدب الرجل يأدب أدباً ، فهو أديب ، والأدب بمعنى أدب النفس والدرس والظرف وحسن التناول ، وأدبته بمعنى علمته) ٠

وجاء في المصباح المنير[2] أن :

أدبته بمعنى علمته رياضة النفس ، ومحاسن الأخلاق ٠

وقال أبوزيد الأنصاري ، (الأدب) يقع على كل رياضة محمودة ، يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل .. وقال الأزهري نحوه ..

(فالأدب) اسم لذلك والجمع منه (آداب) مثل سبب وأسباب .. وأدبته (تأديباً) صيغة مبالغة وتكثير بمعنى عاقبته على إساءة لأنه سبب يدعو الى حقيقة (الأدب)٠

---

١ لسان العرب ، ج ١ ص ٣٣

٢ المصباح المنير ، ج ١ ص ١١

وجاء في القاموس المحيط[1] نحو ذلك ٠

وأورد صاحب (جواهر الأدب)[2] على هذه الكلمة يقول :

(الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به من جميع أنواع الخطأ ، وهو قسمان : طبيعي وكسبي ٠

فالطبيعي منه ما فطر عليه الانسان من الأخلاق الحسنة ، والصفات المحمودة كالكرم والحلم ٠

والكسبي ما اكتسب بالدرس والحفظ والنظر ٠٠٠) ٠

ثم ذكر فائدته قائلاً : (انه يعصم صاحبه من زلة الجهل ، وانه يروض الأخلاق ويلين الطبائع ، وأنه يعين على المرؤة ، وينهض بالهمم إلى طلب المعالي ، والأمور الشريفة) أ.هـ ٠

من هذا البيان اللغوي لمادة (الأدب) يتضح لنا أن هذه المادة اشتملت على معانٍ أصيلة وراسخة في باطنها وظاهرها وحقيقتها ومجازها ، لذا استبقى الناس على مفهومها الحقيقي كعرف اجتماعي يتردد فيما بينهم ، فإذا ما وردت على ألسنتهم كلمة (أدب) لا يعنون بها سوى الأخلاق الحميدة ، والتهذيب الراقي ، والعلم الجم[3] ٠٠ حتى أن هذا الأمر قد أصبح مشهوراً بين العامة والمثقفين على حد سواء ، فنراهم يقولون لمن استقام سلوكه واتصف بالهدوء والفطنة أنه رجل مؤدب ، والعكس كذلك من اتصف ببذاءة في اللسان وقباحة في العمل ، يقولون عنه انه غير مؤدب ٠

وكذلك تطلق كلمة أدب ويراد بها تربية الأولاد وتعليمهم الفضائل من العادات والجميل من الأقوال ٠

فكأنما أصبحت كلمة (أدب) اصطلاحاً علمياً وعالمياً يطلق على العلم والأخلاق والتهذيب ، وبهذا المعنى الإصطلاحي أخذت هذه الكلمة حيزاً كبيراً من

---

١ القاموس المحيط ، ج ١ ص ٣٦ ، فصل : الهمزة ، باب : الباء

٢ جواهر الأدب ، ج ١ ص ١٤

٣ الجم : الشيء الكثير / مختار الصحاح ص ١١٢

الاستعمال للدلالة على مرادها ومعناها الذي تقدم ايضاحه ، والشواهد على ذلك كثيرة في لغة العرب نثراً وشعراً ؛ نسوق لك منها على سبيل المثال لا الحصر :

ما جاء في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – انه قال : «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»[1] .

وعنه – صلى الله عليه وسلم – انه قال : « **ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن** »[2] .

وعن جابر بن سمرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين** »[3] .

ويروى عن عبدالله بن عمر – رضى الله عنهما – انه قال : « أدب ابنك فإنك مسئول عنه ، ماذا أدبته ، وماذا علمته ؟ وهو مسئول عن برّك وطواعيته لك »[4] .

ويروى عن على بن أبي طالب –رضى الله عنه – في خطبة له بعد مقتل عثمان – رضى الله عنه – أنه قال : « إن الله أدب هذه الأمة بأدبين، السيف والسوط ، فلا هوادة فيهما عند الإمام »[5] .

---

١ قال ابن حجر في فتاويه : إنه غريب ، ولكن معناه صحيح . ونحوه ما أخرجه ابن السمعاني بسند منقطع عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : إن الله أدبني فأحسن تأديبي ، ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال بـ « خذ العفو وأمر بالعرف » الآية ، وقال الألباني في السلسلة : انه ضعيف ، ج ١ ص ١٠١

٢ أخرجه أحمد في مسنده / باب البرّ ج ٤ / ٧٨

٣ نفس المصدر السابق ج ٥ / ٩٦

٤ عبدالله بن عمر : الصحابي الجليل ، التقي الورع الزاهد ، المقتفى آثار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . عبدالله بن عمر بن الخطاب من بني كعب بن عدي ، الإمام القدوة شيخ الإسلام ، أبو عبدالرحمن القرشي العدوي المكي ثم المدني ، أسلم صغيراً ثم هاجر مع أبيه قبل أن يحتلم ، شهد الغزوات مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما عدا بدراً وأحداً ، وهو ممن بايع تحت الشجرة .وهو من الأئمة الأعلام في رواية حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مشافهةً ونقلاً ، روى الحديث عن الأربعة الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة الأجلاء ، روى عنه الحديث خلق كبير من التابعين وتابعيهم ، شارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدين ، وأبلى بلاءً حسناً فيها ، توفى بمكة سنة ٧٣ هـ وله من العمر ٨٥ سنة ، بلغت أحاديثه المروية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم (٢٦٣٠) حديثاً ، المتفق عليه منها ١٦٨ حديثاً ، انفرد البخاري منها بـ ٨١ حديثاً ، وانفرد مسلم منها بـ ٣١ حديثاً (سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ص ٢٠٣)

٥ كتاب العفو والاعتذار – ج ١ / ٨٧

وقد وردت كلمة (أدب) بنفس المعاني السابقة في كثير من أشعار العرب وقصائدهم ، فهذا شاعرهم يصف الأدب بأنه علاقة نسب كما هو الحال في علاقة النسب بالقرابة أو المصاهرة ، بل أكبر وأقوى وشيجة وآصرة من قرابة النسب والمصاهرة ، فها هو يقول :

أدب بيننا تولد منـــــه ... نسب والأديب صنو الأديب[1]

وقال آخر يصف منزلة الأدب بالنسبة للأديب على أنه شرف رفيع ولو لم يكن له عصبة القبيلة أو حميتها ، فقال هذا الشاعر :

حق الأديب وإن لم يدنه نسب ... فرض على كل من أمسى له أدب[2]

وقال آخر يصف ميزة الصفح والعفو لمن بغى عليه أو ظلم ، وأن الملتزم بهذا الصفح لا يفكر أن هناك اجرام يعرف بين الناس فقال هذا الشاعر:

صفوح عن الاجرام حتى كأنـــه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرماً[3]

ب - مفهوم الأدب في القرآن الكريم :

بعد أن تبينا المعاني المشتملة عليها كلمة (أدب) لا بد لنا من وقفة مع هذه المعاني وصلتها بالقرآن الكريم .

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم وهو كتاب الله وكلامه الذي أوحاه إلى نبيه - عليه الصلاة والسلام - أنه نزل بلسان عربي مبين ، على نبي عربي ، وسط قوم بلغوا من الفصاحة والبلاغة العربية ما جعلهم يتفاخرون بها لساناً ونسباً ، فجاء القرآن من جنس ما يتحدثون به ، ولكنه معجزة تحدى الله بها فصاحتهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، أو حتى بآية من مثله ، قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[4] .

١ البيت ساقه صاحب جواهر الأدب - ج ١ / ٧٥ ولم يعزوه لقائل .

٢ نفس المصدر السابق ، ج ١ / ٧٥

٣ البيت للحسن بن رجاء - كتاب العفو والاعتذار - ج ١ / ٨٩

٤ الآية ٢٣ من سورة البقرة

وقد جزم الله بعجزهم عن هذا الطلب ، فقال سبحانه : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[1] .

ثم بين الله تعالى أن في هذا القرآن هداية وتبصرة للمؤمنين الملتزمين به والآخذين بشرعه ، فقال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما اتبع ما يوحى إلى من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[3].

وإذا كان الأدب يعني الأخلاق ، والتهذيب ، والسيرة الحميدة ، والذكرى الطيبة ، لشخصية الإنسان في الحياة ، فإن هذه المعاني جاءت حية بارزة في رفعة وعلو بين ثنايا الآيات الكريمة في المصحف الشريف ، كي تدفع المؤمن إلى أن يتميز بشخصية فذة بين الأجناس البشرية ، في السيرة والسلوك ، والتهذيب والأخلاق ، والعلم والعمل ، جاءت تهذب نفسه في سائر الأحوال والتقلبات ، في الفقر والغنى ، في العسر واليسر ، في الرضى والغضب ، في المنشط والمكره ، في الحب والكراهية، جاءت آيات القرآن تذكره بأن حياتك لله ، وموتك لله ، فلا تحب إلا في الله ، ولا تبغض إلا في الله ، وكن مع الله يكن معك ، والعاقبة للمتقين.

فالقرآن الكريم لو استعرضت آياته لوجدتها كلها توجيهات تهذيبية أخلاقية، ناهيك عما تتضمنه من أحكام وتشريعات ، وأوامر ومنهيات ، ولو لم ترد في القرآن إلا سورة واحدة كسورة الحجرات فقط ، لكفى المسلمين من دينهم مثل هذه السورة وما تحمله من تربية وأخلاق اجتماعية ، لم يعرف لها نظير لا في دين سماوي ، ولا في مذهب أرضي ، منذ أن نزل القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن

---

١ الآية ٢٤ من سورة البقرة

٢ الآية ٩ من سورة الإسراء

٣ الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف

عليها ، هذه السورة بحق سورة الأخلاق الإجتماعية ومبادئ العلاقات الراقية بين بني البشر على وجه الأرض .

ونحن إذ نستعرض آيات هذه السورة ، لا نتناولها إلا من زاوية ما اشتملت عليه من مجموعة الآداب والأخلاق الاجتماعية التي ينبغي أن تظهر على شخصية المسلم لتعود بالنفع عليه ثم على أخيه المسلم ، ثم على من يختلط بهم من غير المسلمين .

وقبل أن يكون علم الأخلاق فناً من فنون العلوم الإنسانية التي بحث فيها العلماء من قديم وحديث على اختلاف اتجاهاتهم وثقافاتهم وعقائدهم، فإن القرآن قد سبقهم في هذا الفن ، ولن يوفوه حقه من اظهار أسراره كما جلاها القرآن في أبدع صورة ، وأبلغ نظم ، وأدق تفسير ، فالقرآن بحق أول كتاب إلهي يضع قواعد القيم وأسس الأخلاق في مجال العلاقات الإنسانية .

والآن تعالوا بنا نتفيؤ ظلال الآيات الكريمة من هذه السورة ، لعلنا نستنشق الهواء الصافي كي يشرح الله بها صدورنا ، ويشفى ما بها من غل ، ويمحوا ما علق بها من وصب[1] الخصومة والفجور ، فنرجع إخواناً متحابين ، تعالوا بنا نقترب من مائدة المولى- جل وعلا - ، لعلنا نجد فيها ما يشبع خواءنا الروحي ، ويطفئ ظمأنا الإيماني بعد طول هجر وخلاف .

تعالوا بنا إلى رحاب الآيات القرآنية الطاهرة المكتظة بالآلاء والنعم ، لعلنا نتقوى بها على طاعة الله ، وندحر بها شيطان النفس والهوى ، فنتخلص بها من براثن الشقاق والفرقة ، ثم نهيىء أنفسنا لتقبل الهداية الإلهية فنسير بنور الله على الصراط المستقيم ، وفق ما شرع لنا فنحيا على منهج قويم غير معوج ولا منحرف ، مستنين بسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - التي لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يهتدي إليها إلا كل منيب سالك .. فإلى الآيات من سورة (الحجرات) نقول :

---

١ الوصب : الوجع والألم - المصباح المنير - ج ٢ / ٦٦١

سورة الحجرات والآداب الاجتماعية

أ - المدخل إلى السورة :

نزل القرآن الكريم إلى الناس ليكون المنظم لشئون حياتهم ، والفاصل بينهم في نزاعاتهم ، والقاضي بينهم في حقوقهم وواجباتهم ، ومن قبل فهو الهادي والمرشد لهم إلى طريق خالقهم لعبادته حق العبادة ، لذا جاءت آياته بين أمر ونهي، وترغيب وترهيب، وتربية وتهذيب ، وعذاب ونعيم ، ووعد ووعيد ، والسورة التي نحن بصددها لا تخرج عن هذه المقاصد ، وهاتيك الأغراض .

ولعل صاحب الظلال قد أظهر آثار السورة ، ومعالم وحدتها ، في أبلغ تعبير وأصدقه ، لذلك لدى تقديمه بين يدي السورة مما قاله :

(إن سورة الحجرات تكاد تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم سليم، متضمنة القواعد والأصول ، والمبادئ والمناهج ، التي يقوم عليها هذا العالم)[1] .

ثم ذهب يفند مميزات هذا العالم ، كما بينتها السورة الكريمة ، حسب تقييماته التفسيرية لآيات السورة إلى وحدات موضوعية ، تتردد بين جمال اللفظ ، ودقة الاسلوب، حتى لكأن معالمها الآدابية كما صورها عالمنا الجليل حسب موضوعات السورة ومقاصدها ، لتصف العالم الذي تخاطبه بأنه عالم له أدب مع الله ورسوله ، وأنه عالم له مبادؤه في منهج التثبت والاستيثاق في مصدر الأقوال والأفعال ، وأنه عالم له آدابه في معالجة الخلاف ، وأنه عالم له آدابه النفسية والسلوكية في معاملاته بعضه مع بعض ، وأنه عالم له آدابه الفكرية في مبدأ الوحدة الإنسانية ، وأنه عالم له آدابه في مجال الشعور والضمير..

هذه هي موضوعات السورة ومقاصدها ، فكأنها جاءت لترسم معالم المثالية والكمال لعالم رفيع كريم نظيف سليم .

---

١ في ظلال القرآن ، ج ٦ ص ٣٣٣٥

ب - الآيات بين أسباب النزول ومنهج الإلتزام :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إنه سميع عليم** ﴾[1] .

ابتدأ الخطاب الإلهي بالنداء من الله الحكيم الخبير ، الرؤوف الرحيم ، إلى عباده الذين عبدوه بالغيب ، وامتلأت قلوبهم بمحبته وخشيته ، فناداهم بأحب الأسماء والصفات ، التي ارتضاها لهم ، بصفة الإيمان الذي هو أساس العقيدة ومبدأ الإخوة الصادقة ، تلك الصفة هي صفة المؤمنين .. نعم هذا هو النداء الذي يتشرف المؤمن إذا خوطب به ، فكيف إذا جاء من رب الخلق ذي القوة والجبروت ، والعزة والكبرياء ، يكون الفخر والتشرف أعلى وأكمل .

وحيث أنه خاطبهم بهذه الصفة أراد سبحانه وتعالى أن يذكرهم أن صفة الإيمان تعني الإذعان والانقياد والاستسلام ، كما تعني الحق الذي استوجب على عباده له سبحانه وتعالى من الإلتزام بأمره إذا جاء ، وعدم الجنوح إلى غيره لرأي يستحسنه أحد بمحض الهوى والنفس ، أو طرح الاقتراح في أمور لم ينزل بها القرآن بعد ، حيث هذا يتنافى مع آداب المخلوق بين يدي خالقه ، وكذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبلغ عن ربه ، وناقل رسالته إلى عباده ، فلا يحسن بالعباد أن يختلفوا بين يدي رسولهم ، أو يعارضوه أو يرغبوا عنه الى رأي دون الوحي القرآني أو التوجيه النبوي ، لأن ذلك يعد إساءة في الأدب مع شخص النبي وطاعته والتقيد بمنهجه ، وهذا ما تنص عليه الآية الكريمة من حسن التأدب مع الله ورسوله .

وقد كان لهذه الآية عدة أسباب في النزول ، منها ما أخرجه البخاري[2] وغيره عن طريق ابن جريج عن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على الرسول - صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر - رضي الله عنه : (أمر القعقاع بن معبد) ، وقال عمر - رضي اللّه عنه - : (بل أمر

---

١ الآية الأولى من سورة الحجرات

٢ أسباب النزول ، للسيوطي - سورة الحجرات ، ص ٣٨٥

الأقرع بن حابس) . فقال أبوبكر (ما أردت إلا خلافي)، قال عمر : (ما أردت خلافك) .. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن المنذر بن الحسن : أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً ، فأنزل الله هذه الآية . أ.هـ.

وعلى أية حال سواء كانت هذه الأسباب أو غيرها في نزول الآية فإن القاعدة الأصولية تقول : « العبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب» ، ومن هذا المنطلق فان الأدب الذي تحمله هذه الآية مستمر إلى أن يرجع الخلق إلى خالقهم ، وفي نفس الوقت ملزم لكل مؤمن ارتضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً ونبيًا ، انه إذا قضى الله في أمر فليس لهم فيه اختيار أو ترك ، وإذا كانوا أمام توجيه نبيهم ، فليس لهم تجاهه إلا الاتباع والتطبيق ، دون البحث عن سبب أو إبداء رأي .

والمؤمن في ظل هذا المنهج الرباني لا يسعه إلا أن يتأدب بمثل هذه الآداب مع خالقه عن طريق طاعته له ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتعظيم شعائره، وتقديس حرماته ، ثم لا يتأتى ذلك إلا باتباع نبيه وتوقيره وتعظيمه ، وحبه عن طريق التأسي بسيرته والتخلق بأخلاقه ، وعدم التعدي على حرمات الدين أو التعالي على أركان العقيدة بحجة العلم ، أو التطور ، أو الغنى ، أو السلطان ، أو الجاه ، كل ذلك مرفوض في ميزان العدل الإيماني والخلق القرآني .

وليحذر الذين ينصبون أنفسهم للفتيا والتشريع لارضاء المخلوق بغية الحصول على متاع الدنيا الزائل ، وهم يعلمون أنهم يتعدون على كتاب الله ويسيئون إلى سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وما حملهم على ذلك إلا حماقة الجهل ، وغطرسة الغرور، فليحذروا أن يعمهم الله بعذاب من عنده ، فلا يستطيعون دفعًا ولا نصرًا .

ثم تنتقل السورة إلى لون آخر من عالم الأدب والتربية إذ يقول الله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

يتكرر الخطاب الإلهي للمؤمنين بذكر صفة الإيمان فيهم ، أن يتذكروا وهم بين يدي نبيهم ، وفي حضرة أكرم إنسان بعثه الله إليهم ، أن يتأدب المؤمنون وهم في مقام الصحبة النبوية ، وفي جلسة الرسول المبلغ عن ربه ما أنزل إليه من كلام ربه وأحكام خالقه ، والرسول في نفس الوقت حاكم المسلمين وقائدهم ، فلا يجوز للرعية بين يديه أن يتجاهلوا مقامه ، فيحدثوا ما يغضبه عليهم ، فيغضب الله عليهم ويحبط أعمالهم ، بتحويلها إلى سيئات وذنوب ، دون أن يشعروا .. ماذا هم يصنعون ، وهذه الآية من أسباب نزولها ما تقدم في الآية السابقة ، وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد [1] من حديث هاشم عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأنتم لا تشعرون** ﴾ ، وكان ثابت بن شماس رفيع الصوت – أي جهوري– فقال أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنا من أهل النار – حبط عملي – وجلس في أهله حزينًا ، ففقده رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له تفقدك رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ، وأجهر له بالقول ، حبط عملي، أنا من أهل النار .. فأتوا النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبروه بما قال. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **لا بل هو من أهل الجنة** » . قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم إنه من أهل الجنة .

فهكذا ترى المسلمين أنهم كانوا في حالة من الخوف والرعب لما نزلت هذه الآية ، وفورًا امتثلوا أمر ربهم ، فهذا أبو بكر رضي الله عنه ، لما نزلت هذه الآية قال : (يا رسول الله ، والله لا أكلمك ، إلا كأخي السرار) يعني : الهمس[2].

---

١ في ظلال القرآن – ج ٦ / ٣٣٢٩

٢ نفس المصدر السابق .

فمـا أحوجنا نحن في هذا اليوم أن نتأدب بهذه الآداب مع كتاب الله، ومع سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيًا كان أو ميتًا ، بالمحافظة عليهما وإجلالهما ، وتعظيم الله بعبادته ، وتوقير رسول الله باتباعه والإقتداء به .

كذلك من الأدب المتصل بشخص النبي – صلى الله عليه وسلم – التأدب مع العلماء وقادة الإسلام ، وحكام المسلمين العادلين والحاكمين بكتاب الله والسائرين على منهجه ، يجب التأدب معهم وإظهار الاحترام والتوقير في حضرتهم حيث هم، كما قال – صلى الله عليه وسلم – : « **وأن العلماء ورثة الأنبياء** »[1] .

وأما ما نشاهده اليوم من معاقبة أهل الحق والدين أو الإساءة إليهم لوقوفهم في وجه الباطل ، فهذا يعد من باب الإساءة إلى كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولا يفعل ذلك إلا جاهل في دينه ، سيىء في خلقه ، ولا يرعى إلا ولا ذمة بين الله وعباده .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين أمتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾.

وكأن هذه الآية جاءت مدحًا لأولئك الذين يخفضون أصواتهم إذا كانوا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، بأنهم هم الذين قذف الله في قلوبهم التقوى وابتلاهم بها ، أيحافظون عليها ويمتثلون بحدودها، أم يضيعونها ولا يرعوا واجباتها وحدودها ؟.

وحيث أن الله اختارهم الصفوة لصحبة نبيه ، فكانوا أهلاً للتقوى ، فوهبهم إياها، وغفر لهم ذنوبهم ، وأدخر لهم عنده أجرًا عظيمًا يوم القيامة ، وهذا جزاء من يتصف بأدب الحديث مع الله ورسوله ، وأدب العمل في منهج الشريعة الإسلامية ، فإن الله يهديه إلى التقوى ، وما التقوى إلا العمل بكتاب الله ، والخوف منه ، والاستعداد للقائه في يوم لا يقدم الناس فيه على أحد سواه سبحانه وتعالى .

---

١ سنن أبي داود / كتاب العلم باب الحث على طلب العلم – ج ٣ / ٣١٧

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه سمع رجلين في مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ .. ثم قال : من أين أنتما ؟. قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا[1] .

ولهذا وجب أدبًا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يبقى هذا النداء حتي بعد موته ، ملزمًا للمسلمين أن يأخذوا به ، فإذا ما ذهبوا لزيارة مسجده والسلام عليه والوقوف عند قبره ، فلا بد أن يلتزموا الأدب معه – صلى الله عليه وسلم – حتى وهو ميت ، فلا يرفعوا أصواتهم ويكثر صخبهم عنده بحجة السلام عليه ، لأن هذا مناف لحدود الأدب مع الحضرة النبوية الشريفة ، ومن هنا ضرب الله مثلاً للمؤمنين الملتزمين بأدب النبوة من أولئك الأعراب الجفاة الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم ، ولم يحسن إسلامهم بتجاوز حدود الأدب في خطابهم للنبي عليه السلام ، وهم داخلون المدينة كما لو كانوا ينادون على واحد منهم ، فاستهجن الله فعلهم ومقته وقبحه وضربه مثلا ليمتثل المؤمنون ويبتعدوا عن هذا الخلق السيء وهذا الفعل المشين ، فقال تعالى : ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم والله غفور رحيم** ﴾ .

وأنت ترى من سياق هذه الآية أن الذين أقدموا على هذا الفعل بمناداتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – باسمه متجاوزين حد الأدب الذي ينبغي في مخاطبة النبي – صلى الله عليه وسلم – وصفهم الله بأنهم لا يعقلون ، ولو كانوا متصفين بالحكمة والفطنة لتخيروا أفضل النداءات التي تليق بشخص النبي – صلى الله عليه وسلم – ونادوه بها ، وإذا لم يعرفوه كان من الخير والأولى لهم أن ينتظروا حتى يخرج إليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – فيحسنون مقابلته ويعرضون أمرهم عليه .

ومن هذا المنطلق الرفيع من الأدب الإلهي مع شخص النبي – صلى الله عليه

---

١ في ظلال القرآن – ج ٦ / ٣٣٤٠ .

وسلم-، تأدب المسلمون به مع من يأخذون علومهم الربانية ، من علماء الإسلام وكل من كان موقرًا لدين الله وسنة رسوله من الناس ، يستحق أن يخاطب بأحب الأسماء إليه تقديرًا له وتوقيرًا لعلمه وكبر سنه ومكانته في المجتمع الإسلامي ، سواء كان والدًا أو معلمًا أو مسئولاً ، ما دام أنه قائم بحدود الله متبع لسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم-.

ثم جاءت الآية السادسة من السورة الكريمة لتعرض لونًا آخر من ألوان الأدب الاجتماعي ، ولكنه نموذج من الأدب المتصل بالعلاقات السياسية القائمة في الوقت الحاضر ، والتي تبين مدى الإرتباط بين الحاكم ورعيته من ناحية ، وبين رب العمل وأعضائه من ناحية ثانية ، وبين الناس مع بعضهم البعض من ناحية ثالثة ، وذلك في مجال التبعات الملقاة على عاتق كل مسلم كفرد في المجتمع ، مطلوب منه أن يحافظ على أفراده ويسعى إلى تحقيق الخير لهم ، ودفع الشر عنهم بالطرق المشروعة، دونما حقد على أحد ، أو نفع أحد دون أحد .. هذا هو المنهج الإسلامي في المصالح المشتركة ، وهذه هي السبل الناجحة في قيادة الأمة ، والسهر على راحتها ، فلا القائد مخول أن يأخذ الناس بالعقاب على ذنب لم يرتكبوه ، ولكن بمجرد الاشاعة والكذب والتجني من قبل الفسقة والفجار على الصالحين من الناس ، لعدم موافقتهم سبيلهم المعوج.

وبما أن المسلم مأمور بأن لا يحكم إلا بظاهر الحال ، فلا يجوز له كذلك أن يعتمد ويصدق أي قول يرفع إليه عن صاحبه ، إلا بعد التثبت والتمحيص من مصدره الحقيقي ، إلا إذا كان هذا القول من نقله لم يجرب عليه كذب في الحديث، ولا فسوق في الدين ، ولا خلف في الوعد ، فعندئذ يؤخذ بهذا الخبر ، لأن من كان مثل هذا فهو مسلم عدل ثقة ، يؤمن إذا استؤمن ، ويصدق إذا استشير ، والله يقول : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[1] .

أما من جرب عليه الكذب ، وظهر من حاله الفسوق والفجور ، فهذا لا يريد

١ الآية ٧١ من سورة التوبة

بنقل الخبر إلا الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وزرع بذور الخصومة بين الراعي والرعية ، وبين ذات البين المتصالحة ، فقد نهى الله عن ذلك ، وحذر المؤمنين أن يتخلقوا بمثل هذا الخلق السافل الذي تكون نتيجته الفرقة والتناحر والخصومة والشقاق ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ .

ولو ذهبنا نستعرض خلافات المسلمين اليوم ، والنزاعات الدائرة بينهم لوجدنا جلّها قائم على مجرد القول المنقول بطريق الكذب والنميمة، وحينما تخلى المسلمون عن اتباع طريق الحق وتحري الصدق ، انقلب بهم الحال إلى التقاطع والتدابر ، حتي وصلت بهم إلى حد الخصومة والفجور، وقد وردت لهذه الاية عدة أسباب في النزول ، من بينها ما قاله مجاهد وقتاده : أرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ، زاد قتاده : وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، فبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وأمره أن يتثبت ، ولا يعجل ، فانطلق حتى آتاهم ليلا ، فبعث عيونه[١] ، فلما جاءوا أخبروا خالدًا أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ، فرأي الذي يعجبه ، فرجع إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبره بالخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية [٢] .

وذكر السيوطي في (أسباب النزول) أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة[٣] ، والله أعلم .

فحري بالمسلم أن يكون ملتزمًا بمثل هذا الأدب الرفيع ، ولا يجعل من نفسه ناقلا لكل ما يسمع من أنباء وأخبار ، أو نمامًا يريد الفتنة بين الناس ، من أجل الحصول على عرض دنيوي زائل ، ولا يمنع أن يكون المسلم مفتاحًا للخير مغلاقًا

---

١ عيونه : أي رجاله وحرسه وجواسيسه ، مختار الصحاح – ص ٤٦٦

٢ مختصر تفسير ابن كثير – ج ٣ / ٣٦١ ، سورة الحجرات

٣ أسباب النزول للسيوطي ، سورة الحجرات ، ص ٣٨٩

للشر، يسعى بالأقوال الطيبة الصادقة ، ويكون أهلاً للثقة والأمانة في النقل والأداء، بعيدًا عن مظان الشك والهوى .

ثم تأتي الآية السابعة من السورة لتؤكد ما اشتملت عليه الآية الأولى من السورة نفسها من الأدب الإلهي للمؤمنين ، وذلك من عدم التقدم بالرأي والمشورة بين يدي الله ورسوله لأن ذلك مناف للإيمان الذي اتصفوا به ، والطاعة التي انقادوا بها لله ورسوله ، فجاءت هذه الآية لتزيد المعنى ايضاحًا ، فقال تعالى : **﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾** .

بعد أن نهى الله المؤمنين من أن يعزموا على معاقبة من خالف حكم الله ورسوله بمجرد الخبر المنقول ، وأن عليهم التثبت والاستبصار والتدبر لكل نبأ وناقلة، بين لهم في هذه الآية إنه عليم بحالهم في السر والجهر ، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم ، فأنبأهم بمسارعتهم ساعة أنبأهم الوليد بن عقبة عن امتناع القوم عن دفع الصدقة ، فما كان منهم إلا أن يباغتوهم بالقتل والعقوبة ، كل ذلك وهم بين يدي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وكان من الأدب أن يتركوا الأمر لله ورسوله ، وينتظروا ما يقال لهم ، ويقدموا على ما يؤمرون به ، ولذلك جاءت الآية تذكرهم بمقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم وحقه عليهم في التوقير وإرجاع الأمر إليه ، وعدم الإذعان لرأي يرونه ويحسبونه دفاعًا عن الإسلام ، والذود عن حماه ، وهو لم يصدر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يرجع إليه فيه ، ثم بين لهم الله أن الرسول لو أطاعكم فيما رأيتموه من رأي لوقعتم في الإثم والعنت والشدة ، ولكن الله اختاركم لصحبة نبيه ، فهداكم إلى الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره لكم سلوك الكفار والفساق الذين لا يقدرون أمرًا ولا يطيعون قائدًا ، ولكنكم مؤمنون بدعوة نبيكم إليكم ، فيجب أن تطيعوه حتى تكونوا راشدين مهديين .

وإن كان هذا التوجيه الإلهي لعباده المؤمنين ، وهم بين يدي الرسول -

صلى الله عليه وسلم – ، فهو باق ونافذ مع كل من وجدت فيه صفة الإيمان ، والإنقياد لله ورسوله إلى يوم القيامة ، فلا يجوز للمسلم تحت أي حال من الأحوال أن يتصرف في أمر يخص دينه وآخرته إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ليتحاكم إليهما ويحكمهما في أمره ، وكم ما بين المسلمين من خلاف سببه النميمة، وقول السوء ، واتباع الظن ، وما تنزع إليه النفس بعيدًا عن أمر الله ونهيه ، ومن يفعل ذلك فليس بمؤمن متأدب ولا مؤمن رشيد .

وكأنما الآية الثامنة من السورة جاءت لتحرك القلوب الممتلئة بالإيمان على أنها في فضل ونعمة من الله ، لا ينالها إلا من هداه الله إلى هذا الإيمان فسلم أمره إليه في أي منقلب عاش فيه ، فهو ينعم برحمة الله ونوره غير متخبط ولا يائس .

ثم جاءت الآية التاسعة من السورة نفسها لتعرض على المسلمين نموذجًا فريدًا من الأدب في حالة النزاع والخصام ، وهم أحوج ما يكونون في هذه الفترة لمثل هذا الأدب لرأب الصدع ، وكف الخلاف .. فقال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتي تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ .

وكأن الله أنزل هذه الآية تعقيبًا وبيانًا للمعنى الذي نزلت به الآية السادسة من السورة ، وهو الركون إلى خبر الفاسق ، والاندفاع إلى إيقاع العقاب دون ترو ولا إمهال ، وإنما ذلكم الخبر لا يأتي على المسلمين إلا بالمصائب والويلات ، ولا يثير إلا الخلل والاضطراب ، وهذه كلها عوامل تجعل المجتمع الإسلامي في حالة التفكك والخلاف، والتدابر والخصام ، وعندئذ لا يهتم المسلمون بأمر دينهم ولا ينفعون بعضهم البعض بل كل فرد منهم يعمل على الايقاع بأخيه في أي لحظة تسنح له ، ولا يتمنى الخير إلا لنفسه وحسب ، وهذا الذي حذر الله منه في هذه الآية ، فإذا وجد الخلاف بين المؤمنين واشتد فيهم النزاع وآل أمرهم إلى الحرب والقتال ، فلا يجوز للمسلمين أن يتركوا إخوانهم على هذه الحال ، إلا بالقيام

بالصلح ، والأخذ على يد الظالم ، ومنعه من التعدي على الحقوق، والحكم بين المتخاصمين بالعدل الذي بينه الله سبحانه وتعالى في كتابه ووضحه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سنته المطهرة ، ودعوة الخصم إلى الحكم الإسلامي ، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، والأية تصف الطائفتين المتقاتلتين بالإيمان و وهذا يدل على أن الخلاف أمر طبيعي ، ويحدث حتى بين المؤمنين ، ولكن الفارق بين المؤمنين وغيرهم من طوائف الكفر ، أن المؤمنين إذا دعوا إلى كتاب الله لإنهاء خلافهم بموجبه أذعنوا وانقادوا ، ولا تأخذهم العزة بالإثم ، ولا يأخذ الغرور معتديهم على صاحبه ، فخلاف المسلمين ليس فيه غالب ولا مغلوب، ولكن العدل والحق أينما دار دار معه المسلمون من غير تحيز ولا جور ، والآية كذلك تتضمن قاعدة جليلة في الصلح وشروطه ، إذا قام بين الطوائف المتحاربة من المسلمين ، وهذا نجده مبسوطًا في كتب الفقه فليرجع إليه .

وما من خلاف إلا ووراءه سبب أجج ناره وأثار غباره ، وإذا ذهبنا نستطلع أسباب النزول لهذه الآية نجدها كثيرة ، ذكر منها الإمام السيوطي في كتابه (أسباب النزول)[1] ، ما أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي مالك ، قال : تلاحى[2] رجلان من المسلمين ، فغضب قوم هذا لهذا ، وهذا لهذا ، فاقتتلوا بالأيدي والنعال .. فأنزل الله الآية : ﴿ **وإن طائفتان ...** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ، قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد ، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها ، فحبسها زوجها وجعلها في علية له ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها، وكان الرجل قد خرج ، فاستعان بأهله . فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال[3] ، فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ...** ﴾ ، فبعث إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ، فأصلح بينهم ، وفاءوا[4] إلى أمر الله .

١ أسباب النزول للسيوطي ، سورة الحجرات ، ص ٣٩٠

٢ تلاحى : اختلفا وتنازعا – مختار الصحاح ، ص ٥٩٥ .

٣ اجتلدوا : تضاربوا ضربًا يشبه الجلد بالسوط – المصباح المنير ، ج ١ / ١٠٤

٤ فاءوا : رجعوا إلى الحق – المصباح المنير ، ج ٢ / ٤٨٦

ومن يمعن النظر ويعمل العقل في هذه الأسباب ، يجدها واضحة في الحياة العادية بين المسلمين في الوقت الحاضر ، كأن القرآن أنزل اليوم ، فكم وكم من خلاف ونزاع وخصومة وتدابر وقطيعة رحم ، والأسباب كلمة بذيئة تمس المسلم في عرضه ، أو تصرف خاطئ سريع نتيجة الغضب والحماقة ، يؤدي بحياة الأسر، ويقطع أواصر الرحم والقرابة ، أو خبر برجم الغيب ، يشعل نار الفتنة بين القبائل والمجتمعات الإسلامية ، وكل ذلك بأسباب ترك التمسك بآداب الكتاب والسنة ، وعدم الاهتمام بالواجب الملقى على عاتق كل مسلم تجاه إخوانه المسلمين في حالة النزاع والخصام .

وكأن الآية العاشرة من السورة ، جاءت لتؤكد معنى الواجب الفردي والجماعي على أفراد المجتمع الإسلامي ، تجاه الموقف المتأزم من عدم الاستمرار فيه ، والحيلولة بين الأطراف المتنازعة ، وما يبغيانه من التسلط والتعدي بحق أو بغير حق ، وذلك بدعوة الطرفين إلى الصلح ، وإرجاع الحق إلى نصابه ، ولا يتم ذلك إلا بتوسط الإخوة المسلمين من فريقي النزاع بحكم الإيمان الذي دخلوا فيه ، وثبتوا عليه ، فأعطاهم حق الولاية من كل مؤمن على أخيه ، قريبًا كان أو بعيدًا ، لأن تقوى الله تلزمهم بذلك ، وترشدهم إلى التناصح والتعاون ، لا إلى الفرقة والتناحر ، إذا أرادوا رحمة الله تنزل عليهم ، وسكينة الله تشملهم وتحيط بهم .

لهذا يذكرهم الله بإخوة الإيمان أن يسارعوا إلى إخوانهم المتخاصمين فيصلحوا بينهم ، ويتقوا الله في مراعاة العدل ، ومنع الظالم من الاستمرار في ظلمه ، والترصد إلى أخيه .. قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ .

ثم تأتي الآية الحادية عشرة من السورة لتزيد الأمر وضوحًا وبيانًا في مجال الآداب الاجتماعية ، ولكن في هذه المرة تتناول الآية حقوق الفرد على الجماعة ، كأنما يريد الله أن يبين الحقوق الشخصية لكل فرد في المجتمع ، وأنه من حقه أن تصان حقوقه ويحافظ عليها من قبل إخوانه، فلا يخدش حياؤه ولا يفشى سره في غيبته ، ولا يذل أو يهان ، ولا يذم أو يشتم ، في ظاهره وحضرته ، فقد جمعت الآية

نماذج من السقطات والمساوئ، إذا تعاطاها المسلمون فيما بينهم أفسدت علاقاتهم وأوغرت قلوب بعضهم على بعض ، ووضعت فيهم التناحر والخلاف ، وليس من الأدب أن يرتبط المسلم مع أخيه المسلم برباط الإيمان والتقوى ، فيبني معه علاقة حسنة في يوم ، ويسعى إلى هدمها في يوم آخر ، وبنيان المجتمع الإسلامي لا يتراص ولا يتلاحم إلا بالتواد والتراحم ، والإسلام لا يريد من أتباعه إلا أن يكونوا متحابين متعاونين ، تسود بينهم روح التقدير والاعتزاز لبعضهم البعض ، ملتقين حول مبدأ واحد ، وهو الإسلام .. أفضلهم من كان تقيًا لله ، ولو كان عبدًا مملوكًا، وحقيرهم من زاغ قلبه عن الدين ومالت نفسه إلى الهوى والشيطان ، ولو كان بينهم نسيبًا حسيبًا ، والمؤمنون نفس واحدة وكيان واحد ، إذا عيب فيه فرد ، وقع العيب والشقاء على المجموعة ، وأن مجتمعًا لا يأمن الفرد فيه على كرامته ، ولا يمشي بين الناس مرفوع الرأس عد مجتمعًا مفككا مخلخلا ، يعشش الجهل فيه ، وتضرب العنكبوت فيه بيتها ، وأن أوهن البيوت لبيت العنكبوت .

والآية حين تعدد هذه المثالب ، كأنما تشير إلى المؤمنين المخاطبين بهذا الوصف ، أن احذروا أن تكون فيكم هذه العيوب وأنتم مؤمنون ، تتلون الكتاب ، وتنتهجون طريق الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، بل لا بد من أن تتأدبوا بما فيهما من آداب في مقابلاتكم لإخوانكم ونداءاتكم لهم بأحب ما تريدون أن ينادى عليكم ، وأن لا يعيب أحدكم على أخيه لا بقول ولا بعمل ، إلا ما يمليه عليكم دينكم من إسداء النصيحة والمشورة إذا طلبت ، وكونوا عباد الله إخوانًا متحابين .

وما السخرية والاستهزاء واحتقار الناس وتلقيبهم بأسماء وألقاب فاحشة لإضحاك الناس عليهم ، والتقليل من شأنهم وحط قدرهم بين الناس ، ما ذاك إلا ضرب من الفسق والفجور ، صاحبه مجانب للإيمان ، وحائد عن الطريق الصحيح، وقد ذكّر الله عباده المؤمنين بأن ميزان التفاضل بين الناس عند الله وليس بين البشر ولا على الأرض ، ولعل المسخور منهم والمستهزأ بهم والملقبين بألقاب خاصة ، لعلهم عند الله أفضل ، من أولئك الذين لا همَّ لهم في الحياة الدنيا إلا التلاعب بكرامات الناس والانشغال بعيوب المسلمين.

وختم الله الآية بالتحذير الشديد لمن لم يتب ، ويرجع عن السير في هذا الطريق المعوج ، انه ظالم متجاوز للحد ، لا يأمن أن يأتيه العذاب بين لحظة وأخرى، ثم كيف يسعى المسلم إلى التقارب مع أخيه المسلم وهو يسبه ويشتمه ويسخر منه ، أليس هذا يعد سفهًا في العقل ونقصًا في الدين ؟ .. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ .. ومن هدي السنة المطهرة ما ورد في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر** »[1] .

نعم ، توجيه السلاح من المسلم على المسلم كفر ما بعده كفر ، لا يقدم عليه إلا من لا يلتزم بشرع الله ومنهجه ، وما بعد الكفر من ذنب ، وما بعد أدب القرآن إلا ظلمة الجهل وخسة النفاق ، وما أشبه أيامنا بساعة نزول الآية الكريمة المتقدمة، فما من رقعة دخلها الإسلام إلا وأهلها يقتتلون كل يوم ، وكأن حرب الجاهلية بينهم ولدت من جديد، وكم من مسلم جعل من لسانه سيفًا مسلطًا على أعراض الناس وكراماتهم ، وكم من بيوت خربت ؟ وكم من أناس شردوا ؟ وكم من فرقة وشتات ؟ ، وكأن المسلمين تحولوا من أدب القرآن إلى دعوة الكفر والضلال تحت شعار الغي والفجور ، يتمثلون بأمثال من لا دين لهم ولا خلق ، يطبقون قول الشيطان : فرق تسد !! وبين من ؟ .. بين إخوة يجمعهم دين واحد وعقيدة واحدة ، نعوذ بالله من الكفر والضلال ، ونسأل الله الرشد والسداد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه وهو يشخص لنا علاقات الناس وما تنطوي عليه سرائرهم ، :

ترى الناس أخلاطًا جميعًا وأنهم ... على ذاك شتى والهوى متفرق[2]
ترى المرء إن جالسته ذا صناعة ... وسائر ما فيه سوى ذاك أحمق
وتلقى أصيل اللب ليس صناعة ... بمخرج ما في قلبه حين ينطق

---

١ صحيح البخاري – كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر – ج ١ / ١٩

٢ الأبيات لحسان بن ثابت ، كتاب العفو والاعتذار – ج ٢ / ٥٩٠

ثم تنتقل السورة إلى نهي وتحذير شديد وأليم ، عن أمر مناف للأخلاق والآداب الاجتماعية التي يجب أن يتحلى بها أفراد المجتمع المسلم ، فمع الآية الثانية عشرة من السورة ، والتي ما زالت تبين حقوق الفرد المسلم على إخوانه المسلمين .

وإذا كانت الآية السابقة اعتنت بحقوق المسلم وهو يمارس أعماله اليومية بين إخوانه ضمن العمل الجماعي ، فهذه الآية ركزت على نوع أخر من حقوق المسلم ، فبينت أن له حقوقًا وهو بعيد عن أنظار الناس ، في داخل بيته مع أهله وأقاربه ، وفي مجلسه بين أصحابه وأخلائه ، له حرية شخصية فيما يأتي ويدع وفيما يفكر ويقول ، له ضمير يسر فيه ما لا يحب أن يطلع عليه الناس ، فجاءت الآية تنهى المؤمنين عن أن يطلقوا لألسنتهم وأفكارهم وعيونهم العنان في مراقبة الناس ، وتتبع عوراتهم وإنزال العقوبة عليهم ، بمجرد الظنون السيئة التي لا تستند على دليل ولا برهان ، وإنما تقوم على الوهم والشك .

وأدب القرآن يحتم على المسلمين أن تكون بينهم علاقات قائمة على إحسان الظن لبعضهم البعض ، والاعتقاد الصحيح في أن نوازع الخير عند كل الناس إلا ما ظهر منهم، في حالهم من إرادة الشر القائم على الدليل والبينة ، وعندئذ يحال أمرهم إلى الكتاب والسنة ، ليعالج ما فسد من أحوالهم بالحق والعدل ، دون شطط ولا وكس ، كما أن للمسلم عورات وأسرارًا يجب أن تصان من قبل أخيه المسلم ، فلذلك نهى القرآن عن التجسس ، وهو تتبع عورات الناس وسوآتهم ، وفي موضع آخر من القرآن ورد التنبيه على أن الإنسان ليس حرًا فيما يرى ويسمع ويعتقد ، بل سيحاسب على حصائد هذه الحواس، إن لم يتق الله فيها ، قال تعالى: ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾[1] .

والآية التي معنا توضح أعمال هذه الحواس السلبية ، وأثرها السيء في المجتمع وعلاقات الأفراد ، وكأنها حين تبين للمؤمنين ذلك ، توجههم وتربيهم

١ الآية ٣٦ من سورة الإسراء

التربية الإسلامية القائمة على الأدب الرفيع في عالم القيم والأخلاق ، وحين تحذرهم من الغيبة ، كأنها تشير إلى أن مثل هذا الخلق الذميم يغلب على طبع الناس في مجالسهم الاجتماعية وأحاديثهم الشعبية ، فتحذر الآية من الإقدام على مثل هذا الفعل ، فإن للمسلم حقًا على أخيه ، ومن حقه عليه أن يلتزم الأدب معه في غيابه وحضرته ، ولا شيء أضر على فساد العلاقة بين الإخوة الإيمانية من الغيبة وكلام الأخ على أخيه بما يكره في غيابه ، وليس من الأدب أن يلتقي المسلم مع أخيه المسلم بوجه حسن ، وإذا غاب عنه طعنه في خلقه بكلام بذئ ، ومن يشتغل بعيوب الناس ، يشتغل الناس بعيوبه ، وما ذاك بأدب القرآن بين المؤمنين ، ولذلك جعل الله الغيبة في منزل خطير وقبيح ليمقتها لعباده ، كي يبتعدوا عنها ، ولا تبقى فيهم إلا المودة والقول الحسن ، والذكرى الطيبة إذا غابوا ، وإذا حضروا.. لذلك قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾[1].

نعم ، من يقع في أعراض المسلمين في غيبتهم لا يشبه إلا كمن يجلس على ميتة فيتقزز طبعه منها ، ويجد غصة ولوعة إذا أكل منها ، فكما انه يجد ذلك إذا دعى إلى هذا ، فكذلك الموقف وهو ينتهك أعراض الناس وكراماتهم وحرياتهم وتتبع عوراتهم ، بغيته في ذلك التلصص على أسرارهم وإذاعتها ، ولا يحسن ذلك من المؤمنين .

وإن هذه الآية وهي تنهى المؤمنين عن التخلق بمثل هذه الأخلاق الدنيئة لتضع أسس وقواعد الحرية الشخصية ، أو ما يسمى في الوقت الحاضر بـ (الديمقراطية) ، وحاشا وكلا أن تشبه أو تتماثل قواعد القرآن وآدابه ، مع هاتيك الأفكار النابعة من الأرض والتي يقودها التعسف والهوى في أي عصر أظلته ، وفي أي أمة تغشتها ، ولكن قيم القرآن وقواعده إلهية المصدر ، تتميز بالحكمة

---

١ الآية ١٢ من سورة الحجرات

المطلقة والفاعلية التامة ، فما من مجتمع تشيع بين أفراده مثل هذه الرذائل ، كالغيبة والتجسس وإساءة الظن بالناس ، إلا كان مجتمعًا مفككا ، خاليًا من الأمن والأمان ، ولو سادت فيه مبادئ الديمقراطية الأرضية المزيفة .

وان السنة وهي شارحة للقرآن ، ومبينة لأحكامه وقواعده ، لتزيد البيان وضوحًا حول معنى هذه الآية على لسان المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من خلال توجيهاته لأمته ، وتربيته لهم التربية الأدبية الرفيعة ، التي لا يعلم بها مثيل في مجتمع من مجتمعات الأرض ، التي تزعم المدنية والرقي والتطور ، من ذلك ما رواه سفيان الثوري عن راشد ابن سعد عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « **إنك أن تتبعت عورات الناس ، أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم** »[1] .

وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « **الغيبة ذكرك أخاك بما يكره** » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** »[2] .

وهكذا يختتم هذا التوجيه الإلهي في الاية بالمسارعة إلى التقوى والخوف من الله ، والتوبة إليه فإنه يقبل التوبة من عباده المؤمنين ، إذا عادوا إليه بنفس نادمة وقلب محاذر ، فإنه سيرحمهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويرضى عنهم ويهديهم سبل السلام .

ثم يتنزل النداء الإلهي في الآية الثالثة عشرة من السورة حاملا أروع المبادئ الإنسانية على سطح الكرة الأرضية ، فبعد أن كانت السورة قد ابتدأت بخطاب المؤمنين في كل آية مرت حتى هذه الآية ، مما انتقل الخطاب فيها من نداء المؤمنين إلى نداء الناس كافة موحدين وكافرين ، وثنيين وصابئة ، تناولهم النداء الإلهي في

١ سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب النهي عن التجسس - ج ٤ / ٢٧٢

٢ سنن أبي داود كتاب الأدب ، باب في الغيبة - ج ٤ / ٢٦٩

هذه الآية ، وكأن الله يذكر ذوي الأذهان والعقول ممن هداهم إلى الإيمان به وتوحيده ، ومن غلبت عليهم شقوة الكفر وطاغوت الغي والضلال ، انهم خلقوا من أصل واحد ، ومن نفس واحدة ، فهم وإن اختلفوا في مبادئ العقيدة فهم مشتركون في مبدأ الخلق والأصل ، وهو مبدأ الإنسانية التي هي أصل كل الأجناس والألوان واللغات البشرية ، فالأبيض إنسان ، والأحمر إنسان ، والعربي إنسان ، والعجمي إنسان ، والشريف إنسان ، والوضيع إنسان.. فالأصل واحد وإن تباينت الفروع والأوراق ، ثم بين سبحانه وتعالى أن ما من إنسان إلا جاء من ذكر وأنثى ، وأن اختلاف الناس في الجنس واللون واللغة لا للتشريف والتفضيل، ولكن للتعارف والوصال ، والتقارب والتواد والتعاون والتراحم ، فأصلكم واحد ، وأمتكم واحدة ، وربكم الذي خلقكم واحد سبحانه وتعالى ، فعلام هذا التفرق والتخاصم !! ومن أجل ماذا هذا الاختلاف والتدابر ، هب أنكم مختلفون في الألوان والطباع ، والمواهب والاستعدادات ، والألسنة والعادات ، فليس هذا هو المقصود من خلقكم على هذا النسق ، بل الغاية من ذلك جعلكم شعوبًا وقبائل متباعدة في المسافات ، متباينة في الجسوم والشخصيات ، والعقول والمدركات ، والألوان واللغات ، من أجل أن تعمر بكم الأض ، وينفع بعضكم بعضًا ، عن طريق التعارف والتآلف ، والاجتماع والتعاون ، وكي تنهضوا بجميع التكاليف وأعباء الحاجات ، التي يتأسس عليها المجتمع ، وتقوم عليها الأمة ، فكأنكم سلسلة ذات حلقات لا تكتمل إلا بتراص حلقاتها ، ولا تكون نافعة إلا بوضع كل حلقة فيها في الموقع اللائق بها ، والتي لا يسد مكانها غيرها ، هذه هي الغاية من تباين البشر في الفروع واتحادهم في الأصل .

والغاية من هذا الالتفات والتحول في الخطاب القرآني من نداء المؤمنين خاصة ، إلى نداء الناس عامة ، هو الاهتمام بالإنسان لإنسانيته التي تميزه عن سائر المخلوقات المحيطة به في الوجود من ناحية ، وإنسانيته التي هي العامل المشترك بينه وبين الجنس الذي ينتمي إليه ويعيش في وسطه من ناحية أخرى ، حتى لا يكون له قيمة أو ميزة يتفاضل بها على أخيه الإنسان ، وقد جمعهما أصل

واحد يجب أن لا يختلفان عليه بل يجتمعان ، فلا فوارق ولا طبقات بين الناس على هذه الأرض ، لأن الله لم يجعل مثل هذه الفوارق ، هي ميزات التفاضل عنده ، وحيث أنهم راجعون إليه ، ومحاسبون على ما يفعلون ، ومجزيون بالخير خيرًا وبالشر شرًا ، جعل ميزان التفاضل والكرامة عنده سبحانه وتعالى التقوى ، وهي الإخلاص في عبادته ، والانقياد لحكمه واتباع رسله ، والاستعداد للقائه.. فمن كان في الدنيا تقيًا ، فعند الله كريمًا ولو كان بين الناس وضيعًا ، ومن كان ظالمًا لنفسه كافرًا بربه ، فهو عند الله وضيعًا ولو كان بين الناس كريمًا .. فلا عصبة للون ولا جنس ، ولا انتماء إلى قومية ولا لسان ، ولا انضواء تحت لواء من ألوية الكفر ، ولكنه التنافس في توحيد الله وعبادته وفعل الطاعات واجتناب المنهيات ، والتحاكم إلى كتاب الله ، والابتعاد عن التكبر والغرور على عباد الله ، والحذر من تحقيرهم بدافع الحسب والنسب أو الجاه والغنى ، وعدم الميل إلى الباطل بدافع العصبية إلى القبيلة والقرابة والعشيرة ، فإن الحق أحق أن يتبع ، وما هذه الأمور إلا من ضرب الجاهلية العمياء التي ردت الحق ، وأبت إلا أن تعيش على الباطل ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، وباءت بغضب من الله ، لذلك جاء النداء إلى البشرية كافة ليكون توجيهًا مؤدبًا للإنسان بغض النظر عن لونه وجنسه وقبيلته ونسبه ، ثم ليكون داعيًا للناس إلى التعارف والاجتماع ، ونبذ الخلاف والافتراق ، فإن الله عليم بخلقه ، خبير بما يعملون .. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ .

ومن أسباب نزول هذه الآية ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مليكة قال[1]: لما كان يوم الفتح رقى بلال على ظهر الكعبة ، فقال بعض الناس ، أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة ! إن يسخط الله هذا يغيره .. فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ الآية . وقال ابن عساكر في مبهماته: وجدت بخط ابن بشكوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسيره أنها نزلت في أبي هند ، أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بني بياضه أن

١ أسباب النزول للسيوطي ، سورة الحجرات ، الآية ١٣ / ص ٢٩٣

يزوجوه امرأة منهم . فقالوا : يا رسول الله نزوج بناتنا موالينا؟ ، فنزلت هذه الآية.

وعلى أية حال ، فإن مثل هذه الأسباب قد تكون موجودة بشكل طبيعي في النفس الإنسانية ، ومتوفرة في كل عصر وفي كل مجتمع ، ولكن المجتمع الإيماني الذي صنعه الله على عينه لا بد أن يتكيف مع هذه المتغيرات الفطرية استجابة لله الذي أمر بذلك ، ليكون مجتمع القدوة والمثال لمجتمعات الأرض الدعية على التطور والتحرر والديمقراطية وهي لا زالت تمارس مبادئ التفرقة العنصرية في أنظمتها الاجتماعية والسياسية .

وقد جاء التوجيه النبوي الشريف مؤكدًا لما في الآية من معاني الإنسانية متجاوزًا حدود المعايير الأرضية إذا ما توفر في الإنسان شرطان لا غير وهما الدين والأمانة ، فالأول علاقة العبد بربه ، والثاني علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، قال – صلى الله عليه وسلم – : « **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض** »[1] .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : « **إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي وفاجر شقي ، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن** »[2] .

وهكذا نجد أن المؤمن هو الذي يضع رضا الله فوق كل اعتبار في الدنيا ، لكي ينال المرتبة العالية في الآخرة ، ولا بد أن يلتزم بما أمر الله به من توجيه وأدب حتى يكون مؤمنًا صحيحًا .

ثم تختتم السورة الكريمة بخمس آيات في وحدة موضوعية ، تعالج أمرًا واحدًا ، ابتدأ الله سبحانه تعالى خطابه من أول السورة حتي الآية الثانية عشرة ، كأنه جاء تمهيدًا واجمالا لتفصيل وبيان للآيات الخاتمة للسورة لما له من عظيم

---

١ مختصر صحيح سنن الترمذي ، باب فضل التزويج والحث عليه ، ج ١ / ٣١٥ – ح : ١٠٩٧

٢ سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب التفاخر بالأحساب ، ج ٤ / ٣٣١

الشأن عند الله سبحانه وتعالى ، ولما له من أهمية بالغة في الدقة والاتقان عند من أراد أن يتقيد به ويتلازم معه ، ألا وهو موضوع الإيمان ، وحقيقته وآثاره ومستلزماته ، وما بينه وبين الإسلام من فروق ، كل ذلك بينه الله سبحانه وتعالى في خاتمة السورة ابتداء من الآية الرابعة عشرة حتى الآية الثامنة عشرة ، وهي الآية الخاتمة لسورة الحجرات .

فبعد أن بين الله لعباده المؤمنين تلك التوجيهات والآداب التي يجب أن يتلزموا بها ويطبقوها فيما بينهم إذا أرادوا أن يحيوا حياة كريمة آمنة خالية من الشقاق والخلاف ، نظيفة في العمل والتعامل ، صادقة في التعاون والتآخي ، حريصة على مراعاة الحقوق والواجبات ، تلك الحياة التي تقوم على الإيمان ، ذلك الوصف الذي نادانا الله به على مدى آيات السورة ، كأنه يؤكد علينا ويجسد فينا هذا الإيمان لنثبت عليه ، أحياءً وأمواتًا ، حتى نقدم عليه ونقف بين يديه ، فيفصل بيننا ، وهو خير الفاصلين .

ولما كان هذا الإيمان وصفًا دقيقاً للمسلم ، فليس كل مسلم ينطبق عليه وصف الإيمان ، بل لا بد لهذا الوصف من ضوابط ، وحدود ، وشروط ، وأركان ، إذا ما توفرت في المسلم أصبح مؤمنًا بحق وصدق ، ثم إن هذا الإيمان لا يكتسب بالتمني والإدعاء ، بل لا بد أن تثبت حقيقته في القلب، وتظهر آثاره على الجوارح ، ويصدق اللسان في ترديده والنطق به، حيث أنه درجة فوق الإسلام ، تعين على كل من أراد أن يتصف به أن يكون أهلاً له عن طريق الالتزام بشروطه والتطبيق لأركانه ، فليس كل من دخل في الإسلام كان مؤمنًا . من أجل هذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يصحح المفهوم الإيماني عند المدعوين به في أقوالهم وأفعالهم التي لا تمت إلى هذا الإيمان بصلة ، فنفى الله عن قوم الإيمان لما لم تثبت حقيقته في قلوبهم ، ولم تظهر آثاره على أعمالهم ، فقال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وأن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئًا إن الله غفورٌ رحيم** ﴾ .

قيل أن الأعراب[1] المذكورين في الآية هم أعراب بني أسد وهم أهل بادية ، فأول ما دخلوا في الإسلام جاءوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلين له: آمنا – وكأنهم يمنون عليه بإيمانهم هذا ، أنهم أسلموا، ولم يقاتلوه كما قاتله العرب – ، فأراد الله سبحانه وتعالي أن يعلمهم حقيقة ما هم عليه ، وما يدور في نفوسهم ساعة دخولهم في الإسلام وقولهم هذا القول ، إنهم ما دخلوا في الإسلام إلا استسلامًا ، وأما الإيمان فلم يدخل في قلوبهم بعد ، ولم تتشربه أرواحهم بعد، فكأن الله يرد عليهم ، أن الذي أنتم عليه يسمى إسلامًا ، وأما الإيمان فهو غير هذا ، وان طاعتكم لله ورسوله لن يضيع أجرها وثوابها ، حتى ولو لم تكونوا مؤمنين ، فإن الله سوف يوفيكم أعمالكم ، وتأخذون أجوركم من غير نقص ، وأن الله رحيم بعباده يكافئ بالكثير على القليل ، ولكن الله يريد من عباده أن يكونوا مؤمنين لا مسلمين فحسب ، لذا بين الله لهؤلاء الناس حقيقة الإيمان ، ووصف أصحابه فقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

ذلك هو الإيمان الحقيقي الذي إذا وقر في القلب ، واستقر في النفس ، ولم يختلط بشيء من الشك والريبة ، ولم يلتبس بوهم أو ظن ، بل يكون صاحبه معتقدًا تمام الاعتقاد بأنه لا بد أن يقر بواحد في عبوديته وألوهيته وربوبيته ، لا يصرف شيئًا من أمره إلا إليه ، هذا الواحد هو الله سبحانه وتعالى ، فإذا كان هذا الاعتقاد والإيمان بهذه الصفة استحق أن يكون المتصف به مؤمنًا ، وحين يكون هذا الإيمان وازعًا وموجهًا لصاحبه في عبادته وعمله ، يستجيب المؤمن بموجبه لنداء ربه دون تردد أو تأخر ، فإنه يستحق أن يوصف بأنه مؤمن حقيقي صادق في إيمانه ، يحيا على كلمة التوحيد ، ويعيش في منهج الحق والعدل الرباني ، لا تضره جعجعة الجهال ، ولا تثنيه عن عزمه تهديدات البغاة والطغاة من سكان الأرض وشذاذ الأفاق .

---

١ في ظلال القرآن ، ج ٦ / ٣٣٤٩

ثم يزداد الأمر وضوحًا حول حقيقة الإيمان من معنى الآية التالية من السورة نفسها، فيقول تعالى : ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم** ﴾ .

يوجه الله هذا القول إلى الذين قالوا آمنا ، وهم في الحقيقة لم يؤمنوا ولكنهم أسلموا ، وكأنهم يؤكدون على أنهم آمنوا – وهم أدرى بأنفسهم – ويحسبونه منة وفضلاً أن دخلوا في هذا الدين . فيرد الله عليهم في هذه الآية أنكم لستم أعلم من الذي خلقكم من العدم إلى الوجود ، فهو الذي يعلم حقيقة دخولكم في هذا الدين ، وأن علمكم بأنفسكم يعتريه النقص والجهل ، ولكن علم الله يحيط بكل شيء ، وكامل لكل شيء ، فهو يعلم ما في السموات من غيب ، وما في الأرض من غامض خفي ﴿ **لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض** ﴾[١] ، وليس علمه بالشيء كعلم عباده ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[٢] وكأنما جاءت هذه الآية ردًا على من يدّعي لنفسه علم كل شيء ، وهو في الحقيقة لا يعلم شيئًا من كل شيء ، ولا يعلم الإنسان إلا حين يعلمه الله ، ولا يتصرف إلا بإرادة من إرادة الله، ويحسن بالمؤمن أدبًا مع خالقه ومعلمه ، أن لا يدّعي لنفسه علمًا دون تعليمه وفضله ومنته عليه ، ويحسن بالمؤمن أدبًا أن يتواضع بعلمه لعباد الله طلبًا لما عند الله من الأجر والمثوبة ، فإن من تواضع لله رفعه الله ، وحببه عند خلقه .

ويحسن بالمؤمن أدبًا أن لا يتكبر بعلمه على خالقه ، فينقلب بعلمه جاهلاً بعد علم ، ضالاً بعد هدى ، ولما كان الإيمان أمره عظيم عند الله سبحانه وتعالى ، توالت الردود من الله العالم بالنفس وما تنطوي عليه من شعور وهواجس ، وهي تزعم أنها مؤمنة، وتمتن بإيمانها على خالقها ، وهي المحتاجة إليه ، وليس هو المحتاج إليها ، ويجيئ الرد في هذه الآية كأنما يضيف شيئًا قد غاب عن النفس الإنسانية ، ألا وهو أمر الهداية إلى هذا الإيمان ، وأن النفس الإنسانية قبل أن تدرك حقيقته وتطعم حلاوته وتختلط بآثاره ومؤثراته ، كانت هذه النفس خبيثة

١ الآية ٣ من سورة سبأ

٢ الآية ١١ من سورة الشورى

جاهلة ، ضالة ضائعة لم تدرك الغاية من وجودها علي الأرض إلا كما أدركها الحيوان البهيم ، انه كتلة مادية لا همّ له إلا أن يطعم ويسقى كي يصبح لقمة سائغة لغيره من آدمي أو طير أو دود ، وليس وراء ذلك شيء ، والإنسان قبل أن يهتدي إلى معرفة خالقه لا تفرق حياته عن حياة الحيوان ، يتعايش مع غيره ماديًا، ويتصرف مع نفسه ماديًا ، ويتناقش مع فكره حسيًا وماديًا ، وكأن ما غاب عن حسه لا وجود له ، فالحياة عنده مادة ، إذا أخافه شيء حسي عبده خوفًا منه ، وإذا نفعه شيء حسي عبده حبًا ورغبة فيه ، لا يرتبط بما حوله بقانون القيم والأخلاق ، ولا يتصل في عبادته إلا بأوثان وأشخاص وصور وتجسيمات ، فكان إدراكه وتصوره ضيقًا محدودًا بالنسبة للوجود الذي يعيش فيه ، ولما فتح الله بصيرته ، وشرح الله صدره ، وأزال عن قلبه ركام الجهل وزيغ الباطل ، وهداه إلى الإيمان به وعرفه له ، فرجع إلى الله مستسلمًا له دون إكراه ، طائعًا له دون اجبار ولا قسر ، أنبرى هذا الإنسان يمتن بدخوله في هذا الدين على خالقه وعلى الرسل التي جاءت تدعوه إليه .. فبين الله هذا المفهوم الخاطئ عند كثير من الناس ، أن الذي يجب أن يمتن هو الله سبحانه وتعالى الذي له الفضل والمنة على الإنسان ، أن هداه لهذا الإيمان ، وذلل العقبات الموصلة إليه ، ولولا هداية الله لعباده المؤمنين، لظل الإنسان في جهل وحيرة وضلالة وكفر ، وهدية الله لعباده المؤمنين هو الإيمان ، فإن الحياة وما فيها من زخرف ومتاع يهبها الله لكل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا ، ولكن الإيمان لا يهبه إلا لمن أراد هدايته وإسعاده في الآخرة ، وهذا هو الفارق بين الكافر والمؤمن ، فمن أدرك أن غاية وجوده في الحياة الدنيا عبادة الله هداه الله إلى عبادته ، ومن عمى عنده هذا الإدراك ، وسلك سبيل الغي والهوى ، واستجاب لدعوة الشيطان فضل وأضل ، حجبت عنه وسائل الهداية الإيمانية لأمر شاءه الله وقدره، حيث أنه لو كان هذا الإنسان في قدر الله وعلمه يستحق الهداية إلى الإيمان لهداه ، ولكنه أخلد إلى الأرض فغوى وفسد ، فاستحق الشقاء والعذاب في الآخرة .

وهذا ما دلت عليه الآية الأخيرة من سورة الحجرات ، إذ يقول تعالى : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

وهكذا نرى أن سورة الحجرات قد استجمعت الآداب والتوجيهات التي تنبثق من دائرة الإيمان بالله ، والطاعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وان من أدرك حقيقة هذا الإيمان ، واستقر في قلبه وخالط روحه ، جاء عمله خالصًا وصادقًا ، وعاش بنفس صافية وراضية ، وتعامل مع غيره بأدب وخلق ، واستحالت شخصيته إلى قيم ومثل رفيعة عالية ، وأصبح سلوكه مع ربه ومع الناس سويًا مرضيًا .

فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأهدنا وأهد بنا وعلمنا ما ينفعنا ، وأنفعنا بما علمتنا ، إنك أنت الهادي إلى سواء السبيل .

ثانيًا : تعريف الخصومة

أ – مفهوم الخصومة لغةً واصطلاحًا :

ذكر صاحب اللسان[1] في مادة (خصم) ما بيانه :

الخصومة : الجدل ، خاصمه خصامًا ، ومخاصمة يخصمه خصمًا ، إذا غلبه بالحجة.

والخصومة : الإسم من التخاصم والاختصام ، يقال اختصم القوم وتخاصموا .

خصمك : الذي يخاصمك ، وجمعه خصوم ، وقد يكون للإثنين والجمع المؤنث.

والخصيم : كالخصم ، والجمع منه خصماء وخصمان ، والخصم يصلح للواحد والجمع ، والذكر والأنثى .

ورجل خصيم : بمعنى (جدل) على النسب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **بل هم قوم خصمون** ﴾ ، وأخصمت فلانًا : إذا لقنته حجته على خصمه .

والخصم الشديد الخصومة ، كقوله تعالى : ﴿ **بل هم قوم خصمون**﴾.

والخصيم : الذي يخاصم غيره ، انتهى .

وذكر صاحب المصباح المنير[2] نحو هذا القول في مادة (خصم) .

وذكر صاحب مختار الصحاح[3] نحو هذا القول في مادة (خصم) وأضاف قائلاً : الخصم بالضم جانب العدل وزاويته ، و (خصم) كل شيء جانبه وناحيته . أ . هـ .

من هذا التبيان المجمل في قواميس اللغة العربية عن مادة الخصومة يتضح لنا المعنى الاصطلاحي لهذه المادة ، بأن (الخصومة) وهي الإسم العلم على

---

١ لسان العرب ، ج ١ / ٨٤٣

٢ المصباح المنير ، ج ١ / ١٧١

٣ مختار الصحاح /١٧٧

الاختصام والتخاصم ، تفيد معنى المجادلة والمحاجة في أمر اختلف عليه المتخاصمون ، ولا توجد الخصومة إلا حيث توجد المشكلة والمعضلة من الأمور ، فينشأ حينئذ التخاصم بإبراز الأدلة والبينات من قول المتخاصمين فيما يدعيانه ، فإذا لم يقتنع أحدهما بحجة الآخر اشتدت بينهما الخصومة ، وانقلب الأمر إلى نزاع وتشاجر ، وربما يخرج عن حدود الأدب والاحترام ، لما بين الخصمين من علاقة ، وساعتئذ يكون أحد الخصمين شديدًا في خصومته ، لا يهمه إن أتى بدليل يقوم على الحق أو الباطل ، بقدر ما يهمه أن يغلب خصمه ويذله ، لا سيما من أوتي فصاحة في اللسان وقدرة على البيان ، فإنه يكون ألحن بحجته من أخيه .

والذي يكثر الجدل والمراء والمعارضة في أمر قامت الأدلة على صحته يقال عنه (خصم) ، والعرف الشائع بين العامة من الناس : أن الخصومة بمعني العداوة والقطيعة نتيجة خلاف ونزاع وتشاجر ، فيقال فلان خصم لفلان – أي عدو له – ، ويقال بين فلان وفلان مخاصمة – أي مقاطعة وشحناء – .

وإذا وجدت الخصومة بين قوم يقوم خلافهم على أمر يتعلق بمسائل العلم والعقل والدين ، ويتطرق إلى الدليل والبرهان ، يكون معنى الخصومة مجادلة ومحاجة ، أما إذا قامت بين قوم على المطالبة بحق دنيوي اختلفوا عليه ، فإن الخصومة حينئذ تكون نزاعًا وتشاجرًا ، وفي كلا الحالتين ينتهي حد الخصومة عند العداوة والقطيعة والتدابر ، حتى ولو كان الحق في جانب أحد الخصمين بالأدلة الموافقة لكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وقد وردت معاني هذه اللفظة (الخصومة) في سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في مواضع كثيرة، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في الأحاديث الشريفة التالية :

قال – صلى الله عليه وسلم – : « **إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد (الخصم)** »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان تهجد رسول الله – صلى الله

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب قول الله تعالى : « وهو ألد الخصام » ، ج ٣ /١٧١

عليه وسلم – بالليل : « **اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك (خاصمت) ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله** »[١] .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : كان الناس في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتبايعون الثمار ، فإذا جدّ الناس وحضر تقاضيهم ، قال المبتاع أنه أصاب الثمر الدمان ، أصابه مرض ، أصابه قثام وعاهات يحتجون بها، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما كثرت عنده الخصومة في ذلك : «**فأما لا فلا تتبايعوا حتى يبدوا صلاح الثمر ، كالمشورة يشير بها لكثر (خصومتهم)** »[٢] .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : « **من آذى ذميًا فأنا (خصمه)**»[٣] .

وتظهر معاني هذه اللفظة (الخصومة) حسب ما وردت في الاصطلاح اللفظي والمعنوي في كلام الفضيل بن بزوان ، لما قدم للحجاج في خلافة بني أمية – وكان شريفًا من الموالي – ، فدارت بينه وبين الحجاج محاورة، قال فيها الحجاج للفضيل : (يا فضيل. قال : نعم . قال : ألم أكرمك ؟ . قال : بل أهنتني . فقال : ألم استعملك ؟ . قال : بل استعبدتني . قال : أما والله لأقتلنك . قال الفضيل : إذن أخاصمك في دمي . فقال الحجاج : إذن (أخصمك) ، لا أم لك . قال الفضيل : الحكم يومئذ بيد غيرك . فقال الحجاج : أراك معدا لا أم لك للجواب)[٤].

وقال الشاعر[٥] :

فدافع عنه مدفع الخصم مشهدي ... وألسنة الواشين عنه لسانيا

---

١ صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب التهجد بالليل ، ج ٢ / ٦٠

٢ صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، باب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ج ٣ / ١٠٠

٣ كنز العمال ، باب في أحكام الجهاد ، الفصل الأول في الأمان والمعاهدة ، ج ٤ / ٣٦٢

٤ كتاب العفو والاعتذار ج ١ / ٢٢٧

٥ البيت ليزيد بن معاوية ، كتاب العفو والاعتذار ، ج ١ / ٦٥

وقال آخر[1] :

ولما رأى الإظلام بادرها بـــــــه   كما بادر الخصم اللجوج المحافز

من الشرح المتقدم يتضح لنا أن لفظ الخصومة ومشتقاته لا يخرج في معناه عن كونه مجادلة أو محاجة ، إلا أن هذه المجادلة تتسم بالخطورة والحدة ، كلما اتسعت دائرة الخلاف ، وحينئذ تنقلب الخصومة من جدال ومحاجة إلى نزاع ثم هجر ، وتقاطع فعداوة وبغضًا ، قد تطول وقد تقصر حسب رجوع المتخاصمين إلى الحق والرضى به .

ب - الخصومة في القرآن الكريم :

وردت مشتقات هذه اللفظة (الخصومة) في القرآن الكريم في سبعة عشر موضعًا وبيانها كما يلي :

قال تعالى في محكم كتابه العزيز :

١ - ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾ الآية ١٩ من سورة الحج .

٢ - ﴿ **قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ الآية ٢٨ من سورة ق .

٣ - ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ الآية ٣١ من سورة الزمر .

٤ - ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ الآية ٤٤ من سورة آل عمران.

٥ - ﴿ **قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفي ضلال مبين**﴾ الآيتان ٩٦، ٩٧ من سورة الشعراء .

١ البيت لشماخ بن ضرار التغلبي ، جمهرة أشعار العرب ، ج ٢ / ٨٢٣

٦ - ﴿ **ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون** ﴾ الآية ٤٥ من سورة النمل .

٧ - ﴿ **ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ الآية ٩٦ من سورة ص.

٨ - ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ الآية ٤٩ من سورة يس .

٩ - ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ الآية ٦٤ من سورة ص .

١٠- ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ الآية ٢١ من سورة ص .

١١- ﴿ **إذا دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط** ﴾ الآية ٢٢ من سورة ص .

١٢- ﴿ **وقالوا ءالهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** ﴾ الآية ٥٨ من سورة الزخرف .

١٣- ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ الآية ٤ من سورة النحل.

١٤- ﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ الآية ٧٧ من سورة يس .

١٥- ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا** ﴾ الآية ١٠٥ من سورة النساء .

١٦- ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام** ﴾ الآية ٢٠٤ من سورة البقرة .

١٧- ﴿ **أومن ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين** ﴾ الآية ١٨ من سورة الزخرف .

هذه الآيات تناولت مشتقات لفظة (الخصومة) ، وكلها تدور في نفس المعاني التي بيناها لغويًا فيما سبق ، وما من شك أن القرآن الكريم هو المصدر الأصيل لألفاظ اللغة العربية ومعانيها ومدلولاتها ، ولا يخرج الاصطلاح اللغوي للفظ الخصومة عن هذا الاطار في الآيات المتضمنة لهذه اللفظة ، ولم يبق لنا إلا أن نتبين ماذا نعني بقولنا (أدب الخصومة في الإسلام) ؟ .. هذا ما سنوضحه في المبحث التالي :-

ثالثًا - تعريف (أدب الخصومة) : باعتباره مركبًا اضافيًا.

من البيان اللغوي والاصطلاحي لمفهومي الأدب والخصومة ، يتضح لنا المفهوم الاجمالي لهذا اللفظ المركب من كلمتي : (أدب - خصومة) وهو تركيب اضافي ، إذ معنى المضاف فيه يوضح المقصود في المضاف إليه ، وهو غاية البحث وعمدته في هذه الرسالة ، وعلى منهج المتكلمين فإننا أمام مطلق مقيد ، وعام مخصص . وما نعنيه بالمطلق العام : هو الأدب قيد وخصص بالخصومة ، لكي ينتج مفهومًا محددًا لهذا المركب الاضافي لفظًا ومعنى ، ومدلولاً ، فاللفظ والمعنى سبق شرحهما في أول الفصل ، وأما مدلوله فيتضح من هذا التعريف .

أدب الخصومة في الإسلام :

هو الإلتزام والتقيد بالآداب والأخلاق والقيم الإسلامية في حالة نشوب الخلاف، والوصول إلى الحق من غير تشدد ولا تعصب ولا تحايل .

ولا يتأتى هذا السلوك إلا بالتحاكم إلى كتاب الله ، والالتزام بشرعه ، والتقيد بسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، ونهج السلف الصالح .

وإذا كانت الخصومة لا تحدث إلا نتيجة خلاف وتعارض ، فلا يندفع هذا الخلاف ولا يزول هذا التعارض إلا باتباع الطرق والأساليب المهذبة ، والقواعد المذللة والمقنعة للخصم ، مع احترام العلاقة القائمة بين المتخاصمين ، والابقاء على الود والمواصلة ، وعدم الرغبة في الانتصار تعصبًا وجهالة ، فأيما خصومة أو

مجادلة أو مناظرة إذا عاشت في جو من التثبت والحلم والفطنة ، مسترعية قواعد الأدب والحكمة ، فلا شك أنها ستؤتي ثمار الخير والبركة .

ولو عرض المسلمون خلافاتهم وخصوماتهم على ميزان العدل الإلهي، وآثروا الحق والصدق في ما يأتون ويدعون ، فالله كفيل بأن يلبسهم ثوب العافية ، ويهبهم السلامة والنجاة من الفتن المحيطة بهم ، ويرزقهم التآلف والمحبة والاجتماع ، يدًا واحدة ورجلاً واحدًا في وجه الباطل ، فليس مع الإيمان بالله ، والصدق والعزيمة، والثبات على المنهج الإسلامي الصحيح ، إلا الانتصار على النفس والهوى والشيطان من الجن أو من الإنس .

الفصل الثاني

المصطلحات ذات العلاقة بالخصومة

الجـــدل - المناظـــرة - المنطـــق

تمهيـــد :

ان القصد من إيراد هذا الفصل هو التعرف علي موقف القرآن الكريم من المصطلحات الآنفة الذكر ، من حيث ما هيتها وحقيقتها اللغوية والشرعية ، وإدراك مدى الصلة بين هذه المصطلحات وبعضها البعض ، وذلك ما إذا كانت هذه مرادفات اختلفت في اللفظ واشتركت في المعني ؟ أم ان لكل لفظ مدلولاً مخالفًا عن الآخر ؟ .. وعلى افتراض وجود الطرفين، ما موقف القرآن الكريم من كل لفظ من هذه الألفاظ وهو يتردد بين الحقيقة والواقع ؟ وما صلة هذه المصطلحات بالخصومة ؟ .

لا سيما وأننا نتحدث عن القرآن ، وكيف عالج الخلاف وقضى على النزاع الذي بين أسبابه وآثاره ، ومعلوم أن هذه المصطلحات تعد وسائط الخلاف ومنافذه عن طريقها تسود الفرقة ، ومن خلالها تبرز الطوائف والفرق ، ومن آثارها تشتيت الأمم وضياع الحقوق ، ناهيك عما تعتمد عليه من تحكيم الأهواء ، وتفضيل العقل على الشرع ، وإلباس الباطل ثوب الحق ، من غير دليل ولا برهان .

ولكن للإنصاف نقول : إذا قامت هذه المصطلحات على أساس من الشرع ، منطلقة من العدل ، متسمة بالنزاهة والأدب ، منتصرة للحق من غير حيف ولا جور، فلا شك أن ثمارها طيبة يانعة ، وآثارها مفيدة وحاسمة ، ولا غرو أن توجد هذه المنافذ بين أفراد الأمة ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل الفطنة والذكاء ملكًا لفرد دون آخر ، ولم يحتجز الفكر والمعرفة لحساب عالم دون آخر ، ولكن العقول أوعية والقلوب أغلفة ، جبلت على التباين في العلم والتعلم والإدراك والتبصر ،

وحسب المسلمين أن جمعهم الله على هدف واحد ، يؤلف بين مداركهم العلمية ، وآرائهم الفكرية وسلوكهم العملي، مع تباين عقولهم واختلاف طبائعهم ، أن دعاهم إلى عدم الاختلاف على كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث هما كل ما يصبون إليه من تحقيق العدالة في الدنيا لينالوا السعادة والفوز في الدار الآخرة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصًا له الدين** ﴾[٤].

وقد بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – منزلة السنة ، والعمل بها في كثير من أحاديثه الصحيحة ، منها :

ما رواه المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال ، قال – صلى الله عليه وسلم –: « **ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه** »[٥] – ويعني بالكتاب القرآن الكريم ، ومن رواية أبي داود والترمذي وصححه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** »[٦] ، ومن رواية الإمام مالك رضي الله عنه في الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه

١ الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة

٢ الآية ٨٩ من سورة النحل

٣ الآية ٥١ من سورة العنكبوت

٤ الآية ٢ من سورة الزمر

٥ سنن أبي داود / كتاب السنة / باب لزوم السنة ، ج ٤ / ٢٠٠

٦ ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، ج ٢ / ٦٩٠

وسلم – أنه قال : « **تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما ، كتاب الله وسنة نبيه** »[1] .

فمن خلال هذه النصوص الواضحة ، يتبين لنا أن الاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – أمان من الخلاف والفرقة ، ووقاية من الاختصام والمجادلة، وغنى عن الرأي والهوى ، ولا شك أن عدم العمل بهما يؤدي إلى التفكك والاختلاف ، والسير في طرق الشيطان وأحزابه ، وهذا ما عليه حال الأمة الإسلامية في هذه الأيام .

من هذا المدخل الموجز نستطيع أن نستوضح موقف القرآن الكريم من هذه المصطلحات وحكمه فيها ، حتى نقف على النافع منها فنعمل به ، ونستجلي الخبيث فنطرده ونحاربه ، حتى تستقيم قناة الأمة الإسلامية وتتوحد كلمتها ، فتقوى شوكتها بالحق على الباطل ، فتواجهه وتقيمه فتسعد في الدنيا والآخرة ، وتسلم من الصراعات والخلافات ، ويكتب لها التوفيق في مساعيها ومشاوراتها ، وليس ذلك على الله بعزيز .

أولاً – الجـــــــدل :

أ – مفهوم الجدل في اللغة والاصطلاح :

(الجدل في اللغة يعني اللدد في الخصومة والقدرة عليه ، وقد جادله مجادلة وجدالاً ، ورجل جدل ومجدل ومجدال يعني شديد الجدل ، يقال : جادلت الرجل فجدلته جدلا أي غلبته ، ورجل جدل – إذا كان أقوى من الخصام ، وجادله أي خاصمه والإسم منه – الجدل وهو شدة الخصومة ، وفي الحديث « **ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا** » .

والجدل : مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة بمعنى المناظرة والمخاصمة ، والمراد به في الحديث الجدل على الباطل ، وإن كان طلب المغالبة به لإظهار الحق ، فإن ذلك محمود لقوله عز وجل : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ .

---

١ موطأ الإمام مالك ، النهي عن القول بالقدر ، ص ٧٨٢

ويقال : رجل جدلٌ إذا كان شديد الخصام ، وحول قوله تعالى : ﴿ **لا جدال في الحج** ﴾ ، قال أبو اسحق ، قالوا معناه : (لا ينبغي أن يجادل أخاه فيخرجه إلى ما لا ينبغي)[1] أ. هـ.

ويقول صاحب المصباح :

(جادل مجادلة وجدالاً : إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، ثم استعمل الجدال على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق ، وإلا فمذموم[2]) أ . هـ .

يفهم من هذا الايضاح اللغوي أن هناك اشتراكًا معنويًا بين الخصومة والجدل ، فحيث توجد الخصومة يوجد الجدل والعكس كذلك ، وكلاهما ناشئان عن الخلاف والنزاع ، وقد يطلق الجدل كاصطلاح على المناقشة العلمية التي تحتاج إلى الدليل والبرهان عقليًا كان أم ماديًا ، بيد أنه إذا أطلق لا يدل إلا على المماراة والغلبة لإلزام الخصم بالاقتناع في مقام الحجة والدليل .

هذا وللجدل وجه آخر وهو (المراء) وهو يأتي عرضًا في النقاش ، ولكنه يصعد حدة الجدل إذا خلا من الدليل والبرهان ، وقد ذكره القرآن بصيغة النهي والاستثناء ، قال تعالى : ﴿ **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرًا ولا تستفت فيهم منهم أحدًا** ﴾[3] .

وقد وردت معاني الجدل ومدلولاته الاصطلاحية في لغة العرب نثرًا وشعرًا مثال ذلك ما قاله الشاعر :

تركنا أبا الأضياف في ليلة الصبا   بمرو مردى كل خصم يجادله[4]

وقال آخر :

وكان إذا قيل اتق الله حلقت   به عزة ما يستطاع جدالها[5]

١ لسان العرب ، جـ ١ / ٤١٨

٢ المصباح المنير ، جـ ١ مادة (جدل) .

٣ الآية ٢٢ من سورة الكهف .

٤ البيت للشاعر العجير بن عبدالله السلولي ، ديوان الحماسة ، جـ ١ / ٤٤٩

٥ البيت للشاعر الفرزدق ، كتاب العفو والاعتذار ، جـ ٢ / ٣٧١

ب - أسباب الجدل ودواعيه :

هناك أسباب تدعو إلى الجدل وتستوجبه ، لا سيما إذا كان الموضوع المثار فيه الجدل له أكثر من جانب ، ويحتمل أكثر من وجه في الاستدلال ، ونحن إذ نذكر هذه الأسباب لسنا بصدد البحث فيها بقدر ما نود وضعها بين يدي القارئ للإرشاد إليها علمًا بأن هذه الأسباب هي نفسها المؤدية إلى نشأة الخلاف والنزاع وهي كما يلي :

١ - الابهام والغموض في موضوع الخلاف الذي يتم الجدال عليه.

٢ - اختلاف الأهواء والرغبات لدى النظر في موضوع الجدل .

٣ - اختلاف الأمزجة والطبائع البشرية ، ومدى تأثير ذلك في إثارة الجدل والخلاف .

٤ - اختلاف الأقيسة والمعايير الإنسانية فكريًا وعلميًا وفقًا للأصول التي يستند إليها المتجادلون على اختلاف علومهم وصنائعهم .

٥ - التقليد والمحاكاة ومضارهما في غياب الدليل والبرهان .

٦ - الاختلاف في الإدراك والاستنباط في جوانب الموضوع وحيثياته يثير الخلاف المؤدي إلى الجدل والنزاع .

٧ - تبني أصحاب الرياسة والسلطان آراء غير قائمة على أدلة صحيحة مدعاة إلى إثارة الخلاف والجدل .

٨ - التعصب والانتصار لفكر فلسفي أو تقليد مذهبي أو وجهة نظر عارية عن الدليل ، كل ذلك يؤدي إلى الخلاف والجدل الحاد المفضي إلى الخصومة واللدد .

٩ - التشبث بعقائد فاسدة وأفكار غريبة في ذاتها تخالف الاعتقاد الصحيح مدعاة إلى نشوء الخلاف والجدال .

هذه الأسباب وغيرها مجتمعة تقف وراء الجدل في موطن الخلاف أينما وجد وكيفما كان ، إما وصولاً إلى الحق والتأكيد عليه وتثبيته ، وإما إرادة التغلب والسيطرة نتيجة التعصب والتشفي والجهل المغلف بالعلم والمعرفة .

جـ - موقف القرآن الكريم من الجدل :

ذكر هذا اللفظ ومشتقاته في القرآن الكريم في سبعة وعشرين موضعًا ، موزعة على الآيات حسب البيان من قوله تعالى في الآيات التالية :

١ - ﴿ **ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً** ﴾ الآية ١٩ من سورة النساء .

٢ - ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ الآية ٣٢ من سورة هود .

٣ - ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ الآية ٥ من سورة غافر .

٤ - ﴿ **وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون** ﴾ الآية ٦٨ من سورة الحج .

٥ - ﴿ **ولا تجادلوا عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا** ﴾ الآية ١٠٧ من سورة النساء .

٦ - ﴿ **يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾ الآية ١١١ من سورة النحل .

٧ - ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ الآية ١ من سورة المجادلة .

٨ - ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

٩ - ﴿ **قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ الآية ٧١ من سورة الأعراف .

١٠- ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا** ﴾ الآية ٥٦ من سورة الكهف .

١١- ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان رجيم** ﴾ الآية ٣ من سورة الحج .

١٢- ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ الآية ٨ من سورة الحج .

١٣- ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ الآية ٢٠ من سورة لقمان .

١٤- ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد** ﴾ الآية ٤ من سورة غافر .

١٥- ﴿ **فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط** ﴾ الآية ٧٤ من سورة هود .

١٦- ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

١٧- ﴿ **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال** ﴾ الآية ١٣ من سورة الرعد .

١٨- ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتًا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ الآية ٣٥ من سورة غافر .

١٩- ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ الآية ٥٦ من سورة غافر .

٢٠- ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ الآية ٦٩ من سورة غافر .

٢١- ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ الآية ٣٥ من سورة الشورى .

٢٢- ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتي إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ الآية ٢٥ من سورة الأنعام .

٢٣- ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ الآية ٦ من سورة الأنفال .

٢٤- ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ الآية ١٢٥ من سورة النحل .

٢٥- ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ الآية ٥٤ من سورة الكهف .

٢٦- ﴿ وقالوا ءألهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ الآية ٥٨ من سورة الزخرف .

٢٧- ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولى الألباب** ﴾ ١٩٧ من سورة البقرة .

هذا وقد اتصف القرآن الكريم بالاعجاز البلاغي في أسلوبه ونظمه ، ودقة ألفاظه وعمق معانيه ، فجاءت آياته بلسان قوم أميين وهي في حقيقة الأمر تخاطب أقوامًا اختلفت ألسنتهم وتباينت أفكارهم ، وتشعبت مداركهم وغاياتهم ، جاءهم هذا الكتاب يخاطب العقول بحسب ما أدركت ، فكأنه غذاء متعدد المذاق مختلف الألوان ولكنه في طبق واحد، مما جعل أسلوبه الجدلي يطرق الأسماع والأفهام ، ويثير الأحاسيس والمشاعر عبر الأدلة والبراهين التي تتدرج في الاقناع والإلزام ، فبينما نجد أسلوب الجدال شديد اللهجة مع طائفة نجده متراخيًا مع أخرى ، ويتسم بسمة الارشاد والهداية مع طائفة ثالثة ، كما يعمد إلى المجاراة والمسايرة مع الخصوم في ما يعرضونه من أدلة بغية إلزامهم الحجة من أدلتهم والوصول إلى الحق بنقض وبطلان ما يدعون .

هذا وللقرآن الكريم أنماط ونماذج في عرض الأدلة الجدلية ، فبأسلوب المثل والقياس يرد القرآن على النصارى في دعواهم في خلق عيسى – عليه السلام – فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾[1] .

كما يستخدم القرآن اسلوب (القَصَص) في الاستدلال لدحض أدلة الخصوم كما هو الحال في ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وكيف دعوهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ، ومن القصص القرآني ما يثير الاعجاب ويوقظ الضمير ويحرك الاحساس وينبه الشعور نحو الأمر المشار إليه في القصة .. مثال ذلك :

ما قصه الله في القرآن من أمر الهدهد الذي توعده سيدنا سليمان – عليه السلام – لما افتقده ، ولكن لما علم بعذره في تأخره ، أنه مر على قوم يسجدون

---

١ الآيتان ٥٩، ٦٠ من سورة آل عمران

لغير الله ، أبى إلا أن يكون أول داع إلى التوحيد ، وأول مبلغ بهذا الأمر المخالف لشرع الله لنبي الله سليمان - عليه السلام - ، فجاء ذكر قصته عبرة ودعوة ، يقول تعالى : ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين * وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾[1].

وأحيانًا يستخدم القرآن اسلوب القياس المخالف لاثبات الدليل ببطلان نقيضه كما هو الحال في اثبات وحدانية الله ببطلان تعدد الآلهة نتيجة الاختلاف المؤدي إلى الفساد ، قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[2] .

وهكذا نجد أن اسلوب الجدل في القرآن مختلف السياق متحد الهدف والغاية ، فهو حين يأمر باتباع اسلوب الحسنى في المجادلة ينهى عن الجدل بغير دليل ولا برهان ، ويرد بعنف على من يجادل في حقيقة صده الهوى عن الاعتراف بها ، والقرآن العظيم كله حقيقة ، وكله نور وهداية ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾[3،4] .

---

١ من الآية ٢٠ - ٢٦ من سورة النمل

٢ الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

٣ الآية ٨٢ من سورة النساء

٤ تاريخ الجدل ، ص ٥٩

د - مكانة الجدل في السنة :

السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، جاءت شارحة لكتاب الله ومبينة لأحكامه وآدابه ، عن طريقها يعبد الله بما شرع ويطاع رسوله - صلى الله عليه وسلم - بما دعا وبلغ ، ومن غيرها لا يعتد باسلام المرء وديانته ، وإذا كانت السنة بهذه المنزلة فلا شك أنها اعتنت بالجدل واهتمت به كما هو الحال في القرآن الكريم ، ولكن الجدل المعني هو القائم على الحجة والبرهان ، وهو الذي في اثارته اثبات الحق وانتصار العدل ، وحين ينقلب الجدل إلى التعصب والأثرة بدافع الهوى والجاهلية بغية إلزام الخصم من غير اقناع بالدليل يكون الجدل منبوذًا بل ومحرمًا ، وهذا الذي نهت عنه السنة المطهرة ، ودعت إلى تركه البتة ، خصوصًا إذا كان في كتاب الله ، لأنه مدعاة إلى الخلاف والانقسام في الدين والعمل على تفرقة كلمة المسلمين ، وهذا مخالف للشريعة الإسلامية نقلاً وعقلاً ، ولذلك وردت نصوص صريحة في السنة تنهى عن المراء والجدل المؤدي إلى الخصومة والنزاع، وتجنيب كتاب الله مثل هذا النوع من الجدل لما فيه من الشقاق والفرقة ..

قال صلى الله عليه وسلم - : « **المراء في القرآن كفر** »(1) .

وقال صلى الله عليه وسلم - : « **ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل** » ، ثم تلا هذه الآية : « **بل هم قوم خصمون** »(2) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: « **من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها** »(3) .

هذا وقد ورد في أقوال العلماء المحدثين والمنطقيين ما يذم الجدل والمراء لأسبابه الوخيمة وعواقبه الأليمة ، من ذلك قول أبي قلابة : (لا تجالسوا أهل

---

1 سنن أبي داود / كتاب السنة / باب النهي عن الجدال في القرآن / جـ ٤ / ١٩٩

2 سنن ابن ماجه / المقدمة / باب اجتناب البدع والجدل / جـ ١ / ١٩

3 نفس المصدر السابق ، جـ / ١ / ٢٠

الأهواء ولا تجادلوهم ، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون)[١] .. وعن مسلم بن يسار أنه قال : (إياكم والمراء ، فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته)[٢] .

وأخيرًا نقول :

إن حاجة الأمة الإسلامية إلى الذود عن دينها ومقدساتها لا يأتي إلا بالعلم بكتاب الله والتفقه في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبهذين الأساسين يستنير قلب المؤمن وعقله ، ويتهذب فكره وخلقه ، فإذا تسلح بهما يستطيع أن يقرع خصومه بالحجة والدليل من غير تعصب ولا سوء خلق ، بل بحكمة وأدب وصبر ، تاركًا جانب الشقاق والتعصب كلما اشتد أواره مؤثرًا الحلم والأناة متأسيًا بالقرآن مهذبًا بالسنة ، من غير ذلة ولا خنوع ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يثني عزيمته في الدفاع عن عقيدته قول الجاهل ولا تصنع المنافق ، بالحق يجادل وإلى الحق يؤوب.

ثانياً – المناظرة :

أ – مفهومها في اللغة والاصطلاح :

المناظرة في اللغة تعني : النظر ، وهو الحس بالعين . ونظره ينظره نظرًا ومنظرًا ومنظره يعني نظر إليه ، والمنظر : مصدر النظر .

تقول العرب : دور آل فلان تنظر إلى دور آل فلان ، أي هي بإزائها ومقابلة لها . وتقول العرب : دورنا تناظر – أي تقابل – . وقيل : إذا كانت محاذية وتناظرت الداران– إذا تقابلتا – .

والمناظرة : أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معًا كيف تأتيانه .

---

١ سنن الدارمي / باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة / جـ ١ / ١٠٨

٢ نفس المصدر السابق / جـ ١ / ١٠٩

والتناظر بمعنى التراوض في الأمر ، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره ، وناظره من المناظرة ، والنظير بمعنى المثل[1] .

ويقول صاحب المصباح[2] :

(نظرت في الأمر إذا تدبرته ، والنظير بمعنى المثل المساوي ، وناظره مناظرة يعني جادله مجادلة) . أ.هـ.

ومن هذا المفهوم اللغوي للمناظرة اشتق المدلول الاصطلاحي من أن المناظرة هي : إعمال النظر والفكر والعقل في مسائل الخلاف بقصد البحث في الأدلة والبراهين لاستقراء واستنباط القواعد الشرعية من الأدلة التفصيلية وإلزام الخصم بالحجة القاطعة في مجلس المناظرة وصولاً إلى الحق واقراره والتأكيد عليه .

ولعل المناظرة بهذا الاصطلاح تكون منعقدة بين طرفين من الناس توفرت فيهما شروط المماثلة والمشابهة من حيث المستوى العلمي والإدراك الفكري ، وأصبح القصد عندهما في المناظرة البحث عن الدليل المقنع في الأمر المتناظر عليه وصولاً إلى الحق والإلتزام به .

وبهذا المفهوم الاصطلاحي يكون للمناظرة عدة صور وأشكال في عقدها واقامتها ، فمن صور المناظرة : المناقشة في الأمر المختلف فيه ، ثم المحاورة وطرح الأدلة والبراهين ، ثم المحاجة التي تتصعد فيها حدة الخلاف حتى تصل إلى درجة الجدل والمكابرة نتيجة التعصب ، والاستمساك بالرأي ، كل ذلك إذا كان الهدف من المناظرة افحام الخصم والتغلب عليه ، ولو كان بالأدلة الفاسدة مع علمه بأن خصمه على حق فيما يدعيه ، ولكنه تأخذه العزة بالإثم فيأبى الرجوع إلى الحق ، ويتمادى في الباطل لاقهار الخصم وإذلاله فحسب[3] .

هذا ولكي تكون المناظرة علمية هادفة مبنية على أسس من العدل والانصاف

---

١ لسان العرب / جـ ٣ / ٦٦٤

٢ المصباح المنير / جـ ٢ / ٦١٢

٣ تاريخ الجدل / ص ٢٩٨

لا بد أن يتوافر في المتناظرين شروط وعلامات يتم بموجبها قيام مجلس المناظرة ، هذه الشروط بمثابة الضوابط والمعايير التي تعمل على انجاح هذه المناظرة وتحقيق الفائدة المرجوة منها ، فما هي هذه الشروط ؟ ..

ب - شروط المناظرة :

١ - شروط تتعلق بالموضوع المطلوب النظر فيه :

أ - أن لا يكون من فروض الكفاية : أي أن فرض الكفاية إذا قامت به جماعة سقط عن آخرين ، فلا ينبغي على المشتغل بالمناظرة أن يصرف وقته وجهده مع مناظره في موضوع هو من وظيفة جماعة أخرى مسئولة عنه ، فلا يجوز الاشتغال بمثل هذا الموضوع، وترك واهمال موضوعات أدق وأمس الحاجة إليها ، وهي تعد فرض عين في نفس الوقت ، إذا كان الغرض من المناظرة في هذا الموضوع هو اظهار الحق وقطع دابر الخلاف .. مثال ذلك : كمن يناظر في موضوع هو من فروض الكفايات كالخلاف في (الحجامة) مثلاً ، ويترك أمورًا يتحدد فيها مصير المسلمين في الدنيا والآخرة مثل موضوع الجهاد في سبيل الله ، انتشار المجاعة بين المسلمين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى آخر ما يصيب المسلمين بسبب تفشي المنكرات وكثرة الخطايا، وفي الحديث سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ فقال – صلى الله عليه وسلم – : « **إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم** » ، قلنا يا رسول الله : وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : « **الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم** »[١] .

ب - أن تكون مسائل الخلاف المتناظر فيها ذات طابع متجدد في الحدوث والحصول ، أو ما يغلب وقوعه بصفة مستمرة كالخلاف في مسائل

---

١ سنن ابن ماجه / كتاب الفتن / باب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » / جـ ٢ / ٤٠١٥

الفرائض والمواريث والأمور التعبدية ذات الوجوه المختلفة أو مما تتعلق به حاجات البشر الحياتية وتجب إبانته ووضوح الأمر فيه.

٢ - شروط تتعلق بالمتناظرين :

أ - أن يكون المتناظران مجتهدين لا مقلدين لمذهب معين ، وأن يقضيا برأيهما في مسألة الخلاف في حالة عدم وجود نص بحيث إذا ظهر لأحدهما الحق يجب الأخذ به وطرح الأدلة المخالفة تأسيًا بما كان يفعله أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأئمة التابعين المعتدلين في مشاوراتهم ومناظراتهم العلمية .

ب - أن يكون مجلس المناظرة منعقدًا في خلوة بعيدًا عن التجمهر والتجمع ، وذلك مدعاة لسرعة الفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ، وأكثر ادراكًا للحق ، وأنه سوف يأتي بالفائدة المرجوة، وأما لو عقد في محفل من الناس لا شك أنه سوف تشوبه علامات الرياء وبوادر الجدل واشارات التعصب والانتصار للرأي بما يؤججه المجتمعون في المتناظرين من الانفعالات وكثرة التساؤلات بغية الخروج من هذا المجلس بنتيجة الغالب والمغلوب ، وهذا الهدف لا يخدم قضية الخلاف في شيء بل يضيف إلى الخلاف خلافًا وجدالاً وخصومة وشحناء لا حاجة لها في صفوف المسلمين .

جـ - أن يكون المتناظران في طلب الحق ، والوصول إليه كمن يبحث عن ضالته، لا يهمه أن يجدها هو بنفسه أم يجدها له غيره ، المهم عنده أن يجدها وتقر عينه بها، وكذلك المتناظران عليهما أن يكرسا جهودهما في الوصول إلى الحق باختيار الأدلة والبراهين من غير شطط ولا تكبر ، وأن يكون هدفهما اظهار الحق والالتزام به لا افحام الخصم والتغلب عليه .

وهكذا كانت مشاورات الصحابة الكرام - رضوان الله عنهم - مع بعضهم البعض كانوا ينشدون الحق ويقفون عنده ، ويأخذون به ، ولا يهمهم على يد من منهم ظهر وتأكد ، وفي هذا شواهد كثيرة من أفعال الصحابة الكرام في

هذا الشأن تجلت في مواقف نبيلة ونزيهة وصادقة وحكيمة .. من ذلك موقف عمر - رضي الله عنه - من المرأة التي ردت عليه في قضية المهور والمغالاة فيها ، مما جعل عمر - رضي الله عنه - يعترف بالحق ، ويذعن له في عبارته الصادقة : «أصابت امرأة ، وأخطأ رجل »

وموقف علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - مع السائل الذي سأله في أمور ، فما كان من علي - رضي الله عنه - بعد أن رأى الحق لهذا الرجل إلا أن قال : « أصبت وأخطأت ، وفوق كل ذي علم عليم » .

وموقف عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - واستدراكه على أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - كلاهما كانا صحابيين جليلين ، ومع ذلك اعترف أبو موسى الأشعري بفضل عبدالله بن مسعود وعلمه وفطنته في ادراك الحق مما جعله يقول : « لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم »[1] .

د - على المناظر أن لا يمنع مناظره في الانتقال من دليل إلى آخر ، ومن إشكال إلى غيره طالما أن مسألة النظر تتطلب ذلك ، وكذلك كانت طريقة السلف في المناظرة ، وأن تبتعد المناظرات عن الألفاظ والمصطلحات التي تثير الجدل والاعتراض كأن يقول أحدهما للآخر : (إن هذا الدليل لا يلزمني ، وليس هو من صميم قضية النظر) أو يقول : (هذا يناقض دليلك السابق ، فلا يقبل منك) ، بل على كليهما الاستماع إلى الأدلة المطروحة من جانبهما وإعمال النظر فيها والرجوع إلى الحق والقبول به حيث هو المنشود في قضية البحث والنظر .

هـ - أن تتم المناظرة بين من يرى في مناظرتهما منفعة واستفادة ، ممن لهم دراية بالعلم ، وهم يعدون أهله المشتغلون به ، حيث لا تتم المناظرة الهادفة إلا بين متكافئين في العلم والاجتهاد ، لقدرتهما على استنباط الحق والعمل به ، أما من لم يجد في نفسه الكفاية في مناظرة غيره من أهل العلم ويطلب المناظرة فهذا يعد مروجًا للباطل داعيًا إلى الجهل مشيعًا للمنكر مثيرًا للفتن ، يجب

---

١ احياء علوم الدين / جـ ١ / ٤٤

منعه وإيقافه عند حده من قبل أهل الحل والعقد من علماء المسلمين انصافًا للحق ومنعًا لوقوع الباطل .

هذه تكاد أن تكون شروطًا عامة للمناظرة القائمة على الحق والخير ، بموجبها يلتزم المتناظران حدود الأدب ومراعاة الأخلاق الحميدة المنبثقة من القرآن والسنة ، كي تبرز قيمة المناظرة وفائدتها المرجوة ، أما إذا كانت المناظرة قائمة على المجادلة والمحاورة والتحدي فلا شك أن لها سلبيات وآفات كثيرة ، تعود على الأمة بالفرقة والخلاف ، ونحن إذ نذكر هذه الآفات نود الإرشاد إليها فحسب كي نشجبها في مناظراتنا العلمية إن شاء الله .

جـ - آفات المناظرة وسلبياتها :

١ - الحسد :

وهو الغليان النفسي المبني على الخبث والنفاق ، ولا يوجد إلا عند المناظر الذي ناظر صاحبه بقصد إذلاله وقهره وافحامه والانتصار عليه ولو بدليل فاسد ، وفي هذا يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « **الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب** »[١] .

والمناظر من هذا النوع لا يحب أن يذكر غيره بصيت وشهرة ويتمنى زوال نعمة العلم من غيره إليه ، وانصراف القلوب والوجوه عن غيره إليه .

٢ - التكبر :

وهو الترفع والتعالي على الغير ، ويحدث مثل هذا بين المتناظرين لما يراه أحدهما من أنه يجب أن يكون فوق صاحبه قدرًا ومنزلة ، فيتصور نفسه أنه في موقعة نزال وقتال، فتارة يقدم وتارة يحجم وتارة يغضب وتارة يجادل بلجاجة وشدة ، غرضه الظاهري خدمة العلم وإجلاله ، وقصده الباطني الفوز على صاحبه وإذلاله وغلبته لنيل الشهرة والصيت العالي ، وقد ورد في الحديث النهي عن

---

١ سنن ابن ماجه / كتاب الزهد / باب الحسد / جـ ٢ / ١٤٠٨

التكبر ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبة مثقال حبة من خردل من إيمان** »[1]

٣ – الغيبة :

وهو أمر محرم في الشرع ، ومع ذلك نجد المناظر لا ينزه نفسه عن مذمة خصمه والاستهزاء بكلامه ، والتعريض بعيوبه ونسب الجهل والحماقة إليه ، وهذا يعد نقصًا في المناظر الذي يدعي بمناظرته الوصول إلى الحق وإلزام الخصم به ، وهو غير أمين فيما يقول ، ويكفينا ما وصف من به مرتكب هذه الجريمة في قوله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه** ﴾[٢].

٤ – تزكية النفس :

وقد نهي المؤمن عن أن يمدح نفسه ويزكيها للناس ، قال تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾[٣] .

وسئل حكيم ، ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه .

وهذه الآفة لا يخلو منها مناظرإلا من عصم الله ، فنجد المناظر يتباهى بنفسه، ويذكر نفسه بأفضل الألقاب ، ويصف نفسه بأحسن الأوصاف وأطيب النعوت ، حتى لكأنك تظن أنه يحدثك غيره ليعظم في عينك ، ويكبر شأنه عندك ، وهو يتحدث عن نفسه ليحظى بهذا التقدير.

٥ – التجسس وتتبع عورات الناس :

تجد بعض المناظرين يهوون تتبع عورات مناظريهم ، وجمع الأخبار عنهم ، لعلهم يصلون إلى عيوب يستطيعون النيل منهم عن طريقها ، وهم في ذلك يريدون

---

١ سنن بن ماجه / كتاب الزهد / باب البراءة من الكبر / جـ ٢ / ١٣٩٧

٢ الآية ١٢ من سورة الحجرات

٣ الآية ٣٢ من سورة النجم

التشويه على خصومهم ، لعلمهم بأن خصومهم أكثر منهم علمًا ، وأرفع منهم ذكرًا ومحبة ، ولكنهم لا يريدون الاقرار بمثل هذا الحق نجدهم يتخذون هذه الأسباب الملتوية بقصد التشفي والإذلال ، وقد نهى القرآن عن ذلك ، يقول تعالى : ﴿ **ولا تجسسوا...** ﴾[1] .

وفي الحديث من رواية معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « **إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم** »[2] .

٦ - الأنانية وحب الذات :

المناظر الذي يدخل المناظرة بقصد المباهاة بنفسه كأنه لا يعتد بعلم مناظره ، بل يسعى إلى احتقاره وتجاهله ويزداد غيظًا وحنقًا إذا سمع من الغير الثناء والاعتراف بعلم فلان وفطنته ، فهو لا يريد الخير إلا لنفسه فقط ، وتجده دائمًا يفرح عند مساءة الآخرين ، ويحزن عند مسراتهم ، بل ويكون كالمغشي عليه إذا التقى بأهل الفضل والعلم ، وليس هذا من أدب المناظرة في شيء ، بل من أدب المناظرة ما كان عليه السلف من الاستئناس بالرأي ، والمؤاخاة والتناصر بين المتناظرين ، كما قال الشافعي - رضي الله عنه - : (العلم بين أهل الفضل ، والعقل رحم متصل)[3] .

٧ - الاستعلاء على الحق والحرص على المماراة والجدل :

إن المناظر الذي لا ينشد في مناظراته سوى الغلبة على خصمه تجد أن أبغض شيء عنده أن يجري على لسان خصمه الحق ، فهو يشمر عن كاهل الجد في مدافعته وانكاره لخصمه متذرعًا بالمخادعة والمكر والحيلة ، ويتدارأ بالاعتراض حتي ولو كان الدليل من القرآن والسنة ، وقد نهى الله عن ذلك وحذر منه ، قال

١ الآية ١٢ من سورة الحجرات

٢ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب النهي عن التجسس / جـ ٤ / ٢٧٢

٣ احياء علوم الدين / جـ ١ / ٤٥

تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه** ﴾[1] .

تلك هي الآفات المتعلقة بالمناظرة غير الهادفة ولا البناءة ، إذا توفرت في مجلس المناظرة أفسدت ذمم القوم وأنقصت من إيمانهم ، وأصبحوا كالنفس التي لم تكسب في إيمانها خيرًا .. أما المناظرة التي يتوخى أصحابها الآداب الإسلامية لا شك أنهم مأجورون وموفقون إلى الحق والصواب بقدر عزيمتهم ونيتهم .

د – موقف القرآن الكريم من المناظرة :

مر معنا في الحديث عن المناظرة أن من معانيها المجادلة والمحاجة والمحاورة، وهي كلها مفاهيم اصطلاحية تدل على خلاف يستدعي إعمال النظر والفكر بالبحث فيه من حيث توضيح الأدلة الراجحة وصولا إلى الحق وادراكًا للصواب ، ومنعًا للخلاف والاعتراض ، وإكرامًا للخصم بقبول الحق بعد أن تبين له من غير قهر ولا إذلال .

ومعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن الكريم حجة الله البالغة على خلقه ، وكله حق وصدق ، منزه عن الشك والباطل ، فآياته كلها حجج وبراهين ، تطمس زيف المفترين ، وتبطل ادعاء المعترضين ، هذا القرآن جعله الله إما حجة على المتقيد به وإما حجة له ، فإذا كان المتقيد بالقرآن صادقًا في تقيده عاملاً به في اخلاص وصواب ، لا شك أنه حجة له يوم القيامة ، وأما إذا كان تمسكه بالقرآن رياء وسمعة فلا شك أن القرآن حجة عليه يوم القيامة ، وفي الحديث يقول – صلى الله عليه وسلم – : « **أقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه** »[2] .

وفي الحديث أيضًا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، وضرب لهما رسول الله – صلى الله**

١ الآية ٦٨ من سورة العنكبوت

٢ صحيح مسلم / كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة / جـ ٦ / ٩٠

عليه وسلم - ثلاثة أمثال ما نسيتهن ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما »[1].

وإذا كانت المناظرة هي المجادلة أو المحاجة في مسائل خلافية تتعلق بأمور العقيدة والعبادة ، فإن القرآن جاء ككتاب هداية وارشاد ، يدعو إلى التوحيد الخالص بالتوجه إلى الله ربًا ومعبودًا وخالقًا ، وتلكم هي المسائل التي تفرق عليها الناس في عقيدة التوحيد قديمًا وحديثًا والتي اقتضت من الله في ارسال الرسل وانزال الكتب .. من هذا المنطلق فإن القرآن الكريم يقف من المناظرة كمصطلح عملي للمجادلة والمحاجة بالدليل والبرهان موقفين رئيسيين وهما :

أولاً - محاجة الله للعباد المعترضين على إفراده بالعبودية ، وذلك على لسان أنبيائه ورسله الذين بعثوا إلى أولئك العباد للوصول إلى الحق ببسط الأدلة وافحام الخصوم .. يقول تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين * تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلمًا للعالمين** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾[5] .

---

١. نفس المصدر السابق - جـ ٦ / ٩٠

٢ الآيتان ٢٥٢ ، ٢٥٣ من سورة البقرة

٣ الآية ١٠٨ من سورة آل عمران

٤ الآية ٨٣ من سورة الأنعام

٥ الآية ٦ من سورة الجاثية

ثانيًا – محاجة الأنبياء من قبل أقوامهم ، ورفضهم للدعوة التي جاءوا بها ، إلا من هدى الله . ما من نبي ولا رسول إلا وقد حاجه قومه وناظروه فيما بعث به ، وقد قص القرآن هذه المحاجة وسجلها حجة دامغة على القوم المكذبين لأنبيائهم بعد أن أفحمهم بالدليل داحضًا حججهم الواهية التي لا سبيل إلى اسنادها إلا إلى الهوى والضلال .

وحين يفند القرآن هذه الحجج يعلن الحق ويرشد إليه ، ويدعو إلى اتباعه ، وهذه مهمة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – ، تلقي الحق من الله وابلاغه الى عباده ، فمن هداه الله إلى سبيله شرح صدره لقبول الحق والإذعان إليه ، ومن أعرض عنه جعل صدره ضيقًا حرجًا يتنفس الصعداء وهو يتلفظ بالباطل ، وقد ألجمته أدلة الحق وأخلد إلى النار خالدًا مخلدًا فيها والعياذ بالله ..

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهد القوم الظالمين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وحاجّه قومه قال أتحاجّوني في الله وقد هدان**

---

١ الآية ٢٥٨ من سورة البقرة

٢ الآية ١٣٩ من سورة البقرة

٣ الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة آل عمران

ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا أفلا تتذكرون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾**[2] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾**[3] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾**[4] .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت الحق الذي جاء به الأنبياء ، نكتفي بما قدمنا على انها آيات تثبت الاحتجاج والاعتراض من قبل الضالين عن الحق ، والمضلين لغيرهم.. وقد ذكرها الله في الكتاب العزيز كاسلوب من أساليب الاعجاز القرآني في عرض الدليل والبرهان ومجاراة الخصم لدحض حجته والقضاء عليه بمصير الخلود في العذاب يوم القيامة ان لم يرعوي ويقتنع ويقر بالحق الذي جاء به القرآن ، ودعا إليه الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

---

١ الآية ٨٠ من سورة الأنعام

٢ الآية ٢٠ من سورة آل عمران

٣ الآية ٧٣ من سورة آل عمران

٤ الآية ١٦ من سورة الشورى

ثالثاً - المنطق :

أ - مفهوم المنطق في اللغة والاصطلاح :

يقول صاحب (لسان العرب)[1] حول هذه اللفظة :

نطق الناطق ينطق نطقًا : إذا تكلم .

و (المنطق) هو الكلام .. و (المنطيق) هو الفصيح البليغ .

وقد أنطقه الله واستنطقه : إذا كلمه وناطقه .

وكلام كل شيء : منطقه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **علمنا منطق الطير** ﴾ .

وتناطق الرجلان : أي تقاولا .

وناطق كل واحد منهما صاحبه : أي حاوره وقاوله . أ.هـ.

ويزداد المعنى وضوحًا حول (المنطق) بأن معناه الكلام ، أن العرب استخدمته في أشعارها للتعبير به عن الكلام والبلاغة والفصاحة في القول والبيان ، مثال ذلك ما قاله الشاعر :

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا ... ولا يمارون ان ساروا باكثار[2]

وقال آخر :

بنى ثعل أهل الخنى ما حديثكم ... لكم منطق غاو وللناس منطق[3]

وقال آخر :

وبالعدل فانطق ان نطقت ولا تلم ... وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد[4]

وقال آخر :

يا غراب البين اسمعت فقل ... انما تنطق شيئا قد فعل[5]

---

١ لسان العرب / جـ ٣ / ٦٢٢

٢ البيت للشاعر : العرندس - أحد بني أبي بكر بن كلان / الحماسة / جـ ٢ / ٢٦٨

٣ البيت للشاعر : حريث بن عتاب ، نفس المصدر السابق / جـ ٢ / ٨٩

٤ البيت للشاعر : عدي بن زيد / جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام / جـ ٢ / ٥١١

٥ البيت للشاعر : ابن الزبعري / كتاب العفو والاعتذار / جـ ٢ / ٤٥٧

وقال آخر :

وتلقى أصيل اللب ليس صناعـــة بمخـرج ما في قلبه حين ينطـق[1]

ولعلنا بهذا الفهم اللغوي عن (المنطق) قد توصلنا إلى سبب تسميته بهذا الاسم لاشتقاقه من النطق وهو الكلام كما قدمنا سابقًا ، وكما يقول أهل اللغة إن النطق لا يكون إلا بصوت ولا يميز هذا الصوت إلا بحروف ، ولا يتكلم بالحروف إلا الإنسان لما أوتي من ميزة العقل التي تفرق بينه وبين الحيوانات الأخرى ، لذلك يسمى الإنسان بالحيوان الناطق ، والنطق عند الإنسان أداة من أدوات التفكير ، والتفكير عملية عقلية تتم عند الإنسان على صورتين احداهما بالباطن وهي الشعور ، والأخرى بالظاهر وهي الإحساس والإدراك لما يحيط به ويتفاعل معه . ومن هنا اتفق المتكلمون والمنطقيون والفلاسفة والأصوليون على اطلاق (المنطق) كمصطلح علمي على عملية التفكير العقلي الداعي إلى البحث والنظر والاستقراء .

وظاهرة التفكير عند الإنسان شأنها شأن كل الظواهر التي يحس بها ويتفاعل معها من حيث أن هذه الظاهرة تتحكم فيها قوانين وأسس تبين غاياتها ومراميها ، و (المنطق) هو الاسلوب الذي يتم به الكشف عن هذه القوانين لكي يتوصل إلى الحقائق والمسلمات المراد العلم بها تمهيدًا للاقتناع بها سلبًا أو ايجابًا ، وهذا ما يسميه المنطقيون (بموضوع المنطق) .

والمنطق في بداية نشأته كان فنًا من فنون الجدل هدفه الوصول إلى الدليل والبرهان لحقيقة من الحقائق العقلية أو المادية في العلوم النظرية أو التجريبية ، ثم تطور حتى أصبح علمًا له قواعده وقوانينه ومدارسه واتجاهاته .

وعلى أية حال فإن (المنطق) كعلم وضع للتحرز به من الخطأ وعدم الوقوع فيه ، إلا أن المتبعين لمنهجه جعلوه الفيصل الحكم في كل حقيقة يدعون إلى الاقتناع بها ، على اختلاف أنواعها ، من حيث كونها دينية أو مادية أو بديهية أو طبيعية أو عينية ، حتى توصل بهم الأمر إلى الشك في كل شيء ، والبحث عن

---

١ البيت لحسان بن ثابت – رضي الله عنه – شاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم – / نفس المصدر السابق / جـ ٢ / ٥٩٠

اليقين من خلال القوانين المنطقية التي وضعوها لمنطقهم حسب فهمهم وادراكهم ، ولكي يؤمنوابقضية ما لا بد أن تمر في تفكيرهم حسب قوانين المنطق التي انتحلوها لأنفسهم ، الأمر الذي جعلهم يشككون بوجود الإله والطعن في ما أخبر به الأنبياء والصادقون من أمور الغيب ، بل وقد بلغ بهم الأمر إلى أنهم يشككون في أبده البدهيات التي لو عالجها فكر الإنسان البسيط لاقتنع بها .

والمنطق يعتمد على الكلام من حيث كونه خبرًا أم انشاء ، والخبر في المنطق هو أساس الجملة المنطقية وتسمى في علم المنطق بالقضية المنطقية ، وتختلف هذه القضية حسب نوع الخبر فيها فتارة تكون قضية جزئية وتارة تكون قضية كلية ، ومرة تكون القضية شرطية ، وحينًا تكون القضية حملية ، وأحيانًا تكون سالبة ، ومرة تكون موجبة، ولكل قضية منطقية حد وحقيقة وهو ما يسمى عند الأصوليين بـ (السبر والتقسيم) .

وكل قضايا المنطق فلسفية بحتة تتعلق بالمعاني والألفاظ ، ولا يتم الوصول فيها إلى الدليل والبرهان إلا عن طريق الجدل والرأي والثرثرة في الكلام ، مما جعل العلماء والمفكرين أن يطلقوا على مثل هذا الاسلوب بالسفسطة ، والمنتمون إليه يسمون بالسفسطائيين .

ب - آفات المنطق ومخاطره :

مما تقدم فهمنا أن المنطق رغم أن له قواعده ومناهجه ومقاييسه ومعاييره إلا أنه ضرب من الحشو الكلامي يزداد الأمر به تعقيدًا وبعدًا عن الحق واليقين ، وربما يؤدي إلى الدور والتسلسل اللانهائي في مسائل الخلاف ، وهذا هو اسلوب الجدل العقيم حيث لا يلوى صاحبه على شيء سوى الاستمرار في الشك حتى إنه يظل طول حياته يبحث عن اليقين حتى تأتيه المنية فيموت كافرًا ملحدًا إلا من هدى الله .

وإن علماء الإسلام المعتدلين بعد أن جربوا هذا المنهج هداهم الله إلى الرد عليه ، وتبيين مساوئه ومحظوراته ، بغية احقاق الحق وابطال الباطل ، ونحن إذ

نورد أقوال العلماء في المنطق لا نريد إلا إرشاد المسلم إلى عدم الانخداع بمثل هذه العلوم وعدم شغل الفكر في أمور تؤدي بصاحبها إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ، وهذا ما أشار إليه العلماء الأفاضل في ردودهم على المنطق فقد ورد في (كتاب المنطق) للإمام ابن تيمية قوله :

(إنه وجد بالاستقراء أن من الخائضين في العلوم من أهل هذه الصناعة – المنطق – أكثر الناس شكًا واضطرابًا ، وأقلهم علمًا وتحقيقًا ، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون ، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئًا من العلم ، فذلك لصحة المادة التي ينظر فيها وصحة ذهنه وإدراكه لا لأجل المنطق ، بل إدخال صناعة المنطق في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ، ويجعل القريب من العلم بعيدًا ، واليسير منه عسيرًا ، ولهذا نجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك لم يفد إلا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق)[1] أ . هـ .

وقال عن الحدود المنطقية :

(حشو لكلام كثير يبينون به الأشياء ، وهي قبل بيانهم أبين منها بعد بيانهم، فهي مع كثرة ما فيها من تضييع الزمان واتعاب الفكر واللسان لا توجب إلا العمى والضلال ، وتفتح باب الجدل والمراء ، إذ كل منهم يورد على حد الآخر من الأسئلة ما يفسد به ، ويزعم سلامة حده منه ، وعند التحقيق نجدهم متكافئين أو متقاربين ، ليس لأحدهم على الآخر رجحان مبين ، فأما أن يقبل الجميع أو يرد الجميع ، أو يقبل من وجه ويرد من وجه)[2] أ . هـ .

ويقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) عن المنطقيين :

(أن لهم نوعًا من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطًا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ، وربما ينظر في المنطق من

---

١ المنطق لابن تيمية / جـ ٩ من الفتاوى / ص ٢٤

٢ نفس المصدر السابق

يستحسنه ويراه واضحًا فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية ، فهذه الآفة متطرقة إليه)[1] أ . هـ .

نكتفي بهذا القدر من ذم المنطق على لسان أكبر عالمين جليلين كان لهما الأثر الكبير في علم المنطق الإمام الغزالي والإمام ابن تيمية ، فليراجع من أراد أن يزداد فهمًا عن هذا العلم لكتب هذين العالمين وغيرهما لعله يجد قسطًا عميقًا واسهابًا طويلاً لعلم المنطق وقواعده .

جـ - موقف القرآن الكريم من المنطق :

بما أن المنطق هو إعمال الفكر والنظر لدى البحث في أوجه الدليل وشروطه ، ووضع تصور للحد والحقيقة لكل قضية من قضاياه ، فإنه يعتمد على القياس والتمثيل والخطاب وهي قواعد وضعت لهذا العلم المبني على المقدمات والنتائج وهي وسائل التحقيق عند المنطقيين ، فكأنما هي بمثابة الضوابط حسب زعمهم لكل خبر يرد بطريق النقل أو العقل، الأمر الذي جعلهم يخضعون مسائل العقيدة لقواعدهم المنطقية محملين العقل أكثر مما يحتمل أو يطيق ، وقد جعل الله العقل في الإنسان محط الفهم ومناط التكليف ، وليس مصدرًا للتشريع أو ميزانًا للحق ، إذ أن الله أراد انزال موازين الحق مع كتبه على لسان رسله قبل أن يوجد منطق يقيس ما لفعل قرار الله في الوجود ، لذلك جاء القرآن الكريم متنوع الأساليب والأدلة كي يكون متسعًا للإدراك العقلي والحسي من غير تناقض ولا اختلاف .

وإذا كان المنطق غايته البحث عن الحقيقة والوصول إلى الحق عن طريق التدبر والنظر والتفكير والتمييز الصحيح ، وملاك ذلك كله العقل ، فإن القرآن لم يهمل الجانب العقلي عند الإنسان ، بل جعله المدخل لفهم النصوص والأحكام ، والمعول في التكليف والالتزام ، ولذلك نرى أن التكاليف التعبدية والمعاملات الشخصية في شريعة الإسلام لا تقبل إلا من مسلم بالغ عاقل مؤهل ، أما المجنون والصبي والقاصر يسقط عنهم التكليف ولا تقبل لهم تصرفات ولا معاملة .

---

١ كتاب (المنقذ من الضلال) ص ٢٦

وما جعل الله العقل في الإنسان إلا ليجعله بصيرًا مفكرًا حكيمًا، مدركًا بعقله سر وجوده ، متفاعلاً مع ما يدركه باسلوب الاقناع والاقتناع لا باسلوب التقليد والمحاكاة ، ولذلك نجد الخطاب القرآني متوجهًا إلى العقل بالتفكر تارة ، وبالتبصر والتدبر تارة أخرى، وبالاعتبار والنظر أحيانًا ، وبالتذكر والذكرى أحيانًا أخرى كأنه يقرر أن التفكير فيما خلق الله فريضة على كل مسلم يريد أن يصل إلى الحق ، وهو عبادة الله على الوجه الأكمل ، وأن يدرك الإنسان أن الطريق الذي يمشي فيه هل هو موصل إلى رضا الله أم إلى سخطه ؟ ، ولا يعرف ذلك إلا من خلال الأدلة والبراهين والنصوص والاشارات ، وقد تكفل الله بهذا حين أنزل القرآن كله حجة تمثلت في ضرب الأمثلة وتبيين الإشارة وتوضيح العلامة وتبسيط العبارة ، لمن يسعى جاهدًا في طلب الهداية والرشاد .

بل ومن إعجاز القرآن العلمي أن دعا الإنسان إلى التفكر في الكون المنظور والمحسوس لعله يجد آثارًا تدل على خالقه فيهتدي إليه ويعبده .. يقول تعالى : ﴿ **أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾[3] ، وقال تعالى آمرًا بالفكر والتفكر : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وأن كثيرًا من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾[5] ، وقال تعالى في مجال التدبر والاعتبار : ﴿ **يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك**

١ الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

٢ الآية ٦ من سورة (ق)

٣ الآية ٥٠ من سورة الروم

٤ الآية ١٩١ من سورة آل عمران

٥ الآية ٨ من سورة الروم

لعبرة لأولي الأبصار ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ﴾**[2] ، وقال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾**[3] ، وقال تعالى : ﴿ **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾**[4] ، وقال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾**[5] .

وتوجه الخطاب الإلهي إلى عقل الإنسان بصورة مباشرة وصريحة .. قال تعالى : ﴿**كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾**[6] .

وقال الله تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[7] ، وقال تعالى : ﴿**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾**[8] .

وبعد فهذا موقف القرآن الكريم من العقل ووظيفته ودوره بالنسبة للإنسان ، وما كلف به في الحياة الدنيا من أمور العقيدة والعبادة من ناحية ، ومن أمور الكسب والمعاش من ناحية أخرى ، فقد أعطاه الله القدرة والإرادة على الاسترشاد

---

١ الآية ٤٤ من سورة النور
٢ الآية ٦٦ من سورة النحل
٣ الآية ٨٢ من سورة النساء
٤ الآية ٦٨ من سورة المؤمنون
٥ الآية ٢٩ من سورة (ص)
٦ الآية ٧٣ من سورة البقرة
٧ الآية ١٦٤ من سورة البقرة
٨ الآية ١٢ من سورة النحل

والاهتداء من خلال الآيات والاثار الحسية والمعنوية مدعمة بالأدلة والبراهين التي تحمل الحق والصدق واليقين الذي يبحث عنه الإنسان بما أوتي من عقل دونما حاجة إلى قواعد منطقية تعينه في ذلك، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر** ﴾[1] .

ولو فرضنا جدلاً أن القرآن لا يفهم ولا تدرك أسراره إلا بالقواعد المنطقية لتّطلب ذلك أن يكون أفراد النوع البشري كلهم منطقيون ، ولا يتعذر ذلك على الله ، ولكن الأصل البشري من طبيعته الاختلاف والتغاير ولو كان الأمر كذلك لأصبح المنطق محتاجًا إلى منطق ، ويدور الأمر إلى ما لا نهاية ، وحينئذ لا يكون هناك فهم عقلي ولا منطق فكري ، ولو تم ذلك لأصبح العقل البشري لا قيمة له بين المخلوقات الأخرى ، وهذا يتعارض مع سنن الله في خليفته على الأرض وهو الإنسان .

هذا إذا لزم الأمر أن يكون المنطق فرض عين في فهم النصوص والأحكام الشرعية ، أما إذا كان المنطق من فروض الكفاية فلا بد أن يكون المنتمي إلى هذا العلم ممن هو أهل لتطبيق الأحكام الشرعية عالمًا بمعاني القرآن وعباراته ، مدركًا بذوق اللغة العربية وأسرارها وبلاغتها ، خبيرًا بوجود الاستدلال والبرهان غير منازع في الحق إذا جاء بخبر الصادق الأمين وهو النبي المرسل إلى الناس بتبليغهم ذلك الحق ، ولا تكون نيته في النظر في الأدلة إلا الوصول إلى الحق الذي جاءت من أجله الرسل والأنبياء والمؤيدة بالكتب والمعجزات ، أما إذا تحول المنطق إلى غير أصول النظر الصحيح أصبح الهدف منه الجدل واللجاج والمعاندة والمكابرة ، ولا يعد الأمر حينئذ إلا ثرثرة في الكلام وضياع في الوقت ، واتعاب في الفكر والتأمل .

ومن الدراسات المنطقية انبثقت الفرق في المجتمع الإسلامي كما هو معروف من تاريخ الأمم والشعوب ، حتى سميت هذه الفرق بالفرق الكلامية، وقد كان لها

---

١ الآية ١٧ من سورة القمر

أصول في النظر والتحقيق ، وعن طريق هذه الفرق اتسعت دائرة الخلاف إلى أيامنا هذه ، وكل فرقة تدعي لنفسها أنها تسير على الطريق الصحيح ، وأن مذهبها الراجح ومذهب غيرها المرجوح ، والله المستعان على ما يصفون[1] .

موقف المقارنة :

بعد أن تعرفنا على هذه المصطلحات الأربعة لغويًا واصطلاحيًا ، لا بد لنا أن نعقد مقارنة بين هذه المصطلحات بهدف الوقوف على مدى الصلة بين بعضها البعض من حيث اللفظ والمعنى ، وإدراك ما إذا كانت مترادفات لفظية لمعنى واحد أم لا ؟ .

في الحقيقة أن بين هذه المصطلحات اتصالاً من ناحية ، وانفصالاً من ناحية أخرى ، فمن حيث الاتصال فهي تشترك في المعنى من جوانب كثيرة ، فقد لاحظت أن من معاني (الخصومة) الجدل ، وأن من معاني (الجدل) اللدد في الخصومة ، وهي المبالغة الشديدة في الاختصام والمجادلة والغلبة بالحجة . والمجادلة أيضًا تعني مقابلة الحجة بالحجة ، وهذا معنى من معاني (المناظرة) وهي التقابل في الأمر المنظور فيه بالبحث في أدلته ومقابلتها للوصول إلى الراجح منها ، وهذا المعنى نجده في علم (المنطق) الذي هو النظر في الأدلة والبراهين وفق القواعد المنطقية المعروفة بغرض الوصول إلى الحقيقة من طريق منظم دقيق .. وفي كل هذه المصطلحات يوجد النقاش والمحاورة والاعتراض ، وهي تعد عوامل الاختلاف في مسائل البحث والنظر ، فهذا وجه الاتصال بين هذه المصطلحات .

وأما وجه الانفصال فإنك تجد لكل مصطلح لفظًا مخالفًا في التركيب اللغوي عن غيره من هذه المصطلحات ، وهي في الحقيقة مترادفات لغوية اختلفت في اللفظ واشتركت في المعنى ، فحين تذكر الخصومة يتبادر إلى الذهن أنها ما قامت إلا على جدل، وحين يذكر الجدل يتبادر إلى الذهن أنه لم ينته إلا بخصومة ،

---

١ التفكير فريضة إسلامية / ص ٢٥

والجدل والخصومة لا يتمان إلا على خلاف في طرح الأدلة والحجج من حيث انكارها أو نقضها بمثيلها عن طريق المنطق والعقل والواقع ، فهي ألفاظ متداخلة وضعت للدلالة على حوادث الخلاف والنزاع والبحث عن الحق للفصل فيه والقضاء بموجبه حسمًا لهذا الخلاف. هذا التباين في الألفاظ والتراكيب هو من أسرار اللغة العربية وبلاغتها المتصلة بالإعجاز القرآني المنزل بلسانها الذي يزيدها شرف السعة والإستيعاب عبر الزمن إلى أن تقوم الساعة.

الباب الثاني

أصول أدب الخصومة

تمهيد :

الأصل في اللغة يعني الأساس والقاعدة والمحور الذي يرتكز عليه غيره ، والقرآن الكريم تضمن أسسًا وأصولاً لكل شيء في هذه الحياة ليضبط بها سلوك الإنسان وتصرفاته في حالة اتصاله بربه وفي حالة علاقته بغيره من الناس ، فكأنما هذه الأصول أنظمة وقوانين تسير حياة الناس أفرادًا وجماعات ، حكامًا ومحكومين ، فمن أراد منهم الحياة الفاضلة فلا بد أن ينتظم بنظام الإسلام ، وأن يتخلق بأخلاق القرآن حيث هو الهدى والنور من تمسك به سار على الطريق المستقيم ، ومن حاد عنه أورد نفسه الهلاك وحكم على أعماله بالخسران والبطلان.

ففي القرآن الكريم أصول الأحكام وقواعد التشريع الإسلامي لمن أراد أن يقيم حكمًا إسلاميًا بموجب الكتاب والسنة ، وفي القرآن الكريم أصول للعبادات والطاعات لمن أراد أن يقيم صلة التقوى مع ربه ، وفي القرآن الكريم أصول وقواعد للمعاملات لمن أراد أن يقيم العلاقات الودية مع الآخرين ، وفي القرآن الكريم أصول وقواعد للقيم والأخلاق لمن أراد أن تسمو نفسه ويستقيم سلوكه وتتهذب أخلاقه .

وفي القرآن الكريم أصول تحدد علاقات المسلم مع غير المسلمين في حالة السلم أو الحرب ، كل ذلك مبين في هذا الكتاب العزيز لئلا يتذرع المسلم بأسباب قد تبعده عن ربه، وقد تسيء إليه في علاقته مع غيره فيحيا شقيًا ويموت شقيًا ويبعث يوم القيامة شقيًا والعياذ بالله ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **وكل**

---

١ الآية ٣٨ من سورة الأنعام

شيء أحصيناه كتابًا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[3] ، وآيات كثيرة في القرآن تثبت أن الله ما ترك في هذا الكون شيئًا إلا بينه لنا في محكم هذا الكتاب العزيز ، ولكن إعجازه أكبر من أن تدرك أسراره كلها من قبل البشر إلا من هداه الله وبصره وفقهه كما قال تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾[4] .

وفي الحديث يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين** »[5] .

وهكذا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على كافة المناحي التي يتقلب فيها المسلم في الحياة الدنيا ليميزه عن حياة الكافر الذي تردى بقيمه المصطنعة وانحط بأخلاقياته السافلة، وأصبحت حياته كالبهائم ، ضلال في العقيدة وفساد في السلوك ، نجد القرآن الكريم يتدخل في حياة المسلم حتى في حالة نزاعه مع أخيه المسلم كي لا تفسد علاقة الود القائمة بينهما مهما حدث من خصام وشجار ، وهو بهذا التدخل كأنه يدعو الطرفين إلى التحاكم إليه والاسترشاد بنصائحه وتوجيهاته لكف هذا الخلاف ودفع ذلك الشجار ، فإذا ما رجعا إليه وجدا الدواء الشافي والعلاج المفيد والحل المرضي ، شريطة أن يتبعا توجيهاته ويعملا بأصول آدابه وهما في حالة التأزم والانقسام .. فما هي يا ترى أصول الآداب لمعالجة الخصام في القرآن الكريم ؟ ، هذا ما سنراه مبينًا في فصول هذا الباب .

---

١ الآية ٢٩ من سورة النبأ

٢ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الدخان

٣ الآية ١٢ من سورة يس

٤ الآية ٧ من سورة آل عمران

٥ صحيح البخاري / كتاب العلم / باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الديـن / ج ١ / ٢٧

الفصل الأول

أصول عامة لأدب الخصومة

الأصل الأول (الإنصاف) :

هو الذي يراد به العدل والقسط ، وهو ميزان الاعتدال والتوسط في تحقيق المساواة ، ونصر الحق على الباطل ، ووضع الشيء في موضعه اللائق به ، وهو البحث عن الحقيقة والوقوف عندها ، وهو أصل من الأصول الراسخة في الشريعة الإسلامية ، دعا إليه القرآن وأمر بالالتزام به في حالة اشتداد الخصومة والمجادلة، ونهى عن ضده وهو الظلم والبغي والجور عن طريق المكابرة والاستعلاء على الحق ، قال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[1] .

والإنصاف هو قول الحق والإقرار به ، ولو كان على الإنسان نفسه ، يقول تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به** ﴾[3] ، وأمر الله بالعدل حتى في ساعة البغض والكراهية وفي حالة الغضب ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[4] .

فلا يصلح الحكم إلا بالعدل ، ولا تستقيم أحوال المرء المادية والمعنوية إلا

---

١ الآية ٩٠ من سورة النحل

٢ الآية ١٥٢ من سورة الأنعام

٣ الآية ٥٨ من سورة النساء

٤ الآية ٨ من سورة المائدة

بالعدل ، فكأنما العدل مقصد من مقاصد القرآن الكريم ، من أراد التمسك به لا بد أن يحقق هذا المقصد ويطبقه على نفسه أولاً ثم على الآخرين ثانيًا ، قال تعالى : **﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾**[1] .

فالمؤمن مدعو إلى أن يعدل في حكمه ، ويعدل في شهادته ، ويعدل في قوله ، ويعدل في فعله ، وأن لا يمنعه خصامه وجداله مع الآخرين أن يقر بالحق ويرجع إليه ، فليس من العدالة في شيء أن يعلم الحق فيهجره ويأتي الباطل فيستمرأه ، والإنصاف كذلك يعني الصدق في القول والعدل في الحكم حتى ولو كان في صالح الخصم ، لأن الغاية في ذلك ابتغاء رضا الله والطمع فيما عنده من جزاء .

فما أحوج المسلمين وهم في حالة الخلاف والشقاق والتخاصم والجدال أن يأرزوا إلى مثل هذا المبدأ فيطبقوه عمليًا ، لا تأخذهم في ذلك عزة بأثم ، ولا يطغيهم غرور بجهل ، فيستطيل بذلك للباطل قرن ، ويقصر باع الحق ، فتزل الأقدام ، وتتعثر النفوس ، وتسلب الحقوق ، وتضيع المسئوليات .

وكم من خصام طالت سنواته ، وآفته اخفاء الحق واظهار الباطل ، ولو أنصف المسلمون أنفسهم من أنفسهم لأصبحوا في ظل خلافة وليسوا في حكم دويلات .

مواقف مثالية في دائرة الإنصاف :

إن النفس البشرية ، جبلت على حب الذات في اشباع غرائزها الفطرية في الجوانب المادية والمحسوسة ، كما قال تعالى : **﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾**[2] .

---

١ الآية ١١٥ من سورة الأنعام

٢ الآية ١٤ من سورة آل عمران

إن هذه النفس رغم ما أوتيت من قدرة على اشباع هذه الغرائز ماديًا إلا أنها بالعقيدة الخالصة دعيت أن تسمو بما فيها من روح فوق هذا المتاع المؤقت طمعًا لما عند الله من نعيم مقيم ، هذه النفس تذكرت أن متعة الدنيا مهما طال بها الزمن فهي فانية ، ففكرت بإمعان وروية وصدق أن الاهتمام بالآخرة أولى وأجدر حيث هي تقرير المصير ، حساب ونقاش فإما جنة وإما نار ، وإذا تذكرت هذا الموقف اهتدت بإرادة خالقها أن تظل في الحياة الدنيا تحت مراقبة الضمير والاحساس الباطني ، وأنها إذا ما اقترفت ذنبًا أو ألم بها كرب تذكرت موقفها مع خالقها في يوم القيامة ، وما ينبغي لها أن تفعله طلبًا لرضاه واتقاء لسخطه وادراكًا للنجاة من ناره ، وطمعًا للفوز بالجنة .. هذه النفس هي المؤمنة حقًا ، وهي التي تعيش في الحياة الدنيا بين لوم وعتاب وخوف ورجاء . هذه النفس كأنما خلقت لتكون صفحة من صفحات الحق تحيا مع العدل والإنصاف في كل دقيقة من عمرها ، وقد وجدت هذه النفس عبر فترات من التاريخ وهي في ذات الوقت ليست نفس أنبياء ولا ملائكة ، ولكنها نفس بشر عادي استحق أن يخلد الله ذكرها في كتابه العزيز لما ضربت من أمثلة حقيقية في عالم القيم والأخلاق والعدالة والإنصاف مع الذات والدين والمجتمع ، ولعلنا ونحن نعرض شيًا من نماذج هذه النفس في مثالياتها العادلة أن ندل من أراد أن يقتدي بها نحو الكمال الخلقي والأدب الرفيع ساعة اشتداد الأزمات وتوالي الخطوب ، وأن لا تنسيه هذه المحن أن يقول الحق ، ولو كان فيه حتفه ، متأسيًا بإخوانه المؤمنين الذين ضربوا له المثال العملي في جانب العدل والإنصاف كما دلت عليه سيرتهم العطرة من خلال هذه اللمحات البسيطة من حياتهم الخالدة .

الموقف الأول (انصاف مع الذات) :

نقلت لنا كتب الحديث والسيرة أغرب موقف تجلى فيه الإنصاف والعدل مع النفس لم يشهد له التاريخ مثيلاً منذ العهد الأول من الإسلام إلى يومنا هذا ، وقد كان هذا الموقف تَلَبسٌ بجريمة الزنا من قبل شخصين كانا في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكانا في حالة ارتكابهما لهذه الجريمة بعيدين عن أنظار

الناس ، وكان بإمكانهما السكوت على هذا الفعل حيث تم برضا الطرفين ، كما يحدث في عصرنا الحاضر ، ولكن يقظة الضمير ، وحساسية الشعور ، وصدق الإيمان دفعهما إلى الإقرار والاعتراف بهذا الذنب أولاً ، ثم لإدراكهما العميق ما لهذا الذنب من عقوبة عند الله يوم القيامة ، فقد طمعا أن يتطهرا في الدنيا، لعل الله أن يخفف عنهما عقوبة الآخرة ، وهذا ما قدما عليه ثانيًا ، ونعني بذلك قصة (ماعز والغامدية) ، وإلحاحهما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يطهرهما من هذا الذنب ، والرسول يحاول أن يدرأ عنهما حد الرجم ، حيث كانا محصنين ، وذلك لعلهما وقعا في شبهة تصرف عنهما تنفيذ هذا الحد ، ولكن لأن المذنبين قد أخلصا نيتهما لله ، فأبيا إلا الإقرار بالذنب والمطالبة بالتطهر ، وهما يعلمان أن نهاية التطهير الموت ، ولكن انصافا مع نفسيهما ، وعدلاً مع ربهما فضلا عذاب الدنيا قبل الآخرة ، فما كان من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا أن طبق عليهما الحد بعد أن استكمل شروطه وآل أمرهما إلى الله ، ولم ينتقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أعلن قبول توبتهما من قبل الله – جل وعلا – ورضاه عنهما ، والأمر بالاستغفار لهما ، وهذا لعمرك عدل مع النفس لم يدانيه عدل في الدنيا[1] .

الموقف الثاني (انصاف مع العقيدة) :

هذا الموقف لا يقل عظمة وهيبة عن سابقه من السمو بالروح على مطالب الجسد وملذات النفس ، وهو في نفس الوقت ارتقاء بالإنسانية من مستوى الحضيض في فساد العبادة وسوء الخلق إلى تصحيح الاعتقاد وإخلاص العبودية لله ، وبلوغ الذروة في عالم القيم والأخلاق الفاضلة ، هذا الموقف تجلى بصدق وإخلاص في حادث الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة ، فما أن استقر بهؤلاء المهاجرين من الرجال والنساء والصبية المكان بجوار ملك الحبشة (النجاشي) فرارًا بدينهم من إيذاء قومهم ، وكلنا يعرف أن هذا الملك يخالف المهاجرين والمجاورين عنده في الدين والعقيدة – فهو نصراني – وهم مسلمون ، وقومهم

---

١ العدالة الاجتماعية في الإسلام / ص ١٦٩

مشركون يعبدون الأصنام ، ومع ذلك التجأ هؤلاء المهاجرون إلى هذا الملك ، كما أشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصفه بأنه لا يظلم عنده أحد ، إلا أنه وهو مفارق لهم عن دينهم كان لا بد أن ينصر عدوهم عليهم ويسلمهم لقومهم ، وفعلاً أرسل قومهم من يشير على الملك بردهم إليهم ، وكان الأحرى بالمهاجرين وهم يعلمون أن الملك على غير دينهم أن يستخفوا بدينهم وأن لا يسبوا آلهة قومهم وهم ضيوف عند هذا الملك ، ولكن موقف العدل والإنصاف جعلهم يعلنون عن دينهم ويبينون حالتهم قبل الإسلام وحالتهم بعده ، والمقارنة بين الحالتين تعلن جانب العدل في مفارقة قومهم والتمسك بالدين الجديد . وهذا يظهر جليًا واضحًا من خلال ردهم على رسل قومهم بين يدي النجاشي إحقاقًا للحق وإظهارًا للعدل الذي حدا بالنجاشي أن يتخلى هو عن دينه ويدخل في الإسلام بعد أن سمع ما قاله المهاجرون ، وما ذاك إلا لأنه رأى أن هذا هو العدل والحق الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان ، وكان مما قاله المهاجرون : (أيها الملك كنا قوم أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فأمرنا بتوحيد الله وعبادته وترك ما كنا نعبد وآباؤنا من الأوثان ، كما أمرنا بصدق الحديث وآداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة)[1] .

لعمرك أن مثل هذا الرد ليوغر قلب رسل القوم عليهم من ناحية ، ويحرك الدافع لدى النجاشي أن يقف ضد المسلمين لتخليهم عن دين قومهم من ناحية أخرى ، ولكن العدالة حين استدعت أن يكون هذا هو الجواب ، حركت الضمير الداخلي لدى النجاشي أن يتجه نحو الإسلام كأعدل دين رآه في عهده ، مع أن دينه من السماء كما هو الحال في الدين الإسلامي ، إلا أن الفارق بين الدينين أن الأول تطرقت إليه يد التحريف ، وأن الإسلام غضًا في نزوله شاهدًا على صدق

---

١ السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١/ ٣٥٦

أتباعه ومعتنقيه ، وتكفي إجابتهم كشهادة على عدله واستقامته ، وحسبهم من موقفهم هذا أنهم كانوا أحوج إلى الصمت وترك التصرف للملك لأنهم في حمايته ، ولكن النفس التي امتلأت بالحق والقلب الذي ذاق طعم الإيمان أبى أن يؤثر الصمت جبنًا على قول الحق ولو كان فيه الإيذاء والضرر ، فهل تأسى من حملهم الله أمانة هذا الدين بهؤلاء القوم في يومنا هذا ليعلن كلمة الحق أمام سلطان جائر؟!! .

الموقف الثالث (انصاف مع المجتمع) :

وهذا الموقف وضح شأنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله : « **إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة** . قلنا : لمن يارسول الله ؟ . قال : **لله وكتابه وأئمة المؤمنين وعامتهم ، وأئمة المسلمين وعامتهم** »[1] .

وكأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبين في هذا الحديث واجب الفرد المؤمن تجاه إخوانه المؤمنين في هذه الحياة وهو يعيش بينهم ويتفاعل معهم ويحتك بهم ، فيرى منهم اختلافًا ويرون منه مثل ذلك ، ولكن هذا لا يصده عن قول الحق إذا ما طلب منه مثل ذلك وهو يعلم به غير عابيء بمعايير الأرض إذا هو أراد وجه الله وقصد رضوانه ، وهذه هي الرابطة التي ينبغي أن تسود بين أفراد المجتمع الإسلامي ، وقد وضح القرآن رابطة الإخلاص في الحق في أكثر من موضع ، قال تعالى : « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** »[2] .. وقال تعالى : « **والذين هم بشهاداتهم قائمون** »[3] .

رابطة الإخلاص في الأمانة ، ورابطة الإخلاص في الشهادة ، ورابطة الإخلاص في النصيحة نوع من العدل والإنصاف في العلاقات الإنسانية عامة وفي العلاقات الإسلامية خاصة ، وإذا ذهبنا نستقرئ نماذج الإخلاص في

---

١. سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب في النصيحة / ج ٤ / ٢٨٦

٢ الآية ٣٢ من سورة المعارج

٣ الآية ٣٣ من سورة المعارج

النصيحة والاستشارة في العلاقات الإسلامية لوجدناها جمة كثيرة في عهد الإسلام الأول ، ضرب أصحابها المثل الأعلى في عدل النصيحة ، آثرنا أن ننقل للقارئ الكريم موقفًا من هذه النماذج المخلصة لعلنا نتأسى به أدبًا مع الله وكتابه ورسوله ، وإخلاصًا لعلاقاتنا مع بعضنا البعض ، وإنصافًا لواجب الإخوة الإيمانية في ميدان العقيدة والعمل ، ذلكم الموقف يحدث بين صحابيين من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحدهما مولى والآخر سيد في القبيلة العربية الأصيلة ، ونترك الموقف يتحدث عن نفسه :

أراد أبو رويحة الخثعمي(1) أن ينكح امرأة من قوم من أهل اليمن ، ورأى أن الوصول إلى هذا الأمر لا يتم إلا بتوسيط رجل من قومه يعرفه لهؤلاء القوم لعل هذا الوسيط يكون قدم السعد للموافقة والقبول في طلبه ، وكان من عادة العرب أن يسألوا عن خاطب ابنتهم من حيث منزلته في قومه ، وقد أيد الإسلام هذه العادة إلا أنه هذبها وارتقى بها إلى المستوى الروحي عن الجانب المادي ، وجعل الاستشارة في هذا الأمر أمانة ونصيحة أكد على الإخلاص فيها والاهتمام بها ، الأمر الذي جعل المسلمين الأوائل يقدمون على تطبيقها بإيمان خالص وسلوك سوي ، فلم ير أبو رويحة أفضل من سيدنا بلال بن رباح – رضي الله عنه – أن يقوم بهذه المهمة ، وكلنا يعرف من هو بلال ، مؤذن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، ومن أوائل المسلمين من الموالي ، وقد أبلى بلاء حسنًا في الإسلام بصبره على الأذى وتحمله أعباء الدعوة الإسلامية إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رضي الله عنه وأرضاه ، هذه المناقب لسيدنا بلال أهلته لأن يكون الوسيط المختار، فكيف قام بلال بهذه المهمة ؟ .

نترك بلالاً يحدثنا عن دوره الذي قام به بنفسه ، فما أن كلفه أخوه أبو رويحة في هذه المهمة حتى وجدناه يصطحبه إلى القوم أنفسهم ، ويقف بين أيديهم

---

(1) نقل ابن هشام في السيرة النبوية ج ١٥٣/٢ : (أن أبا رويحة الخثعمي من الأنصار الذين آخى بينهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع المهاجرين ، وكان أبو رويحة وبلال بن رباح أخوين. ويروى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد عقد لأبي رويحة لواء عام الفتح وأمره أن ينادي : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن ...) أ.هـ.

وبجانبه أبو رويحة الخثعمي والقوم يعرفون بلالاً ولا يعرفون صاحبه ، فقال لهم بلال : (أنا بلال بن رباح ، وهذا أخي أبو رويحة ، وهو أمرؤ سوء في الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا) ، فما كان من القوم بعد أن سمعوا مقالة بلال – رضي الله عنه – إلا أن زوجوا صاحبه دون تردد ، لا لتوسط بلال ، ولكن لمقالة بلال الصادقة ولبره وإخلاصه في النصيحة ولإنصافه في الأمانة والمسئولية أمام الله – سبحانه وتعالى – ، وكان بإمكان بلال أن يحجب هذا الحق عن هؤلاء القوم ويمدح صاحبه أمامهم بأفضل الكلمات وأحسن الإطراءات ، ولكن المؤمن الحق يأبى أن يكون مدلسًا أو غاشًا لإخوانه الذين استأمنوه على أعز شيء لديهم ، ابنتهم التي سوف تقيم مع هذا الصاحب ، أسرة ربما يطول بها العهد ، فلا بد أن يكون الزوج كفؤًا لها دينًا وأخلاقًا ، وهما شرف المسلم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وكثيرًا ما يحدث مثل هذا الموقف في أيامنا ، فهل استرشدنا بمثل فعل بلال ؟ وهل صدقنا مع أنفسنا ومع غيرنا ؟ وهل اعتبرنا حمل الأمانة وأداء الواجب الأخوي بين بعضنا البعض حقًا وإنصافًا لكل مسلم دونما خصومة أو عداوة ؟ .. هذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في جميع فجاج الأرض في أحوالهم الشخصية وعلاقاتهم الإنسانية[1] .

وأخيرًا لعلنا وفقنا في اختيار هذه المواقف الثلاثة والتي تجلى فيها مبدأ الإنصاف والعدل من أناس صنعهم القرآن وهذبتهم السنة ، لا يفرقون عنا إلا في مبدأ الإلتزام ، وإن نحن التزمنا بما التزموا به تحررنا من طغيان المادة وتخلصنا من أذيال التبعية والتقليد ، وعشنا بسمو الروح وعزة النفس تحت ظلال العدل الإسلامي لا غير .

الأصل الثاني (الحكمة في التعبير) :

لا شك أن الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني متميز بأنواع مختلفة من الأساليب والتعبيرات ، وهو سر إعجازه في الفصاحة والبيان ، وإذا أخذنا طريقة القرآن في معالجة الخلاف والخصام بين الناس نجدها هي الأخرى متنوعة

١ العدالة الاجتماعية في الإسلام / ص ١٧٧

الأساليب ومتعددة الألوان في الإشارة والتعبير ، ونعني بالتعبير هنا الافصاح عما يكنه القلب وعما يدور في الشعور الباطني عند الإنسان ، قبل أن يترجم إلى سلوك عملي إما بالسلب أو بالإيجاب ، فنجد القرآن قد سلك طرائق شتى في توجيه الناس عامة والمسلمين خاصة ، فتارة يبين لهم عوامل الفرقة للابتعاد عنها ، وتارة يحضهم على فعل الخير لنيل المثوبة والجزاء عند الله ، وأحيانًا يدعوهم إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة كي تسود الألفة والمحبة بين بعضهم البعض.. وكل هذه الأساليب تعد أصولاً وقواعد للقيم والآداب في الشريعة الإسلامية تتحدد بموجبها أنواع من نماذج العلاقات الإنسانية المهذبة ، والقرآن الكريم فوق أنه كتاب هداية وإرشاد غير أنه دستور التعايش الصادق وقانون التعامل السليم ، ورباط الإخوة المتين .. لذا سلك بالمسلمين أفضل السبل في طريقة التخاطب والتعبير في حل الخلاف وشجب النزاع تمثلت في المجالات التالية :

١ - التصريح بمبادرة الإساءة بالإحسان :

اتسم التعبير الخطابي في القرآن باسلوب المدح في كثير من آيات القرآن الكريم للذين يقابلون الإساءة والإيذاء بفعل الحسنات والمداومة على الطاعات ، قال تعالى : ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار**﴾[١] .

وهذه دعوة إلى عدم العقاب بالمماثلة قطعًا لدابر الخلاف ، وحسمًا لموقف النزاع ، وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٢] .

وفي نفي المساواة بين الحسنة والسيئة من حيث الآثار والنتائج يقول تعالى : ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا**

---

١ الآية ٢٢ من سورة الرعد

٢. الآية ٥٤ من سورة القصص

الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[1] .

وأمر الله عباده بأن يكون قولهم حسنًا لكل الناس على اختلاف عقائدهم ، قال تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسنًا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾**[2] .

وقرر الله – سبحانه وتعالى – أن فعل الحسنات يقضي على أثر السيئات ويمحوها من القلوب والسلوك ، قال تعالى : ﴿ **وإقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾**[3] .

ويزداد المعنى وضوحًا نحو تحقيق هذا الأصل في جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ففي الحديث عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** »[4] ، ومن حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وأرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب** »[5] .

٢ – التدرج في التأديب والاصلاح :

إن من إعجاز القرآن البلاغي التدرج في التشريع سواء كان ذلك في الأحكام أو في التهذيب والتوجيه ، وما ذاك إلا ليضع أهدافًا سامية لمعالجة

---

١ الآية ٣٤ من سورة فصلت

٢ الآية ٨٣ من سورة البقرة

٣ الآية ١١٤ من سورة هود

٤ سنن الدارمي / باب في حسن الخلق / ج ٢ / ٣٢٣

٥ سنن الترمذي / كتاب الزهد / باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس / ج ٤ / ٥٥١

الخلاف إذا نشأ بين الناس على اختلاف مسئولياتهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض ، وهذا يدل على أن الله – سبحانه وتعالى – يدعو عباده المؤمنين إلى ابقاء العلاقات والأواصر بين بعضهم البعض حسنة وطيدة حتى ولو حامت حولها سهام الخلاف والنزاع ، فسرعان ما تذوب هذه الخلافات إذا اعتصم المؤمنون بهدي الكتاب والسنة ، وتأدبوا بأدابهما وتحاكموا إليهما وحكموهما في حياتهم اليومية ، وإن الكتاب والسنة لفيهما الواسع الكبير لامتصاص مثل هذه الخلافات التي تبدو وقد يستحيل على الناس التخلص منها لعدم حسن التصرف في معالجتها ، بعيدًا عن القرآن والسنة الذين بينا طرائق العلاج بيسر وسهولة .

فأحيانًا يقوم الخلاف في البناء الأسري فاذا ما أهمل أو عولج بسوء التصرف أدى إلى الفراق والتشتت ، ولكن القرآن أعطى العلاج لو اتبعت سبله لنجت الأسرة وتماسك البناء، يقول تعالى : ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًا كبيرًا** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿**وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما إن الله كان عليمًا خبيرًا** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير**﴾[3] .

وعندما يكون الخلاف والخصام نتيجة لنقل كلام الغير ، فقد نهى الله عن الأخذ به أو ترتيب أمر مغاير له إلا بعد التأكد من صحة هذا النقل والإعلام بحال الناقل وسيرته ، قال تعالى : ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾[4] .

---

١ الآية ٣٤ من سورة النساء

٢ الآية ٣٥ من سورة النساء

٣ الآية ١٢٨ من سورة النساء

٤ الآية ٦ من سورة الحجرات

وحتى في ميدان الحرب والقتال طلب من عباده المؤمنين أن يسلكوا طريق الأدب والتهذيب ، كي لا يوصفوا بالغدر والخيانة من ناحية وألا يكون الظلم والاستبداد شعارًا لهم من ناحية أخرى ، وأن يكونوا أسبق إلى الحكمة وإيثار السلم والعفو عن غيرهم كمبدأ من مبادئ الدعوة الإسلامية في الأخذ بأسباب الصلح ومنع الظلم من السيطرة والانتصار ، قال تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما علي الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾[2] .

٣ - الدعوة إلى كظم الغيظ وايثار العفو مع القدرة على العقاب :

دعا الله عباده المؤمنين إلى تجنب الغضب لأنه مما يدعو إلى إثارة الجدل وتصعيد حدة الخلاف ، وامتدح الله عباده الذين يحبسون أحاسيس الغيظ ومشاعر التوتر العصبي داخل أنفسهم التزامًا بأدب القرآن واقتداء بسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - امتدح الله عباده المؤمنين الذين يؤثرون العفو والصفح والتسامح وهم في تمام القوة والمقدرة على العقوبة والمؤاخذة ، ولكن تركوا ذلك طمعًا في رضى الله وما أعده لهم من نعيم في الجنة .

ولا شك أن من يغفر لأخيه زلته ويتجاوز عن حقه بالعفو والصفح ، وقبول العذر من غير ضعف ولا ذلة ، لا شك أن هذا عند الله أفضل درجة من الذي لا يسترد حقه إلا بالإيذاء والضرر لخصمه ، لا يدفعه إلى ذلك إلا الغرور والكبرياء ، غير عابئ بما بينه وبين أخيه من علاقة الدين والعقيدة وكأنه لا قيمة للرابطة الإنسانية عنده إلا للمصلحة وحسب ، لهذه الاعتبارات جاء التعبير القرآني باسلوب المدح في هذا الشأن كلون من ألوان القدوة في علاج الخلاف والقضاء

---

١ الآية ٥٨ من سورة الأنفال

٢ الآية ٩ من سورة الحجرات

على الخصومة ، قال تعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم**﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا إولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾[5].

وفي السنة من هدي المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ما روته عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : (ما خير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها)[6] ، وعنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله**»[7]، وعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا اقتضى** »[8] ، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال:

---

١ الآية ٣٧ من سورة الشورى

٢ الآية ٤٠ من سورة الشورى

٣ الآية ١٤ من سورة التغابن

٤ الآية ٢٢ من سورة النور

٥ الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

٦ صحيح البخاري / كتاب المناقب / باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم / ج ٤ / ٢٣٠

٧ سنن ابن ماجة / كتاب الزهد / باب الحلم / ج ٢ / ١٤٠١

٨ سنن ابن ماجة / كتاب التجارات / باب السماحة في البيع / ج ٢ / ٧٤٢

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[1].

وهكذا نجد كيف أن القرآن يدعو إلى العفو والتسامح والابتعاد عن الغضب، وهي من حسن أخلاق المسلم إذا تمسك بها وعمل بها في وقت اشتداد الخصومة، ألان الله له خصمه وكف عنه أذاه ، وخلص الله له حقه من غير بذاءة ولا صخب ، وإن تركه عافيًا عوضه الله خيرًا جزيلاً مما أخذ منه في الدنيا ، ولا شك أن هذه الأخلاق لخير دليل على إنهاء الخصومة في حالة الجدل والمراء الذين من شأنهما اشعال نار الفتنة وتحريك سورة الغضب لدى المتخاصمين ، الأمر الذي تصبح الخصومة فيه هي المسيطرة على النفوس إذا لم يتخذ فيها موقف حاسم ينتهي بالصلح أو العفو والتسامح والمصافحة سادت بين الناس الفرقة والبغضاء والعداوة التي تقطع أواصر المحبة والوئام ، وتقضي على ذات البين كأنها الحالقة لا تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين .

٤ - التحلي بالصبر والتذرع بالهجر الجميل :

وهذا نوع من أنواع الأساليب التعبيرية في الخطاب القرآني ، والقصد في ذلك تطبيع النفس على إخماد ثورة الغضب من ناحية ، والقضاء على عادة الأخذ بالثأر من ناحية أخرى ، ثم تهذيب النفس في حالة تحولها إلى نوازع الشر بأن لا تستمرؤه أو تتعود عليه إلا أن تأخذه على سبيل المعاتبة والاعتذار ، وهذا ديدن المؤمن الذي يرعى حقوق إخوانه عليه ويقدر علاقته بهم ، فيكون في منزلة بين منزلتين ، لا في مقام الشدة المؤدية إلى الجفاء والخصام ، ولا في مقام اللين المؤدي إلى ضياع الحقوق وإهمال الواجبات ، وشفاء للنفس بما يعتريها من حالة الانقباض والانبساط .. جاء التهذيب القرآني ليعلو بها من مستوى الحضيض الدنيوي المتعلق بالمادة والمصلحة إلى سمو الملكوت الأعلى ، حيث الرضا الإلهي والجنان الخالدة والنعيم المقيم لمن ترك خصام الناس ومجادلتهم أو الخلاف معهم في أمر يعلم أن التجاوز عنه في الدنيا يحقق له الفوز بالجنة والنجاة من النار ،

١ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب الحذر من الغضب / ج ٨ / ٣٤

قال تعالى : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط** ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين** ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾[6] .

وجاءت السنة لتؤكد على هذه المعاني وتزيدها بيانًا وتفسيرًا ، فإذا ما التزم بها المسلم شعر بحقيقة وجوده بأن لا هم له في الدنيا إلا أن يعمل صالحًا ابتغاء وجه الله في الدار الآخرة .. جاء في الحديث عن أبي يحيى صهيب بن سنان – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن اصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وأن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[7] ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[8] .

وهكذا نجد أن التوجيه القرآني والهدي النبوي يتعاضدان في تهذيب أخلاق

---

١ الآية ٢٢ من سورة الرعد
٢ الآية ١٢٠ من سورة آل عمران
٣ الآية ٤٦ من سورة الأنفال
٤ الآية ١٠ من سورة المزمل
٥ الآية ١٢٦ من سورة النحل
٦ الآية ٤٣ من سورة الشورى
٧ صحيح مسلم / كتاب الزهد / باب المؤمن أمره كله خير / ج ٨ / ٢٢٧
٨ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر / ج ٨ / ٢٣

المؤمن ، وحمله على كسر جماح نفسه ، وحبسها في محراب الطاعة ، والارتقاء بها فوق نزوات الغريزة وشهوات المادة ، كما يعملان على توجيه تطلعاته المستقبلية نحو ما أعده الله لعباده الصابرين ، وعباده المتجاوزين ، وعباده الكاظمين الغيظ ، هؤلاء الذين تعلقت نفوسهم بحب ربهم وحب نبيهم ، مما دل عليه صدق أعمالهم وأخلاص سرائرهم ، فآثروا الآخرة على الدنيا ، فاطمأنت قلوبهم ، وصفت نياتهم وحسنت أخلاقهم ، وماتوا ولم يكن في قلب أحدهم مثقال ذرة من حقد ولا حسد ولا عداوة ولا بغضاء .. فطوبى لمن جالسهم واقتفى آثارهم واهتدى بهديهم .

الأصل الثالث (افتراض الصواب عند الخصم) :

كثير من الناس وهو يبحث في قضايا الخلاف للوصول إلى الحقيقة ليحدوه الأمل أن يكون ما توصل إليه عبر القرائن والأدلة هو الحق المحض الذي يجب أن لا يرقى إليه ريب ولا ظن ، وهذه النظرة عند الإنسان فطرية نابعة من غريزة حب الذات بأن الإنسان يرى نفسه دائمًا على حق في كل ما يدعي أو يقول ، وكأن الإنسان من منطق هذه النظرة ليضع نفسه في مجال التزكية والترجيح بأن رأيه الصائب وأدلته الراجحة ، وأن حجج غيره داحضة وأدلتهم مرجوحة ولو كانت موافقه للشرع والعقل والمنطق .. ولعمرك أن مثل هذا الإنسان لا يجني من علمه سوى ثمار الجهل والحمق إن كان عالمًا ولا يحصد من سلوكه سوى الشطط والمغالطة نتيجة التبعية والتقليد ، لأن العصمة في بني الإنسان لم تكتب إلا لمن كان في عداد الملائكة ممن أصطفاهم الله في الجنس البشري وهم الأنبياء والمرسلون فحسب ، وأما ما عداهم فهم ليسوا بمعصومين ، وحيث انتفت العصمة عنهم فليسوا بمدركين الكمال في كل شيء إلا بما أوتوا من علم الله وهدايته ورحمته عليهم بعلمه المطلق بما خلق لهم من نفس تتقلب بين الجهل والغفلة والنسيان والخطأ من ناحية ، فتزكو بالعلم والتقوى والفطنة والتذكر من ناحية أخرى ، وقلما تسلم النفس من هذه الآفات ، يقول تعالى : ﴿ **وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾[1] .

---

١ الآية ٥٣ من سورة يوسف

من أجل هذا نهى الله الناس أن يزكوا أنفسهم اعجابًا بما أوتوا من سعة في العلم أو بسطة في الجسم ، قال تعالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا تظلمون فتيلاً** ﴾[2] .

ومهما ترقى الإنسان في درجات العلم فسيظل قاصرًا في علمه ، جاهلاً في معرفته بالأشياء ، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ **وما أوتيم من العلم إلا قليلاً** ﴾[3] .

ومن هذا المنطلق يجب على المسلم قبل غيره من الناس أن يشعر نفسه وهو يخاصم غيره في دعوى الخلاف أنه ليس بمعصوم من الخطأ ، وأن الصواب ليس حجرًا عليه دون غيره ، وأن مجادلته في الحق تقتضي الإنصاف والعدل ، وأن لا يلقى خصمه باللجاجة والإفحام دون التمحيص لأدلة الخصم وبراهينه إذا كان بغيته إظهار الحق سواء كان على يديه أو على يد خصمه ، وخصوصًا إذا كانت مسألة الاختلاف مما تتضمن أوجه الاحتمال والترجيح ، وفي هذه الحالة على المجادل أن يفترض الصواب عند خصمه حتى يتبين له بالأدلة القاطعة الوصول إلى الحق الذي ينقاد إليه الطرفان بالرضا والقبول ، وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن يكون في كل جدال ومخاصمة ، وأن مجاراة الخصم فيما يدعيه لا تعني الرضى بما يقول بل هو من باب الأدب في المجادلة والنقاش ، والتواضع الرفيع والخلق السامق من مميزات الشخصية الإسلامية ، فكلما طوع المسلم نفسه للإذعان للحق كلما ضيق دائرة الخلاف بينه وبين خصمه .. ويظهر هذا واضحًا من خلال المجالات التالية :

---

١ الآية ٣٢ من سورة النجم

٢ الآية ٤٩ من سورة النساء

٣ الآية ٨٥ من سورة الإسراء

أولا : اتهام النفس في موقف الخصومة والمجادلة :

على الخصم المجادل إذا ما أراد أن يتمسك بآداب القرآن والسنة في هذا المجال ، لا يسعه إلا أن يذلل نفسه وأن يطوعها لاتباع الحق الذي يبحث عنه في خصومته مع أخيه، فينبغي ألا يعطي لنفسه الثقة المطلقة والبراءة المتناهية بأنه على حق في ما يدعي ، وأن دعوى خصمه باطلة ، بل لا بد أن يضع نفسه في موضع الاتهام والقصور ، وعدم الوصول إلى الحق المتنازع عليه بالإلحاح واللجاج ورفع الصوت وحلف الأيمان والاستنجاد بأعوان الباطل ليحول الحق إلى جانبه وليذل خصمه ويقهره .. كل ذلك ليس من أدب الخصومة في شيء ، بل من أدب الخصومة في هذا الشأن أن يستمع إلى دعوى خصمه ، وأن يشعر نفسه أنه ليس محقًا حتى يتبين له الدليل إن كان عنده أو عند أخيه ، وأن لا يستغل وضعه الاجتماعي أو منصبه الوظيفي محتقرًا دعوى خصمه غير مكترث بخوف الله وعقابه، وعليه أن يكون متواضع النفس أمام شرع الله وحكمه ، هدفه الأول والأخير في مخاصمته لغيره العدل والإنصاف من غير مفاخرة ولا رياء .

ولقد عرض القرآن أنواعًا من نماذج الأدب الرفيع في هذا الشأن ، نكتفي منها بموقفين مثاليين دليلاً على اتهام النفس في موقف النزاع :

الموقف الأول (من سورة « يوسف ») :

ذكر الله في هذه السورة قصة سيدنا يوسف بن يعقوب – عليهما السلام ، والقصص في القرآن جاء للعبرة والذكرى لمن يريد الاقتداء والاتباع ، كما قال تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾[1]

والذي يعنينا في هذه السورة الموقف الذي تقابل فيه سيدنا يوسف – عليه السلام– مع امرأة العزيز في مقام الفصل والقضاء ، وقد قص الله علينا جوانب هذا الموقف عبر الآيات الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ **وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة**

---

١ الآية رقم ١١١ من سورة يوسف

اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم * قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين * وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفورٌ رحيم ﴾[1] .

وخلاصة هذا الموقف أنه لما مكن الله سيدنا يوسف - عليه السلام - من تفسيره لرؤيا الملك ، وأعجب الملك بهذا التأويل الذي دل على فضل يوسف - عليه السلام - وأخلاقه وحسن أدبه وما اشتهر به في مصر بلد العزيز ، كل ذلك عزز صدق يوسف - عليه السلام - عند الملك ، وأن إدخاله السجن في قضية ادعاء امرأة العزيز ومراودته لها أمر لا مبرر له ، بما جعل الملك يطلب اخراجه من السجن ، ولكن يوسف - عليه السلام- وهو النبي المعصوم مما أتهم به لم يعط لنفسه البراءة والثقة في دعواه ولم يسمح لنفسه بالخروج من السجن حتى يستفهم الملك عن دعوى الاتهام والحكم بالسجن ، وذلك باستجواب النساء اللواتي جاملن امرأة العزيز في دعواها والتحقيق في الأمر من امرأة العزيز نفسها ، وهو يعلم أنه صادق لنبوته وعفته ، كل ذلك لم ينسه أو يصده عن أن يثبت موقفه بهذا الأدب الرفيع بأن ترك خصمه يحضر أدلته ويدافع عن نفسه ، مفترضًا أن الصواب عند خصمه حتى تجتمع الأدلة والبراهين ، ولكن الحق هو الحق ، لا ينزوي عن عين الشمس ولا يخفى عن ضوء القمر، فجاءته الحقيقة من الخصم مرتبة حسب إرادة الله تعالى :

﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾

﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾

﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن

---

١ الآيات من ٥٠ - ٥٣ من سورة يوسف

نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾

﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

هذه الأدلة كلها صدرت من الخصم ، ويوسف – عليه السلام – يسمع بين يدي العزيز وكأنه اعتراف من امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه ، وهو المعصوم المبرأ مما قالوا واتهموه به ، وبهذا الاعتراف كأن امرأة العزيز تقول : لست أبرئ نفسي ، كأن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته : ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾[1] .

وأخيرًا فهذه القصة يتجلى فيها موقف العبرة ومقام القدوة بين نبي وفرد عادي ، ولكن العدل أبى إلا أن يكون في نصابه ، فكان من جانب النبي أن ترك لخصمه الدفاع ملتمسًا له العذر ، وكان من جانب الخصم أن اعترف بالحق أنه عليه ، وأن النبي بريئ عفيف .. ولعمرك أن مثل هذا الموقف تحدث الخصومات ، فإذا ما سويت بهذا الأدب ظهر الحق ، واستبان العدل ، وشاع الأمان .

الموقف الثاني (من سورة " ص ") :

ذكر الله لنا في هذه السورة قصة سيدنا داود – عليه السلام مع الخصمين اللذين دخلا عليه بغير العادة وفي وقت عبادته وخلوته مع ربه ، وخلاصة القصة تبينها الآيات الكريمة ، يقول تعالى : ﴿ **وهل أتاك نبوء الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب * فغفرنا**

---

١ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير / ج ٢ / ٣٨١

له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[1].

يقول المفسرون حول هذه الآيات[2] :

إن سيدنا داود - عليه السلام - قد خصص وقتًا لانقطاعه فيه لعبادة ربه ومنع الناس من أن يدخلوا عليه في هذا الوقت ، وبينما هو في غمرة العبادة إذ تفاجأ بالخصمين بين يديه دون أن يعرف من أين دخلا ، أو كاد دخولهما غير الشرعي أن يفزعه أو يخوفه ، فظن في داخل نفسه أن هذين الخصمين يريدان اغتياله ، ولكن بعد أن أعلن الشخصان عن نفسيهما أنهما خصمان أرادا الاحتكام إليه في نزاعهما ، زال عنه الخوف وقام بالفصل بينهما ، وما إن سمع الأول وقصته مع صاحبه حتى أقدم على اتخاذ الحكم دون أن يسمع مقالة الثاني، وكأنما جعل الله هذه القصة اختبارًا وابتلاءً لسيدنا داود - عليه السلام - ، فلما شعر بذلك استرجع وتذكر ما وقع فيه من هذا الابتلاء ، فاستغفر الله وسجد له متذللاً تائبًا فغفر الله له ، وجعل له قربة يتقرب بها عنده يوم القيامة .. هذا هو جوهر القصة وخلاصتها، والله أعلم بذلك .

ولكن الشاهد من القصة أمران :

أولهما : حصول الفزع والخوف لأمر استسره داود - عليه السلام - وهو نبي يوحى إليه ، والأنبياء مكلوؤن بعين الله .

وثانيهما : الاستغفار والإنابة والتقرب إلى الله ، وهو نبي معصوم قريب إلى الله قبل هذا.

فإذا علم هذا تبين أن حديث النفس عليه ملامة وعتاب ولو كان مع الأنبياء المعصومين ، وأن نبي الله داود - عليه السلام - فوق أنه نبي إلا أن الله جعله خليفة - أي يحكم ويقضي - كما قال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى**

---

١ الآيات من ٢١ - ٢٥ من سورة ص

٢ تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير / ج ٣ / ٤٨٣

فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[1] .

فقد أدرك سيدنا داود عليه السلام من خلال فصله بين الخصمين أن عليه أن يسمع لكليهما ثم يصدر حكمه ، ولو أن حكمه كنبي معصوم من الخطأ والزلل، ولكنه قدوة لكل من يأتي بعده من القضاة والحكام إذا ما أرادوا اقامة العدل بين الناس ، فكأنما استرجاع داود - عليه السلام - اتهام لنفسه أنها في خطأ ، وأن الخصمين ربما في قوليهما الصواب ، وإذا كان هذا مع الأنبياء فمع البشر دونهم أولى وأقرب إلى الاتهام والمحاسبة ، وعدم التيقن بالثبات على الحق في الدعوى دون التأكد من سماع أقوال الخصوم والافتراض أن الصواب عندهم حتى تتضح الأدلة والبراهين ، فيصدر الحكم بالعدل والقسطاط المستقيم [2] .

ثانيًا - التيقن وعدم التسرع في الحكم :

إن من منهج الأدب الإسلامي في موضع الخلاف التريث والاستبصار ، والتثبت وتحبيذ الروية ، والتؤدة وعدم الاندفاع ، والمسارعة في اصدار الأحكام بمجرد الظن والسماع ، فإذا ما وقعت خصومة بين اثنين فعلى كل واحد منهما التذرع بالصبر والتوقف عن الوعيد والمؤاخذة قبل العلم بحقيقة الأمر والكشف عن أسباب الخلاف لئلا يقع كل من الخصمين في عرض أخيه ولا يجنيان بعد هذا سوى الحسرة والندامة ، وليستحضرا قول الله تعالى : **﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾**[3] ، فلا ينبغي المبادرة إلى اصدار الحكم على الخصم دون السماع لدعواه كاملة لعله يكشف أمرًا خفى على المدعى ، وقد كان غائبًا عن ذهنه ولم يتصور وقوع مثله في الأعيان المحسوسة والمجردة ، فجاء التثبت والتيقن ليضع الحق في نصابه ، ويستريح كل من المختلفين بعد اصدار الحكم بالعدل والإنصاف.

---

١ الآية ٢٦ من سورة ص

٢ صفوة التفاسير / ج ٣ / ٥٥

٣ الآية ٦ من سورة الحجرات

وان القرآن الكريم حافل بأنماط كثيرة من آداب النزاع والخلاف والدعوة إلى التيقن قبل اصدار الحكم ، آثرنا موقفًا مثاليًا منها كقدوة للمسلمين في خصوماتهم ونزاعاتهم المتعاقبة تعاقب الليل والنهار ، ذلكم الموقف ذكره الله لنا في قصة بليغة تحمل في ثناياها أسمى المعاني وأعظم الآداب والحكم ، وقد تجلى فيها مبدأ التيقن في صورة المعجزة والهداية ، فما هو هذا الموقف يا ترى ؟

موقف الهدهد بين يدي النبي سليمان - عليه السلام - :

وقد قص الله علينا هذا الموقف عبر الآيات الكريمة التالية ، قال تعالى : **﴿ وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾**[1] .

هذه الآيات تحكي قصة النبي سليمان - عليه السلام - وما أعطاه الله من الملك والقدرة ، وما علمه من منطق الطير وسائر الكائنات التي طلب من ربه أن يعلمه إياها ، ولا ينبغي ذلك لأحد غيره ، وقد أعطاه الله ذلك ، وبينما هو يتفقد ويبحث عن جماعة الطير لم ير بينهم طائر الهدهد ، فتوعده بالعذاب والقتل أو يقدم عذرًا لغيابه في ذلك اليوم ، ولكن الله تعالى أراد أن يظهر آيته العظيمة في أضعف مخلوق وهو هذا الطائر الذي حمل إلى سليمان - عليه السلام - أغرب خبر وأعجبه وهو في حد ذاته عين الصدق واليقين ، وهو اكتشافه لأمة من الناس تحت

---

١ الآيات من ٢٠ - ٢٨ من سورة النمل

حكم امرأة يعبدون الكواكب من دون الله ، وهم في زمان نبي أمر بدعوة التوحيد الخالص لله الواحد القهار ، هذا الطائر العجيب أتى لسليمان – عليه السلام – بنبأ هام وأمر خطير ، مما دعا النبي سليمان إلى التأكد والتحقيق في هذا الأمر بارسال كتاب إلى أولئك القوم عن طريق الهدهد ، الذي عرف مكانهم وأمر عبادتهم، لتبين صدقه من كذبه ، حتى يقوم بالدعوة كما أمر الله بذلك [1] .

والشاهد في ذلك أن النبي سليمان – عليه السلام – رغم ما آتاه الله من الملك العظيم والمعجزات الباهرة ، وهو النبي المعصوم لم يعط لنفسه الثقة بالعلم اليقين في خبر الهدهد حتى يتأكد ويتثبت بفعل الأسباب المادية من البحث والتحقيق ، وما أصدره من أمر العقاب لهذا الهدهد جزاء غيابه يعد معلقًا وغير منجز حتى يأتيه الهدهد بالعذر ، إما أن يكون صادقًا فيخلي سبيله ، وإما أن يكون كاذبًا فيؤاخذه بالعقاب الذي توعده إياه .

وإذا كان هذا بين النبي المعصوم والطائر المأمور ، فكيف بنا نحن ولم نعش عصر المعجزات ولا خوارق ولا آيات ، فالخطأ فينا أعظم والإهمال والغفلة فينا أكثر وأكثر ، والأحرى بنا أن نزداد تثبتًا وتمحيصًا إذا ما حكمنا بمحض الظن والشك ، فما الخصم بعد الأنبياء إلا بشر كله خطأ وزلات ، وخير الخطائين الذي يعاتب نفسه ويحاسبها ويتهمها بالقصور وعدم الثقة بإدراك الحق والوصول إليه قبل البحث عنه بالوسائل المشروعة ، وتحري الصدق واليقين بالصبر والتثبت ، فإن ذلك مدعاة إلى إصدار الحكم العادل على الغير .

ثالثًا – عدم تحقيق الظن إذا كان في موطن الاحتمال :

الظن في اللغة يراد به عدم التيقن والثبات ، وهو ضرب من أفعال القلوب ، يحدث عند وجود وظهور بعض العلامات تتراءى للظان حالة وجوده بين أمرين يرجح أحدهما للعلامات الدالة عليه ، كما يجوز أن يقال أن الظن يراد به قوة المعنى في النفس دون الوصول إلى حالة الثقة الثابتة من علم اليقين [2] .

١ صفوة التفاسير / ج ٢ / ٤٠٧

٢ الفروق في اللغة / ص ٩٣

هذا والفرق بين العلم والظن ، أن الظان يجوز أن يكون على خلاف فيما ظنه دون تحقيق له ، بينما العلم يحقق المعلوم ويجزم بوقوعه ، ويأتي الظن في بعض الأحيان بمعنى (الشك) ، كما هو الحال في قوله تعالى : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾[1] .

من هذا المصطلح اللغوي أطلق الفقهاء وصف الظن على كل دليل يفتقر إلى القطع والتحقق والثبات ، وقد وضعوا مصطلحاتهم الفقهية على النحو التالي :

ما كان النقل فيه بطريق التواتر قالوا عنه قطعي الثبوت كالقرآن الكريم الذي يوصف بقطعي الثبوت والدلالة ، وكذلك الحديث الصحيح .. وما لم يتوفر له شرط التواتر في النقل والإسناد قالوا عنه ظني الثبوت والدلالة [2] .. وهناك اصطلاحات أخرى للمحدثين مبسوطة في كتب الصحاح والسنن فليرجع إليها .

من هذا المفهوم اللغوي والاصطلاحي يتبين لنا أن الظن لا يفيد العلم القطعي اليقيني وبالتالي لا يجب العمل به قبل التحقيق في القرائن الدالة عليه من حيث الوثوق والتثبت هذا إذا كان الظن مما يرتب عليه دعوى بين متخاصمين في حق تنازعا عليه ، فلا يصلح أن يكون الظن دليلاً ولا حجة للخصم على خصيمه ، وإذا كان الظن مما لا تثبت به الدعوى فلا يجوز لأحد الخصمين أن يتحقق من ظنه متوهمًا أن الحق معه لمجرد ما قدح في قلبه ما يجعله يصدق ظنه في أخيه ، فإن ذلك ليس من أدب الخصومة في شيء .. والعلاقة بين المسلم وأخيه بنيت في الإسلام على أساس من احسان الظن وصفاء السريرة وصدق النية وصلاح المظهر دون المخبر والاعتداد بظاهر الحال دون التغلغل إلى الباطن ، لأن ذلك من علم الله وليس لأحد غيره .. فعلى المسلم في حالة نزاعه مع أخيه وخلافه معه أن لا ينخدع بالظنون والأوهام ويجعلها تقوده إلى الهاوية فيجور بحقه على أخيه ، وإذا ساورته الظنون الخبيثة أن خصمه ممن يفعل أو يقول مما ظنه فيه فلا يطلب لذلك تحقيقًا ، فإن هذا ضرب من وساوس الشيطان الذي يريد أن يوقع البغضاء

---

١ الآية ٢٤ من سورة الجاثية

٢ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي / ج ١ / ١٣١

والعداوة بين المسلمين كلما حداه الأمل أو سنحت له الفرصة .. فعلى المسلمين أن لا تكون خلافاتهم مبنية على الظنون والشكوك فتفسد علاقاتهم وتذهب ريحهم ويشمت بهم عدوهم ، من أجل هذا حذرت الشريعة الغراء من اساءة الظن بالآخرين ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن، إن بعض الظن اثم ولا تجسسوا** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا إن الظن لا يغني من الحق شيئًا** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **وظننتم ظن السوء وكنتم قومًا بورًا** ﴾[5] .

وجاء في السنة المطهرة ما يذم الظن ويمنع التحقق فيه من قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا** »[6] ، وفي حديث تلقيح النخل قال – صلى الله عليه وسلم – : « **إنما هو الظن إن كان يغني شيئًا فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب .. ولكن ما قلت لكم قال الله ، فلن أكذب على الله** »[7] .

نتفهم من هذه النصوص أن احسان الظن بالآخرين مدعاة إلى الألفة والمحبة والاجتماع ، وأن اساءة الظن فرقة وعداوة ، وأن الظن وحده لا يقوم مقام الحجة والدليل فلا يصلح أن يعتمد عليه في فصل النزاع والقضاء على الخلاف ، وان من أضمر في نفسه شيئا فلا يتبعه بالتحقق والتمحيص لمجرد الظن والوهم ، فإن ذلك

---

١ الآية ١٢ من سورة الحجرات

٢ الآية ١١٦ من سورة الأنعام

٣ الآية ٣٦ من سورة يونس

٤ الآية ٢٣ من سورة النجم

٥ الآية ١٢ من سورة الفتح

٦ صحيح مسلم / كتاب البر والصلة / باب تحريم الظن والتجسس / ج ٨ / ١٠

٧ سنن ابن ماجه / كتاب الرهون / باب تلقيح النخل / ج ٢ / ٢٤٧٠

يفسد ما بينه وبين أخيه من تقارب ووئام ، ويؤجج نار العداوة والخصام ، وأكثر الخلاف بين المسلمين قائم على الظنون الفاسدة ، ولا يرد هذا الخلاف إلا الاعتصام بكتاب الله والتمسك بسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وبغيرهما لا تلقى الإنسانية إلا الشقاء والهوان ، ولو كانت في أرقى التمدن والحضارة ، وصدق الإمام الشافعي – رحمه الله – حين قال [1] :

فلا ينطقن منك اللسان بسوأة فلك سوءات وللناس ألسن

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ولكن بالتي هي أحسن

رابعًا – البعد عن الإعجاب بالرأي :

الإعجاب والعجب والعجيب كلمات مترادفة لمعنى واحد وهو الترفع والتكبر والظهور والاستعلاء والاستعظام ، وهو من كلمات الاضداد ، يطلق ويراد به الاستحسان لشيء والرضا به ، كما يطلق ويراد به الإنكار والذم[2] .

ومن معاني الإعجاب الغرور والاستغراب والفرح ، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر العجب مصرحًا به حينًا وما يدل على معناه حينًا آخر، قال تعالى : ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾[5] ، كل هذه الآيات دلت على اظهار الإنكار عن طريق التعجب ، وكأن أمرًا مستحيلاً بل وغريبًا أن يعلن كلمة الحق بين الناس رجل منهم لا يتميز عليهم بخاصية إلا أنه نبي مرسل من قبل الله – سبحانه وتعالى – ، ومن الأمر

---

١ ديوان الإمام الشافعي / ص ٣٩٣

٢ المصباح المنير / مادة : عجب / ج ٢ / ٣٩٣

٣ الآية ٢ من سورة ق

٤ الآية ٢٥ من سورة التوبة

٥ الآية ٢ من سورة يونس

المذمـوم عند المسلم أن يأخـذه العـجب في أمـر لا يشك أنه حق ولكن يأبى إلا التمسك بالباطل من منطلق المحافظة على عزة النفس ولو بطريق الاستعلاء والتكبر معجبًا بنفسه مغترا بعلمه منخدعًا بما أوتي من عقل وحجة وبيان ، وخاصة إذا كان هذا الإعجاب في حالـــة النزاع والجدال ، فإن الشيطان يؤجج نار الغرور بين المتخاصمين كيلا يقبلا الحق ويذعنان إليه فتبقى العداوة مستمرة باستمرار الخلاف الذي من نتيجته التفرق والخصام .

وقد نهى الله عباده المؤمنين عن أن يأخذهم الفرح المفرط إلى درجة الإعجاب والتكبر فيقعوا في المحظور من حيث يعلمون أولا يعلمون ، قال تعالى : ﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور**﴾[2].

فعلى المؤمنين في حالة نزاعهم وخلافهم أن لا يعجبوا بآرائهم وعلمهم ، وأن لا يغتروا وينخدعوا بما يشعرون به من علامات الرخاء والنعمة وهم يجافون كتاب الله ويحاربون سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فإن الله يوشك أن يعمهم ببلاء لا يستطيعون رده ولو كانوا في أتم الصحة والقوة .

والإلتزام بشرع الله وهدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قوة لشخصية المسلم وعزة لنفسه ، ومنعه من أن يغره الشيطان أو يوسوس له بأن يتمسك بأذيال الجهل والعصبية فيصبح في منأى عن ذمة الله وربقة الدين ، فإذا ما مات مات ميتة جاهلية والعياذ بالله ، وقد ورد في السنة نصوص ينهى فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن الغرور والإعجاب بالرأي . ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

---

١ الآية ٨٣ من سورة غافر

٢ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الحديد

«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلل إلى يوم القيامة »[1]

وفي هذا الحديث يوضح الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطورة الإعجاب بالنفس وهو التكبر والاستعلاء على الآخرين بمظاهر اللباس والزينة ، وما دعاه إلى ذلك إلا الإفتخار والخيلاء ، ومن كانت غايته ذلك فقد تحتم أن يكون جزاؤه يوم القيامة من جنس عمله في الدنيا ، وعن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني ، قال قلت : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آيه ؟ قلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ قال : سألت عنها خبيرًا ، سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « **بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا ، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمرًا لا يدان لك به ، فعليك خويصة نفسك، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله»**[2] .

والشاهد في هذا الحديث قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «**اعجاب كل ذي رأي برأيه** » من الأمور التي أخبر عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن هذا سيقع في مستقبل الزمان ، وكما هو حاصل الآن بين الناس ، وخاصة بين العلماء منهم والذين جعلهم الله هداة وقدوة تراهم يعجبون بآرائهم ، ويفجرون في خصوماتهم، والناس من بعدهم تبع ومقلدون ، نسأل الله العفو والعافية والسلامة من الزيغ والضلال .

وقد ورد النهي عن اعجاب المرء بعمله الخير ، لأن ذلك يعد ضربًا من تزيين الشيطان للإنسان حتى يجعله في يوم ما متواكلاً على ما قدم فيُقِلُ من عبادته

---

١ صحيح البخاري / كتاب اللباس / باب من جر ثوبه في الخيلاء / ج ٧ / ١٨٣

٢ سنن ابن ماجه / كتاب الفتن / باب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » ج ٢ / ١٣٣

لربه، ويتطاول على العباد بمآثره السابقة نتيجة الإعجاب والغرور ، ففي الحديث عن مسروق قال : « **كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله ، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله**»[1] ، وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « **إذا سمعت** » ، وقال موسى : « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم » ، وقال أبو داود ، قال مالك : (إذا قال ذلك تحزنًا لما يرى في الناس - يعني في أمر دينهم - فلا أرى به بأسًا ، وإذا قال ذلك عجبًا بنفسه وتصاغرًا بالناس فهو المكروه الذي نهى عنه)[2] أ.هـ.

فإعجاب الإنسان برأيه أو بعمله أو بعلمه يعد من الكبر والاستعلاء، وهذه خصلة مذمومة في الإسلام ، مدعاة لإثارة الفتن ونشوب الخلافات وضياع الحقوق وكثرة الخصومات ، والمسلم الحق مدعو إلى إيثار الحلم والتواضع والتحلي بحسن الخلق في كل منحى من مناحي الحياة ، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أفضل ؟ قال : « **كل مخموم القلب ، صدوق اللسان**. قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : **هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد** »[3] .. نسأل الله أن نكون من أصحاب هذا القلب، ومن أصحاب ذلك اللسان ، فنصلح ويصلح بنا ، مجتمعين غير مختلفين ، ومتآلفين غير مفترقين ، ندعوا إلى الحق ، وإلى الحق نأتي مذعنين .

خامسًا - المبادرة بالاعتذار من باب افتراض الصواب عند الخصم :

لا شك أن الشدة في الخلاف والإلحاح في النزاع لم يكن إلا بدافع البحث عن الحق والوقوف على الحقيقة عند أي من المتنازعين ، سواء كان المتنازع عليه حقًا لله أو حقًا للعباد ، ولكن الأمر الذي يدعوا إلى التساؤل هو ماذا يجب على المؤمن إذا أدرك وأحس أن دعوى خصمه صحيحة وأن الحق في جانب الخصم!؟،

---

١ سنن الدارمي / المقدمة / باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله / ج ١ / ١٠٦

٢ سنن أبي داود / كتاب الأدب / ج ٤ / ٢٩٦

٣ سنن ابن ماجه / كتاب الزهد / باب الورع والتقوى / ج ٢ / ١٤٠٩

أو أن الخصم قد استدل بأدلة توحي بأن فيها شيئًا من الصحة والصواب !؟ ، أو أن الخصم ممن يحتاج إلى أعطاء الفرصة للدفاع عن النفس ، وأن المدعى قد ضيق عليه المجال وأسكته من غير دفاع ولا بيان !؟ .

أمام هذه التساؤلات يجب على المؤمن المتأدب بشرع الله وهديه ، والمقتدي بسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن لا ينازع خصمه بجهالة وعنجهية ، بل لا بد من استخدام القول اللين مع الخصم ، وإذا تبين له الحق عند خصمه يجب أن يبادره بالاعتذار وإظهار التأسف حتى تكون القلوب سليمة والنوايا صافية ، وأن لا يفسد جو النزاع علاقة الود القائمة بين الطرفين ، فتقديم العذر من جانب المدعي ليس ذلة ولا خذلاناً ، بل هو مظنة إلى الوصول إلى الحق بالطرق المشروعة ، وكذلك المدعى عليه إذا أدرك أن الحق في جانب خصمه وأقبل عليه معتذرًا متأسفًا فإن ذلك يعتبر غاية الأدب القرآني في مجال النزاع والخلاف ، وما من شك أن إظهار القول اللين الحسن يعد نوعًا من الاعتذار والأدب خاصة إذا بادر به المؤمن الملتزم بشرع الله ، فإنه مدعاة إلى التأثير في قلب الخصم ، مما يجعله يستحي أدبًا أن يدعي شيئًا ليس بحق ولا صواب ، ولعل سلوك معارضه وأدبه في الكلام يكون سبيلاً إلى إبراز الحق والانقياد له وقبوله من غير خلاف ولا خصام .

وقد قدم القرآن الكريم في هذا الشأن نماذج رفعية من التوجيهات والآداب في حالة المخاصمة والمحاجة اتسمت باسلوب التوجيه والرفق دون العنف والردع ، كي تكون مؤثرة في النفس تلزم الخصم بقبول الحق والاقتناع به دون مكابرة أو عناد .. اخترنا منها المواقف التالية :

١ - بين موسى - عليه السلام - وفرعون في بداية اللقاء :

لما بعث الله موسى رسولاً إلى فرعون ، والله يعلم أن فرعون طاغية ، قد بلغ به العناد مبلغ المكابرة والكفر ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - وجه نبيه موسى - عليه السلام - أنه إذا جاء إلى فرعون فلا بد أن يخاطبه باسلوب اللين والرفق ،

وهذا اسلوب الدعاة في عرض دعوتهم على الآخرين ، ولكن ليس مع فرعون يصلح مثل هذا الاسلوب، وهو الخصم اللدود لله - عز وجل - ، ولكن لحكمة أرادها الله - سبحانه وتعالى - من نبيه موسى - عليه السلام - في هذا الخطاب ليكون قدوة لكل من أراد أن يلزم نفسه شريعة الله ومنهاجه أن يكون هينًا لينًا متذرعًا بالصبر والأناة بجانب صدق الدعوة وقوة الدليل ولو كانت مع الطغاة المعاندين كفرعون وأمثاله .

وإذا كان فرعون خصمًا عاتيًا فمبادئ الدعوة لا تختلف مع خصم دون آخر في الحقيقة والجوهر ، وإن تغيرت في الشكل والمظهر ، فحقيقتها التوجيه والتهذيب مع كل خصم في أي زمان ومكان ، وليس من مبادئ الدعوة الإسلامية الخلاف ، بل الهداية والوفاق إلى الحق وعلى الحق ، فلذلك جاء التوجيه القرآني لسيدنا موسى - عليه السلام- باسلوب اللين لدى دعوته لفرعون كخصم يحتاج إلى إرشاد وتبصير ، فقال تعالى موجهًا خطابه إلى موسى - عليه السلام - وهو يأمره بالذهاب إلى فرعون برفقة أخيه هارون - عليه السلام - فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيافي ذكري * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[1] .

والشاهد هنا أن موسى - عليه السلام - نبي مؤيد بالحق من الله تعالى ، ومع ذلك يوصيه الحق تبارك وتعالي بإلتزام الرفق واللين في خطابه لفرعون وهو على باطل وكفر ، لعل هذا الرفق واللين يرقق قلب فرعون فيذعن للحق ويرجع عن غيه وضلاله ، فأين نحن من موقف الأنبياء ومخاطبتهم للخصم ؟ ، وما أحوجنا إلى مثل هذه القدوة في مجلس النزاع والخلاف .

٢ - موسى - عليه السلام - وموقفه مع من استنصر به بالباطل :

يقص الله علينا في القرآن الكريم موقف سيدنا موسى - عليه السلام - وقصته مع ذلك الإسرائيلي الذي اختلف مع قبطي من قوم فرعون ، ولاذ بموسى

١ الآيات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ من سورة طه

واستنجد به ، وكان موسى – عليه السلام – قد أتاه الله الحكمة والقوة ونعمة التكليم له ، ويجلي لنا القرآن موقفًا وهو الشاهد في موضوعنا ، وهو أن سيدنا موسى – عليه السلام – لما سارع في نصرة الإسرائيلي على القبطي ما كان يريد قتل القبطي ، ولكن القدر سبق على القضاء عليه من وكز موسى له ، فكأن موسى – عليه السلام – ندم على ما فعل .. وتكرر الموقف مرة ثانية مع الإسرائيلي صاحب موسى مع قبطي آخر ، فشعر موسى أن استنجاد الإسرائيلي به في هذه المرة لم يعد إلا من قبيل توريط موسى – عليه السلام – وايقاعه في جريمة القتل مرة ثانية . ولكن موسى – عليه السلام – أدرك ذلك قبل وقوعه ، فأحس بأن فعلته السابقة كانت على خطأ ، ولا يريد أن يعيدها في هذه المرة ، فاتهم صاحبه بأن مقصده من الاستغاثة إرادة الشر والغواية ، مما دفع القبطي أن يوجه القول لموسى – عليه السلام – أن يكون مصلحًا لا ظالمًا جبارًا ، وحاشا أن يكون الظلم عند الأنبياء والمرسلين، ولكنه الحق لا يقر لأحد أن يكون ظهيرًا أو ملاذًا للنصرة والاستغاثة ، ولو كان من مؤمن لمؤمن إلا بوجه حق ، وهذا ما شعر به سيدنا موسى – عليه السلام – وأقلع عن نصرة صاحبه في المرة الثانية حين عرف غرضه ومرماه [1] .

ويعرض علينا القرآن الكريم هذه القصة من خلال هذه الآيات الكريمة التالية، يقول تعالى : ﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين * ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرًا للمجرمين فأصبح في المدينة خائفًا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال**

١ صفوة التفاسير / سورة القصص / ص ٤٧٨

له موسى إنك لغوي مبين * فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾[1] .

٣ - من ثمار الدعوة الإسلامية :

يعرض الله لنا موقفًا محمودًا يمدح فيه نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - أنه تألف قومه بالرحمة ، وأظهر لهم لين القول ، مما دعاهم يجتمعون حوله ، ويلبون دعوته ، ويتبعون هديه وسيرته ، وليس هذا بمستغرب في شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ودعوته إلى ربه ، فإن الله امتدحه بالخلق العظيم فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[2] ..

ولا غرابة هنا أن يمدحه في هذا الموطن باتباع سياسة اللين والرحمة ، وهما من النعمة التي أنعم الله بهما على رسوله الكريم - عليه الصلاة والسلام - ، فذكرهما هنا ممتنًا بهما عليه أن طبقهما في دعوته لأصحابه وعدهما من خلقه القويم ، ولو اتبع اسلوب العنف والغلظة في القول لما وجد أذنًا صاغية ، ولا قلبًا مستجيبًا لدعوته ، وحاشاه أن يكون كذلك ، فإن من خلقه وطبعه اللين والرحمة والشفقة على أصحابه وعلى غيرهم من غير ملته ودينه ، فقال تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾[3] .

وهكذا تتتابع التوجيهات الإلهية على قلب النبي - عليه السلام - مادحة وآمرة ومؤكدة على الخلق السامي والسجايا العظيمة ، مظهرة فضل لين القول ، منفرة لاسلوب الجفاف والغلظة لأنه ليس باسلوب الجماعة والمحبة ، آمرة رسول

---

١ الآيات من ١٤ - ١٩ من سورة القصص

٢ الآية ٤ من سورة القلم

٣ الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

الله – صلى الله عليه وسلم – أن يعفو عن أصحابه زلاتهم ، وأن يستغفر لهم لما وقعوا فيه من ذنب ، وأن يشاورهم فيما يخص حياتهم ودينهم وآخرتهم ، كل ذلك خير للراعي والرعية ، وكل هذه الأخلاق قدوة للمسلمين كي يعالجوا بها خصوماتهم ، ويزيلوا بها خلافاتهم ، فتهدأ النفوس وتجتمع القلوب ، ولو أخذت بالعنف والغلظة لكان مصيرها الفرقة والتنفير والخلاف والنزاع ، ومن أخلاق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نتعلم ونقتدي ونهتدي ، والله الهادي إلى سواء السبيل .. ورد في الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: « **لن يهلك الناس حتى يعذروا ، أو يعذروا من أنفسهم**»[1] ، وعنه صلى الله عليه وسلم – أنه قال : **من اعتذر إلى أخيه بمعذرة فلم يقبلها ، كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس** »[2] .

اللهم اجعلنا من الذين يعتذرون إلى إخوانهم ويعذرونهم ، ويقبلون أعذارهم ابتغاء وجهك الكريم ، واتباعًا لسنة نبيك العظيم يارب العالمين.

سادسًا – الاستئناس برأي ذوي المشورة والعلم :

من رحمة الله بالمؤمن أن جعله مئلافًا ، لا يحب العزلة ولا يؤثر الفرقة ، بل يسعى دائمًا إلى التقارب والاجتماع ، وقد أفرد الله في كتابه العزيز ذكر الأخوة الإيمانية ، مشيدًا بها لما لها من عظيم الأثر على الجماعة المسلمة التي لا يرتبط أفرادها إلا برباط الدين فقط، قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم**﴾[4] .

هذه الأخوة عبر عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله : ﴿ **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها**

١ سنن أبي داود / كتاب الملاحم / باب الأمر والنهي / ج ٤ / ١٢٥

٢ سنن ابن ماجه / كتاب الأدب / باب المعاذير / ج ٢ / ١٢٢٥

٣ الآية ١٠ من سورة الحجرات

٤ الآية ٥ من سورة الأحزاب

اختلف ﴾[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم - : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** »[2] .

هذا الرباط الذي جمع ما بين المؤمنين تمثل في حياتهم عقيدة وسلوكًا وطريقة ومنهجًا ، هذا الرباط عبر عنه القرآن الكريم في ثلاثة مبادئ وهي من خصائص المجتمع المسلم لا غير ، تلكم المبادئ هي : الشورى والتعاون والنصيحة، فالمبدأ الأول قال عنه تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[3] . والمبدأ الثاني عبر عنه تعالى بقوله : ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾[4] . والمبدأ الثالث بينه تعالى بقوله : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾[5] .. فكأن هذه المبادئ الثلاثة تجسد العلاقة بين الفرد والجماعة ، فالإنسان لا يستشير إلا غيره ، ولا يتعاون إلا مع غيره ، ولا يدعو إلا غيره ، ومن حكمة الله بعباده أن جعلهم متفاوتين في أمور الحكمة والفراسة ليعينوا بعضهم البعض في المشورة والرأي والتصرف والتدبير ، وقد بين الله في كتابه العزيز أن الحكمة وهي الحصافة في الرأي فضل يؤتيه الله من يشاء ، فقال تعالى : ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا** ﴾[6] .. وقد عبر صلى الله عليه وسلم - عن الحكمة بأنها ضالة المؤمن أينما وجدها أخذ بها ، فقال صلى الله عليه وسلم - : « **الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، حيثما وجدها فهو أحق بها** »[7] .

هذه الكلمة - الحكمة - هي المراد بها هنا مشورة المؤمن لأخيه إذا ما حزبه أمر أو حلت بداره مصيبة ، أو وقع في مشكل والتبس عليه أمره ، فأعياه أن يجد

---

١ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب من يؤمر أن يجالس / ج ٤ / ٢٦٠ .

٢ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا / ج ٨ / ١٤

٣ الآية ٣٨ من سورة الشورى

٤ الآية ٢ من سورة المائدة

٥ الآية ١٢٥ من سورة النحل

٦ الآية ٢٦٩ من سورة البقرة

٧ سنن ابن ماجه / كتاب الزهد / باب الحكمة / ج ٢ / ص ١٣٩٥

مخرجًا لهذا المأزق ، فإذا ما عرض ما يعانيه على ذوي الفهم والدراية من إخوانه المسلمين ، فإن الله يذلل له العقبات بتعاونه معهم ، لأن مشاركة الإخوة المسلمين واهتمامهم ببعضهم البعض تفتح مغاليق الأمور وتسهل الصعاب ، فعلى المستشار أن يكون أمينًا في مشورته، مصداقًا لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «**المستشار مؤتمن**»[1] ، وعلى المستشير أن يأخذ برأي من أشار عليه إذا كان لا يخالف شرعًا ولا عقلاً ولا منطقًا خصوصًا في الخصومات والمنازعات تكثر منافذ الشيطان ليسيطر الشر والعدوان ، فإذا ما تدخل المؤمنون ليصلحوا بين أخويهم ، ببذل المشورة والرأي السديد لاصلاح ما فسد ، فعلى الطرفين القبول والرضا والاسترشاد بالرأي لما فيه صالح المتنازعين .

والإسلام ذهب في الأخذ بالمشورة إلى أبعد من مقام الخصومة والنزاع ، فأحيانًا يفكر المرء في أمر أيأتيه أم لا يأتيه ، وحتى يخرج من هذه الحيرة ما عليه إلا أن يعقد مجلس استشارة مع نفسه ، ولكن بصورة شرعية حددها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك بأن يصلي ركعتين ، ثم يدعو بما شاء من الدعاء بأن يختار الله له في طلبه ، وتسمى هذه الصلاة بصلاة الاستخارة ، وهي سنة ، كثيرًا ما كان يلجأ إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الكرام في ما يحزبهم من أمر ، وقد استجاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأمر ربه حين أمره بأن يشاور أصحابه ، فقال تعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[2] .

فقد كان صلى الله عليه وسلم - مثالاً عمليًا ، وقدوة بارزة في أمر الشورى، والأخذ برأي أصحابه إذا استحسنه واستصوبه ، وهو النبي المعصوم والمسير بالوحي الإلهي، ولكن ليعلم أمته فتقتدي به من بعده في أمور دينها ودنياها ، ونحن إذ نعرض مشورة الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - على النبي - صلى الله عليه وسلم - لتكون هذه الشورى نبراسًا لنا تنير الطريق إذا

---

١ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب الشورى / ج ٤ / ٣٣٣

٢ الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

أظلم علينا في جو الخصومة والاختلاف ، لنأخذ بمشورة إخواننا المسلمين ، ونستشير الناصحين المخلصين منهم ، لعلنا نبدد غيوم النزاع برياح طيبة ، فيعود الجو صحوًا صافيًا ، ولنسترشد بهدي المصطفى وسيرته وخاصة في مجال الرأي والاستشارة ، ففي السيرة النبوية مواقف عطرة للشورى ، نختار منها المواقف التالية :

الموقف الأول (من غزوة بدر) :

وهي أول غزوة يتقابل فيها المسلمون مع الكفرة من قريش بعد أن هاجروا إلى المدينة ، وهو أول لقاء حربي وأول نظام عسكري يعرفه المسلمون في تاريخ الإسلام بقيادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولكن الرسول – عليه السلام – وهو القائد الملهم أبى إلا أن يستشير أصحابه ، تنفيذًا لأوامر خالقه – سبحانه وتعالى – وما أن عرض الرأي في شأن الإعداد لهذه المعركة حتى انبرى أجلاء الصحابة يشيرون على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وما أن تم الأمر باستعداد المسلمين للقاء عدوهم حتى خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالجيش المسلم ، فجاء إلى أدنى ماء من بدر ، فنزل به .. وهنا يبرز أمر يستدعي الرأي والمشورة ، ولكن الرأي في هذه المرة جاء من جندي لقائده إنه الحباب بن المنذر – رضي الله عنه – تقدم برأي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلا : (يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **بل هو الرأي والحرب والمكيدة** » قال يا رسول الله : فإن هذا ليس بمنزل، فأمض بالناس حتى تأتي أدنى ماء فتنزله ، ثم تغور ما وراءه من القليب ، ثم تبني عليه حوضًا فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم فتشرب ولا يشربون. قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **لقد أشرت بالرأي** » ..

فنهض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم ، نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضًا

على القليب الذي نزل عليه فملىء ماءً . ثم قذفوا فيه الآنية)[1] أ.هـ.

تلكم هي اشارة الجندي على قائده ، ومن هو قائده ؟ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، لا يحتاج إلى من يشير عليه ، فإنه النبي المعصوم والموحى إليه والمسير من قبل الله – جل وعلا – والمؤيد بالنصر المبين لا محالة ، وفوق هذا وذاك إنه القائد الملهم الذي يعرف أسرار الحرب ومكائدها ، ولكن لم يمنعه هذا كله أن يسمع مشورة جنديه وصاحبه ، لعل رأيه يكون صائبًا ، فإنه من أهل المدينة والعارف بدروبها ومسالكها وشعابها من ناحية ، وهو من ذوي الحنكة والدراية في الحرب والقتال والمسايسة للعدو ، كل هذه الصفات تؤهله أن يقترح ويشير ، وأن يدلي برأيه طالما أن رأيه فيه مصلحة المسلمين ونجاحهم ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – كانت غايته وهدفه أن ينتصر المسلمون على عدوهم ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، وإذا كان هذا لا يتحقق إلا بالحرب والقتال ، فما أحوج المسلمين إلى من يدلهم على مصير أعدائهم ، فيؤمنون الفتنة ويكفون شر القتال .

وما أشبه الخصومة بساحة المعركة ، حيث في كليهما حرب وقتال ، إما بالسيف أو باللسان ، فإذا لم يتدخل المسلمون بين طرفي النزاع بالصلح تارة وبالمشورة تارة أخرى لإنهاء الخصومة والقضاء على نار الفتنة ، تحولت إلى حرب ضروس تدور رحاها بين السبع الشداد والبقرات العجاف .

ومن هنا يتبين لنا أن الرأي والمشورة من أصحاب العلم والمعرفة يكون له الأثر العظيم في وقت اشتداد الخلاف بين المسلمين ، ولا غضاضة أن يكون كبير المسلمين مستجيبًا لرأي من يشير عليه إذا كان ذلك يقضي على الخلاف ويجدد الاجتماع والوئام، ويزيل الفرقة والخصام ، خصوصًا إذا كان المشير من ذوي الحزم والسداد في الرأي والمشورة، مستنين بسنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – الذي نزل عند رأي الحباب ، وسار بالجيش على الفور إلى المكان الذي أشار عليهم به ، ولو التزم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالمكان الأول لكان الذين معه على السمع والطاعة ، ولكن اتباع الرسول – عليه السلام – لمشورة

---

١ سيرة ابن هشام / ج ٢ / ٢٧٢

الحباب فيها تعليم لأمته أن في مثل هذه الأمور لا بد من الاستشارة تقديرًا لشخصية المسلم ومكانته ، واحترامًا لفكره وفطنته ، وإيثارًا للجمع دون التفرقة ، والمحبة على الكراهية ، حتى ولو كان الرأي المشار به ليس ملزمًا للآخرين ، فإن الاستئناس به يعد أمرًا من الشرع الحنيف ، وهو نوع من المصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب للرأي ، والذي عده كثير من الفقهاء والأصوليين أحد مصادر الشريعة الغراء .

الموقف الثاني (من غزوة الخندق " الأحزاب ") :

وكانت في شوال سنة خمس للهجرة ، وهي من الغزوات الحاسمة في التاريخ الإسلامي ، من نتائجها انطلق المد الإسلامي إلى الآفاق ، واشتد ساعد الدعوة إليه ، وهي من المحن التي ابتلى الله عباده المؤمنين بها ابتلاءً شديدًا ، خرجوا منها منتصرين لثباتهم وطاعتهم لرسولهم – عليه السلام – وكفى عزة أن يصف الله حال المسلمين في هذه المعركة بقوله الحق في كتابه العزيز ، قال تعالى: **﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدًا ﴾**[1]

هذه المعركة أو الغزوة عرفت مرة بغزوة الخندق ووصفت مرة بغزوة الأحزاب، والذي يعنينا في موضوعنا هو سبب تسميتها بغزوة (الخندق) فإنه ثبت في كتب السيرة والحديث أن سبب التسمية جاء نتيجة مشورة ورأي أخذ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وذلك لما علم – صلى الله عليه وسلم – بتألب الأحزاب والطوائف من قبائل العرب المشركين في مكة وما حولها ، وبالتعاون مع قبائل اليهود التي كانت تجاور الرسول – عليه السلام – في المدينة آنذاك ، وقد أجلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – احدى قبائل اليهود عن المدينة وهي قبيلة بني النضير، فأراد اليهود وهم الموصوفون بالخبث والمكيدة أن يعينوا المشركين في حربهم مع الرسول – عليه السلام – فزينوا لهم الأمر ، وقالوا

١ الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الأحزاب

عن دين المشركين أنه أفضل من دين محمد ، فتجمعوا وتعاهدوا أن يضربوا ضربتهم الواحدة ، ليقضوا على الدعوة الإسلامية في عقر دارها، وهنا تصل الأخبار عن هذا الغدر المبيت ، فلا بد من أن يستعد المسلمون للقاء العدو بأقصى طاقاتهم وإمكانياتهم المادية بعد الإيمان بالله وطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يستطلع الرسول – صلى الله عليه وسلم – همم المسلمين ، ومدى استعدادهم لمقاومة هذا العدوان المؤلف ، ولكن المسلمين حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانوا كقلب رجل واحد ، نفس تواقة إلى الشهادة ، غير هيابة للموت ، راغبة عن الدنيا إلى الآخرة ، ولذلك لما استنفرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للقتال لبوا النداء بإخلاص وعزيمة، وباعوا أرواحهم لله ، وتهيئوا للحرب ، وقرروا أن يتحصنوا في المدينة ليدافعوا عن دينهم ونبيهم ومدينتهم ، وكان عددهم إذ ذاك ثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولكن إذا كان الرأي هو الحرب والمكيدة ، فما أحوج المسلمين في هذه الحرب وهذه الغزوة إلى المكيدة والتدبير كنوع من التخطيط الفني والتكتيك العسكري بالمصطلح العصري ، خصوصًا وأن العدو ذو عدد كبير وعدة أكبر ، فلا بد أن يجابه بقوة أكبر منه ، ورغم أن المسلمين يملكون أعظم قوة وأعظم عدة وهي الإيمان بالله واتباع الرسول – عليه السلام – إلا أن هذا لا يمنعهم أن يعدو القوة المادية التي أمرهم الله بذلك ، فقال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾[1] .. فلا بد إذن أن يختبر المسلمون قوتهم المادية حتى يستطيعوا مقاومة أعدائهم .

وبينما هم في ذلك ، يتقدم الصحابي الجليل سلمان الفارسي – رضي الله عنه – برأي ومشورة إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وذلك بحفر خندق حول المدينة كنوع من الخطط الحربية المتبعة عند الفرس ، وكان مما قاله سلمان : (يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا – أي حفرنا

---

١ الآية ٦٠ من سورة الأنفال

خندقًا نتحصن فيه – فيهابنا العدو) . فقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأي سلمان – رضي الله عنه – وأمر بحفر الخندق في المكان الذي يخاف منه اقتحام العدو ، وقد كان طول هذا الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، وعمقه بين سبعة إلى عشرة أذرع ، وعرضه حوالي تسعة أذرع، وقد قسم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حفر الخندق على المقاتلين بحيث يحفر كل عشرة مقاتلين أربعين ذراعًا ، وقد اشترك الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه في حفر الخندق ترغيبًا لهم في الأجر ، وشحذًا لهمة الجنود بعمل القائد كأسوة لهم .

وقد كانت هذه المعركة المباركة طرفًا من نبوءات الرسول – عليه السلام – ، والتي تحققت على يد أصحابه الكرام – رضي الله عنهم – فيما بعد ، حيث تعثر المسلمون في ضربة صخرة أثناء الحفر ، فلما ضربها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلاً : «**بسم الله ، والله أكبر** » ، كسر ثلثها وهو يقول : «**أعطيت مفاتيح الشام** » . ولما كبر مع الضربة الثانية قال : « **أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأنظر قصر المدائن الأبيض** » ، ثم ضرب الثالثة فقال : **بسم الله ، نقطع بقية الحجر**، فقال : « **الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة** »[1] .

هذا وقد كان لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – معجزات باهرة في هذه المعركة المباركة تغنينا كتب السير عن البحث فيها ، ولنرجع إلى مشورة سلمان – رضي الله عنه – وكيف أخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بها ونفذها على الفور ، وما ذاك إلا لأنه هو الرأي الصائب في مثل هذا الوقت العصيب ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – لو طلب من ربه أن يكفيه شر الأحزاب وما تآمروا عليه لأجابه ، ولو طلب منه أن يهديه خطة لصد أعدائه لأجابه ، ، ولو طلب منه أن يجعلهم مسلمين لأجابه ، ولكن لحكمة أرادها الله – سبحانه وتعالى – لعل منها ذلك الابتلاء الذي عاناه الرسول وأصحابه أن يكون لهم سبق الفوز في الدنيا

١ السيرة النبوية / للندوي / ص ٢٨٣

والآخرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليثبت به المسلمين وما يعتقدونه من وعد الله لهم بالنصر المبين ، فلا يزيغوا ويصبروا ويرابطوا ، ولعل ذلك سببًا في إظهار المشورة والرأي ، ومدى فائدتهما للمسلمين وهم يواجهون قوى البغي والطغيان ، فالأولى لهم أن يجتمعوا ولا يتفرقوا ، فتذهب ريحهم ويفشلوا .

فهل وعينا نحن المسلمين ونحن نتخاصم مكانة ذوي الأحلام والنهى في قومنا ، لنتأسى برأيهم ونعمل بمشورتهم إذا كانت صائبة ليكفينا الله حقد القلوب وكبرياء النفوس ، فنصطلح ونتسامح ، ويحب بعضنا بعضًا لله وفي الله ؟

الموقف الثالث (بين الصديق والفاروق) :

لما بويع أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – كأول خليفة للمسلمين بعد انتقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى ، مرت الدولة الإسلامية في عهده بأحداث جسام ، أبلى فيها المسلمون البلاء الحسن ، وعلى رأس هذه الأحداث حروب الردة ، والتي كان من نتيجتها استشهاد كثير من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مدافعين عن راية لا إله إلا الله ، ولما كان الأمر كذلك نظر كبار الصحابة أمثال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى واقع الأمة الإسلامية في هذا العهد ، وكيف فقدت أولئك الأبطال الذين كانوا مخلصين في دينهم ، حافظين لكتاب ربهم ، خصوصًا وأن هذا الكتاب – القرآن الكريم – هو الدستور الذي يجتمعون عليه ، ويأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه، نظر هذا الصحابي الجليل بثاقب بصره وبرجاحة عقله أن أحداث الردة تركت هذا المصاب الجلل بقتل أعداد كبيرة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخاصة حفظة كتاب الله ، ونظرًا لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – توفى والقرآن قد اكتمل نزوله وحفظه في الصدور ، وأما عن كتابته فلم يكن مجموعًا إلا في عظام ولخاف وعسب النخل المتفرقة عند كتبة الوحي وهم قلة ، وبعض الصحابة الذين كانوا يلازمون مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويسمعون منه ساعة نزول الوحي عليه، كل هذا نظر وفكر فيه سيدنا عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - ، ومن هو عمر في علمه وخلقه وأمانته وثقافته ، لقد شهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذا كله ، وشهد له الصحابة الكرام كذلك .. هذا الصحابي أدرك وهو في حمأة المعركة أن القتل قد استحر بالمسلمين، وهذا يعني أن الذين يحفظون كتاب الله في صدورهم قد ذهبوا ، فكأن الله قد ثبته وألهمه بأن يدرك المسلمين ، كي يسارعوا في الاهتمام بكتاب الله ، وأن يجمعوه قبل فوات الأوان ، فكانت هذه أسباب مشورته على الخليفة أبي بكر - رضي الله عنه - بأن يقوم بمهمة هذا الجمع بصفته إمام المسلمين وراعيهم ، والذي كلفه الله بالعمل بكتابه والمحافظة عليه ، وحيث أن هذه المشورة تعلقت بأعظم شيء طلب من المسلم أن يحافظ عليه ، وهو القرآن الكريم ، فإن هذا أمر عظيم نظر إليه الخليفة الصديق بعين الإجلال والإكبار والمهابة من ناحية ، وبعين الغرابة والتعجب من ناحية أخرى ، لأنه لم يكن على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ومن هو أبو بكر ؟ صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التقي الورع ، والذي كان كثير الخوف من الله ، وكانت هذه حالته وهو فرد من عامة المسلمين ، فكيف به وهو الآن الإمام والراعي في عنقه أمة الإسلام قاطبة ، كل ذلك جعله يستكبر ويستعظم مشورة وزيره عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أيقدم عليها أم يحجم عنها ، ولا يقل الخليفة الصديق في رجاحة العقل وبعد النظر عن عمر وأمثاله ، وكلهم مشهود لهم بذلك في عهد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، كيف لا وهم الذين صنعهم محمد - صلى الله عليه وسلم - في مدرسة النبوة ، ولنترك السيرة تحدثنا عن هذه المشورة العمرية ، وماذا كانت نتيجتها في عهد الخلافة الراشدة ؟

روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن السباق : (أن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر - رضي الله عنه - : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وأني أخشى أن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل

شيئًا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأي عمر ، قال زيد ، قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فتتبع القرآن فاجمعه .. فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال هو والله خير .. فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتي وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم**﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر - رضي الله عنها) [١] .

هذه هي أسباب المشورة ودواعيها ، استحقت من إمام المسلمين وخليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقتنع بها وينفذها ، فكان من نتائجها المحافظة على القرآن الكريم وكتابته في مصحف واحد ، ونقله إلى جماهير المسلمين كما سمعه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من فيه نبيهم من غير تحريف ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، وكان من نتائج هذه المشورة المباركة أن أصبح الجمع في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - توطئة وجسارة للإقدام على جمعه لأسباب مماثلة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - والذي كان له الفضل في تيسير كتابة المصحف الشريف ، وجمع المسلمين على رسم واحد في كتابة الآيات القرآنية منذ عهد الخليفة عثمان - رضي الله عنه - إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[٢] .

١ فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن / ج ٧ / ١١

٢ الآية ٩ من سورة الحجر

وعندما تكون المشورة مقنعة ، وفي أمر يهم المسلمين فلا يجوز للمسلمين الميل عنها إلى الاعتداد بالرأي الشخصي ايثارًا للهوى وطموحات النفس أو بلوغًا للتشفي والانتقام ، كل ذلك يعد من الضرر والإضرار ، وهذا منهي عنه في الشرع الإسلامي ، ولا شيء أعظم همًا ولا أكثر مفسدة من تفرق المسلمين والقاء العداوة بين بعضهم البعض ، نتيجة الخصومة والخلاف .. فهل تمثل المسلمون أخلاق عمر ، وحلم أبي بكر ، ومسارعة زيد في محاصرة النزاع والقضاء على الخلاف؟.. وهل وأد المسلمون الثارات الشخصية والنعرات العصبية في بئر لا قرار لها، كي يتهيئوا لضرب عدو الله وعدوهم ؟..

الأصل الرابع : الخضوع للدليل :

إن أي دعوى أو خلاف لا بد أن يستند إلى دليل يثبت من خلاله صحة هذه الدعوى ، وجانب الحق فيها من عدمه ، فكأنما الدليل هو العلامة المرشدة والقرينة الموصلة إلى إثبات الحق لدى الفصل في هذه الدعوي ، أو التحقيق في قضية الاختلاف ، وبهذه المثابة تعتبر الخصومة دعوى أو قضية طرفاها الخصمان المختلفان ، وحينئذ لا بد لهذين الخصمين من الإتيان بالدليل لإثبات صحة ما يدعيانه سلبًا كان أو إيجابًا .

هذا وقد يتفاوت وضوح الدليل وقوته حسب نوع الدعوى وحجمها ، فإذا كانت دعوى الاختلاف عقائدية ، فإن الدليل فيها إما أن يكون نقليًا أي تكفل الله بإيراده وإبرازه في كتابه الكريم ، واضطلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتأكيد عليه وايضاحه فيما صح من سنته المطهرة ، وإما أن يكون عقليًا أي مما لا يكون وقوعه أو عدمه متصادمًا مع العقل وليس بمستحيل في الحدوث والإمكان، وهذا كله إذا كانت دعوى الخلاف فيما يتعلق بحق الله كإثبات وجوده أو إفراده بالعبادة دون سواه ، أو الإلتزام بشرعه واتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالاقتداء به ، والسير على نهجه ، والعمل بسنته في مناحي الحياة المختلفة .

أما إذا كانت دعوى الاختلاف فيما يتعلق بحقوق العباد ، وفيما بين بعضهم

البعض ، فإنه لا بد من اثباتها بالأدلة النقلية أو العقلية أو المادية ، حسب نوع الدعوى وصحتها ، ورجاحة الأدلة على بعضها ، كيفما يتراءى للقائم على التحقيق ، والفصل في الدعوى كالحاكم والقاضي أو من كان في حكمهما في المسئولية والرعاية .

وإذا كانت دعوى الاختلاف قائمة بين المدعي والمدعى عليه وهما الخصمان المختلفان ، فلا بد وهما بين يدي الفصل والقضاء ، وفي ساحة العدالة أن يلتزما بحكم الله بعد صدوره عن القاضي ويعملان على تنفيذه بالرضا والقبول ، وأن يعلما تمام العلم أن القاضي أو الحاكم ، لا يحكم لأحدهما على خصمه إلا لرجحان دليله وقوة حجته ، وكل ذلك مبني على الظاهر من الأمر المختلف عليه ، فلا يجوز للخصم المحكوم عليه أن يكابر أو يتعالى على الحق ، بل يجب عليه أن يخضع للدليل - ونعني بذلك أن يسلم وينقاد ويذعن للدليل - الذي رتب الحق عليه وليس له ، مستجيبًا لحدود الله ، منفذًا أوامره ، ومعظمًا لأحكامه .. فعليه أن يتواضع ويتطامن ويستسلم للحكم الصادر بحقه، وأن يلتزم بحق أخيه وخصمه مقتنعًا بعدالة الحكم ، وأحقية الحق سواء كان له أو عليه ، وليعلم أن هذا من صفات المؤمن الحق وليس من قبيل الذل أو المهانة ، فلا يبتئس ولا يكترث بغرور السفهاء والجهال من الناس الذين ليس همهم في الدنيا إلا بطر الحق وغمط الناس، وأن لا حسبان للآخرة في حياتهم أو قلوبهم، ولكن المؤمن غير ذلك ، فهو يتأسى بالصالحين من عباد الله ، وخير مثال مشاهد لخضوع المؤمن للدليل المقنع بصدق دعوى الخصم ما نسوقه لك أخي القارئ كقدوة عملية وشاهد حي بينه الله لنا في محكم كتابه العزيز من خلال القصة التالية :

بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون :

إن من سنن الله مع أنبيائه أن يجعل لهم معجزات تدل على صدق دعوتهم وثبات حجتهم أثناء قيامهم بالدعوة لعبادة الله وحده ، والتخلي عن كل عبادة سواه ، وموسى - عليه السلام - وأخوه هارون - عليه السلام - من بين الأنبياء

الذين اصطفاهم الله بشرف الرسالة وحمل الدعوة لاخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فكان موسى - عليه السلام - نبيًا إلى بني اسرائيل الذين استعبدهم فرعون الطاغية بادعائه الألوهية من دون الله ، وموسى شأنه شأن الأنبياء الذين قبله قد طالبهم قومهم بالاتيان بالدليل على صحة ما يدعون إليه ، فقد أعطاه الله دليلاً باهرًا ومعجزة خارقة من جنس ما كان يتعاطاه قومه من السحر والشعوذة ، حتى تكون قريبًا من أذهانهم من ناحية ، وكي يروا صدقها من أباطيلهم بعين الحقيقة لا بعين السحر والخيال الذي يجري على أيدي سحرة فرعون العتاة من ناحية أخري ، وقد ذكرت قصة موسى ودعوته لفرعون في أكثر من سورة وآية ، والذي يعنينا هنا كشاهد اثبات في مجال (الخضوع للدليل) موقف السحرة الذين جمعهم فرعون لمناظرة موسى - عليه السلام - بعد رؤية الدليل القاطع على صحة نبوة موسى ودعواه لفرعون ، فكان فرعون المكابر يريد أن يدحض حجة موسى - عليه السلام - وإبطالها بأفعال السحرة الذين يعتز بهم ويعتزون به ، فدعا إلى هذه المناظرة لاعتقاده الباطل أن ما أتى به موسى - عليه السلام - ضرب من السحر لا يبطله إلا سحرة مثله ، وقد سجل القرآن هذه المناظرة ، وما دار فيها من حوار بين موسى - عليه السلام - وسحرة فرعون ، وكيف كانت النتيجة ، وذلك من خلال الآيات الكريمة التالية من سورة الشعراء :

يقول تعالى : ﴿ **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم (٣٨) وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين (٤٠) فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين (٤٢) قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (٤٣) فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٤٤) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (٤٥) فألقى السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى وهارون (٤٨) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين (٤٩) قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون (٥٠) إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا**

خطايانا ان كنا أول المؤمنين(٥١)﴾ .

وهكذا نرى أن المناظرة بدأت بالمحاورة والتحدي ، وانتهت بالخضوع والاستسلام ، وما ذاك إلا لأن الدليل الذي قدمه سيدنا موسى - عليه السلام - يتسم بالقوة والثبات ، مما كان له الأثر البالغ والعظيم في الاقناع والإقرار بالحق واتباعه فورًا دون شك أو تردد ، وقد كان السحرة من قبل وهم يقسمون بعزة فرعون على ظن بأن ما سيقدمه موسى نوع من السحر الذي عندهم ، ولكن حين أرادوا مقارعة الحجة بالحجة تبين لهم أن حجتهم داحضة أمام الدليل والبرهان العملي الذي مثل أمام ناظريهم إنه ليس بسحر ، وأن هذا الذي أتى به موسى - عليه السلام - حق وصدق ، ومما لا يقدر عليه إلا الله الذي فطر السماوات والأرض ، لذلك لما اقتنعوا بالذي رأوه من أمر العصى على إنه معجزة وليس بسحر ما وسعهم إلا الخضوع والاستسلام والانقياد والإذعان لنداء الله الذي بلغهم به موسى - عليه السلام - فعبروا عن صدق إيمانهم وخضوعهم بالسجود لله - سبحانه وتعالى - ، واعترافهم بأن ما يدعوهم إليه موسى هو الحق ، وأنَّ صدق الإيمان وقوة اليقين دفعت هؤلاء السحرة إلى تحمل الأذى في سبيل الله إذا كان ذلك مما يرضيه عنهم ، ويكون سببًا في غفران الذنوب التي استكرههم عليها فرعون من السحر والتضليل .

وأخيرًا : هل لنا في هذه القصة من قدوة ؟ ، كم من الخصومات والقضايا الخلافية تعرض على أهل الحل والعقد ، ويدعى أصحابها إلى تقديم البينة والدليل، فيحكم للخصم على خصمه لقوة حجته وصدق دليله ، فهل يستكين المحكوم عليه لهذا الدليل؟، وهل يعظم حدود الله وشعائره فيرد الحق إلى أهله من غير مكابرة ولا إلتواء ؟ وهل يستجيب المؤمن في حالة خصامه لحكم الله ورسوله وينفذه على الفور كما سارع سحرة فرعون في الاستجابة والخضوع لله لاقتناعهم بأنه الحق الذي ينبغي أن يكون ؟ .

هذه التساؤلات تستمد اجابتها من حياة المؤمن ومدى علاقته بربه وتطبيقه والتزامه بمنهج خالقه واقتدائه بسنة نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ..

الفصل الثاني

أصول خاصة بأدب الخصومة بين المسلمين

تمهيد :

الإسلام ذلك الدين الذي ختم الله به الرسالات ، وأتم به عالم الأديان والمعتقدات ، جعله الله دينًا قيمًا وملة كاملة وعقيدة شاملة ، اجتمعت فيه صفات الكمال فأصبح علمًا على رسالة خالدة ، ودعوة هادية ورائدة ، اختاره الله للإنسانية جمعاء ، فقال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** ﴾[2]، فهو بالنسبة للإنسانية نظام تكييف مع سنن الله في الحياة كما شرعها سبحانه وتعالى ، وهو بالنسبة للمسلم نظام عبادة وعلم وعمل ، وهو دستور حكم وطاعة وانقياد عن طريقه تتحقق الحكمة الإلهية من خلق الإنسان في هذه الأرض .

ومن هذا المنطلق فإن كلمة (إسلام) تعني عند المسلم المبدأ والقانون والدستور الذي ينتمي إليه راضيًا مختارًا ، فبالإسلام يتعبد لله ، وعلى الإسلام يموت ، فكأن الإسلام بهذه المثابة كل لا يتجزأ لدى المسلم في العبادة وفي المعاملة، فهو الدين وهو الدولة وهو الحضارة والمدنية ، قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾[3] .

والإسلام من معانيه الإستسلام والخضوع لما يدين به المسلم وهو الله ربّ العالمين ، الذي اختار للإنسان نظامًا يدور في فلكه ، وأوجد له منهجًا يتكيف

---

١ الآية ١٩ من سورة آل عمران

٢ الآية ٨٥ من سورة آل عمران

٣ الآية ٣ من سورة المائدة

بموجبه ، فمن حاد عن هذا المنهج وقع في الزيغ والضلال ، ومن انتفع بهذا المنهج واهتدى به هدي إلى صراط مستقيم ، ولما كان الله هو الهادي إلى هذا المنهج وذلك السبيل ، فإن من نعمته على عباده أن اصطفى منهم من يكون أهلاً لحمل رسالة هذا الدين والمحافظة عليه ، ومنهم من هداهم إلى معرفته وبصرهم إلى عظمته ، فاعتنقوا هذا الدين بقلوب مؤمنة ، وأقبلوا عليه يتلقون تعاليمه وأوامره فاستحقوا أن يوصفوا بالمسلمين والمؤمنين ، لأنهم أجابوا داعي الله وآمنوا برسله، فمن شأنهم أن يختصوا بمنهج مستقل في الحياة الدنيا ، يختلف عن مناهج الأمم التي نكصت وأبت الدخول في حظيرته ، فتعثر بها الطريق وتنكبت بها السبل .. أما المسلمون لما دخلوا في الدين الإسلامي سعدوا وسعدت بهم البشرية ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لا يخشون إلا الله ، ولا يطبقون إلا شرع الله .

هؤلاء المسلمون لم يكن اعتناقهم للدين الإسلامي أمرًا مجردًا ، لا معنى له سوى الانتماء إلى هوية أو شعار ، بل إن الإسلام كتعاليم وحدود ونظام وتشريع لا بد أن يحدد سلوك المسلم سواء كان في العقيدة أو في المعاملة ، وهما ركنان متلازمان في حياة المسلم، فهو في جانب العقيدة يتصل بربه ، وفي جانب المعاملة ينفذ شريعة خالقه ، فالشريعة الإسلامية وهي مجموعة القواعد والضوابط جاءت لتحكم تصرفات هذا المسلم في أي حال من الأحوال ، ومن ميزة هذه الشريعة أنها إلهية المصدر – أي أنزلها الله الذي خلق الإنسان ويعلم أسراره وخفاياه – فأوجد له من الضوابط ما يتعامل به مع غيره من الناس الذين يرتبط بهم برباط العقيدة سواء كان ذلك في حالة الاتفاق أو الخلاف مع هؤلاء الناس ، وكأنما هذه الضوابط أصول وقواعد يتقيد بها المسلم مع اخوانه ومجتمعه، ومما حدده الإسلام من ضوابط تلك الأصول المرتبطة بالآداب والتوجيهات التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم في حال مخاصمته لأخيه المسلم ، وتلكم الأصول هي :

الأصل الأول (التحاكم إلى الله ورسوله) :

دعا الله عباده المؤمنين إلى أن يعرضوا خلافاتهم مع بعضهم البعض على محكمة القرآن والسنة ، حيث هما أساس العدل وميزان الحق ، قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا** ﴾[١]، وقال تعالى : ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[٥] .

كل هذه النصوص تدل على أن الله أنزل كتابه ليكون الحاكم بين عباده ، والفاصل في خلافهم إذا ما أرادوا الحق والعدل والإنصاف ، وعباد الله المؤمنون لما ارتضوا بالإسلام دينًا لا بد أن يرتضوا به منهجًا وقانونًا يحل خلافهم وينظم شئون حياتهم ، لا يجوز لهم مخالفته أو التحاكم إلى غيره ، ولذلك نفى عنهم الإيمان في حالة عدم الاحتكام إلى كتابه وطاعة رسوله ، فقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا** ﴾[٦] .

ووجه الله عباده المؤمنين أن ليس لهم اختيار أمام قضاء الله وحكمه ، إلا

---

١ الآية ١٠٥ من سورة النساء
٢ الآية ٢١٣ من سورة البقرة
٣ الآية ٤٩ من سورة المائدة
٤ الآية ١٧ من سورة الشورى
٥ الآية ٢٥ من سورة الحديد
٦ الآيتان ٦٤ ، ٦٥ من سورة النساء

التسليم والرضا ، قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيدًا** ﴾(١) .

وأمرهم في حالة اختلافهم أن يردوا حكم ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾(٣) .. فعلى المسلمين أن يعرضوا خلافاتهم وخصوماتهم على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – فهما الكفيلان بحلها ، ولو كانت مثل زبد البحر .

ولقد أمر الله عباده المسلمين باتباع سنة نبيهم والتقيد بها وتحكيمها فيما يحدث بينهم من خلاف وخصام ، فقال تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾(٤) ، وعلق سبحانه طاعته بطاعة نبيه ، فقال سبحانه : ﴿**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا** ﴾(٥) .. وحذر سبحانه وتعالى من مخالفته ومخالفة نبيه ، فقال سبحانه : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾(٦) .

كما أنه لا تفهم أحكام كتاب الله ، ولا تطبق آدابه ، إلا من خلال سنة رسول الله الصحيحة كما بينها هو – صلى الله عليه وسلم – ، وكما طبقها أصحابه الكرام – رضي الله عنهم وأرضاهم – ..

١ الآية ٣٦ من سورة الأحزاب
٢ الآية ١٠ من سورة الشورى
٣ الآية ٥٩ من سورة النساء
٤ الآية ٧ من سورة الحشر
٥ الآية ٨٠ من سورة النساء
٦ الآية ٦٣ من سورة النور

وقد وردت في السنة أخبار صحيحة توجب العمل بها والإلتزام بمنهج الرسول – عليه السلام – في القول والعمل ، منها قوله صلى الله عليه وسلم – : «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**»[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم – : «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** . قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ . قال : **من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى** »[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم – : « **عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** »[3] .

وقد فسر كثير من العلماء (الحكمة) كما في قوله تعالى : ﴿ **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ﴾ أنها السنة .. وقد اختار الله لعباده هذا المنهج المتمثل في تعاليم الكتاب والسنة ليكونوا أمة عادلة وقوية تنتصر على الخلاف بقدر ما تتبع من شرع الله وهدي رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وإذا حادت أو مالت إلى منهج غير منهجه أوكلها الله إلى ما مالت إليه ولا يبالي ، فهل وعينا هذا الأصل ؟ وهل أدركنا هذا المبدأ جيدًا ؟ وهل أصبحت لدينا القناعة التامة بتطبيق أحكام الله وشرعه وسنة رسوله وهديه على أنفسنا وأهلينا ؟ وهل أدركت حكوماتنا الإسلامية واجبها تجاه شرع الله وحكمه لتطبقه كنظام حكم وقانون أم أنها لا زالت مكبلة بأغلال القانون الوضعي الجائر ؟ ، فأين هي من نور الله الهادي ، وظلمة الطاغوت الهالك ؟ .. تلك التساؤلات إجابتها في شريعة الله المتميزة عن قانون الأرض الهابط .

---

١ سنن أبي داود / كتاب السنة / باب في لزوم السنة / ج ٤ / ٢٠٠

٢ صحيح البخاري / كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الاقتداء بسنن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ج ٩ / ١١٤

٣ سنن أبي داود / كتاب السنة / باب في لزوم السنة / ج ٤ / ٢٠١

خصائص التشريع الإسلامي

يمتاز التشريع الإسلامي على القوانين الوضعية بخصائص جوهرية ، تجعله يتبوأ المرتبة المثالية والدائمة لأن يكون صالحًا لكل زمان ومكان ، وما ذلك إلا لإختصاصه بالميزات التالية :

أولاً – لأنه إلهي المصدر :

أي أن منبع الأحكام ومصدر الأصول التشريعية فيه هو الكتاب والسنة ، والكتاب هو القرآن الكريم كلام الله ووحيه إلى نبيه – عليه الصلاة والسلام – كله صدق وحق وعدل ، يقول تعالى : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدق به** ﴾[1]، ويقول تعالى : ﴿ **والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقًا لما بين يديه** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق** ﴾[3] .

وسنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وحي من ربه ، يقول تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[4] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : ﴿ **ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه** ﴾[5] .

وما دام القرآن والسنة تلقاهما الرسول – عليه السلام – بطريق الوحي الإلهي ، فحتمًا لا يرقى إليهما شك ولا باطل ، يقول تعالى : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[6] ، ويقول تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[7] .

---

١ الآية ٣٣ من سورة الزمر

٢ الآية ٣١ من سورة فاطر

٣ الآية ٤١ من سورة الزمر

٤ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم

٥ سنن أبي داود / كتاب السنة / باب في لزوم السنة / ج ٤ / ٢٠٠

٦ الآية ٤٢ من سورة فصلت

٧ الآية ٩ من سورة الحجر

فهذه النصوص كلها تثبت أن مصدر الإنزال للكتاب والسنة هو الله – سبحانه وتعالى – ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مبلغ عن ربه ، وأن الأحكام المشتمل عليها الكتاب والسنة هي التشريع الذي ينبغي أن يلتزم به المسلمون حكامًا ومحكومين ، وأن لا يحيدوا عنه يمنة ولا يسرة في أي مسلك من مسالك حياتهم في الدنيا إذا أرادوا الفوز والفلاح في الآخرة .

ثانيًا – أنه يتصف بالكمال والشمول :

أي أن التشريع الإسلامي هو القانون الذي اختاره الله ليحكم الدنيا والبشرية جمعاء ، وذلك للأسباب التالية :

١ – لأنه الشريعة الخاتمة للديانات السماوية ، يقول تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾[١] ، ويقول تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[٢] .

٢ – لأنه الدين الذي ارتضاه الله للبشرية كافة ، يقول تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** ﴾[٤] .

٣ – لأنه جاء بالوسطية ، فلم يجعل الله التكليف فيه من قبيل التشدد ، كما هو الحال عند اليهود ، ولم يكن دين رهبنة وتبتل ، كما هو الحال عند النصارى، ولكنه الدين الوسط والملة القويمة ، جمع الله فيه بين مطالب الروح من السمو في العبادة والمعتقد ، وبين مطالب الجسم من المادية والمحسوس ، ورغم أنه اهتم بالإنسان من ناحية التهذيب والأخلاق ، إلا أنه لم يهمل الجانب المادي الذي ترتبط به حياة الإنسان من توفير الحاجات الأساسية والحاجات

---

١ الآية ٣ من سورة المائدة

٢ الآية ٤٠ من سورة الأحزاب

٣ الآية ١٩ من سورة آل عمران

٤ الآية ٨٥ من سورة آل عمران

التحسينية اللازمة له ، فحين أمره بالعبادة شرع له العمل وحببه إليه كوسيلة للكسب والإعاشة ، ثم شرع له ما يهذب أخلاقه وسلوكه أثناء معاملته للآخرين ، كما شرع له ما ينمي به عقله وفكره ليميزه عن بقية المخلوقات العجماء ، وحثه إلى الاهتمام بزينته ومحاولة الاستفادة مما خلق له في هذا الكون ، لإضفاء الحياة الجمالية في حدود الحلال والمشروع ، لذلك قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1] ، أي فلا عبادة لحد التبتل المكروه ، ولا اشباع لحد الإسراف والتبذير ، ولا تزين لحد الممنوع والحرام ، ولكنه الاعتدال من غير إفراط ولا تفريط، كما قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** ﴾[2] .

٤ - إن أحكامه بنيت على أساس من التيسير وعدم الإضرار والمشقة ، أي أن التكاليف التي أفترضها الله على عباده اتسمت بطابع التخفيف واليسر ، لأن الله لم يحمل عباده المشقة بما افترض عليهم لإتصافه بالرحمة المطلقة - سبحانه وتعالى - وهو القائل سبحانه : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون** ﴾[3] ، ومن هنا جاءت الأحكام التكليفية في الكتاب والسنة ميسرة ومخففة ومتدرجة لتقبلها النفس الإنسانية وتتكيف معها حسب هداية المولى جل وعلا لعبده المؤمن ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا** ﴾[5] ..

وقد وردت نصوص كثيرة في سنـة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

---

١ الآية ١٤٣ من سورة البقرة
٢ الآية ٧٧ من سورة القصص
٣ الآية ١٥٦ من سورة الأعراف
٤ الآية ١٨٥ من سورة البقرة
٥ الآية ٢٨ من سورة النساء

اعتبرها الفقهاء والأصوليون بمثابة القواعد التي تستنبط منها الأحكام التشريعية للدين الإسلامي، ومن هذه القواعد على سبيل المثال لا الحصر قوله صلى الله عليه وسلم – : «**لا ضرر ولا ضرار**»[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم – : «**الحلال ما أحله الله في كتابه ، والحرام ما حرمه الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**»[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم – : « **ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة** »[3] .

وأنت ترى في هذه النصوص أنها تحمل بين ثناياها الدعوة إلى التخفيف، ورفع الحرج والمشقة عن المسلمين حتى بلغ من سماحة هذه الشريعة ويسرها أن ما يبدر من المسلم من خطأ في التصرف أو السلوك نتيجة النسيان أو الإكراه فإنه لا يؤاخذ عليه رحمة به ورأفة بنفسه الضعيفة ، مصداقًا لقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « **إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه** »[4] .

ثالثًا – أن أحكامه تمتاز بالواقعية والثبات :

نظام التشريع الإسلامي جاء وحدة واحدة ، لأنه وجد ليكون نظام حياة شاملة ومتكاملة ، في الحكم والسياسة ، وفي المال والاقتصاد ، وفي الأسرة والاجتماع ، وفي الآداب والأخلاق ، نظام له منهج خاص في التطبيق ، إما أن يقبل كله من غير تجزئة وإما أن يرفض كله ، ولا يطبق بعضه دون بعض ، الناس فيه سواسية كأسنان المشط يتساوون في الحقوق والواجبات ، دونما ظلم أو إرهاق أو تعسف ، من أجل ذلك تميزت أحكامه بالديمومة والثبات والاستقرار ،

---

١ سنن ابن ماجه / كتاب الأحكام / باب من بنى في حقه ما يضر بجاره / ج ٢ / ٢٣٤٠ .
٢ سنن ابن ماجه / كتاب الأطعمة / باب أكل الجبن والسمن / ج ٢ / ١١١٧
٣ سنن الترمذي / كتاب الحدود / باب ما جاء في درء الحدود / ج ٤ / ٣٣
٤ سنن ابن ماجه / كتاب الطلاق / باب طلاق المكره / ج ١ / ٢٠٤٣

فلا يعتريها التغير والاختلاف مع صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وما ذاك إلا لأن موجد الحياة وهو الله سبحانه وتعالى اختار لها هذا النظام وفق هذه الأحكام الثابتة ليجعلها تقوم على أسس قوية منيعة بعيدًا عن الخلل والاضطراب ، فلم يرض لها أن تكون تحت قوانين البشر وأحكامهم ، لأنه هو الذي خلق البشر ، وهو العالم بتغيرهم واختلافهم ، وقد أثبت الله للناس كافة رسوخ أحكامه ووجوب عبادته بالأدلة النقلية والعقلية ، فقال تعالى ردًا على من ادعى لله شريكًا في هذا الكون ، موجهًا العقل كي يدرك هذه الحقيقة المنطقية، فقال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[1] ..

وبين الله أن للبشر أهواء وآراء مختلفة مبنية على الباطل ، وأن الله هو الحق، وحكمه حق ، ولو ساير الحق أحكام البشر المختلفة لفسد حال السماء والأرض ، فقال تعالى : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾[2] ..

ووصف كتابه بأنه ثابت وحق ، لا اختلاف فيه ، ولو كان من عند البشر لخضع للتغيير والتبديل على مدار الأيام والسنين ، فقال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾[3] ..

فكأن التشريع الإسلامي المتمثل في الكتاب والسنة إنما يقوم عليه صلاح الدنيا والآخرة لثبوت أحكامه وعدالة شرعه وصلاحية نظامه للكافر والمسلم على السواء .

هذا ورغم أن أحكام هذا الكتاب قد مر عليها أكثر من خمسة عشر قرنًا من النزول، وهي كأنها تنزل اليوم ، لما لها من الواقعية في الحوادث والمستجدات ،

---

١ الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

٢ الآية ٧١ من سورة المؤمنون

٣ الآية ٨٢ من سورة النساء

وكلما توالت العصور والأزمنة وتجددت القضايا والاختلافات ، وجدت القرآن الكريم ينطق بالحل ، وكأنه ينزل في التو واللحظة ، ووجدت السنة المطهرة تعاضده في توضيح المخرج وبيان السبيل نحو الوفاق والاجتماع ، فأي تشريع تميز بهذه الخاصية من المرونة والتجديد مع الثبات والاستقرار ؟ .. فهل نرجع إلى التحاكم إليه لنحل خلافنا بالعدل والحق ، مؤمنين بأحكامه ، راضين بشرعه ، مهتدين بهديه ؟ .. أم أن الشيطان ما زال يدفعنا إلى قوانين الأرض ، كي يحقق منهج الفساد الذي يسعى إليه ليل نهار ، حتى يسيطر الظلم والاستبداد ، ويرجع الناس بعد إيمانهم كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض؟

الأصل الثاني (تحكيم أهل العلم) :

ذكر الله في كتابه العزيز أحكام الشريعة على صورة قواعد كلية مجملة تارة، وعامة تارة أخري ، ومطلقة في بعض الأحيان . منها المحكم ، ومنها المتشابه.. وهذا سر إعجاز القرآن وبلاغته ، يفهمه العامي بالسليقة والظاهر ، ويجتهد فيه المتعلم لعله يصل إلى بعض أسراره ، ثم يأتي دور السنة المطهرة من أجل أن تفسر المجمل وتوضح المبهم ، وتبين المتشابه من المحكم ، وتقييد المطلق وتخصص العام على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن فيه رسول الله – صلى الله عليهي وسلم – أخذ الصحابة الكرام معاني القرآن ومراد أحكامه ، وعن طريق الصحابة – رضي الله عنهم – ظهرت علوم القرآن ، وبلغ منها التابعون شأوًا كبيرًا في بحور هذا العلم العظيم ، وكأن الله اختار من خلقه بعد نبيه صلى الله عليه وسلم هؤلاء العلماء ليقوموا بالدور الكبير في دعوة الأمة المحمدية وهدايتها إلى الحق الذي أنزله الله في كتابه وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم في سننه ، فمن وفقه الله إلى هذا الجهد العظيم فقهه في الدين وعلمه التأويل ، وجعل على يديه الخير والهداية ، فصار عبدًا صالحًا وقدوة حسنة لخلق الله وعباده ، فاستحق أن يقتدى به، وأن يؤخذ من علمه .. من أجل ذلك بين الله منزلة العلماء العاملين بكتابه وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – في نصوص كثيرة من آيات الكتاب الحكيم ، وأحاديث جمة من سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – تدعو

إلى الإلتزام بهدي هؤلاء العلماء والرجوع إليهم فيما يشكل على المسلم من أمر دينه ودنياه ، فيزال الإشكال ، ويصحح الخطأ ، ويعرف الصواب ، فيكون المتبع على هدى وبصيرة من أمره ، فيحيا الحياة التي يرتضيها الله ورسوله .

منزلة العلماء في الشريعة الإسلامية :

أظهر الله فضل هؤلاء العلماء في أكثر من آية ، كما بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منزلتهم ودورهم في تبليغ الدعوة الإسلامية وهداية الأمة ، فقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[2] ، ويقول تعالى : ﴿ **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾[3] ، ويقول تعالى : ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾[4] ، ويقول تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[5]، ويقول تعالى : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[6] .

وأما الآثار في سنن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – عن فضل العلم والعلماء فكثيرة ، منها قوله – صلى الله عليه وسلم – : « **من يرد الله به خيرًا ، يفقهه في الدين** »[7] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « **من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا ، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر**

---

١ الآية ١١ من سورة المجادلة

٢ الآية ٦ من سورة سبأ

٣ الآية ٤٩ من سورة العنبكوت

٤ الآية ٧ من سورة آل عمران

٥ الآية ٢٨ من سورة فاطر

٦ الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

٧ صحيح البخاري / كتاب العلم / باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين / ج ١ / ٢٧

له من في السماوات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1] .

وإن هذا لغيض من فيض ، تفتقت عنه ينابيع الحكمة التي أوتي جوامعها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في شأن أهل العلم ، وفضلهم على الأمة .. وما أجمل ما قاله الإمام علي – رضي الله عنه – وهو ربيب بيت النبوة ، وسليل المعرفة والبلاغة فيما قاله في هذا الشأن :

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تعش حيًا به أبدًا	الناس موتى وأهل العلم أحياء[2]

مراتب أهل العلم ودورهم في حل الخلاف :

إن العلماء وما تميزوا به من مكانة رفيعة في الإسلام لجديرون أن يكونوا مصابيح النور ومشاعل الهدى لأفراد الأمة في المجتمع الإسلامي ، جعلهم الله البطانة الصالحة لأئمة المسلمين وحكامهم ، يأمرونهم بالخير ويعينونهم على ذلك ، كما جعلهم الله أهل كتابه وورثة أنبيائه ، علمهم من علمه ليكونوا أهلاً لهداية الناس ، وحضهم على فعل الخير والرشاد ، وآتاهم الله الحكمة ليغدوا أئمة في الفهم ، وقدوة في السلوك ، وعدولاً في الحكم ، ومثالاً في الإلتزام والتطبيق ، كي يترسم الناس خطاهم ، ويهتدوا بهديهم ، وينتهجوا منهاجهم ، ويرجعوا إليهم فيما ألتبس عليهم في أمر دينهم ودنياهم .

وإذا كان العلماء بهذه المثابة من العلم والدراية بحكم الله وكتابه ، وسنة رسول الله وأحكامها ، فإن أعباء الدعوة إلى الإصلاح والتوجيه لأفراد الأمة

---

١ سنن أبي داود / كتاب العلم / باب الحث على طلب العلم / ج ٣ / ٣١٧

٢ الأبيات للإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – احياء علوم الدين / ج ١ / ٧

الإسلامية ملقاة علي عاتقهم أكثر من غيرهم ، بل وأن الله قد كلفهم بحل المنازعات والفصل بين الخصومات ونشر العدل والسلام ، وتبصير الناس بدينهم ، وأن على المسلمين أن يرجعوا إلى هؤلاء العلماء وأن يستشيروهم ، وأن يتحكاموا إليهم فيما يختلفون عليه من أمور ، وأن يسألوهم ، وأن يستفتوهم فيما يتعلق بأمور الدين والإيمان ، وقد قلدهم الله هذه المكانة وانتدبهم لهذه الوظيفة ، للأدلة الصريحة في كتابه العزيز ، فقال تعالى : ﴿ **فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿**كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون** ﴾[4] .

هذه الآيات وغيرها في كتاب الله توجه المسلمين على اختلاف مداركهم وقدراتهم العلمية ، وما أوتوا من فصاحة وبيان أن يرجعوا ما اختلفوا فيه وما أشكل عليهم ، مما أحله الله وحرمه ، وما لم يرد فيه نص من كتابه العزيز أو سنة نبيه الكريم ، إلى الذين آتاهم الله العلم والحكمة ووصفهم بها وفهمهم إياها ، لأنهم شهداء الله في أرضه على خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[5] .

فكأنما أعطاهم الله هذا العلم وفقههم في الدين من أجل أن يبلغوا عن الله عن طريق رسله وكتبه ، وبما أنار الله عقولهم من العلم والمعرفة ما يريده الله من

---

١ الآية ٧ من سورة الأنبياء

٢ الآية ٨٣ من سورة النساء

٣ الآية ١٢٢ من سورة التوبة

٤ الآية ٣ من سورة فصلت

٥ الآية ١٨ من سورة آل عمران

عباده من التقوى والعبادة ، وأن يعرفوا المسلمين طريق الهداية من الغواية ، وجانب الصواب من الخطأ ، كما قال تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾[١] .

ثم إن هؤلاء العلماء قد حملوا من قبل الله تعالى مسئولية تبيين كتاب الله وأحكامه لإقامة شرعه وتنفيذ حدوده وزواجره للمخالفين لأمره، ونهاهم عن أن يكتموا ما أوتوا من علم إذا ما سئلوا ، كما نهاهم عن أن يحجبوا علمهم عن الناس ، فقال تعالى: ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾[٢] .

وبعد فهل أدركنا دور هؤلاء العلماء وما ميزهم الله به من الفهم والدراية ؟ ، وهل أنزلناهم منازلهم التي بوأهم الله إياها ؟ ، وهل تحاكمنا إليهم في نزاعاتنا وخصوماتنا إذا كنا ننشد الحق ونسعى إليه وحده ؟ .. ذلك ما دعى إليه المؤمنون في حياتهم الدنيا أن يعرفوا فضل علمائهم فيجلوهم باستشارتهم واستفتائهم ، كل بحسب ما أوتي من علم وما قلد من منصب ، إذا علمنا ذلك فلا يغيب عن أذهاننا ما لهؤلاء العلماء من دور عظيم في حسم النزاع والخصام الجاري بين الناس منذ أن بعث الله الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأبرز أدوار العلماء في حل الخلاف يظهر في المجالات التالية :

المجال القضائي :

إن من معاني القضاء في اللغة (الحكم) ، كما قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[٣] ، والحكم معناه (المنع ، والفرض ، والوجوب)

---

١ الآية ٨٠ من سورة القصص

٢ الآية ١٨٧ من سورة آل عمران

٣ الآية ٢٣ من سورة الإسراء

ومن هنا يسمى من يلي أمور المسلمين حاكمًا ، كما يطلق على من يلي أمور القضاء بالقاضي ، وذلك لمنعه الظالم عن ظلمه ، ولحكمه بكتاب الله بما فيه من أمر ونهي وردع وزجر .

وبهذا المعنى ، فإن القضاء كنظام للحكم وجد بوجود الحياة البشرية على الأرض ، كما جعله الله وظيفة من وظائف الإنسان حين استخلفه في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **يا دواد إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق** ﴾[1] .. وما ذاك إلا لأن القضاء أمر لازم لقيام الأمم والحضارات ، وفيه سعادتها ، وعن طريقه ينصر المظلوم ، وبموجبه يرتدع الظالم وتنهى الخصومات ، وتؤدى الحقوق ، وتؤتى الواجبات ، ويشيع الأمن في ربوع المجتمع ، ويؤخذ على أيدي العابثين وأهل الفساد ، فكأنما القضاء بمثابة صمام الأمان للمحافظة على النفس والمال والعقل والعرض والحرية الشخصية .. وتلكم الأمور التي شرع من أجلها أحكام الحلال والحرام في الشريعة الإسلامية ، وكلف المسلم بالالتزام بها وتطبيقها كشرط للدلالة على إيمانه بالله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .

وإذا كان العدل أساس الحكم ، فلا يستقيم الحكم إلا بالحق ، والحق لا يوجد إلا في أحكام الله وشريعته وهدي نبيه وسنته ، وهذا ما يضطلع به النظام القضائي في الإسلام ، حيث أن القضاء الإسلامي كما عرفه الجمهور هو : (الفصل بين الناس في الخصومات ، حسمًا للتداعي ، وقطعًا للنزاع بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة)[2] .

ومن هنا فإن السلطة القضائية في الإسلام أقوى من أي سلطة في الأرض ، لأنها تستمد قوتها من حكم الله ورسوله – عليه السلام – ، وهذا الحكم أمر المسلمون أن يلتزموا به في جميع مسالكهم ، ولا يحيدون عنه قيد أنملة ، إن كانوا يؤمنون بكتاب الله، ويطبقون شريعته ومنهاجه من غير شك ولا ريب .. وعندئذ فلا يتردد المؤمن إذا حوكم بقضاء الله الذي يقضي به القاضي المسلم العادل أن يقبله

---

١ الآية ٢٦ من سورة « ص »

٢ نظام القضاء في الإسلام / ص ٨ ، من بحوث جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / الرياض.

بصدر رحب ، ونفس راضية ، لأنه أمر ملزم له كجزء من إيمانه بالله ، يقول تعالى: **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾**[1] .

والقضاة في الإسلام هم العالمون بكتاب الله وأحكامه ، انتدبهم الله لإقامة العدل بين الناس ، وإنصاف المظلومين من الظالمين ، وحسم الخلاف بين المتنازعين وفق أحكام الشرع وحدود الدين ، لهذه الغاية جعل الله القضاء والحكم متلازمين، وإذا كان من طبيعة البشر أن ينشأ بينهم الخلاف والنزاع المفضي إلى الخصومة والشقاق ، فقد جعل الله القضاء هو السبيل للخروج من هذه العقبات ، وذلك بأن يلجأ المسلمون إلى التحاكم إلى كتاب الله عن طريق رفع الدعاوى وقضايا الاختلاف إلى القاضي المسلم ، الذي يحكم بشرع الله لا بقانون البشر إذا أراد العدل والإنصاف ، لأن القضاء الشرعي يتميز عن القانون البشري بعدة خصائص من أهمها :

١ – أن النظام القضائي في الإسلام يتسم بالنزاهة المطلقة والعدالة التامة .

٢ – أنه مبني على اليسر والبساطة مع الحكمة والاتقان .

٣ – أنه لا يعرف المحاباة سوى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

٤ – أنه يكفل الحرية للمتداعيين في الدفاع عن حقوقهما دون خوف أو تعثر .

٥ – تحري الحق والعدل من جانب القاضي خوفًا من الله وعقابه في الآخرة .

٦ – تحري النزاهة والصدق والإيمان في من ينتدبون كشهود أمام القاضي .

٧ – التسليم بالرضا والقبول بحكم القاضي العادل في أمر النزاع كأصل من أصول الإيمان بقضاء الله وقدره .

وإذا كانت هذه هي مميزات القضاء الإسلامي ، فلماذا لا نعرض قضايانا الخلافية عليه ، فنأمن من شر الخصومة ، وفتنة الفرقة والشقاق؟ .

---

١ الآية ٦٥ من سورة النساء

مواقف خلافية ساهم القضاء الإسلامي في حلها :

إن المجتمع المسلم كأي المجتمعات البشرية تنشأ الخلافات فيه ، وتكثر الخصومات والمنازعات ، وتتشعب القضايا بين أفراده على اختلاف مستوياتهم ، حكاماً كانوا أو محكومين ، ولكن سرعان ما تتلاشى هذه النزاعات ويتقلص حجمها ، وتزول أسباب الاختلاف حين يتحاكمون إلى قضاء الله وحكمه على وجه الإذعان والانقياد ، لإيمانهم بأن لا أعدل من حكم الله ورسوله ، ولاعتقادهم بأن الحق في حكم الله يقضي بتساوي الخصوم أمام القاضي بحكم الله ، فلا يطمع القوي في حيف القاضي ، ولا ييأس الضعيف في عدله .. من هذا المنطلق مرت في تاريخ القضاء الإسلامي مواقف مثالية حسم فيها النزاع في غاية من اليسر والبساطة، وبمجرد السلوك المثالي للقضاة المسلمين خوفًا من الله وتجنبًا لعقاب الآخرة ، آثرنا أن نقدم للقارئ طرفًا من هذه المواقف المثالية :

الموقف الأول (عمر بن الخطاب وعدالة القضاء) :

في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حدث خلاف بين الخليفة نفسه وبين أحد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه ، فاحتكما إلى زيد بن ثابت - رضي الله عنه - أحد كتبة الوحي في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وعهد إليه الخليفة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بجمع القرآن في عهده ، وهو الذي شهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنه من أعلام الصحابة في علم الفرائض ، وذلك بقوله - عليه السلام - : « **وأفرضكم زيد** » أي وأعلمكم بعلم الفرائض والمواريث .. زيد هذا استقضاه عمر - رضي الله عنه - في عهده - ، فكان من أمره أن أختير حاكمًا في قضية النزاع بين عمر وأُبي - رضي الله عنهما - ، ولنترك الدعوى تتحدث عن نفسها ، وهي في دار المحكمة الإسلامية :

فما أن عين القاضي الذي سينظر في هذه الدعوى حتى هب الخصمان

مسرعين إلى بيت زيد – رضي الله عنه – ، فلما دخلا عليه ، قال له عمر – رضي الله عنه – : أتيناك لتحكم بيننا ، وفي بيته يؤتى الحكم .. فما كان من زيد – رضي الله عنه – حتى قام مرحبًا للخليفة ، وموسعًا له عن صدر فراشه ، قائلاً للخليفة : (ها هنا يا أمير المؤمنين)، فقال له عمر – رضي الله عنه – : لقد جرت في حكمك ، ولكن أجلس مع خصمي) ، فجلسا بين يديه ، يعرضان عليه قضيتهما التي كان فيها أُبي – رضي الله عنه – مدعيًا ، والخليفة عمر – رضي الله عنه هو المدعى عليه – ولدى انكار الخليفة ما ادعاه أُبي ألزمه اليمين ، فما كان من القاضي إلا أن أكبر هذا الفعل – أي أن يحلف عمر اليمين – ، مترجيًا أُبيًا أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين ، قائلاً له : (ما كنت لأسألها لأحد غيره)، فما كاد عمر – رضي الله عنه – يسمع مقالة زيد هذه حتى أنكر عليه ذلك ، وأدى اليمين المطلوب منه ، ثم قال – رضي الله عنه – : « والله ، لا يدرك زيد بن ثابت القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء)[1] .

تلكم هي قضية الخلاف ، وقد رأينا كيف حكم بالحق على الخليفة لواحد من عامة المسلمين ، ولكن جوهر القضية هي الآداب التي ضربها الخليفة العادل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كمثال على انقياد المسلمين وتسليمهم بقضاء الله وحكمه ، ولو كان الحق على إمامهم وحاكمهم ، فيجب أن يُحاكم بكتاب الله ، ويجب أن ينقاد للحق ويؤديه لا يثنيه عن ذلك منصبه أو مكانته في قومه ، وكان بإمكان الخليفة أن يأتيه القاضي إلى مجلسه ، وكان من الممكن أن يعذر الخليفة بمطالبة الحق وتنهى القضية عند حد التقدير والاحترام لشخص الخليفة ومكانته ، وقد رأينا القاضي قد بادر إلى ذلك ، ولكن عدالة الحاكم أبت إلا أن يأخذ الحكم مجراه لإيمانه أن السلطة القضائية هي التي يجب أن تسود وأن تتغلب على السلطة السياسية لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلمون في أقضيتهم وأحكامهم إذا أرادوا النزاهة والحق والعدل .

---

١ أخبار القضاة / ج ١ / ١٠٨

الموقف الثاني (سلوك القاضي مقنع للخصوم) :

في بعض الأحيان قد يختلف اثنان على أمر يتشاجران فيه ، فيختصمان إلى قاضٍ ليحكم لهما فيه ، وما إن يأتيان إليه فيبدو لهما من سيرته وسلوكه ساعة وجودهما عنده، مما يجعل أحدهما يقر بالحق أنه عليه قبل النظر في دعواهما ، فينصرفان متصالحين بعد أن كانا متخاصمين ، وهذا ما يجليه موقفنا هذا مع أحد القضاة العدول ، وهو القاضي حماس بن مروان بن سماك الهمداني، وكان يكنى بأبي القاسم ، أحد تلامذة القاضي سحنون من مدينة القيروان بالبلاد التونسية .. وقد ولي أبو القاسم قضاء القيروان في أواخر القرن الثالث الهجري ، وكان مما حصل في عهد ولايته للقضاء الحادثة التالية :

أن القاضي أبي القاسم ممن كان يستعين على قضاء حوائجه بنفسه ، وكان مرة وهو يحمل بنفسه الماء لبيته إذ بنى أحد أهل القيروان دكانًا بجوار باب داره ، مما تسبب هذا الدكان في تعطيل الطريق التي يرتادها المارة من الناس ، كما تسبب في إيذاء الجار والنسوة الخارجات والداخلات في بيوتهن ، فما كان من جار صاحب الدكان إلا أن طلب من جاره إزالة الدكان الذي تسبب في الأذى وقطع الطريق ، فتداعيا إلى القاضي إذ مر بهما وهو يحمل الماء لأهله ، وحيث أنهما لا يعرفانه فسألاه عن القاضي حماس ، فقال لهما : ما تريدان ؟ قالا : نتحاكم إليه في خلاف بيننا ، قال : تحاكما فثالثكما القاضي حماس – وأخذ قلة الماء التي يحملها ، ووضعها على رجله ، ولم يضعها على الأرض –. قال القاضي: لأن الأرض مملوكة للمارة – باعتبارها طريقًا – ، فلا أريد أن أضيق عليهم. قال صاحب الدكانة : رحمك الله قضيت في مسألتنا .. وانصرفا مودعين ، وبادر صاحب الدكانة بإزالتها من الطريق[1] .

هذه القضية رغم صغر حجمها إلا أنها ذات معاني غزيرة وآداب جليلة ، تمثلت في رفع الدعوى إلى القاضي لإرادة الخصوم التحاكم إلى كتاب الله والرضى بحكم القاضي ، كما أنها لم تعط مجالاً للحرية الشخصية في التصرف

---

١ نظام القضاء في الإسلام / ص –٢٢

بمحض الهوى واتباع النفس وما تميل إليه ، ولو لم يكن فيه ضرر بالآخرين ، كما أن القاضي في الشريعة الإسلامية يمثل القدوة الحسنة في السلوك السوي بطاعة أوامر الله واجتناب نواهيه بالنسبة لأفراد المجتمع، فليس هناك ما يحرم على المجتمع ويحل له ، بل أن الإلتزام بشرع الله يشمل القاضي قبل غيره من الناس ، وحيث أنه العارف بحكم الله ، فيجب أن يكون سلوكه العملي في ممارساته أعباء الحياة اليومية قدوة فاضلة لأفراد المسلمين عامة ، وحين إلتزم هذا القاضي بآداب الشرع الحنيف جاءت سيرته مثالاً يحتذى به ، وأصبح سلوكه بين الناس هو القاضي بلسان الحال لا المقال ، مما دعا الخصوم إلى الاقتناع بهذا المشهد العملي من السلوك الذي يجب أن يلتزم به المخالف عن الحق فور رؤيته له دون الطلب في النظر إلى الدعوى أو الفصل فيها، وهذا مما يدل على يسر أحكام الله وبساطة القضاء الإسلامي وبعده عن التعقيدات أو تشبثه بالشكليات .

الموقف الثالث (سلطة القاضي أقوى من سلطة الجيش) :

أن من الغايات العسكرية للجيش الفاتح أو المنتصر أن يبسط نفوذه وقوته علي المناطق التي يستولي عليها أو يتمركز فيها ، وهذا ما تعارف عليه العسكريون وما تتداوله الأمم خلال السياسة العسكرية عبر العصور والأزمان .

أما في السياسة الإسلامية فإن المصطلحات العسكرية ترتكز على مبادئ وأهداف نابعة من الشريعة الإسلامية التي من غاياتها احترام الإنسان لإنسانيته لا لإذلاله وإقهاره ، والضرب على يده بالحديد والنار .. ومن هنا جاءت التعاليم الإسلامية متميزة بالسمو في أهدافها وغاياتها، فلم يكره أحد على الدخول في هذا الدين بمنطق القوة والإكراه، يقول تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾[2] ..

من هذا المنطلق يفترق الجيش المسلم عن جيوش الأمم التي ليس بغيتها إلا

---

١ الآية ٢٥٦ من سورة البقرة

٢ الآية ٦ من سورة الكافرون

السيطرة والتوسع في النفوذ والسلطة ، ولو كان على حساب الحق والعدل ، ولكن الجيش الإسلامي لا يتلقى أوامره إلا من الدين والعقيدة الإسلامية ، يطيع أوامر قادته بطاعتهم لله ورسوله ، فهو يذعن للحق ويستسلم لنداء الله ولو كان على حساب انتصاره وفتوحاته .

ولقد ضرب الجيش الإسلامي في عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز – رضي الله عنه – أروع المواقف في الامتثال والانقياد والاستجابة لقضاء الله ، وهو في ساعة النصر والفتح المبارك ، فما أن آلت الخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز بن مروان بعد أن تقلبت بين عهود الخلافة الأموية حتى ساس الخليفة الجديد الأمة بمنهج السياسة الراشدة التي كان ينتهجها الخلفاء الراشدون من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعاشت الأمة في ظله تنعم بالعدل والأمان ، وقد وافق في عهده أن جاءه وفد من أهالي (سمرقند)[1] شاكيًا إليه قائد جيش المسلمين، وكان إذ ذاك قتيبة بن مسلم الباهلي ، بأنه دخل هذا القائد بجيشه بلدهم سمرقند دون أن يوجه إليهم الإنذار حسب ما عرفه من قواعد الحرب في الدين الإسلامي .

فما كان من الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز – رضي الله عنه – حتى كتب إلى عامله في العراق أن ينصب إليهم قاضيًا يحتكمون إليه ، فأذعن الوالي لأمر الخليفة ، ونصب لهم قاضيًا يدعى (جميع بن حاضر الباجي) ، وما أن حضر الخصوم بين يديه حتى سمع للطرفين ، فحكم بخروج المسلمين من سمرقند ، وأن يعود أهل سمرقند إلى بلدهم وحصونهم ، وعلى قائد الجيش الإسلامي أن ينابذهم على سواء ، ثم يحاربهم إن أبو الدخول في الدين الإسلامي أو امتنعوا عن دفع الجزية ، فما كان من قائد الجيش إلا أن خضع لهذا الحكم مستسلمًا لأمر الله ، وأمر جيشه بالانسحاب .. فما وسع أهل سمرقند بعد أن رأوا عدل

---

١ مدينة من أكبر مدن التركستان الروسية ، يرجع انشاؤها إلى عهد الاسكندر ، وكانت تابعة لولاية بلخ في عهد المملكة البلخية الإغريقية ، امتد إليها الفتح الإسلامي في عام ٩١ هجرية بعد تصالح أهلها مع الوالي العربي في خراسان آنذاك ، وبذلك أصبحت مدينة سمرقند ولاية إسلامية ، ثم أصبحت مركزًا هامًا للدولة السلجوقية حتى احتلها المغول سنة ٦١٧ هجرية ، ثم امتدت إليها يد الغزو الروسي سنة ١٨٨٦ م ، دائرة المعارف الإسلامية / ج ١٢ / ١٩٨ – انتشارات جهان . طهران .

القضاء الإسلامي وانصياع الجيش بعد انتصاره ودخوله بلدهم للإنسحاب، إلا أن قالوا مرحبًا بكم ، سمعنا وأطعنا[1] .

والشاهد هنا أن الجيش الذي تمكن من فتح معظم مدن القارة الآسيوية آنذاك وبسط ظلاله عليها لم يكن هدفه القهر والقوة ، بقدر ما كان يسعى لنشر الدين الإسلامي في تلك الربوع البعيدة ، ولكن بطريق الحق والشرع لا بمحض الإرادة والهوى النفسي .. ولما كان الحق في حكم الله ، والجيش لا يسير ألا بحكم الله ، كان حكم الله أقوى من الجيش وسيطرته ، وإيمان الجيش وقائده بالله كان قويًا ، لذا كان من اليسير أن ينسحب دون ذلة ولا غضاضة في أمره ، استجابة لحكم القاضي لأنه حكم الله ورسوله ، وهو الغاية في حياة المسلم قويًا كان أو ضعيفًا ، حاكمًا كان أو محكومًا .. فلا بد أن يحترم قضاء الله عليه ، وينساق له ، بعزة واطمئنان من غير غرور ولا مكابرة ، ولا ذلة ولا هوان .

المجال الفقهي :

سخر الله طائفة من عباده لخدمة كتابه العزيز وسنة نبيه – عليه الصلاة والسلام – فعكفوا على دراستها دراسة عميقة ، بما آتاهم الله من العلم والمعرفة ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[2] ..

هذه الطائفة تدعى بالفقهاء، وهم العالمون والفاهمون لأحكام الله التي أنزلها في كتابه ، وبينها رسوله العظيم – عليه السلام – ..

هذه الطائفة تناولت كتاب الله وسنة رسول الله بالتبيين والتفصيل والشرح والتفسير ، مما قعدت القواعد وأصلت الأصول لفهم الأحكام التكليفية في الشريعة الإسلامية ، معتمدة على كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كمصدرين رئيسيين للشريعة الإسلامية ، مما نتج عن ذلك أن استنبط

١ نظام القضاء في الإسلام / ص ٢٢١

٢ الآية ١٢٢ من سورة التوبة

هؤلاء الفقهاء من القواعد الكلية لأحكام الكتاب العزيز والسنة المطهرة بالأدلة التفصيلية أحكامًا وأصولاً كمصادر تلت القرآن الكريم والسنة المطهرة في المنزلة والتنفيذ ألا وهي الاجماع والقياس.. ثم استنادًا للعهد النبوي وما وقع فيه من حوادث سكت عنها القرآن ولم تبينها السنة ، ولكن باجتهاد من الرسول – عليه السلام – والصحابة الكرام ، كأنما تدعو الشريعة الإسلامية إلى الاستفادة من الفكر والعقل البشري بما أعطاه الله من قوة العلم والقدرة على التفكير أن يجتهد فيما لا نص فيه إذا توفرت له شروط الاجتهاد والتي بينها هؤلاء الفقهاء ..

وبناء على ذلك فلم يأل هؤلاء الفقهاء جهدًا في الاقبال على دراسة الشريعة الإسلامية والبحث في أحكامها جملة وتفصيلاً بطريق الاستنباط والاجتهاد ، الأمر الذي نتج عنه بروز المذاهب الفقهية المعروفة في بلاد الإسلام وعلى رأسها المذاهب الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ..

وقد تلقت الأمة الإسلامية هذه المذاهب بالقبول والتنفيذ ، لما لأصحابها من أثر عظيم في خدمة الفقه الإسلامي والقضايا الخلافية بعد أن شهد معاصروهم لهم بالإيمان والعلم والنزاهة والعدل ، وكانوا مثالاً عمليًا وقدوة ربانية في عصورهم – رضي الله عنهم – مما تقلد الناس بمذاهبهم واتبعوها ، ولما كان باب الشريعة الإسلامية واسعًا في الفقه والحديث ، لم يقتصر الأمر عند حد هؤلاء الفقهاء الأربعة ومذاهبهم ، بل نبغ في عصرهم وقبله رجال فقهاء وعلماء ، كانوا شيوخًا لهؤلاء الفقهاء المتأخرين نقبوا في أمور الشريعة ، ووضعوا الأسس والمعايير ، فسار عليها المتأخرون بمزيد من الاقتداء وشيء من الاجتهاد .. وهكذا ما كاد القرن الثالث الهجري يوشك على الانتهاء حتى زخرت أمة الإسلام بلفيف من العلماء ساهموا في ثراء الفقه الإسلامي وأحكامه ومسائله ، مما تضيق عن سعته المكتبات الكبار ، وما الناس بعد هؤلا الفقهاء إلا عيال عليهم ما بلغوا من العلم والمعرفة في الدين .

ولم تترك دقائق الشريعة ولا جُلها إلا تطرق إليها هؤلاء الفقهاء ، ووضعوا لها الحلول والمخارج ، وهذا لا يعني أن الشريعة الإسلامية وقفت عند هذا الحد ،

بل فيها من المرونة والاستيعاب ما لا يدرك كنهها إلى يوم القيامة .. وهذا يعد رحمة من الله – سبحانه وتعالى – أن لم يسلك بعباده سبيل التضييق والتعسير ، ولا طريق الاستحالة والتعجيز ، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددًا** ﴾[1] .

تلك هي جهود الفقهاء ووظيفتهم تجاه أحكام الشريعة الإسلامية ، استخلاص الأحكام واستنباطها ، ووضع القواعد والأصول ، وإرساء دعائم الفتوى والتحكيم في أمور الدين والدنيا ، فمن كان بهذه المنزلة ألا يستحق أن يرجع إليه في فصل النزاع وحسم الخلاف ؟ ، ومن كان بهذه المنزلة ألا يستحق أن يكون أمره نافذًا بين المسلمين ؟ ، ولعل بعض المسلمين يقع في قلبه نوع من الشبهة أو شيء من الشك والريبة حول اختلاف الآراء وانقسام المذاهب بين الفقهاء ، وحينئذ رأي من يتبع ؟ ، وإلى من يتجه في عرض خصومته من معشر الفقهاء والمفتين ؟ .. هذا ما سنبين أسبابه في المبحث التالي:

أسباب اختلاف الفقهاء :

عاش أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين يدي النبوة ، وهم يتربون في مدرسة الإيمان والتقوى ، يشاهدون سلوك المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وهو يترجم لهم حياته العملية بصور متعددة من أفعاله وأقواله وتقريراته ، يستقون منه أمور دينهم ودنياهم كل بما رأى وسمع ، ويحتكمون إليه فيما يختلفون فيه ، فيحكم لهم بهدي الله وحكمه ، ثم يجتهد فيما لم ينزل به الوحي ، كما يقر بعض أصحابه في اجتهاداتهم الموافقة لروح الكتاب والسنة .

وكان عليه السلام يستطلع آراء الأجلاء من الصحابة ، ويشهد لهم بالفقه والعلم ، كما يدعو البعض بالتفقه والتعلم في دين الله ، وهكذا أخذوا عنه – رضي الله عنهم – أصول العقيدة والعبادة ، كما أخذوا عنه أصول العلم والمعاملة ، ونقل كل واحد منهم فقهًا صحيحًا عملت به أمة من المسلمين في العصر الذي عاش فيه،

---

١ الآية ١٠٩ من سورة الكهف

حتى كان عهد التابعين وهم تلاميذ الصحابة الكرام ، فساروا على نهج شيوخهم يدرسون ما خلفه لهم أسلافهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ثروة علمية وفقهية تارة ، ويمحصون في أحكام الكتاب والسنة وأدلتهما الشرعية بما أوتوا من فهم وإدراك تارة أخرى ، وما عايشوه من أحداث زمانهم .. وقد تباينت فيها آراؤهم ومداركهم ، فاجتهدوا فيما لم يرد به نص من الكتاب والسنة ، بعد الرجوع إلى أصولهما الثابتة ، مستنين بمن قبلهم من العهد النبوي والصحابة الكرام ، وكان لزامًا أن تأتي اجتهاداتهم مختلفة تبعًا لاختلاف مداركهم وفهمهم للنصوص الشرعية لهذين المصدرين الجليلين ، وطبيعة هذا الاختلاف ترجع إلى أسباب ومبررات ، وكأن الله قد جعلها رحمة وتخفيفًا على عباده من ناحية ، واتساعًا لنطاق العقل في الفكر والتبصر ، وإبرازًا لميزة العلم في ميدان العمل والتطبيق من ناحية أخرى ..

وإذا ذهبنا نستطلع أسباب الاختلاف ، نجدها تنحصر في أنواع أربعة لخصها العلماء المنصفون في بحوث علمية صادقة ، أزال الله بها الإلتباس ، ورد بها الشبهات ، وثبت بها أفئدة الذين يدعون إلى التمسك بأقوال هؤلاء الفهقاء ، والإعتداد بآرائهم ، والإلتزام بفتاويهم ، لما لهم من الفضل على الأمة الإسلامية جمعاء .

النوع الأول (ما يتعلق بنص الشارع من حيث كونه ثابتًا أو غير ثابت):

النص الشرعي من كتاب وسنة هو موضوع بحث الفقهاء ، وعليه مدار البحث والنظر ، كما أنه المرجع الوحيد للاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية ، هذا النص إذا ما كان صحيح الثبوت ، وصريح الدلالة ، وسليمًا من المعارض ، كان صحيحًا ونافذًا في الحكم والتكليف ، وليس هنا محلاً للإختلاف .. ولكن الفقهاء وضعوا ضوابط لثبوت هذا النص مِنْ عدمه بين بعضهم البعض ، وذلك فيما يتعلق بالمتن والسند، مثال ذلك :

١ - حكم خبر مستور الحال .

٢ – الحديث المرسل هل هو حجة أم لا ؟

٣ – هل لإنكار راوي الحديث أثر في روايته لهذا الحديث أم لا ؟

هذه الضوابط اختلف عليها الفقهاء بحسب وصول النص الشرعي إليهم ، فمثلاً للضابط الأول بعض الفقهاء يعتبره عدلاً مقبول الرواية والشهادة مع الشبهة، والبعض الآخر يعده كالفاسق لا يحتج بروايته احتياطًا لثبوت النص وصحته .. وأدلة الأولين قول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – : (المسلمون عدول بعضهم على بعض)[١] ، بينما يرى البعض عدم الاحتجاج بخبر المستور لضعف الحديث عندهم .. وعلى هذا يترتب الاختلاف في الحكم والاستنباط[٢] .

ومثال الضابط الثاني ، (الحديث المرسل) عندهم هو الحديث الذي يرفعه غير الصحابي إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – مباشرة ، فمنهم من يتمسك بهذا الحديث طالما أنه مسند إلى الرسول – عليه السلام – حتى ولو كان مرسلاً ، بينما نجد بعض الفقهاء يتوقف عنده من حيث العمل به أو عدمه ، وذلك لزيادة الاستيثاق والضبط[٣] .

كذلك بالنسبة للضابط الثالث ، فقد يروي الراوي حديثًا ثم ينكره، وهنا يكون محلاً للخلاف ، هل يعمل بروايته بعد الإنكار أم لا ! ، قال البعض لا يعمل به ، وقال الآخر يعمل به .. مثال ذلك الحديث الذي يرويه عروة عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « **أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل** »[٤] ، فهذا الحديث عليه العمل عند الشافعية ، بينما غيرهم من الفقهاء يتوقف عنده لعلة الإنكار .

---

١ أخبار القضاة / ج ١ / ٧٢

٢ دراسات في الاختلافات الفقهية / ص ٤٢

٣ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف / ص ٣٥

٤ سنن أبي داود / كتاب النكاح / باب في الولي / ج ٢ / ٢٠٨٣

النوع الثاني (اختلاف الفقهاء في فهم النصوص الشرعية) :

وسبب الاختلاف هنا ينحصر في وجهين ؛ أولهما لغوي ، والآخر اجتهادي.. فأما عن الأول فقد يرد النص وقد تضمن لفظة تحتمل أكثر من معنى في اللغة العربية ، ولم يحدد النص معنى بعينه ، وهذا ما يسمى في اللغة بالألفاظ المشتركة، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾[1].. ولفظة (قرء) في اللغة تحتمل أكثر من معنى واحد ، فيفسر (القرء) بالحيض عند قوم ، كما يفسر (القرء) بالطهر عند أخرين ، كما يفسر بالمعنيين معًا .

وحيث أن الشارع لم يحدد المراد بلفظة (القرء) بمعنى معين ، وحيث أن اللفظ محتمل للمعاني السالفة كان لا بد أن يكون سبب الاختلاف وجيهًا بين الفقهاء ، فمن فسر (القرء) على أنه الحيض رتب عدة المطلقة بعدد الحيضات ، ومن فسر (القرء) بالطهر رتب عدة المطلقة على عدد الأطهار ، وعمدة الفقهاء في ذلك اختلاف الصحابة- رضي الله عنهم - في مثل هذه الألفاظ ، وهم أقرب إلى عهد الرسول - عليه السلام - وقد عملوا بهذا وذاك ، والتابعون من بعدهم خلف لهم ، ساروا على نهجهم في الفهم وإدراك معنى النص كما فهموه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وأما عن الوجه الثاني ، فإنه تبعًا لاختلاف الفقهاء في فهم النص اختلفت درجات اجتهادهم في استنباط الأحكام منه ، وهذا الجانب له أدلة كثيرة في سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، فمثلا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه في حادثة بني قريظة مستعجلاً لهم : « **لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة** »[2].. فإن جماعة من الصحابة أعملت اجتهادها في فهم هذا النص أن الرسول - عليه السلام - أراد تأجيل الصلاة حتى يصل إلى بني قريظة، والبعض الآخر فهم من النص أن الرسول - عليه السلام - أراد

---

١ الآية ٢٢٨ من سورة البقرة

٢ صحيح البخاري / باب مرجع النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأحزاب ، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرتهم إياهم / ج ٥ / ١٤٢

الاستعجال في الأمر فصلى وسار إلى بني قريظة ، ولما كانوا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذكروا له هذا الاختلاف الذي حصل لهم أقرهم جميعًا بالجواز والصحة ، ولم يعنف أحدًا منهم .

وطبقًا لاختلاف الصحابة – رضي الله عنهم – اختلف الفقهاء في ترجيح أحد الفهمين على الآخر ، وتبعًا لذلك فقد جاءت اختلافات الفقهاء في كثير من العبادات كمناسك الحج مثلاً لاختلاف الروايات والأفهام في واجباته وسننه ، وكلها مأثورة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكأنما جاء هذا الاختلاف تيسيرًا ورحمة على المسلمين خصوصًا في هذه الأيام .

النوع الثالث (الاختلاف بسبب الجمع والترجيح في النصوص في حالة التعارض) :

معلوم أن للصحابة الكرام أقضية وفتاوى واجتهادات اختلفوا فيها، منها ما أقرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليها ، ومنها ما أدى بهم فهمهم واجتهادهم إلى الأخذ بها ، وحيث أنهم كانوا مرجعًا للتابعين ومن بعدهم اختلفوا هم الآخرون محتجين بأقوال الصحابة واختلافاتهم في كثير من مسائل الفقه مبينة في كتب الأصول .

الجمع والترجيح بين نصوص الشارع أمر بالغ الأهمية والدقة في فهمها، واستنباط الحكم الشرعي منها والعمل به ، وقد وضع الفقهاء قواعد لهذا الجانب يعرف بها الجمع والترجيح من عدمه في حالة التعارض بين النصوص كتقديم المحرم على المباح ، والناسخ على المنسوخ، أو أن النص موافق لدليل آخر يقويه من كتاب وسنة أو إجماع أو قياس فيتقدم على النص المعارض .. والمسائل التي وقع فيها التعارض والترجيح كثيرة في كتب الفقه نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر فمثلاً قراءة المأموم خلف الإمام ، اختلف الفقهاء فيها على ثلاثة أقوال :

فالأول : أن المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام ، سواء كانت الصلاة سرية أم جهرية.

والثاني : أن المأموم لا يقرأ مطلقًا الفاتحة خلف الإمام .

والثالث : أن المأموم يقرأ في السرية دون الجهرية ..

وقد جاء اختلافهم هذا نتيجة تعارض النصوص المروية في هذا الموضوع ، فمنهم من رجح نصاً على آخر وقال بالقراءة ، ومنهم من رجح نصوص النهي على غيرها من نصوص الأمر بالقراءة فمنع القراءة مطلقًا ، ومنهم من حاول الجمع بين النصوص المتعارضة فقال بالقراءة في حالة الصلاة السرية وعدم القراءة في حالة الصلاة الجهرية ، وكل مذهبه صحيح وجائز إن شاء الله.

النوع الرابع (الاختلاف في القواعد الأصولية) :

معلوم أن لكل مذهب فقهي قواعد وأسسًا يبنى عليها ، كما أن لكل عالم مجتهد مصادره التي يعتمد عليها في استنباط الأحكام الشرعية ، وهذا أمر طبيعي حيث أن كل عالم يتأثر بمن يأخذ عنهم في عصره وزمانه ويعتبرهم حجته ودليله ، ويتحدد بذلك منهجه وسيرته ، ويتشكل بذلك رأيه وفقهه .. فمثلاً من أصول المذهب المالكي الاحتجاج بعمل أهل المدينة ، وأن مفهوم المخالفة يعتبر أصلاً من أصول الفقه عند الجمهور ، كما أن تخصيص العام وتقييد المطلق من أصول المذهب الفقهي عند بعض العلماء ، وما إلى ذلك من الأصول التي اختلف عليها الفقهاء وهي مبينة في كتب الأصول .

لهذه الأسباب نشأت الخلافات الفقهية في كثير من الفروع التي تستند إلى أدلة وثيقة الصلة برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وللأمثلة على ذلك : فإن توريث ذوي الأرحام كالأخوال والأعمام لا يعمل به عند مالك ، بينما عند غيره يورثون ، وحجة مالك أن ذلك عمل أهل المدينة ، وحجة الآخرين قول الله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾[1] ..

كذلك مسألة الرضاع فمنهم من أخذ بالعدد ، ومنهم من أطلق القول بالحرمة في قليل الرضاع أو كثيره دون الالتفات إلى العدد ، إلى غير ذلك من المسائل

---

١ الآية ٧٥ من سورة الأنفال

الفقهية المختلف عليها وهي مبسوطة في كتب الفقه ، وحاشا وكلا أن يلحظ أحد من هذا الاختلاف أن هؤلاء الفقهاء كانوا يريدون الظهور والصيت ، أو انهم كانوا يشكون في حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو عمل أصحابه ، أو يريدون الفخر لأنفسهم والاستقلال بفقههم عمن سبقهم ، فمن يقدح في نفسه شيء من ذلك فإن فكره محدود ونظرته ضيقة ، خالية من الإنصاف والحق[1] ، ومن نظر في فقههم ودرس اختلافهم أعذرهم وأنصفهم ، وهم الذين كانوا يتحرجون من اطلاق لفظ التحريم على أمر لم يثبت لديهم ، معتدين بقول الله تعالى: ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** ﴾[2]

ناهيك عن أن اختلاف هؤلاء الفقهاء لم يكن إلا في الفروع دون الأصول وهذا أمر لا يغير في دين الله شيئًا طالما أنه قائم على أصل واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وما اتفق عليه الفقهاء أكثر مما اختلفوا فيه ، فعلى المسلم المنصف أن يأخذ بالاتفاق ، وأن يعذر في الاختلاف ، طالما أن غايته تحري الحق واتباع الصواب .

الأصل الثالث (الإمساك عن النيل من الخصم بعد الافتراق) :

إن الدين الإسلامي حين وضع ضوابط السلوك الاجتماعي ، قد قيد به الفئات المؤمنة أفرادًا وجماعات ، بغيته في ذلك اقامة جسر كبير ومتين من الود والمحبة والتلاقي بين هؤلاء الأفراد باعتبارهم مجتمعًا إسلاميًا واحدًا ، يقوم على أساس من الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية ..

من هذه الضوابط اجتناب ما نهى عنه الإسلام والإستجابة لما أمر به فإنه قد نهى عن الغيبة والنميمة ، كما نهى عن التجسس والحسد والغش ، كما حذر من الظلم وقطع الأرحام . ومن جانب آخر حض على العمل الصالح وأثاب عليه بالأجر العظيم ، كما دعا إلى الإصلاح بين الناس مبينًا آثار الصلح ونتائجه في حسم

١ دراسات في الاختلافات الفقهية / ص ٨٥

٢ الآية ١١٦ من سورة النحل

الخلاف والنزاع قال تعالى : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾[1] .

ولمّا كانت هذه الضوابط قد أوجدها الإسلام بين المؤمنين ، وهم بحالة من الصفاء والتقارب تسود بينهم وشائج المحبة والوئام ، فكيف إذا بدت بين بعضهم البعض العداوة والبغضاء ، وانقلب بهم الأمر إلى الخصام والجدال نتيجة الخلاف والنزاع ، فإنهم بأشد الحاجة وهم في هذه الحالة إلى أن يتمسكوا بهذه الضوابط، وأن يعملوا على تطبيقها بشكل عملي ومحسوس ، لذا فإن القرآن الكريم قد أكد على سمو الخلق الاجتماعي والارتقاء به من هم النفس الأمارة بالسوء إلى إدراك الهدف الأسمى للعلاقة الإنسانية بما فيها من روابط الجنس والدين ..

فالأصل في المسلم أن يكون هدفه في الحياة بعد عبادة الله إرادة الخير ، والسلام لإخوانه الذين يتعامل معهم ، سواء كانوا أقارب أو أباعد لذلك حبب الله إليه العفو والصبر وإيثارهما على العقوبة بالمثل مع القدرة عليها وإباحتها له ، قال تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾[2] .. وقد أرشد الله نبيه – عليه السلام – إلى هذا المبدأ ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[3] .. وبموجب هذا المبدأ كان لزامًا على المسلم أن يتقمص رداء الخلق الإسلامي بآدابه وهو يسعى لحل قضيته مع خصمه تحت سقف الشريعة الإسلامية الغراء .

ولما كان المسلم مدعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله للفصل في خصومته ، كان لا بد أن يخضع لهذا الحكم ويرضى به ، ويراعي ما يترتب عليه ، متذكرًا أنه عبد طائع لله سواء كان الحق له أو عليه ، فهو مدعو أن يرضى بما قضى له مع خصمه ، وأن عليه الكف عن خصمه من عدم المساس به أو التعرض له بعد صدور

---

١ الآية ١١٤ من سورة النساء

٢ الآية ١٢٦ من سورة النحل

٣ الآية ١٩٩ من سورة الأعراف

الحكم والفصل في الدعوى ، لأن ذلك من أدب الإسلام ومنهجه في نبذ الخلاف وشجب النزاع ، إذ أن حرية المسلم ليست مطلقة ، كما أن كرامة المسلم ليست مباحة ، وأن مبدأ الأخوة الإيمانية سيظل قائمًا ولو كان مع الخلاف والخصام ، ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض النماذج المثالية وهو يؤكد على مبدأ الكف عن الخصم بعد المفارقة وصدور الحكم ، من هذه النماذج مثلاً :

أدب المطالبة في القصاص :

إن الإسلام وهو يشرع القصاص في القتل قد حرم الانتقام وقضى على عادة الثأر المنتشرة بين الناس قبل الإسلام ، وقد جعل في هذا القصاص حياة للفرد والجماعة ، تحقن فيه الدماء ، وتحفظ فيه الحقوق ، قال تعالى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** ﴾[1] .

ففي حد القتل الخطأ مثلاً ، نجد الإسلام يخير في العقوبة بين العفو أو الدية أو القصاص ، وحين يقبل ولي الدم بإحدى هذه العقوبات فلا يجوز له بعد ذلك أن يرجع في كلامه ويترصد لخصمه كي ينتقم منه ، وقد رضي من قبل بحكم الله ورسوله ، بل لا بد من الامتناع والكف عن النيل في عرض هذا الخصم أو أحد أقاربه بعد أن تم القضاء وصدر الحكم وحصل الافتراق على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾[2] .

فالنص صريح في تحريم الاعتداء أو التفكير في الانتقام من الخصم بعد الموافقة على الحكم الصادر من جهة القضاء الإسلامي ، وهذه قمة الأدب في عدم المساس أو النيل من الخصم أو التعرض له بأي وسيلة من وسائل الإيذاء ، لا سيما وأن الحق – سبحانه وتعالى – قد أعطى ولي الدم كل الحق في المطالبة

---

١ الآية ١٧٩ من سورة البقرة

٢ الآية ١٧٨ من سورة البقرة

بحقه ، ولكن منعه من الاعتداء والانتقام حين شرع له القصاص العادل ، قال تعالى : ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورًا** ﴾[1] .

وقياسًا على هذا المبدأ من أدب القصاص ، فإنه يمتنع على كل مسلم أن يسيء إلى خصمه أو ينال منه في أي أمر يختلف معه فيه بعد أن يحتكما أو يصطلحا عليه .

أدب المعاشرة بين الزوجين :

وهناك لون آخر من الأدب الاجتماعي يظهر في حسن المعاشرة بين الزوجين كأصل من أصول الإسلام الرائعة في تماسك الأسرة وديمومة الحياة الزوجية ، وهو هدف من أهداف النكاح في الإسلام ، ولكنه كثيرًا ما يعتري هذه المعاشرة شيء من الشقاق والفتور ، فتتعرض الحياة الزوجية إلى هزات يتصدع من جرائها البناء الأسري .

ولذلك نجد الإسلام يضع الأسس الصحيحة ، ويدعو إلى الأخذ بها في كل بناء أسري يقوم في المجتمع الإسلامي ، كما يحدد الوسائل والسبل الكفيلة بمعالجة الخلاف إذا ما وجد بين الزوجين ، ففي ساعة اشتداد الخصومة نرى القرآن الكريم يسلك المسلك التهذيبي والإرشادي لكي يبقى البناء الأسري متماسكًا وقويًا يصمد في وجه العواصف والرياح التي أججها الخلاف والنزاع .. وحيث أن الزوج هو رب الأسرة والقيم على شئونها ، فقد ملكه الله زمام العصمة في زوجته ، كما خوله زمام التأديب والإرشاد لها في حالة نشوزها ، وعدم طاعتها لأمره .. وأعطاه الوسائل التي يعالج بها إعوجاج الزوجة دون اللجوء إلى الطلاق . كما أمره بالإبقاء عليها والسعي إلى إرضائها في حالة طاعتها له وامتثالها لأوامره ، قال تعالى : ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا**

---

١ الآية ٣٣ من سورة الإسراء

عليهن سبيلاً إن الله كان عليًا كبيرًا ﴾[1] .

وكذلك إذا عادت الزوجة إلى حظيرة الطاعة ، واصطلحت أحوالها مع زوجها، فيجب على الزوج أن يسعى بالود ونسيان ما مضى ، وعدم مطالبته زوجته بالتكفير عن ذنبها تجاهه أدبًا للعلاقة التي قامت بينهما على كلمة الله ورسوله ، ومن منطلق حسن المعاشرة هذا يجب على المسلم أن يتأدب بآداب المعاملة مع زوجته ، وكذلك هي الأخرى.. ويزداد الأمر تأكيدًا في حالة الطلاق والفراق ، فلا يحق لأحد الزوجين المفترقين الطعن أو المساس بالآخر مراعاة لما كان بينهما من علاقة سابقة ، فلذلك ذكر القرآن بهذه العلاقة قائلاً : **﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾**[2] .

وهكذا الأمر في قضايا النفقة والإرث ، وما يتصل بقضايا الحقوق بين العباد ، فكثيرًا ما تحدث فيها الخصومات والنزاعات ، وقد فصل القرآن الكريم في هذه القضايا بأحكام ثابتة ، لو تمسك المسلمون بآدابها لأنصفوا من أنفسهم ولأراحوا إخوانهم ، ويكفي بالمسلم أدبًا أن يتذكر قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** »[3] .. وقوله عليه السلام : « **قتال المسلم كفر ، وسبابه فسوق** »[4] .

فهل تمسكنا بهذه الآداب ونحن نخاصم ونقاضي ؟ وهل رضينا بحكم الله ورسوله، وكبحنا جماح أنفسنا ، وعففنا ألسنتنا عن المساس بحقوق إخواننا ولو أنهم خصماؤنا ؟ .. فليس بعد الحق إلا الباطل ، وما بعد الهدى إلا الضلال .

---

١ الآية ٣٤ من سورة النساء

٢ الآية ٢٣٧ من سورة البقرة

٣ صحيح البخاري / كتاب الإيمان / باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده / ج ١ / ٩

٤ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب ما ينهى عن السباب واللعن / ج ٨ / ١٨

الأصل الرابع (تذكر الهدف والغاية من وجود المسلم على الأرض) :

هذا الأصل ذكره الله صريحًا في كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] ، فهذه هي الغاية من وجود الإنسان على الأرض أن يعبد الله الذي خلقه ، وأن لا يشرك به شيئًا ، وأن يخضع له ويطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه ، وينفذ حكمه .. وطاعته لله تقتضي منه أن يطيع رسله ، وأن يؤمن بكتبه ، وبكل ما غيبه عن حسه وشعوره، وبذلك يكتمل إيمانه ويكون خالصًا لله .

فإذا كان المؤمن على هذه الدرجة من العبادة ، تذكر أنه ما خلق عبثًا، بل أن دوره في الحياة أن يصلح ولا يفسد ، وأن يجمع ولا يفرق ، خاصة وأنه مؤمن بعقيدة البعث والنشور والحساب في يوم يتحدد فيه مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ألا وهو يوم القيامة ..

إذا تذكر المؤمن هذه الغاية من خلقه على الأرض وجب عليه أن يحدد تصرفاته ومعاملته مع الله ومع الناس ، وأن يسعى نحو العمل الصالح وتحقيق المنفعة وإرادة الخير في كل منقلب ينقلب إليه ، لا سيما وأنه يعتقد في عمل الخير رضا الله وثوابه ، وأن في عمل الشر سخط الله وعقابه .. لذلك نجد الاسلوب القرآني في خطاب التكليف بأمر أو النهي عنه يختتم دائما بالحث علي التقوى ، لأن الغايةمن التكليف هو مدى استجابة الإنسان لأمر ربه بالفعل أو الترك ، وأما نتيجة التكليف فلا يعود نفعها أو ضررها إلا على المكلف نفسه ، وأما المكلف وهو الله – سبحانه وتعالى – فلا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين، يقول تعالى : ﴿ **من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[2] .

لذا فإن كل عمل يقدم عليه المسلم وهو من أمر الله ، الغاية منه طاعة الله والاستجابة لأوامره ، خوفًا من عقابه ، وطمعًا في جنته ، وهما الجزاء الذي أعده لعباده في دار الآخرة .

---

١ الآية ٥٦ من سورة الذاريات

٢ الآية ٤٦ من سورة فصلت

وإذا تدبرنا آيات التكليف في القرآن الكريم نجدها معلقة بالتقوى لله تعالى حيث هو القصد والغاية في التكليف ، يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾[4] ، وقال تعالى: ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا** ﴾[6] ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله** ﴾[7] ، وقال تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم** ﴾[8] ، وقال تعالى : ﴿ **وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون** ﴾[9] ، وقال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا** ﴾[10] ..

وآيات التكليف أكثر من أن تعد أو تحصى في كتاب الله ، يتبين الهدف منها وهو تقوى الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، إذا عاش المؤمن حياته وهو يسير في فلك هذا المنهج ، لا شك أنه سوف يزداد خوفًا وخشية من الله ، ومعلوم أن الحبيب لا يأتي إلا ما يرضي المحبوب ، فكيف بالله – سبحانه وتعالى – وهو

١ الآية ٢١ من سورة البقرة
٢ الآية ١٨٣ من سورة البقرة
٣ الآية ٢٨٢ من سورة البقرة
٤ الآية ٢٨٣ من سورة البقرة
٥ الآية ١٨٩ من سورة البقرة
٦ الآية ٢٧٨ من سورة البقرة
٧ الآية ٢ من سورة المائدة
٨ الآية ١ من سورة الطلاق
٩ الآية ٧٢ من سورة الأنعام
١٠ الآية ٧٠ من سورة الأحزاب

الخالق لهذا الإنسان وموجده من عدم .. أفلا يستحق الإخلاص له بالعبادة ، والانقياد له بالطاعة ؟ .. والمؤمن أكثر حبًا لله وأكثر خشية ، ومن علمه الله طريق الهدى وعرفه سبل السلام ، لا بد أن يزداد حبًا وخشية ، يقول تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1]

هذا هو هدف المؤمن في الحياة ، وهذه هي غايته منها عبادة الله وفعل الخير والإصلاح بين الناس ، فلا يخاصم إلا في الله ، ولا يعادي إلا في الله .. وإن اختلف مع أخيه المسلم في شيء تذكر موقفه بين يدي الله يوم القيامة إن هو ظلم أو اعتدى ، كما يتذكر موقفه بين يدي الله إن هو عفا وأصلح وسامح وأعذر .

فهل أدركنا حقيقة وجودنا في الحياة الدنيا ، وهل ميزنا حياتنا كمؤمنين بالله عن حياة الكفار والملحدين ؟ .. فهب أننا مسلمين لا يكفي ذلك حتى نحقق الغاية المرجوة فينا وهي أن تكون تصرفاتنا موافقة لما نعتقد وندين به ، أما إذا خالفت أعمالنا معتقداتنا فيخشى علينا أن نكون في عداد المنافقين الذين وصفهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان** »[2] وفي رواية : « **إذا خاصم فجر** » . وصدق اللّه العظيم إذ يقول ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه رب العالمين * لا شريك وبذلك أمرة وأنا أول المسلمين** ﴾[3].

نسأل الله أن يجنبنا طريق المنافقين ، وأن يجعلنا من أهل الصراط المستقيم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

---

١ الآية ٢٨ من سورة فاطر

٢ صحيح البخاري / كتاب الإيمان / باب علامة المنافق / ج ١ /١٥

٣ الآيتان ١٦٢، ١٦٣ من سورة الأنعام.

الفصل الثالث

أصول خاصة بأدب الخصومة مع أهل الكتاب

رسالة الأنبياء واحدة :

لما جعل الله الأرض موطنًا للبشر ، أمرهم بأن يعمروها بالإيمان به وتوحيده بالعبادة ، وبعث الله الرسل من أجل هذه الغاية ، يهدون الأمم ويعرفونها طريق الله بما أوتوا من رسالات وشرائع، وجب على الناس اتباعها وطاعة المرسلين بها والإيمان بهم وتصديقهم ، هذه الرسالات من لدن آدم - عليه السلام - حتى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، جاءت كلها تدعو إلى شيء واحد وهو عقيدة التوحيد ، توحيد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، فكأنما يجمعها شعار واحد وهو إفراد الله بالعبادة مع نفي الشريك أو الند له ، أيًا كان هذا الشريك ، ذلكم الشعار هو « لا إله إلا الله » .. وهو الغاية التي وجد الإنسان من أجلها على الأرض ، ولما كان هذا الشعار هو القصد والغاية ، جعله الله أساس كل رسالة ، وهدف كل نبي ، وغاية كل رسول يبعثه الله إلى الناس ..

لذلك ما من رسول يأتي إلا ويدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام . فالدين عند الله واحد وإن تعدد الأنبياء والمرسلون ، قال تعالى: ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق**

---

١ الآية ١٣ من سورة الشورى

٢ الآية ٢٥ من سورة الأنبياء

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[١] .

هذه النصوص كلها تثبت أن رسالات الأنبياء واحدة ، وأن لا فرق بين نبي وآخر في مبدأ الرسالة ، وهي عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين ، ويزداد الأمر وضوحًا من قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة . قالوا : كيف يا رسول الله ؟ . قال : الأنبياء أخوة من علات، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبي** »[٢] .

ومن هنا يتضح لنا أن الشرائع والأديان السماوية مكملة لبعضها البعض في مبدأ الدعوة والهدف ، وإن كان لكل منها شرعة ومنهاجا ، تصديقًا لقول الله تعالى : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾[٣] .. فمن اتبع الأنبياء وما جاءوا به فقد آمن ، ومن خالف وكذب فقد أشرك وابتدع وفرق في دين الله ورسله[٤] .. قال تعالى : ﴿ **فاقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾[٥] .

من ذلك يتضح أن الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن رسالات سماوية ، يجب الإيمان بها ، والتصديق بما جاء فيها ، والإيمان بالرسل الذين أنزلت عليهم ، وعدم التفريق بينهم أو تكذيبهم ، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ **آمن الرسول**

١ الآية ١٣٦ من سورة البقرة
٢ صحيح مسلم بشرح النووي / كتاب الفضائل / باب فضائل عيسى عليه السلام / ج ١٥ / ١١٩
٣ الآية ٥٢ من سورة المؤمنين
٤ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ج ١ / ٥
٥ الآيات من ٣٠ – ٣٢ من سورة الروم

بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[1] .

فوحدة الدين بين الأنبياء عامل مشترك بين الأولين والآخرين ، يقول تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[2].**

الدين الإسلامي ومنزلته في الأديان السابقة :

ورد ذكر الإسلام في كل رسالة سماوية ، وعلى لسان كل نبي جاء قبل ظهور الإسلام كدين وشريعة ، وقبل بعثة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – كرسول لهذا الدين .. ففي رسالة نوح وقومه قال تعالى : **﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[3]**

وقال تعالى عن ملة إبراهيم – عليه السلام – : **﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[4].**

وقال تعالى عن يوسف الصديق – عليه السلام – : **﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت**

---

١ الآية ٢٨٥ من سورة البقرة

٢ الآية ٦٢ من سورة البقرة

٣ الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يونس

٤ الآيتان ١٣١ ، ١٣٢ من سورة البقرة

وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾[1].

وقال تعالى عن رسالة موسى – عليه السلام – : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[2] .

وأخبر الله عن سحرة فرعون ، فقال سبحانه : ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين** ﴾[3] .

وذكر الله ملكة سبأ وموقفها من سليمان – عليه السلام – فقال تعالى : ﴿**رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[4]

وذكر الله الإسلام في التوراة ، فقال : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾[5] .

وأخبر الله عن عيسى – عليه السلام – فقال تعالى : ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾[6] .

كما أن التوراة والإنجيل – وهما أقرب رسالتين سماويتين عهدًا للدين الإسلامي – جاءتا تبشران بظهور هذا الدين ، وتدعوان إلى اتباعه والإيمان به وبالرسول المبشر به ، قال تعالى : ﴿ **نزل عليكم الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾[7] .

---

١ الآية ١٠١ من سورة يوسف

٢ الآية ٨٤ من سورة يونس

٣ الآية ١٢٦ من سورة الأعراف

٤ الآية ٤٤ من سورة النمل

٥ الآية ٤٤ من سورة المائدة

٦ الآية ٥٢ من سورة آل عمران

٧ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة آل عمران

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والانجيل** ﴾[2] .

ومن قبل فإن الله أخذ العهد والميثاق من الأمم وأنبيائهم على أن يؤمنوا بهذا النبي وبدينه الذي جاء به ساعة علمهم بظهوره ومعاصرته ، قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾[3] .

هذا هو الإسلام قبل ظهوره ، بشرت به الشرائع السماوية ، ودعا إليه الأنبياء السابقون ، فكأنما هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء والرسل واتباعهم ، جاء ليكون الدين الخاتم والدين المهيمن ، والدين المصدق لما سبقه من كتب وأديان، أعلى الله منزلته فجعله دينًا للناس كافة ، فلا يقبل من أحد دين غيره ، وأعتبر من كذب به كافرًا ومشركًا، ولو كان تابعًا لدين سماوي سابق ، قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾[5] . وقال تعالى: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾[6] .

---

١ الآية ٦ من سورة الصف

٢ الآية ١٥٧ من سورة الأعراف

٣ الآية ٨١ من سورة آل عمران

٤ الآية ١٩ من سورة آل عمران

٥ الآية ٨٥ من سورة آل عمران

٦ الآية ٣ من سورة المائدة

ولما كان هذا الدين هو الخاتم والناسخ لما قبله من شرائع وأديان ، جعل الله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - هو آخر الأنبياء وخاتمهم ، ولم يكن هناك من نبي بعده ، إلا أنه احتل من قلوب أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - مكان الصدارة في العداوة والبغضاء والكيد والتكذيب به وبالرسول الذي بعث به ، وليس هذا بأمر مستغرب على هؤلاء الناس ، فانهم قد كذبوا رسلهم وحرفوا في كتبهم ما أظهره الله وأطلع أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عليه في القرآن الكريم ، وذلك من افترائهم على الله وتكذيبهم لرسله وتحريفهم وتبديلهم لكلماته، كما لم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه حسدًا وخبثًا وجحودًا وانكارًا لما علموا بنزول الرسالة الإسلامية على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فذهبوا بشتى الوسائل يطعنون في هذا الدين ، الأمر الذي جعل الله أسبابه مهيأة في هذا الدين بما أنزله في القرآن عن توراتهم وإنجيلهم وتصديقه لهما في عهد أنبيائهم وفضحهم عبر الدهور والأزمان أنهم شعب حاقد ومنبوذ ومطرود من رحمة الله لمخالفته رسل الله وتكذيبه للإسلام ، لذلك أمر الله المسلمين أن يقفوا في وجه هؤلاء اليهود والنصارى بعرض الدعوة الإسلامية عليهم ، فإن أبوا فعليهم الجزية ذلة وصغارًا ، وإن أبوا فيحل قتالهم لأنهم كفار ومشركون .

وحين وقف أهل الكتاب من الإسلام هذا الموقف ، كأنما وضعوا أنفسهم في موقع الخصومة لهذا الدين ، ولكن الدين الإسلامي أبى إلا أن يدعوهم بمنطق الناصح الأمين كعادته مع كل ضال جاهل ومنكر مستكبر ، إما أن يهديه الله وإما أن يقيم عليه الحجة والبرهان من دينه الذي ينتمي إليه .. وهذا شأن الإسلام مع كل طائفة تعاديه أو تكذب به ، وحيث أن أهل الكتاب قوم أوتوا من الأدلة والبراهين من كتبهم ما يجعلهم يحاجون بها الإسلام والمسلمين ، فقد وضع الإسلام أصولاً يحاجج بها هؤلاء القوم في خصومتهم معه ، كأنما هذه الأصول بمثابة الآداب التي اعتاد الإسلام أن يراعيها في مخاصمته العدو إذا ما أراد اقناعه وإقامة الدليل والحجة عليه بانحرافه عن جانب الحق والصواب ، فما هي يا ترى هذه الأصول ؟ .. ذلك ما سنلحظه في المبحث التالي :

الأصل الأول (الجدال بالتي هي أحسن) :

موضوع الجدل كما مر معنا في الفصول السابقة لا ينشأ إلا عن خلاف أو نزاع ، وأهل الكتاب من اليهود والنصاري ، وهم أصحاب الديانات السابقة على الإسلام ، كانوا من بين المخطابين والمكلفين باتباع الدين الإسلامي حال ظهوره والإيمان بالرسول المبشر به وهو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن لما لم يستجب هؤلاء اليهود والنصارى لأمر هذا الدين واتباع الرسول لقضايا جعلوا منها مسائل الخلاف بينهم وبين المسلمين ، بينها القرآن ورد عليها بالحجة القاطعة مما كان لها الأثر الكبير في بيان حقيقة أهل الكتاب وما كانوا عليه من العناد والمكابرة في زمن أنبيائهم ، وما أقدموا عليه من التحريف والتبديل في الكتب التي جاء بها هؤلاء الأنبياء كالتوراة والإنجيل ، وما جاء من أمر تكذيبهم وتقتيلهم للأنبياء ، ومزاعمهم على الله بمالا يجوز في حقه .. كل ذلك أظهره القرآن الكريم بالحجة والبرهان ، وعلى لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وبشهادة التوراة والإنجيل التي ينتمي إليها أهل الكتاب ، بما وصلوا إليه من الكفر والإشراك بالله قبل وبعد ظهور الإسلام .

هذه القضايا الخلافية ، مما يتعلق بأمور العقيدة والإيمان بين أهل الكتاب والمسلمين، كانت السبب في قيام الجدل بين الفريقين ، ولكن لما للتوراة والإنجيل من منزلة عظيمة في القرآن ، كدينين سماويين بشرا بظهور الدين الإسلامي ، وصدق بها الدين الإسلامي في دعوته إلى الله .. وكان من أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بالكتب السماوية والإيمان بالرسل الذين جاءوا بها ، كان لا بد أن يكون الجدال القائم بين المسلمين وأهل الكتاب مبنيًا على الحجة من ناحية ، ومراعيًا لأصول الأدب في الجدال مع هؤلاء القوم من ناحية أخرى ، باعتباره ركنًا من أركان الإيمان في العقيدة الإسلامية .

لهذه الغاية أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعباده المؤمنين بإلتزامهم الآداب القرآنية عند مخاصمتهم ومجادلتهم أهل الكتاب ، وذلك بالأدلة القرآنية الظاهرة كما في قوله تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا**

بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[1] ..

ففي هذه الآية أمر من الله لعباده المؤمنين أن يلتزموا بحسن المجادلة لأهل الكتاب ، كسبب من أسباب رضا الله عليهم باستجابتهم لندائه ، وتنفيذ أوامره .. وحسن المجادلة في الآية المراد به إظهار الحق الذي أوجبه الله على عباده المؤمنين، وعلى جميع الخلق من أن يؤمنوا بالرسول الذي يأتي من بعد ، ويتبعوه مع إيمانهم بمن سبق من الأنبياء والرسل ، فمن أظهر هذا القول وعمل به أصبح كلامه حقًا وملزمًا ، وما على المنازع أو المخالف إلا موافقته والتقيد به ، فإن أبى أصبح من الكفار المعاندين الظالمين[2] .

كما أمر الله نبيه – عليه السلام – أن يدعو إلى ربه بالحسنى ، وأن يجادل المخالفين بالاسلوب الأمثل والأحسن ، قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾**[3] .

وخطاب الله لنبيه خطاب للدعاة من أمته بأن يلتزموا اسلوب الملاينة واللطف والرفق لدى دعوتهم للمخالفين عن دينهم من أهل الكتاب ، وذلك بإظهار الحق وبيان الحجة عليهم دون تعصب أو مغالاة ، فإنه الأسلوب الأمثل إلى اقناع البشر عامة ، لا سيما وأن الذي يدعى إلى الإسلام على علم تام بهذا الدين ، لما يجده مبينًا في كتابه الذي يعتقد به من توراة وإنجيل ، فإن هو خالف كأنما أقام الحجة على نفسه ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[4].

هذا وقد طبق الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذا الأصل عمليًا ، وذلك لدى مجادلته لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ويظهر لنا ذلك من خلال الموقفين التاليين :

---

١ الآية ٤٦ من سورة العنكبوت

٢ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ص ٤٢ – ٤٤

٣ الآية ١٢٥ من سورة النحل

٤ الآية ٧ من سورة الصف

الموقف الأول (مجادلة الرسول - عليه السلام - لوفد من اليهود) :

ورد في كتب السيرة : (أن وفدًا من أحبار اليهود - وهم علماء اليهود وأساقفتهم - جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا محمد أخبرنا عن أربع مسائل ، إن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك . فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك أو مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال : فاسئلوا عما بدا لكم . قالوا : أخبرنا كيف يشبه الولد أمه ، وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فأيتها غلبت صاحبتها كان لها الشبه . قالوا : اللهم نعم .. قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل ، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان ؟ فقالوا : اللهم نعم . قال : فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان .. قالوا : فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه ؟ - أي يعقوب عليه السلام - ، قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكرًا لله . قالوا : اللهم نعم .. قالوا : أخبرنا عن الروح ؟ . قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمونه جبريل ، وهو الذي يأتيني ؟ ، قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يا يمحمد لنا عدو ، وهو ملك إنما يأتي بالشدة ويسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك ، فأنزل الله - عز وجل - فيهم : ﴿ **قل من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم** ﴾[1] أ.هـ.

هذه خلاصة المقابلة يستشف منها الأسلوب البليغ والمقنع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يتحاور مع هؤلاء الأحبار ، وقد أظهر فيها الرفق

١ تاريخ الجدل / ص ٥٢

والعطف من خلال قسمه بربه ثم قسمه بأحب الأيام عند بني إسرائيل مذكرًا إياهم أنها أيام مقدسة عند الله وعند أنبيائهم يجب أن يحترموها ويلتزموا بها ، وقد ذكرهم بها لعلهم يقتنعون بالدخول في دينه ، ومن جانب آخر يلزمهم من خلال مجادلته لهم بما يعلمون ويقرون بصدقه بما في كتبهم من إجاباته على مسائلهم . وهنا تكون الحجة أكبر وألزم للاقتناع .

والشاهد هنا أن اسلوب الجدال قد اتسم بحسن القول في المحاورة ، واقرار الخصم بالحق الذي عليه بما يستند إليه من ادعاء ، من غير تعصب ولا شدة ، بل بلين الجانب واتباع الحكمة ، وحسن العرض للأدلة والبراهين .. وهذه كلها عوامل موصلة إلى الحق والإقرار به في حالة الجدال والمحاورة .

ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة كدعاة مصلحين، يجب علينا أن نتذرع بالرفق واللين وحسن الخطاب لدى مجادلتنا لمثل هؤلاء القوم .

الموقف الثاني : مجادلة الرسول - عليه السلام - لوفد من النصارى) :

استقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفدًا من أهل نجران، وكانوا ستين رجلاً ، كلهم من النصارى ، وقد أهدوا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – هدية ، عبارة عن بسط ومسوح ، فقبل – صلى الله عليه وسلم – المسوح ورد البسط .. ثم دعاهم إلى الإسلام ، فأبوا وقالوا : كنا مسلمين قبلكم . فقال عليه الصلاة والسلام : «**يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدًا** » ، قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ؟ . فأنزل الله على نبيه هذه الآيات ترد مزاعم النصارى وكذبهم ، فقال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾ .

ولما لم يردوا جوابًا ، وقد وقعوا في شك من أمرهم ، دعاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المباهلة كما أمره الله بقوله : ﴿ **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم**

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . والمباهلة هي التضرع إلى الله بعد جمع الأهل والولد من الفريقين المختلفين في صعيد واحد على أن يلعن الله الكاذب من الفريقين. وهذه التي يقال عليها الملاعنة .. وقد أقدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – على هذا لصدق دعوته ، ورفض النصارى هذه المباهلة لعلمهم بصدق دعوة الرسول – عليه السلام – ، ولعلمهم كذلك أنهم كاذبون فيما يدعون ، ومن أجل ذلك امتنعوا وقالوا للرسول – صلى الله عليه وسلم – : لو عرضت علينا غير هذا ، فقال عليه السلام: « **إما الإسلام ، وإما الجزية ، وإما الحرب** ؟ » . فقبلوا الجزية[1].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن زفر عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يريدان أن يلاعناه . قال ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فو الله لئن كان نبيًا فلاعننا فلا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أمينًا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا . فقال صلى الله عليه وسلم : « **لأبعثن معكم رجلاً أمينًا، حق أمين** » ، فاستشرف له أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « **قم يا أبا عبيدة ابن الجراح** ». فلما قام قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **هذا أمين هذه الأمة** »[2] .

الشاهد في هذه القصة طريقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحواره مع هذا الوفد من النصارى ، وكيف اتسم جداله معهم باللين والرفق تارة ، وبعرض الأدلة والبراهين تارة أخرى ، من غير تشدد ولا تعصب لدينه ، ولا إغلاظ في القول لمن خالفه ، بل أقره بالحق الذي عليه بما عنده من إدعاء ، وبما يستند إليه من كتاب .. وهذا الذي وجب على المسلمين أن يظهروه من احترامهم للأديان والأنبياء والمرسلين من قبل الله تعالى ، ثم اتباع اسلوب الحسنى في محاجتهم لأهل الكتاب ، متأدبين بأدب القرآن ، ومتآسين بهدي السنة المطهرة في مجال الدعوة والمجادلة والمناظرة .

---

١ نفس المصدر السابق / ص ٥٤

٢ صحيح البخاري / باب قصة أهل نجران / ج ٥ / ٢١٧

الأصل الثاني (الإنصاف) :

لما كانت رسالة الأنبياء واحدة في الحقيقة والجوهر ، كان لا بد أن تقوم على أساس من العدل والقسط ، فما من نبي أوحى الله إليه بكتاب إلا وأمر اتباعه بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، وقد بلغ الأنبياء ذلك عن ربهم وأنصفوا تابعيهم ومخالفيهم في التوجيه والإرشاد ، وأمة أهل الكتاب أكبر الأمم حظًا في تتابع الأنبياء والرسل عليهم لتحقيق هذه الغاية ، ومع كل نبي يأتي ترى لهم موقفًا من العناد والمجادلة إلا قليلا منهم ، حتى إذا جاء خاتم الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - بدعوة الإسلام وقد أمروا باتباعه والدخول في دينه كابروا وناصبوه العداء حقدًا وحسدًا من ناحية ، وطمسًا للحق الذي أمروا باتباعه من ناحية أخرى.

وقد بسط القرآن القول عن بني إسرائل - وهم اليهود والنصارى - مفندًا مزاعمهم وافتراءاتهم على الله وأنبيائه ، مبطلاً دعواهم ، داحضًا حججهم مظهرًا لكذبهم وتبديلهم لكلام الله ، وذلك بالأدلة والبراهين القاطعة للشك والمنصفة للحق.. وقد سلك القرآن في عرض هذه الأدلة أنواعًا شتى من الطرق في محاجته أهل الكتاب بغيته في ذلك تحقيق مبدأ الإنصاف كأصل من أصول الأدب القرآني في مجال المجادلة والخصام، ليعلم اتباعه كيف يحاورون من خالفهم ، وهم يعرضون الحق بلا لبس ولا تزييف .

ونحن إذ نعرض هذه الجوانب الإنصافية من أدب القرآن مع هؤلاء القوم ، بغيتنا من ذلك تذكير دعاة الإسلام بما عليهم من واجب توصيل الدين الإسلامي إلى آفاق الأرض عن طريق العرض الحسن والمحاجة الهادفة.

مواقف الانصاف القرآني لأهل الكتاب :

أولاً - تذكيرهم بالنعم مع ارتكابهم المعاصي :

وكان الغرض من تعداد هذه النعم هو تذكير هؤلاء القوم بما أخذه الله عليهم من عهد في زمن أنبيائهم ، أنهم إذا أدركوا الدين الإسلامي فيجب عليهم الدخول فيه والإيمان بالنبي المرسل به ، وجاء ذكر هذه النعم على سبيل الامتنان والتعريض بمخالفاتهم وعصيانهم لأنبيائهم ، وقد تجاوز الله عنهم ذلك وأسبغ عليهم نعمًا كان الأجدر والأولى بهم أن يتذكروها ، وأن يكونوا أول المسارعين في الاستجابة لهذا الدين ، وعدم مخالفته أو مجادلته ، وألا يكونوا أول كافر به ، وهم يعلمون أنه صدق وحق ، لما هو مبين في التوراة والإنجيل عندهم .

ولما لم يبدر منهم تجاه هذا الدين إلا الإنكار والمظاهرة والكفر والتحريض على محاربته ، سلك القرآن معهم هذا المسلك لعلهم يتذكرون ماضيهم القديم ، وما كانوا فيه من عذاب وشقاء ، حتى جاءتهم الأنبياء والرسل ، فأظهر الله على أيديهم المعجزات التي شاهدوها ، وأنعم الله بها عليهم ، إذ أنجاهم ممن عذبهم ، وأخرجهم من ظلمات الجهل والطاغوت إلى عبادة الله وحده ..

كما ذكرهم أنهم كانوا مع هذه النعم يعصون الله بمخالفتهم أنبيائه، ويرتكبون ما حرم الله ومع ذلك يغفر لهم ويعفو عنهم .. فهو يذكرهم بذلك إنصافًا للحق الذي يجب أن يتبعوه :

قال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾(1) .

وقال تعالى : ﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت**

---

١ الآيات من ٤٠ - ٤٢ من سورة البقرة

عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾**[2].

وقال تعالى : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾**[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**[4] .

وهكذا يعدد القرآن على بني إسرائيل الذين أدركوا الإسلام ما أولاه الله من النعم لآبائهم وأجدادهم السابقين ، وما كانت لهم من ذنوب غفرها الله لهم ، لعلهم يتعظون بهذه الذكرى فتهديهم إلى عبادة الله صدقًا وعدلاً ، وحسب القرآن أن يذكر هؤلاء القوم بواحدة مما أنعم الله به عليهم ، كشاهد اثبات على جحودهم ونكرانهم للحق الذي أمروا باتباعه ، والله يعلم أنهم سوف يقفون هذا الموقف ، ولكن الذكرى مع المخالف في هذا الموطن لا تكون إلا على سبيل التقريع والتأنيب ، أو من قبيل الإنذار والإعذار لمن يتمسك بالباطل ، وهو يعلم أن ما يدعى إليه هو الحق ، وذلك مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرة إلى ربكم**

---

١ الآية ٤٧ من سورة البقرة

٢ الآية ٤٩ من سورة البقرة

٣ الآيات ٥١ ، ٥٢ من سورة البقرة

٤ الآيات من ٥٥ – ٥٧ من سورة البقرة

ولعلهم يتقون ﴾[1] .

وكأن لأدب القرآن حكمة في ذلك ، فمن صنعت فيه معروفًا وهو يجحده ، يكفيه التذكير داعيًا وواعظًا ..

ثانيًا - مجاراتهم في الطلب لإقامة الحجة عليهم :

من سنن الله مع خلقه أن يبعث إليهم الرسل تبين لهم ما أوجبه الله عليهم ، وتعرفهم الطريق الصحيح في العبادة والعقيدة ، لئلا يكون للناس حجة على الله أن كلفهم بشيء لم يبلغهم إياه ولم يعرفهم عليه ، ولذلك قال تعالى : **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾**[2] .. وقال تعالى : **﴿ وما كنا معذبين حتي نبعث رسولاً ﴾**[3] .

وهذا يدل على العدل الإلهي ، والإنصاف الرباني لخلقه المأمورين بعبادته ، وأهل الكتاب أمة ممن خلق ، بعث الله إليهم جمعًا كبيرًا من الأنبياء لتحقيق هذه الغاية ، فما كان منهم إلا الإعراض والمكابرة والكفر والإشراك بالله ، إلا من هدى الله منهم وهم قليل، وكان من سنن الله أن يؤيد أنبياءه بمعجزات تدل على صدقهم، ومع ذلك فقد جادل أهل الكتاب هؤلاء الأنبياء بطريق الإفتراء والزعم مرة، وبطريق التمني والطلب مرة أخري .. وهم في كلا الحالين لم يقصدوا إلا التعنت والمراوغة والتباطؤ في أمر الاستجابة لله وطاعة رسله .

لذلك نجد القرآن الكريم يحدثنا عن هؤلاء القوم ومواقفهم مع أنبيائهم ، وكيف أن الله أجابهم ما طلبوه من أنبيائهم مع أنه لم يكن من لوازم الدعوة للإيمان بهم بجانب المعجزات الدالة على صدقهم ، ولكن انصافًا للأنبياء والمؤمنين بهم ، وحجة على المخالفين لهم الزائغين عن منهج الحق ، الضالين عن الصراط المستقيم، لذلك قال تعالى : **﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي**

---

١ الآية ١٦٤ من سورة الأعراف

٢ الآية ٢٤ من سورة فاطر

٣ الآية ١٥ من سورة الإسراء

بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾[1] .

وهنا يكشف الله كذب أهل الكتاب لدى مجادلتهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك بزعمهم أن الله أمرهم في التوراة أن لا يؤمنوا لرسول حتي يأتيهم بعلامة خاصة تدل على صدقه ، وهي أن يريهم قربانًا تنزل نار من السماء فتأكله ، كما كان العهد في أنبياء بني إسرائيل ، إن من آياتهم أن يقرب النبي قربانًا فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا زعم باطل ، وإنما هو افتراء على الله ، لأن أكل النار للقربان لم يوجب الإيمان بالرسول الآتي به إلا لكونه معجزة ، ومعلوم أن الأنبياء أيدوا بمعجزات عديدة دلت على صدق رسالتهم ، وجاءوا بآيات كثيرة أوجبت الإيمان بهم ، ومع ذلك فقد جاء أنبياء بني إسرائيل بمثل ما طلب هؤلاء القوم من آية القربان ولم يصدقوا بهم ، بل حاربوهم وأقدموا على قتلهم ، وهذا يدل على عدم صدقهم في دعواهم ، وإنما جاراهم الله في ذلك ليقيم الحجة عليهم ، وهو يعلم بما هم عليه من إضمار الكذب والمخالفة [2] .

وكذلك قولهم في موطن آخر ، كما بينه القرآن حكاية عنهم ، قال تعالى : **﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾[3] .**

ومن هنا يفند الله زعمهم في دعواهم أنهم أبناء الله وأحبابه ، فيرد الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى : كيف يعذب الله أبناءه وأحبابه، وكأنها قضية عقلية منطقية ، إن من كان إبنًا لله ، فأولى له أن يكرم ولا يعذب ، والله منزه عن الوالد والولد . ولكن إنصافًا للحق لو كنتم كما تزعمون ، فلم يؤاخذكم بأفعالكم القبيحة ، ويعذبكم بذنوبكم ، إشارة لما حصل لهؤلاء القوم من قضية التيه في صحراء سيناء أربعين سنة ، ومما ضربه الله عليهم من الذلة والمسكنة ، ومما حصل لبعضهم من

---

١ الآية ١٨٣ من سورة آل عمران

٢ تفسير الكشاف / ج ١ / ٢٧٥

٣ الآية ١٨ من سورة المائدة

المسخ إلى قردة وخنازير ، وقد غضب الله عليهم ولعنهم .. كل هذه العقوبات لا تليق بمن يكون إبنًا لله وحبيبًا له، لو كان هذا صدقًا وحقًا ، ولكنه باطل وكذب ، أراد الله أن يحملهم وزره ، ويذكرهم به حجة عليهم ، وما هم إلا بشر من سائر الناس ، ولله المشيئة المطلقة في من يعذب وفي من يغفر ، حيث أنه مالك الكون وإليه المعاد والمآل .

وثمة موطن ثالث يدحض الله فيه حجج هؤلاء القوم ، قال تعالى : **﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون علي الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾**[1] وهذا هو العدل المطلق والإنصاف الحق من رب العزة – سبحانه وتعالى – أن من يطيع يثاب بالجنة وأن من يعصي يعاقب بالنار ، وحاشا أن تكون عند الله وليجة أو واسطة لقوم دون آخرين في العقاب والثواب .

وهكذا تتوالى الحجج والبراهين الإلهية كالعواصف الراعدة تصم أسماع هؤلاء القوم وتخرس ألسنتهم ، لأنهم يعلمون إنما هو حق وصدق ، ولكن كتب الله عليهم الشقاء فأضلهم فمن يجادلهم ما عليه إلا أن يتمسك بالقرآن ، فإنه يكفيه الدليل والبرهان على فساد القوم وضلالهم ، وبثمل توجيه القرآن يجب أن يحاجج هؤلاء القوم إن كان القصد منها تمييز الحق من الباطل .

ثالثًا - إصرارهم على المعصية ، مع علمهم أن الحق غير ذلك:

وهنا يعرض القرآن الكريم مواقف من إصرار هؤلاء القوم على تعمد الباطل واتباعه ، ومخالفة ما دعوا إليه عن طريق الأنبياء ، وذلك بمحاولتهم طمس الحق واخفائه ، كما هو موجود في التوراة والإنجيل عندهم ، والميل إلى الإشراك والكفر، بل وحمل الأنبياء على موافقتهم في أهوائهم وضلالاتهم في أمور العقيدة

---

١ الآيات من ٨٠ – ٨٢ من سورة البقرة

والعبادة ، مثال ذلك : منافسة مشركي العرب في النبي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، وأنهم سوف يؤمنون به إذا ظهر زمانه ، ولما جاءهم زمان هذا النبي - وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم - أخفوا الحقيقة وكفروا به وحاربوه .. فيذكر الله خبرهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[1] .

فهم كانوا يعلمون تمام العلم أن النبي المبين في كتابهم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا قبل بعثته يستفتحون على المشركين ويتسابقون على الإيمان به.. وكانوا يقولون : يا ربنا أرسل النبي الموعود إرساله ، حتى ننتصر على الأعداء ، فلما جاءهم ما عرفوا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، كفروا به حسدًا منهم أن تكون الرسالة في العرب دون بني إسرائيل ، لأنهم يزعمون أنهم أفضل العالمين وأحسنهم ، وأن النبوة يجب أن تكون محجورة على بنى اسرائيل فقط[2] .

فرد الله عليهم هذا الزعم ، بقوله : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾[3] .

فكتمانهم الحق هو إصرارهم على عدم الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم بأن نبوته حق ، ولكن لأنه لم يوافق هواهم ، وهو أن لا تتعد الرسالة إلى غيرهم ، فأصروا على الباطل وخالفا ا الحق .

كما أن موسى - عليه السلام - مكث فيهم مدة من الزمن وهو يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، حتى إذا أنقذهم من تعذيب فرعون لهم ، طالبوا موسى - عليه السلام - أن يجعل لهم إلهًا ، وذلك تعديًا على الحق ومخالفته جهرًا وعلانية ، قال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على**

١ الآية ٨٩ من سورة البقرة
٢ كتاب / مسائل الجاهلية / ص ١٤
٣ الآية ١٤٦ من سورة البقرة

قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم ألهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾[1] .

وقد عبدوا العجل من دون الله ، وموسى – عليه السلام – بين أظهرهم ، وهذا لعمرك إصرار على المعصية وجحود الحق وإنكاره ، قال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾[2] .

فإصرار أهل الكتاب علي فعل المعصية واضح وظاهر للعيان ، ومجادلتهم في ذلك إنما تكون على سبيل تذكيرهم بالحق الذي يعرفونه ويخالفونه في آن واحد ، فهب أن المجادل لهم أراد أن ينتصر للحق ، فليس عليه إلا أن يتبع هدي القرآن في ذلك فما بعد أسلوب القرآن من توجيه وبيان .

رابعًا – جدالهم مبني على الجهل والباطل :

لقد كان طبعًا في بني إسرائيل الميل إلى المعصية بدافع الجهل والعناد ، حتى أنهم ليجادلون أهل العلم من الأنبياء والمصلحين فيهم بغير دليل ولا برهان ، كي يروجوا ما عليه من باطل وما يأتون من بدع وضلالات ، وقد ذكر الله جدالهم هذا ليظهر للمؤمنين من عباده ما عليه أهل الكتاب من خبث ومكر نحو الدين الذي أمروا باتباعه والسير على منهجه ، فقال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[3] .

وقد جاء احتجاجهم هذا نتيجة اختلافهم بلا دليل ولا برهان في قولهم أن ابراهيم – عليه السلام – كان يهوديًا كما زعمت طائفة اليهود ، وادعى النصارى أن ابراهيم كان نصرانيًا .. فرد الله عليهم هذا الاحتجاج أنه باطل وجهل ، فقال

---

١ الآية ١٣٨ من سورة الأعراف

٢ الآية ١٤٨ من سورة الأعراف

٣ الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة آل عمران

تعالى : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين** ﴾[1] .

وكذلك تعصبهم وتمسكهم بالباطل وما هم عليه من انحراف في العقيدة ، دفعهم إلى أن يروا أن ملة الضلال التي هم عليها أهدى من اتباع الإسلام والدخول فيه ، فجادلوا بذلك لجهلهم كما أخبرنا الله بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبرهيم حنيفًا وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما أمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾[2] .

وقد استمر جدالهم في الجهل والغباء وامتد إلى أكبر من ذلك أن جعلوا الجزاء بالجنة لمن كان على ملتهم ، وكأنهم استحوذوا على مشيئة الله فأصبحت في أيديهم ، من يرضيهم يدخل الجنة ، ومن يسخطهم يدخل النار ، وذلك من فرط جهلهم وغباوتهم، مما حكى الله عنهم في القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[3] .

وبعد هذا الجدال المبني على الجهل والتعسف ، أنى لأمة الضلال أن تحظى بما زعمت من أن تكون أهدى الأمم وأفضلها ، وهي تخالف قول الله وأنبيائه ؟ وأنى لجدالها أن يرى الحق أو يقر به ؟ إن كان أعين أصحابها في عمى ، وأذانهم

١ الآية ٦٧ من سورة آل عمران

٢ الآيات ١٣٥ – ١٣٧ من سورة البقرة

٣ الآيتان ١١١ – ١١٢ من سورة البقرة

في صمم ، وعلى قلوبهم غشاوة ، ينقلب الحق بها إلى باطل ، والباطل إلى حق ، وصدق الله العظيم حين يقول فيهم : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾[1] .

خامسًا - غلوهم في الدين أوصلهم إلى الكفر :

الغلو في الدين هو المبالغة في أمر تعبدي بتحريم أو تحليل من غير دليل على تشريعه أو الأمر به .

وأهل الكتاب أمة كسائر الأمم أمروا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له في العبادة، ولكن بما شرع لهم عن طريق الأنبياء الذين بعثوا إليهم ، وحيث أنهم لم يلتزموا بهذا الشرع ، ولم يسيروا علي منهج الرسل ، وأبوا إلا أن يتمرغوا في الغي والضلال ، وآثروا أن يبقوا على جهلهم وظلماتهم ، فابتدعوا في دين الله ما ليس منه ، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فقدموا طاعة أحبارهم ورهبانهم واتخذوهم أربابًا من دون الله، فحرفوا الكتب وقتلوا الأنبياء ، واستحلوا الحرام باتباعهم لهم، كما حرموا الحلال بما شرعوا لهم ، وتجرأوا على الله بنسبة النقائص إليه ، وانتحلوا من العبادات ما لم ينزل الله بها من سلطان في التوراة والإنجيل ، وهم بهذا قد خرجوا من دائرة التوحيد الخالص والإيمان بالله الحق إلى الإيمان بالجبت والطاغوت وعبادة الأوثان والأصنام ، حتى أصبحوا كفارًا ومشركين ، واستحقوا لعنة الله وغضبه في الدنيا والآخرة [2] .

وقد ذكر الله من غلوهم وابتداعهم في شرع الله ما ليس منه في القرآن الكريم ، وهو المصدق لما بين أيديهم من التوراة والإنجيل المأمورين باتباعهما والتصديق بالكتاب الذي جاء من بعدهما ، فقد ذكر الله من أخبارهم في هذا الشأن إنصافًا للحق الذي حادوا عنه ، فقال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل**

---

١ الآية ٦ من سورة البقرة

٢ الجواب الصحيح لم بدل دين المسيح / ج ٢ / ٥٢ - ٥٣

وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[2] .**

وقال تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾[3] .**

أي على الذين آمنوا أن يقاتلوا أمة الكفر من اليهود والنصارى ، الذين لم يلتزموا بشرع الله في الحلال والحرام ، كما هو الحال عند النصارى أنهم أحلوا الخنزير وشرب الخمر ، وهو محرم عليهم بنص الإنجيل والتوراة ، كما حرموا كثيرًا من الطيبات التي أحلت لهم بحجة الرهبانية التي ابتدعوها ، فاستحلوا النجاسة ، وحرموا الختان ، كما لم يؤمنوا بالطهارة والغسل إلى غير ذلك من إتيانهم بعبادات مزورة ومزعومة ، ولم تكن من صلب الدين الذي يؤمنون به ، ولكن تحريفًا وافتراءً على الله ، كعبادة الصليب ، وجعل الإله ثلاثة ، وقد نهوا عن ذلك بصريح الكتب السماوية الصادقة .. ولكن لفرط جهلهم تركوا ما أنذروا به ، واتبعوا أهواءهم ، وما زينه لهم أحبارهم ورهبانهم من البدع والخرافات ، حتى جعلوها دينًا يتعبدون به ..

وفي ذلك يروي الإمام أحمد وابن جرير الطبري والإمام الترمذي بأسانيدهم من طرق عديدة كلها صحيحة ، عن عدي بن حاتم [4] - رضي الله عنه - في خبر

---

١ الآية ٧٧ من سورة المائدة

٢ الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة

٣ الآية ٢٩ من سورة التوبة

٤ هو أبو وهب وأبو طريف الطائي عدي بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن أمرئ القيس ابن =

قصة إسلامه ، وكان متنصرًا في الجاهلية ، ولما بلغته دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فرّ إلى الشام ، ووقعت أخته وبعض من قومه في الأسر ، وكان يوم ذاك سيد قومه (طئ) فلما أن مَنَ الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أخت عدي بفكاكها من الأسر ، بعثت إلى أخيها ترغبه في الإسلام .. فقدم عدي إلى المدينة ، ودخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في عنقه صليب من فضة ، فسمعه يقرأ هذه الآية : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله** ﴾ . قال عدي : فقلت إنهم لم يعبدوهم . فقال عليه السلام : «**بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم** » .. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **يا عدي ما تقول ، أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله ؟ ما يضرك ؟ ، أيضرك أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم إلهًا غير الله ؟** » .. ثم دعاه إلى الإسلام ، فأسلم وشهد شهادة الحق .. قال - أي عدي - فلقد رأيت وجهه استبشر - أي الرسول عليه السلام ، ثم قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « **إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون** »[1] .

تلك هي ضلالات القوم وبدعهم ، وذلك هو غلوهم في أحبارهم ورهبانهم ، أعماهم عن الحق ، فشرعوا له من الدين ما لم يوصي به الأنبياء ، ولم ينزل في الرسالات ، فاتبعوهم وضلوا بهم وأضلوا من بعدهم ممن اتبعهم ، وأصبحوا لهم مقلدين ومتشبهين ، بذلك وجب على المسلم أن يتسلح بالعلم وأن يتزود بمعرفة كاملة عن هؤلاء القوم وخبثهم ومكرهم ، حتى يقوى على إحباط ألاعيبهم ، وكشف خططهم الماكرة تجاه الإسلام وأهله ، وأن يجادلهم المجادلة القرآنية الحقة ، وعليه

= عدي، أمير قبيلة (طئ) وشريف قومه ، اشتهر أبوه بالكرم في قبائل العرب حتى ضرب به المثل القائل (أجود من حاتم) وفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - سنة (٧) للهجرة ، فأكرمه وقربه .. وقصة إسلامه كما هي موضحة في الحديث المذكور روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عدة أحاديث، وروى عنه عدة من مشايخ الحديث ، شارك في الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، كان مع علي - رضي الله عنه - في معركة صفين ، نـزل (قرقيسيا) ، وتوفى بها سنة (٦٧) من الهجرة عن عمر يناهز المائة والعشرين سنة .. سير أعلام النبلاء / ج ٣ / ١٦٢

١ تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير / ج ٢ / ٢٢٥

أن يرعى أدب المجادلة وهو يخاصم هؤلاء القوم في مسائل الدين والعقيدة ، كماوضح القرآن وبينت السنة المطهرة ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –..

الأصل الثالث - التحاكم إلى الكتب التي في أيديهم :

إن قضية الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب قضية عقائدية دينية بحتة ، من حيث كون الإسلام هو الدين الخاتم ، والمهيمن على الأديان السابقة له ، ومن حيث أن الرسول محمدًا – صلى الله عليه وسلم – مرسل إلى البشرية جمعاء بما في ذلك اليهود والنصارى، الأمر الذي يوجب الإيمان به والتصديق بما جاء به ، وقد تحقق هذا من جانب المسلمين فآمنوا به واتبعوه ، بل ومن لوازم الإيمان به الإيمان بالرسل والكتب السابقة ، وهذا يعد في شريعة الإسلام من أركان الدين والعقيدة لا يتم إيمان المرء إلا به ، بيد أن أهل الكتاب لما دعوا إلى الإسلام رفضوا الدخول فيه إلا من هدى الله منهم ، محتجين في ذلك بعدة حجج منها :

قولهم : بأننا أصحاب الكتاب الأول ، ولم يأت ما ينسخ كتابنا .

وقولهم : أن محمدًا لم يرسل إلينا ، ولكن أرسل إلى العرب فقط .

وقولهم : أن القرآن أنزل بلسان عربي ، ونحن لسنا بعرب ، فلسنا مخاطبين به .

وقولهم : أننا أهل دين سماوي ، وقد جاءتنا رسل ، ولسنا بحاجة إلى الإيمان بمحمد أو الدخول في دينه ، فليس دينه أفضل من ديننا ، بل أن دين محمد جاء يمدح ديننا، ولو كنا على باطل ما استحققنا هذا المدح.

وقولهم : أن محمدًا ليس هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل.

وقولهم : أن محمدًا لم يرسل إرسالاً دينيًا – أي بصفة النبوة والرسالة – ، ولكنه أرسل إرسالاً كونيًا – أي سلط الله به – على قوم حين غضب عليهم وأراد تعذيبهم ، كما هو الحال في (بختنصر) الذي أرسله الله عذابًا على اليهود لما طعنوا في المسيح ولم يؤمنوا به ..

تلك هي ادعاءاتهم ومزاعمهم على الدين الإسلامي والرسول المبشر به ، وما

منعهم من الدخول فيه إلا الحسد والاستكبار لغير الحق ، وحيث أن القرآن أظهر مكائدهم وخبثهم وإعراضهم عن الإيمان بهذا الدين ، ولكونهم لم يعترفوا بهذا القرآن ولم يؤمنوا به، كان لزامًا أن يرد عليهم بما في كتبهم التي يزعمون التمسك بها ، وهي تبشر بهذا الدين وتدعوا إلى الإيمان به والتصديق بالرسول الداعي إليه كشاهد وحجة عليهم من ناحية ، وبمخاطبتهم بما يعرفون من كتبهم وعلى لسان أنبيائهم بما أقروه من حق في اتباع هذا الدين وطاعة الرسول المبشر به من ناحية أخرى ، وذلك لسد الذريعة عليهم من كونهم لا يؤمنون إلا بما عندهم من كتب ، وليس شيئًا أكبر عدالة من أن يحاجج المخاصم بما أستدل به وهو شاهد عليه ، بما لا يستطيع انكاراً أو مدافعة لأنه ينتمي إليه ويتمسك به ، فإن أنكره أصبح كافرًا بدينه ، وهو إلى ما سواه أكثر كفرًا وعنادًا .

ونحن إذ نختصم معهم في مثل هذه القضايا ، لابد أن نواجههم بما عندهم من كتب يقرون بصدقها وثقتها ويتفقون على صحتها ، فنحيلهم على هذه الكتب والتي تشهد بصحة نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وأنه رسول إلى الناس كافة ، وأن أنبياءهم قد أمروهم باتباعه إذا ظهر واستبانت دعوته ، وأن من خالفه يعد كافرًا بدينه الذي يعتقد به أولاً ثم كافرًا بالدين الإسلامي ثانيًا ، وأن من تمسك منهم بدينه على اعتبار أنه هو الأصح لديه فلن يقبل منه هذا الدين إذا عاصر الإسلام ولو كان صادقًا في ما يدعي ، فها نحن نعرض بين يديك ما أثبتته التوارة والإنجيل والزبور، وهي الكتب المعتمد عليها عند اليهود والنصارى في حق الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – والدين الإسلامي الحنيف .

أولاً – نصوص من التوراة والإنجيل تشهد بصدق نبوة محمد وثبوت رسالته :

النص الأول :

قال تعالى في التوراة : (سأقيم لبني إسرائيل نبيًا من أخوتهم مثلك ، أجعل كلامي في فيه ، ويقول لهم ما آمره به ، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم بأسمي أنا ، أنتقم منه ومن سبطه) .

ومعنى هذا النص أنه خطاب لموسى – عليه السلام – ومن اتبعه من بني إسرائيل أنه سوف يأتيهم نبي من نسل أخوة لهم ليسوا من بني إسرائيل ، ولكنه من بني إسماعيل تكون نبوته مثل نبوة موسى – عليه السلام – أي صاحب عقيدة وشريعة من الله الذي أرسله إليهم ، فيجب عليهم أن يقبلوا قوله ، وأن يطيعوه .. ومن يخالفه ويرفض دعوته ، فينتقم الله منه ومن أتباعه .

فكأنما هذا النص يحمل بشارة بظهور نبي من قوم هم أخوة لبني إسرائيل ، وهم بنو إسماعيل ، هذا النبي له أوصاف معينة ونعوت محددة ، لا تنطبق هذه الأوصاف إلا على محمد – صلى الله عليه وسلم – لجأ أهل الكتاب كعادتهم إلى تحريف هذا النص ، انكارًا وجحودًا واستعلاء على الحق ، وما حملهم على ذلك إلا الحسد والبغضاء ، فذهبوا يجادلون بالباطل ، محرفين الكلم عن مواضعه لهذا النص وأمثاله ، فوقفوا من هذا النص مواقف سلبية متعددة ..

فالنصارى حملوا هذا النص على أن المبشر به هو المسيح – عليه السلام–.. واليهود لجأوا إلى تحريف هذا النص بطرق ثلاث :

أحداهـا : أن النص ابتدأ باستفهام انكاري حذفت أداة الاستفهام منه، والتقدير فيه : (أءقيم لبني إسرائيل نبيًا ؟) ، أي لا أفعل هذا.

والثانية : أن المراد نبي من أخوة بني إسرائيل – وهو شمويل النبي – لأن أخوة القوم هم بنو أبيهم .

والثالثة : أن النبي المبشر به سوف يبعثه الله في آخر الزمان ، يقيم به ملك اليهود، ويرفع من شأنهم ، وهم ما زالوا ينتظرونه إلى الآن .

وللرد على هذه المزاعم والتحريفات ، يكون جدالنا مع هؤلاء القوم بالمنطق والعقل والعلم ، فمزاعم النصارى أن النبي المبشر به في النص هو المسيح – عليه السلام – أمر مستبعد .. والدليل على ذلك أن النص أشار إلى نبي من أخوة بني إسرائيل ، وليس من بني إسرائيل أنفسهم ، والمسيح – عليه السلام – من بني إسرائيل ، فلو كان هو المعني لقال الله تعالى : (أقيم لهم من أنفسهم) .

ولأنه لا يفهم في اللغة أن أخا القوم منهم ، فكيف يعقل أن بني إسرائيل هم أخوة بني إسرائيل بدليل أن الله – سبحانه وتعالى – لما بعث محمدًا رسولاً وهو عربي من العرب من بني إسماعيل قال عنــه : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾[1] ..

ولا يفهم من هذه الآية سوى أن النبي المبعوث هو من بينهم ومن قبيلتهم ، ليس من أخوة لهم ولا من غيرهم من القبائل ، وكذلك قول اليهود أن النبي المراد هو شمويل أو يوشع أو هارون ، فكلهم هؤلاء غير معنيين بدليل أنهم كلهم من بني إسرائيل ، وليسوا من أخوة بني إسرائيل، ثم إنهم لم يأتوا بكتاب ولا بشريعة مستقلة مثل موسى – عليه السلام – ، كما أنهم كلهم كانوا في زمن موسى – عليه السلام – ، والنص يؤكد على أنه يأتي بعد موسى وبكتاب مستقل .

ولا ينطبق هذا الوصف إلا على محمد – صلى الله عليه وسلم – بدليل قوله تعالى: ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل** ﴾[2] .

وأما قولهم أن النص ابتدأ باستفهام إنكاري حذفت أداته ، فهذا ضرب من تحريف اليهود والنصارى لكتبهم التي يقدسونها ، ولقد دأبوا على ذلك منذ أن غضب الله عليهم ولعنهم لما كفروا بعبادته وقتلوا أنبيائه .. ولا غرو أن يأتوا بمثل هذا التحريف والتبديل ، وأنه لعلامة على صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ومن معجزاته التي أخبره الله بها في القرآن عن تحريف اليهود والنصارى لكلام الله ، كي يظهره الله للناس ويفضحهم به بين العباد على ما أخفوه من الحق الذي يعرفونه في كتبهم من اتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – وصدق دعوته [3] .

---

١ الآية ١٦٤ من سورة آل عمران

٢ الآيات من ١٩٢ – ١٩٧ من سورة الشعراء

٣ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٥٢

النص الثاني :

جاء في السفر الخامس من التوراة القول التالي : (أقبل الله من سيناء ، وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، ومعه ربوات الأزهار عن يمينه) ..

ومعنى هذا النص أنه تضمن نبوات ثلاث وهي :

نبوة موسى - عليه السلام - وذلك معنى مجيه من سيناء ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، وأخبره عن نبوته له .. ونبوة عيسى - عليه السلام - وهو معنى تجلي الله بظهور عيسى - عليه السلام - من قرية ساعير (ببيت المقدس).. ونبوة محمد- صلى الله عليه وسلم - وذلك معنى ظهوره من جبال فاران ، وهي (مكة المكرمة) ..

وهذا يؤيده قول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين** ﴾[1] .

أي أن الآيات تبين أماكن النبوات الثلاث .. فـ ﴿ **التين والزيتون** ﴾ أي المراد بهما أرض منبتهما وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح - عليه السلام - ، ﴿ **وطور سينين** ﴾ والمراد به جبل الطور في سيناء ، والذي كلم الله عليه سيدنا موسى- عليه السلام وبشره بنبوته ، ﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾ والمراد به مكة بيت الله الحرام ، والتي هي مظهر نبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

إلا أن أهل الكتاب وقفوا من هذا النص المواقف السلبية المنطوية على الزور والبهتان والكذب على الله في تحريف التوراة .. فقالوا عن (فاران) أنها أرض بالشام وليست بالحجاز ، وهم بزعمهم هذا كمن يعرف الحقيقة فيخفيها مكابرة وعنادًا ..

وذلك عداء للإسلام ونبيه وأمته بدليل أن التوراة قد أثبتت من وجه آخر أن (فاران) مسكن لآل اسماعيل ، وإسماعيل وآله لم يسكنوا إلا في مكة ، وأن نبوة

---

١ الآيات من ١ - ٣ من سورة التين

تنزل بأرض فاران ، وأن هذه النبوة ستنزل على عظيم من ولد إسماعيل ، وأن أمته سوف تنتشر وأتباعه سوف يكثرون حتى يملؤا السهل والجبل .

وكل هذه العلامات تجمعت في نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – ولكن أهل الكتاب كما وصفتهم التوراة (شعب عادم الرأي ، وليس فيهم فطانة) ، عميت عيونهم عن الحق ، فغالطوا وكابروا لفرط ما بهم من جهل أو ما بهم من حقد وحسد على الإسلام[1] .

النص الثالث :

وجاء في التوراة في السفر الخامس أيضًا القول التالي : (قال موسى لبني إسرائيل لا تطيعوا العرافين ولا المنجمين ، فسيقيم لكم الرب نبيًا من أخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي) .

وهذا النص هو تأكيد للنص الأول السابق الذكر ، ولكن الشيء الجديد فيه أن التوراة فيها من النواهي كما في القرآن ، وهذا يدل على أن جوهر الرسالات السماوية واحد في القصد والغاية ، فحين نجد التوراة تحذر بني إسرائيل من أن يطيعوا الكهنة والمشعوذين منهم ، لأنهم على ضلال وفساد .. نجد القرآن الكريم يحمل هذا التحذير لأتباعه ، يقول تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا** ﴾[2] .

ثم يجدد سيدنا موسى – عليه السلام – الدعوة لبني إسرائيل أن الرب وهو الله سبحانه وتعالى سوف يرسل بعده نبيًا يكون مثله صاحب رسالة وعقيدة وشريعة ، يتوجب على بني إسرائيل أن يتبعوه ويطيعوا أمره .. وكأن هذا النص يرد مزاعم بني إسرائيل التي تقول أننا أصحاب الكتاب الأول ولم يأت ما ينسخ كتابنا ، وأن محمدًا لم يرسل إلينا ، ولكنه أرسل إلى العرب فقط ، إلى آخر ما زعموا وافتروا على دين الله ما ليس منه ، وأن ما يحمله هذا النص من وضوح

---

١ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٥٤

٢ الآية ٢٨ من سورة الكهف

وبيان في أوصاف هذا النبي لتتجه بكاملها نحو محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وأنه هو النبي المراد والمذكور بنعته وصفته في التوراة والإنجيل [1] .

النص الرابع :

جاء في الإنجيل : (أن المسيح – عليه السلام – قال للحواريين ، إني ذاهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق ، لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما هو كما يقال له ، وهو يشهد عليّ ، وأنتم تشهدون ، لأنكم معي من قبل الناس ، وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به) .

النص الخامس :

وجاء في إنجيل يوحنا : (الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه مما يسمع به ، ويكلمكم ويسوسكم بالحق ، ويخبركم بالحوادث والغيوب) .

وفي هذين النصين من الإنجيل ، وهو رسالة عيسى – عليه السلام – والتي جاءت مصدقة لما في التوراة وجزء منها دليل على نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – والمعبر عنها بـ (الفارقليط) ، وهي تعني بالعبرانية لفظًا من ألفاظ الحمد.. أي إما أحمد أو محمد أو محمود أو حامد ، وللنصارى ثلاثة تفسيرات لهذا اللفظ :

(أحدها) : ما تقدم ذكره من أنه الحمد بدليل قول يوشع وهو من بني إسرائيل : « من عمل حسنة يكون له فارقليط جيد ؛ أي حمد جيد .

و (الثاني) : أن الفارقليط تعني عند النصارى (المخلص) ويطلقونها على المسيح ، وينسبون هذا القول إلى اللغة السريانية .

و (الثالث) : أن الفارقليط بالسريانية (المعزى) ، وأخذت بهذا المعنى طائفة أخرى من النصارى .

---

١ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٥٥

ووجه الاعتراض هنا أن النصارى استعاروا لغة غير لغتهم ليترجموا معنى هذا النص، وذلك تحريف وتبديل منهم ، بدليل أن المسيح - عليه السلام - لم تكن لغته إلا عبرانية ، ولم يعرف السريانية ولا اليونانية ، فكونهم أن يميلوا إلى ترجمة (الفارقليط) العبرانية إلى معنى المخلص والمعزى السريانيتين دليل على جهلهم وإخفائهم للحق الذي أمروا بإظهاره واتباعه .

والصحيح كما فسره أحد أنبيائهم أن (الفارقليط) معنى من معاني الحمد، والحمد اشتق منه اسم المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فهو أحمد ومحمد ومحمود ، وقد جاء ما يؤيد هذا القول على لسان عيسى - عليه السلام - كما عبر عنه القرآن ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل اني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدى من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد** ﴾[1] .

ثم أن الأوصاف المذكورة في النصين لا تنطبق إلا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقد ذكر أنه روح الحق ، وهذا يعني أن محمدًا كسائر الأنبياء نزل عليه روح القدس ، وأيد بالروح الأمين - أي جبريل عليه السلام - أو جند من الملائكة ، لا كما ذهبت النصارى إلى أن روح الحق يراد به المسيح - عليه السلام - ، فإن هذا الروح أيد به الأنبياء والصالحين قبل مجيء عيسى وبعده ، فكيف يختص بالمسيح وقد ذكر أنه لا يتكلم من قبل نفسه ، وهذه أيضًا صفة تدل على أن المعني هو محمد - صلى الله عليه وسلم - ، بدليل قول الله تعالى :

﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[2] .

كما أن الصفات والأخبار الواردة في النصين لا تنطبق إلا على محمد - صلى الله عليه وسلم - بدليل أنه أتى بعد عيسى - عليه السلام - ولم يكن بينه وبينه نبي ، وكونه جاء ليوبخ العالم على الخطيئة ، فإنه جاء نذيرًا بين يدي عذاب شديد ، وبخهم على الكفر والفسوق والعصيان ، كما أنه جاء يكلم الناس ويدعوهم

١ الآية ٦ من سورة الصف

٢ الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم

إلى الحق على اختلاف عقائدهم وأجناسهم ، دون خوف أو خشية من أحد ، لأن الله يعصمه من الناس ..

في حين أن الأنبياء قبله كان كل يرسل إلى قومه فحسب ، ثم أنه جاء يخبر الناس بحوادث الماضين ، وهذا ما لم يوجد لا في التوراة ولا في الإنجيل ، وقد ذكر الله قصص الماضين في القرآن الكريم ، وهو الوحي والكتاب المنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم- .

كما جاء يخبر الناس بالغيوب كالجنة والنار وماذا أعد الله للمتقين والمحسنين يوم القيامة ، وماذا ينتظر العصاة والمخالفين عن أمره من العقاب والجزاء عند الله سبحانه وتعالى ، ثم أن الله جعله شاهداً على تبليغ الأنبياء لأممهم دعوة الله ، كما جعل أمته شاهدة على الأمم السابقين بأنهم أبلغوا من قبل الرسل والأنبياء ما أراده الله منهم من العبادة وعدم الإشراك به ، فأرشد الله به إلى الحق وأكمل به الدين ، وأتم به النعمة ، فاستحق أن يكون خاتم الأنبياء ، ولا نبي بعده [(١)] .

النص السادس :

قال عبدالمنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه ، قال في قصة داود – عليه السلام – ومما أوحى الله إليه في الزبور :

(يا داود إنه سيأتي من بعدك نبي يسمى أحمد ومحمد ، صادقًا سيدًا ، لا أغضب عليه أبدًا ولا يغضبني أبدًا ، قد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمته مرحومة ، أعطيته من النوافل مثل ما أعطيت الأنبياء، وافترضت عليهم الفرائض التي أفترضت على الأنبياء والرسل ، حتى يأتوني يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء ، وذلك أني افترضت عليهم أن يتطهروا لكل صلاة ، كما افترضت على الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأمرتهم بالحج كما أمرت الأنبياء قبلهم ، وأمرتهم بالجهاد كما أمرت الرسل قبلهم ..

١ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٥٥ – ٥٧

يا داود إني فضلت محمدًا وأمته على الأمم كلها ، أعطيتهم ست خصال لم أعطها غيرهم من الأمم : لا أؤاخذهم بالخطأ والنسيان ، وكل ذنب ركبوه على غير عمد إذا استغفروني منه غفرت لهم ، وما قدموا لآخرتهم من شيء طيبة به أنفسهم عجلته لهم أضعافًا مضاعفة أفضل من ذلك ، ولهم في المدخور عندي أضعافًا مضاعفة أفضل من ذلك ، وأعطيتهم على المصائب إذا صبروا واسترجعوا الصلاة والرحمة والهدى ، فإن دعوني استجبت لهم.. يا داود من لقيني من أمة محمد يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، صادقًا بها فهو معي في جنتي وكرامتي ، ومن لقيني وقد كذّب محمدًا أو كذّب بما جاء به واستهزأ بكتابي صببت عليه في قبره العذاب صبًا ، وضربت الملائكة وجهه ودبره عند منشره في قبره، ثم أدخله في الدرك الأسفل من النار) [1] .

وهذا النص لا يحتاج تفسيرًا أكثر مما هو عليه من الوضوح والبيان، من ذكر أوصاف محمد – صلى الله عليه وسلم – كما نصت على وجوب اتباعه من قبل أهل الكتاب ، وأن في مخالفته الظلم وعدم الإنصاف ، ومهما بالغ أهل الكتاب في إخفاء الحقيقة ، فشمس الحق لا يقوى السحاب على تغطيتها ، مهما كان كثيفًا أو متراكمًا .

ولعل فيما استعرضناه من نصوص قد قدمنا به ما يخرس القوم بصوت الحق الذي نادت به كتبهم وهم يزعمون التمسك بها والاعتماد عليها ، حتى إذا ما وصلوا إلى الحق الذي يعرفونه عن هذا الدين والنبي المبشر به طمسوا الحقيقة ، وحاولوا التحريف والتغيير، زاعمين أنه ليس من كتبهم ، وهذا ديدنهم مع كل حق يطالبون بالإقرار به الإلتواء والتنكر ، وصدق الله العظيم حين وصفهم بقوله تعالى: **﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾**[2] .

١ نفس المصدر السابق / ص ٩٦

٢ الآية ١١٣ من سورة البقرة

ثانيًا - إقرارا بعض أهل الكتاب المعاصرين لمحمد بنبوته دليل على صدق ما في كتبهم من ذكره :

عاصر كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى الدعوة الإسلامية إبان ظهورها ، بل وهم أول من أعلن عن ميلاد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لظهور العلامات الدالة على ميلاده والتي يجدونها مبينة عندهم مما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، الذي آمن منهم والذي كفر ،اعترفوا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصدق دعوته ، بل أن بعضهم كاد أن يتبعه لولا حرصه على مكانته بين قومه وفقدانه ثقة أتباعه ومسوديه..

ونحن إذ نعرض لذكر بعض أهل الكتاب الزعماء منهم والخطباء في قومهم يهودًا كانوا أو نصارى ، لا يهمنا من ذكر أخبارهم سوى ما اعترفوا به من حق بصدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ووجوب اتباعه كشاهد للمضوع الذي نحن بصدده ، ومن أراد استعراض قصصهم فهي مبسوطة في كتب السير والحديث، والآن لنسمع ما قال هؤلاء القوم:

إسلام النجاشي ملك الحبشة :

دخل الإسلام إلى أرض الحبشة عن طريق الهجرة الأولى للمسلمين إليها ، بأمر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وكان الملك إذ ذاك على دين النصرانية ، وقد وصفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالملك الذي لا يظلم عنده أحد .

ولما استمع النجاشي إلى وفد المسلمين ، وما عرضوه من دينهم ، وتعذيب قومهم لهم ، قال : (إن هذا وما نزل على عيسى ليخرج من مشكاة واحدة) .

وهذا يعد إقرارًا من هذا الملك النصراني بأن رسالة الإسلام حق وصدق مثل ما أن رسالة عيسى - عليه السلام - حق وصدق، ولما جاءه كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدعوته إلى الدخول في الإسلام، رحب به وصدق وآمن،

بدليل أنه لما مات وعلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بموته جمع المسلمين وصلى عليه صلاة الغائب[1] .

دعوة هرقل قيصر الروم إلى الإسلام :

وكان ممن عاصر دعوة الإسلام هرقل قيصر الروم ، فخاطبه الرسول – صلى الله عليه وسلم – مكاتبة يعرض عليه الإسلام ، وكان قد جرت بينه وبين أبي سفيان بن حرب محاورة حول الكتاب الذي وصله من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، بيد الوفد الذي بعث إليه .. وقد أجاب أبو سفيان بكل ما يعرفه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رغم إشراكه ، وهرقل يصدقه رغم نصرانيته.. فلما فرغ من المحاورة يقال أنه عرض علي الوفد الإسلامي صور بعض الأنبياء ، وقد عرف الوفد صورة نبيهم – عليه الصلاة والسلام – ، وسألوه عن ذلك فقال : (إن هذا مما كان خلفه آدم – عليه السلام – على سيدنا موسى – عليه السلام – ، وكان ثابتًا في التوراة عندنا) .

ثم قال القول المشهور : (إن صدق فإنه نبي ، وسوف يملك ما تحت رجلي هاتين ، ولو استطعت أن ألتحق به لأغسلن قدميه) .. وكاد أن يسلم لولا تهديد الأساقفة والقساوسة المحيطين به [2] .

إسلام عبدالله ابن سلام الحبر اليهودي :

كان – رضي الله عنه – من علماء اليهود وأحبارهم ، وابتدأت قصة إسلامه بقوله: لما سمعت برسول الله – صلى الله عليه وسلم – عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له ، فكنت مسرًا لذلك ، صامتًا عليه ، حتي قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة ، وأقبل رجل يخبر بقدومه ، وكنت على رأس نخلة لي ، وكانت عمة لي تحت النخلة ، فلما سمعت بقدومه كبرت ، فقالت عمتي : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت موسى بن عمران قادمًا ما زدت . فقلت لها : أي

---

١ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٣٤

٢ نفس المصدر السابق / ص ٣٢ ،

عمتي ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به . فقالت : أي ابن أخي ، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة . قلت لها : نعم .ثم خرجت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتي ، فأمرتهم ، فأسلموا .

وكان له موقف مع قومه في قصة إسلامه ، وذلك لما أسلم جاء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقال له : يا رسول الله إن يهود قوم بهت – أي قوم باطل – وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني ..

ففعل ، ودعا قومه وسألهم عنه ، فقالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .. قال : فلما فرغوا من قولهم ، خرجت عليهم ، فقلت لهم: يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، فو الله ، إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فإني أشهد أنه رسول الله ، وأؤمن به ، وأصدقه بما عرفت .. فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا به .. فقال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ألم أخبرك أن القوم أهل غدر وكذب وفجور .. فأظهر إسلامه – رضي الله عنه – وأهل بيته ، وحسن إسلامهم(1) .

خبر وفد نصارى نجران :

وفد على الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفد من نصارى نجران ، فعرض عليهم الإسلام . ودارت بينه وبينهم محاورات حول المسيح وأمه ، وقد أقروا رسول الله بالحق الذي يعرفونه عن المسيح ، وأنه عبد ونبي لا غير ، كما أقررهم بالحق الذي يعرفونه عنه كنبي يجب الإيمان به من قبل أهل الكتاب .

وقد مر معنا في فصول سابقة خبر هذه القصة . ولكن الذي يعنينا هنا قول أسقفهم كاعتراف بالحق الذي يجده في الإنجيل عن نبوة محمد ، وأسقفهم هذا هو أبو حارثة بن علقمة ، وكان مجتهدًا في دين النصرانية وكان ملوك الروم

١ السيرة النبوية ، لابن هشام / ج ٢ / ١٦٣

يجلونه ويشرفونه ، وقد مولوه في بناء الكنائس ، وبسطوا له في الأموال والكرامات .

فكان من خبره أنه لما توجه مع الوفد إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان راكبًا بغلة وإلى جانبه أخوه كرز بن علقمة ، فعثرت بغلته ، فقال له أخوه كرز : تعس الأبعد . << ويريد بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – >> فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . فقال : ولم يا أخي ؟ . فقال : والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره . فقال له كرز : فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا ؟ فقال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وملونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

فأصر عليها أخوه كرز حتى أسلم بعد ذلك ، وامتنع أبو حارثة عن الإسلام مقابل السيادة والجاه ، ولو على غير الحق [1] .

دعوة حيي بن أخطب وأخيه إلى الإسلام :

لما هاجر الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة ، وفد إليه حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر – وكانا يهوديين – ، فسمعا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ورجعا إلى قومهما (بني النضير) على غير ما كانا عليه .. أما أبو ياسر فقال لهم : (يا قوم أطيعوني ، فإن الله عز وجل قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرونه ، فاتبعوه ولا تخالفوه).

وهذا القول يعد إقرارًا من هذا اليهودي بما عرفه من التوراة بصدق محمد ودعوته ، إلا أن أخاه حيي كان على ضده ، لما بلغه خبر أخيه ، وكان سيدًا في قومه ، انطلق إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ثم رجع إليهم وهو يقول : (أتيت من عند رجل، والله لا أزال له عدوًا أبدًا) .. فقال له أخوه أبو ياسر : (يا ابن أمي ، أطعني في هذا الأمر ، ثم أعصني فيما شئت بعده لا تهلك) ، قال : (لا والله ، لا أطيعك) . واستحوذ عليه الشيطان فاتبعه قومه على رأيه ، وقدم الجاه

١ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / ص ٢٧

والرياسة على الهدى والحق ، فعاش في غي وضلال ، ومات على ذلك [1] .

وأخيرًا إنما ننقله عن مثل هذه المجموعة من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ، وأخلصوا في إيمانهم ، ورغبوا في الإسلام ودعوا إليه، والذي كان من بينهم عبدالله بن سلام وثعلبة ابن شعية وأخيه أسيد ، وأسيد بن عبد .. هؤلاء الذين حاربهم قومهم ، وقالوا فيهم : (ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره) .

فأنزل الله في الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة ، وهو شاهد على صدق من آمن من أهل الكتاب ، وما أمنوا به ، فقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[2،3] .

الأصل الرابع (القسوة في التعبير) :

القسوة في التعبير نعني بها الشدة والغلظة في القول ، وهي نوع من الأساليب الخطابية ، يكون القصد منها التقريع والتوبيخ واللوم لمن يدعى إلى الاعتراف بحق والإقرار به وفق الأدلة التي يعترف بوقوعها وصدقها ، فيأبى إلا الإعراض والمخالفة ، متمسكًا بالباطل ومؤيدًا له ، وذلك إما لفساد في عقله عن طريق الجهل والغباء ، وإما لاستسلامه وانقياده لهوى النفس ، وإجابته لدعوة الشيطان من الإنس كان أو من الجن ، وحينئذٍ يكون المخاطب أهلاً للوم والتوبيخ ، لأنه لم يكن خال الذهن عما يدعى إليه ، بل قد جاءه نذير سابق به ، وساعتئذٍ لم يكن له مبرر يصرفه عن الحق إلا الغرور والمكابرة .. فمن الإنصاف أن يخاطب بلهجة شديدة ، وأن يوصم بأوصاف قبيحة ، تدل على ما جبل عليه من عناد وكبر وغباوة وجهل ..

---

١ نفس المصدر السابق / ص ٤١

٢ الآيتان ١١٣،١١٤ من سورة آل عمران

٣ أسباب النزول ، للسيوطي / ص ١٠٨

وليس أبلغ ولا أشد من أسلوب القرآن الذي خوطب به أهل الكتاب من يهود ونصارى ، ولا أكثر قساوة من أن يوصف هؤلا القوم بالحمير في الغباء والبلادة ، وقد تنوعت الشدة في الاسلوب القرآني لهؤلاء القوم ؛ فمرة باللعن ، وأخرى بالغضب ، وثالثة بالضلال ، ورابعة بالكفر ، وخامسة بالقردة والخنازير .. ويكفي أن الله قد ضرب على هولاء القوم بالذل والمسكنة إلى يوم القيامة ، كما حكم عليهم بالتيه والضياع أمدًا ليس بالقصير ، فهلم إلى القرآن لنسمع ماذا قال في هؤلاء القوم .

قال تعالى : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾[4] .

---

١ الآية ٥ من سورة الجمعة

٢ الأيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة المائدة

٣ الآية ٦٤ من سورة المائدة

٤ الآية ١٣ من سورة المائدة

وقال تعالى : ﴿ **قل هل أونبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾[4] ، وقد ورد في تفسير هذه الآية أن المغضوب عليهم هم اليهود ، وأن الضالين هم النصارى ، ويؤيد هذا التفسير حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع عدي بن حاتم : « أن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » .

فليس قليل على أمة الغضب والضلال أن تذكر بهذه الصفات ، أو تخاطب بمثل هذه اللهجة ، فإن ما ارتكبته من جرائم في حق شرائع الله وأنبيائه أعظم وأفضع ذنبًا من غيرهم من الخلق عند الله ، ولا زال هذا الشعب يكن كل حقد وعداوة للإسلام وأهله ، وبهذا تكون الخصومة مستمرة بيننا وبينهم ، ويوم أن تخلى المسلمون عن نصرة دينهم بالإلتزام بتعاليمه وتحكيمه في حياتهم العملية ، استطاع هؤلاء القوم أن يتحكموا في المسلمين فكريًا واجتماعيًا وسياسيًا ، وأظن أن ليس أحدًا منا ينسى ما فعلته الحروب الصليبية في الشعوب والبلاد الإسلامية، وما تزال هي وحكماء بني صهيون يخططون لإبادة المسلمين في بقاع

---

١ الآية ٦٠ من سورة المائدة
٢ الآية ٦ من سورة البينة
٣ الآية ٦١ من سورة البقرة
٤ الآية ٧ من سورة الفاتحة

الأرض ، وتحويلهم إلى متمسلمين ، كما يشعرون هم بانتمائهم الديني المزيف ، وها هي مدارس التبشير وهي في الحقيقة مدارس التنصير ، تنتشر في كل مكان من بلاد الإسلام .. فهل وعينا الدور الذي ينتظره منا إسلامنا ؟ .. والحق الذي تطالبنا به أمتنا ؟ .. ولننقذ بلاد الإسلام من الكنائس والمعابد ، ولنملأ بلاد الله بالمساجد ، ولننشر بين عباد الله المصاحف ، حتى نسد على عباد الصليب والعجول منافذ التوسع والهيمنة ، فتعود أرض الله يسبح له فيها بالغدو والآصال عباد مخلصون .

الفصل الرابع

أصول خاصة

بأدب الخصومة مع الوثنيين ومن ليس لهم كتاب

تمهيد :

الوثن في اللغة هو (الصنم) سواء كان من خشب أو حجر أو غيره، وقال مجاهد: (الصنم) ما كان منحوتًا على صورة معينة ، و (الوثن) ما كان موضوعًا على غير ذلك [1] .

وقد يسمى الصنم وثنًا كما في قوله تعالى : ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكًا** ﴾[2] .

ويقال : أن الوثن أشمل وأعم من الصنم ، وبهذا تكون الأصنام أوثانًا ، كما هو الحال عند عباد القبور والصلبان[3] .

وفي الاصطلاح الشرعي يطلق الوثن على كل ما اتخذ وصرفت إليه العبادة من دون الله ، ويدخل في هذا التعريف كل من كان مؤمنًا بالله ثم أشرك معه غيره في العبادة والتأليه ، ومن كان متخذًا إلهًا غير الله كمن تكون عبوديته لكوكب أو حجر أو شجر أو نار أو صورة أو ما إلى ذلك من الأصنام والأوثان ، فالأول يسمى مشركًا ، وهذا يقال عنه وثني .. وكذلك من أنكر وجود الله البتة فهو في الحقيقة وثني لأنه صرف العبودية والإنتماء العقيدي إلى مصدر مادي آمن بنفعه وضرره في الحياة ، ولو تحرر بلسانه عن لفظ المعبود والإله ، وأعني بذلك (اللادينيين) كالشيوعيين والإشتراكيين والعلمانيين والماديين والوجوديين ، هذه

---

١ المصباح المنير ج ٢ / ٦٤٧

٢ الآية ١٧ من سورة العنكبوت

٣ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / ص ٤٧

الطوائف كلها تشملها دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وكلها تعد من أمة محمد سواء كان المؤمن منها والكافر ، ابتداء من مشركي العرب قبل الإسلام وانتهاءً بختم الرسالة المحمدية وظهور الدين الإسلامي على الأديان السابقة له ، وبلوغ دعوته لكل العالم في أرجاء الأرض .

يقول تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

وفي الحديث يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « **فضلت على الأنبياء بست** » وذكر منها : « **وأرسلت للناس كافة** »[2] .

والدليل على عالمية هذا الدين ما قام به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عرض الدعوة الإسلامية على قبائل العرب في أول بعثته - عليه السلام - ، ثم عرض هذا الدين على من كان يجاوره من أهل الكتاب وهم أصحاب دين سابق ، ومن كان يفد عليه من طوائف اليهود والنصارى يدعوهم إلى الدخول في الإسلام .

وقد رأينا في الفصل السابق كيف كان موقف أهل الكتاب من الإسلام ، ثم لما استقر الأمر لهذا الدين لم يقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند هذا الحد ، بل اجتهد في الدعوة والتبليغ بهذا الدين عن طريق إرسال الكتب ، وبعث البعوث للملوك والرؤساء المعاصرين له آنذاك ، وكانوا على أديان وأوثان ، ولو كانوا ليسوا مخاطبين بالإسلام ، وغير مكلفين بالدخول فيه أو لو كان الإسلام للعرب وحدهم دون غيرهم من الناس - كما يزعمون - ، فلم قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا الجهد العظيم من مخاطبة الفرس والروم واليهود والنصارى على اختلاف لغاتهم وبلدانهم عن التخلي عما كانوا عليه من دين ، والدخول في الإسلام فور السماع به وبدعوته ..

إذن دعوة الإسلام جاءت عامة وشاملة للناس كافة ، فمن بلغته وآمن فقد هداه الله، ومن بلغته وكذب وأصر علي ما هو عليه فقد كفر أيًا كان انتماؤه

١ الآية ٢٨ من سورة سبأ

٢ سنن الترمذي / كتاب السير / باب ما جاء في الغنيمة / ج ٤ / ١٢٣

الديني، مع هذه الطوائف يكون للإسلام دور كبير في تكرار الدعوة وإيصالها إلى آفاق الأرض ، وحيث أن هذه الطوائف تعيش إما منعزلة في رقعة من الأرض وإما مختلطة بالمسلمين وتعيش بينهم، وكلا الحالين يؤديان إلى أمر واحد وهو ضرورة التعامل مع هذه الطوائف ومدى الاحتياج المتبادل بينهم وبين المسلمين .

وعلى هذا القدر من الاحتكاك يبرز التأثير الإسلامي في معتقدات هذه الطوائف ، فكلما تمسك المسلمون بإيمانهم وازدادوا جدًا وجهدًا في الدعوة إليه انتشر الإسلام في ربوع الأرض ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .. والقرآن الكريم وهو المصدر الأول للشريعة الإسلامية لم يغفل جانب هؤلاء الناس ، بل إن الهدف من رسالته اخراج الناس من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار . ولكن كعادة القرآن حين يعرض دعوته على خصومه ، فانه يلزم اتباعه أن يتقيدوا بقواعده وأصوله ، وأن يلتزموا بآداب الدعوة والتوجيه وهم يحاجون هولاء القوم .. فمن قواعد القرآن وآدابه لمحاجة هؤلاء القوم الأصول التالية :

الأصل الأول - التماس العذر لهم :

أهل الشرك وعباد الأوثان فريقان ضالان ؛ أحدهما سبب ضلاله الجهل والاتباع والتقليد ، وقد تحدث القرآن عن هذا الفريق وفند حجته ، قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون** ﴾[1] .

وتحدث عن قوم إبراهيم وعبادتهم للأصنام ، فقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾[2] .

وفي موطن آخر قال تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال**

١ الآية ١٠٤ من سورة المائدة

٢ الآيات من ٥١ – ٥٣ من سورة الأنبياء

لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[٣] .

ففي هذه النصوص ترى السبب في الإضلال والكفر واضحًا بينًا ، وهو تقليد الآباء واتباعهم علي جهل وباطل ، ولذلك من إفراطهم في الجهل والتقليد أن نسبوا إلى الله فعل الفاحشة ، فذكر الله مقالتهم هذه بقوله سبحانه وتعالى : ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**﴾[٤].

وهنا يبرز دور الآباء ومدى تأثيرهم على الاتجاه العقيدي عند الأبناء ، ويجسد هذا المعنى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» [٥] .

والفريق الثاني وقع في الشرك واتجه إلى عبادة الأصنام والأوثان ليس بهوى نفسه ولا باختياره ، ولكن بحض الزعماء المتبوعين بدافع الغرور والكبرياء ،

---

١ الآيات من ٦٩ – ٧٤ من سورة الشعراء

٢ الآية ٢١ من سورة لقمان

٣ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الزخرف

٤ الآية ٢٨ من سورة الأعراف

٥ صحيح البخاري / كتاب الجنائز / باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ؟ / ج ١ / ١١٨

والافتتان بهم وبحبهم الذي حل محل العبادة والتقديس ، وذلك بتزيين من الشيطان وأوليائه بما يوحونه إلى هؤلاء الزعماء ، أن ما هم عليه من زيغ وضلال هو الحق ، وأن ما يدعون إليه هو الباطل ، حتى افتتن بهم أتباعهم في الدنيا ، فأتمروا بأمرهم ونهجوا شرعهم ، وتقمصوا دعواتهم وضلالاتهم ، وعبدوهم من دون الله ، كما هو الحال في عقائد البوذيين والزرادشتيين والمجوس والبهائيين والقاديانيين، وكل طائفة تتجسد عبادتها في رجل صالح كان أو دجال، أو جماد حجرًا كان أو غير ذلك من الدعوات الكافرة التي لا تستند إلى دليل ولا كتاب .

وهذا الفريق تحدث عنه القرآن بجانب كبير من البيان والتفسير ، قال تعالى: ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل** ﴾(١).

وقال تعالى عن قوم نوح : ﴿ **قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا * ومكروا مكرًا كبارًا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا** ﴾(٢).

وأخرج البخاري في صحيحه حول هذه الآية عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم . ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت)(٣).

وقال تعالى : ﴿ **وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا** ﴾(٤) .

والمطلع على حياة الشعوب منذ القدم حتي عصرنا الحاضر يجد أنها تختلف إلى عقائد أسموها بالدينية والروحية ، وهي في الحقيقة طقوس وثنية تعبر عن تركة الأمم الماضية ، وقفت وراء بقائها مع التحضر المزعوم أسباب عجزت عن

---

١ الآية ٦٧ من سورة الأحزاب

٢ الآيات من ٢١ – ٢٣ من سورة نوح

٣ صحيح البخاري / كتاب التفسير / باب ما جاء في « إنا أرسلنا » / ج ٦ / ١٩٩

٤ الآية ٦ من سورة الجن

زحزحتها وإذابتها والقضاء عليها ، ولكن الأمر الذي يدعو إلى مزيد من الإهتمام أن هؤلاء القوم رغم ما هم عليه من باطل فلم يقتصروا على ذلك بل اتخذوا موقفًا عدائيًا من الإسلام ، وهذا ليس بالجديد عليهم لأن تركة الماضين ثقيلة عليهم ، وهنا يبرز الخلاف وتنشأ الخصومة .. فالمسلم بواجب من دينه ملزم أن يعرض على هؤلاء الإسلام ، فإن قبلوه فتلك نعمة وفضل ، وإن رفضوا فيلزم من ذلك الحجة والدليل ، وحيث لا دليل عند هؤلاء على ثبوت دينهم وصحة اعتقادهم .. فعلى المسلم أن يتلطف معهم ، وأن يلتمس لهم العذر الذي بينه القرآن آنفًا من سيرهم على طريقة آبائهم ، وأن عقيدتهم وراثية ، يصعب التخلص منها على يد الأجيال المتأخرة إلا بتغيير البيئة والمنشأ ، مصداقًا لقوله تعالى :

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] .

والانسلاخ من الانتماء الحزبي والدعوي الذي تكمن وراءه المجامع والمحافل الكافرة على مستوى الزعامات والدول ليس بالأمر السهل لأن أمة الكفر متحدة في المنبع والمصب ، وعلى المسلم أن يكون كيسًا فطنًا ذا دراية كافية بمزاعم القوم وديانتهم ليرد عليهم بما هم أهل له ، بجانب تقيده بآداب دينه وعقيدته ، ومع التماس العذر لهؤلاء القوم على المسلم أن لا يتحامل على معبوداتهم حتى يقنعهم بفسادها ، وأن لا يسلك سبيل الشتم والسفه حتى يضمن استمالة القوم إليه ، لأن ذلك مناف لأدب القرآن ومنهجه .

الأصل الثاني - احالتهم إلى أهل الكتاب :

الطوائف الوثنية انتشرت في كل مكان ، بل واختلطت بالشعوب المسلمة في شتى بقاع الأرض ، وذلك بحكم الاحتياج الضروري المتبادل بين المسلمين وهؤلاء القوم في وقتنا الحاضر .. وهذا للأسف الشديد ما يدل على تساهل المسلمين مع وجود كافة الإمكانيات المتاحة لهم والتي تؤهلهم إلى أن يستغنوا البتة عن استخدام مثل هؤلاء القوم في بلاد المسلمين وفي رقابهم ، ولكن لله في خلقه شئون .

---

١ الآية ١١ من سورة الرعد

وأيًا كان الأمر فإن الاختلاط بهؤلاء القوم أصبح حتميًا يصعب الفكاك منه أو التخلي عنه ، وإذا كان الأمر كذلك فإن من البديهي أن ينشأ النزاع والخصام نتيجة التعامل البشري الحاصل بين هذه الأطراف ، وحيث أن المسلمين أصحاب شريعة وكتاب ، فإن هذه الشريعة كفلت لهم حقوقهم من بعضهم البعض أثناء اختلافهم ، وذلك بالاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث هما قانون الله وشرعه بين عباده المسلمين ، ولكن إذا نشأ الخلاف والنزاع بين طوائف الكفر والمسلمين أو بين الكفار مع بعضهم البعض في ديار الإسلام فكيف يكون الحكم ؟ ، وما هو الشرع المحكم في فصل الدعوى والنزاع ؟، وما هو السلوك الذي ينبغي أن يتبع في حالة الاختصام مع هؤلاء القوم ؟ .. تلك هي التساؤلات التي سنلقي عليها بعض الظلال من خلال توضيحنا لهذا الأصل ، وبيان المراد منه .

يلحق الوثنيون بأهل الكتاب في المعاملة والحكم في حالة ارتكابهم الجنايات، أو تعديهم على الحقوق ، سواء كانت بينهم وبين المسلمين أو بين بعضهم البعض ، ويأتي سبب إلحاقهم بالكتابيين لأنهم كانوا على صلة وثيقة باليهود والنصارى في العصر القديم، وقد استمدوا منهم كثيرًا من أصول طقوسهم ومعتقداتهم الدينية بحكم المخالطة والجوار، فما من ديانة من ديانات العالم المبتدعة إلا وقد اتصلت جذورها بأهل الكتاب ، وحيث أن طوائف الشرك وعباد الأوثان لم تكن ديانتهم ذات سند شرعي لتقيم الدليل على صحتها ، كما هو الحال عند أهل الكتاب ، فلذلك ألحقوا بهم ، وقد عامل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أهل الكتاب وقد حكم عليهم بما أنزل الله في التوراة والقرآن وهو حكم الإسلام العادل ، وقد سار أصحابه من بعده على نفس السيرة والمنهج في طوائف الكفر والضلال ، وقد كانت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحكام وقضايا حصل فيها خصامات وجنايات من أهل الكفر والأوثان وأهل الكتاب مع المسلمين ، ومع بعضهم البعض ، حكم فيها بحكم الإسلام .. وها نحن نسوق لك بعضًا منها كشاهد ودليل على رسوخ هذا الأصل وثباته في شريعة الإسلام .. من هذه الأحكام والقضايا :

١- حكم الرسول - عليه السلام - على اليهودي الذي رضّ رأس جارية بين حجرين :

أخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - : أن يهوديًا رضّ رأس جارية بين حجرين ، وفي رواية له : خرجت جارية عليها أوضاح بالمدينة ، فرماها يهودي بحجر ، فجيء بها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وبها رمق ، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **أقتلك فلان ؟** » فأشارت برأسها أن لا، ثم قال الثانية ؛ فأشارت برأسها أن لا ، ثم سألها الثالثة ؛ فأشارت برأسها : أي - نعم - .. فجيء باليهودي ، فلم يزل به حتى أقرّ .. فرضّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأسه بالحجر [١] .

ففي هذا الحديث من الحكم الفقهي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكم على أهل الكتاب بالحكم الإسلامي وهو :

(القصاص في القتل ، كما أجرى على أهل الكتاب حكم الإسلام في قتل الرجل بالمرأة ، وهذا هو حكم الشريعة الإسلامية في الجناة من المسلمين)[٢]

٢ - حكم الرسول - عليه السلام - فيمن لم يعرف قاتله :

أخرج مالك في الموطأ [٣] : أن عبدالله بن سهل ومحيصة ، وكانا من الأنصار ، خرجا إلى خيبر من جهد أصابهم ، فأتى محيصة فأخبر أن عبدالله بن سهل قتل وطرح في فقير - أي بئر - ، فأتى يهودًا فقال : أنتم والله قتلتموه ، فقالوا والله ما قتلناه . فأقبل على قومه ، فذكر لهم ذلك ، ثم أقبل هو وأخوه حويصة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فبدأ محيصة بالكلام لأنه كان بخيبر ، فقال الرسول - عليه السلام - : « **كبر ، كبر** » يريد السن ، فتكلم حويصة ثم محيصة ، فقال عليه السلام : « **إما أن يدوا صاحبكم ، وإما أن يؤذنوا بحرب** » .. وكتب إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك ،

١ صحيح البخاري / كتاب الوصايا / باب إذا أومأ المريض برأسه بينة جازت / ج ٢ / ٤

٢ أقضية رسول الله / ص ١١٦

٣ موطأ مالك / كتاب القسامة / تبرئة أهل الدم في القسامة / ص ٧٦٤

فأجابه اليهود بأنهم لم يقتلوه ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لحويصة ومحيصة وعبدالرحمن – وهو أخو القتيل – : « **تحلفون وتستحقون دم صاحبكم** » . وفي رواية البخاري [1] قال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: « **تأتون بالبينة على من قتله** » قالوا : ما لنا بينة ، قال : « فيحلفون » ، قالوا : لا نرضى بأيمان اليهود. فكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يبطل دمه فوداه من إبل الصدقة .

وفي هذه الحادثة طبق على أهل الذمة وهم أهل الكتاب ومن يلحق بهم من الوثنيين حكم الإسلام ، وذلك من المطالبة بالبينة وحلف اليمين ، أو دفع الديه .. وهذا هو حكم القضاء في الإسلام [2] .

٣ – حكمه – صلى الله عليه وسلم – على اليهوديين اللذين زنيا :

ثبت في الصحيحين والمسانيد أن اليهود جاءوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– فذكروا أن رجلاً وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم** ؟ » ، قالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبدالله بن سلام : كذبتم فيها الرجم ، فأمروا بالتوراة ، فنشروها. فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك .. فرفع يده ، فإذا بها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ، إن فيها الرجم . فأمر بهما فرجما .

وهذا يدل على أنه طبق عليهم حكم الإسلام في الرجم ، لأنهما كانا محصنين ، وهو الحكم في الإسلام لمن زنا وهو محصن من المسلمين .

وفي هذا الحديث من الفقه : أن أهل الذمة إذا تحاكموا إلينا لا نحكم فيهم إلا بحكم الإسلام ، وفيه كذلك أنه تقبل شهادة بعضهم البعض في جناياتهم وخصوماتهم[3] .

---

١ صحيح البخاري / كتاب الديات / باب القسامة / ج ٩ / ١٠

٢ أقضية رسول الله / ص ١٢٢ ، ١٢٤

٣ زاد المعاد / ج ٣ / ٢٠٨

٤- حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في دية المشرك :

روى أبو داود [١] في سننه عن هلال بن سراج بن مجاعة عن أبيه عن جده أنه أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطلب دية أخيه ، قتله بنو سدوس من بني ذهل . فقال الرسول – عليه السلام – : « **لو كنت جاعلاً لمشرك دية جعلتها لأخيك ، ولكن سأعطيك منها عقبى** » .. فكتب له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمائة من الإبل من أول خمس يخرج من مشركي بني ذهل، فأخذ طائفة منها ، فأسلمت بنو ذهل ، فطلبها بعد مجاعة إلى أبي بكر وأتاه بكتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فكتب له أبو بكر – رضي الله عنه – بأثني عشر ألف صاعًا من صدقة اليمامة. [أربعة آلاف برًا ، وأربعة آلاف شعيرًا، وأربعة آلاف تمرًا] .

وهذا الحديث نص صريح في دية المشرك من القاتل لولي الدم ، وهذا هو الحكم الإسلامي في الشريعة الإسلامية ، وقد طبقه الرسول – صلى الله عليه وسلم – على غير المسلمين [٢] .

٥ - حكم الرسول - عليه السلام - في المحاربين والمعاهدين من أهل الذمة :

حكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المعاهدين من يهود بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع بعد أن نقضوا عهدهم بالقتل والسبي والجلاء ، وهذا مبسوط في كتب السيرة والمغازي ، والحديث فيه مستفيض .. وهنا نذكر قضاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الذين أسلموا ثم ارتدوا وسرقوا.. ففي الحديث : (أن ناسًا من بني سليم أسلموا واجتووا المدينة ، فأمرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتوا إبل الصدقة ، فشربوا من ألبانها وأبوالها، فصحوا وسمنوا ، فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، فبعث في آثارهم ، فما

---

١ سنن أبي داود /كتاب الإمارة /باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى /ج ٣ /٢٩٩٠.

٢ أقضية رسول الله / ص ٦٥٤

ترجل النهار حتى جيء بهم ، فأمر بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم ، ولم يحمسوا حتى ماتوا)[1] .

وهذا الحكم يقضى به بين المسلمين ، ويعرف بحد الحرابة ، لمن أفسد في الأرض أو كان قاطع طريق .. فكيف بغيرهم من الكفار والمشركين فهم في الحكم سواء .

٦ - دور نظام الحسبة في الإسلام :

من وظائف الحكم في الإسلام نظام الحسبة وهو نظام سبق به الدين الإسلامي الشرائع السابقة والقوانين الوضعية، ويبين الماوردي نظام الحسبة بقوله: (أن من يقوم بوظيفة المحتسب له حق تأديب وتعزير من يجترئ على المسلمين في بلادهم بإظهار المنكر أو تعاطي المحرم بشكل علني من غير المسلمين.. وهذا واضح في أن هؤلاء الكفار إذا أتوا ما يتصادم مع الشريعة الإسلامية وهم في بلاد الإسلام ، فعلى حاكم المسلمين أن يعاقبهم بالحكم الإسلامي ، وله الظاهر من أمرهم ، وليس له أن يتجسس عليهم)[2] .

هذه خلاصة القول الفصل بيننا كمسلمين وبين هؤلاء الوثنيين في مجال التعامل والتخاصم ، ولا ننسى ونحن أصحاب رسالة ودين متسامح أن نتقيد بمبادئ القرآن العظيم في المعاملة والسلوك ، والقرآن يناديننا بصوت الحق الذي يقول فيه تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[3] . فالعدل والإنصاف في الإسلام يشمل كل البشر ، لأنهم عباد الله شاءوا أم أبوا ، وسيظل الإسلام دين البشرية والعالم أجمع ودين اليسر والسماحة إلى الأبد .

---

١ نفس المصدر السابق / ص ١٠٢

٢ الأحكام السلطانية / ص ٢٨٨

٣ الآية ٨ من سورة الممتحنة

الأصل الثالث - القسوة في التعبير في كافة الأحوال :

سبق وأن بينا الخطاب القرآني وأسلوبه الذي تناول به أهل الكتاب ، بما فيه من شدة وغلظة في القول بما هم أهل له ، من الأوصاف التي تناسبت وتماديهم وغيهم وطغيانهم ، وتكبرهم على الحق الذي نادى به أنبياؤهم ، وإذا كانت هذه منزلة أهل الكتاب في القرآن الكريم رغم ما كانوا يتمتعون به من احترام وتقديس في زمن أنبيائهم الطاهرين ، فإن طوائف الكفر والضلال من عباد الأصنام والأوثان لأشد سوءًا وأقبح منزلة في الإسلام لعدم انصياعهم للحق الذي دعوا إليه على لسان الأنبياء منذ آدم – عليه السلام – إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

والمتدبر للقرآن الكريم يجد أن ما من آية تخاطب أمة الضلال إلا وفيها من التقريع والتوبيخ ما ينسب إليهم من أوصاف لا تليق بأصحاب العقول وذوي الأحلام والنهى ، كأنما تجردهم من الأصل البشري السوي إلى الأصل البهيمي المسلوب العقل والإرادة ، المحدود في الفكر والنظر . وهذا التقدير له منطقيته وواقعيته ، فإن من يرى بعين البصيرة والبصر وضوح الحق ، وبروز الصدق ويأبى إلا أن يتبع الضلال لأنه يراه طريق الهدى والرشاد ، فمن الإنصاف أن يتفق مع وصف الهدم والفساد ، وهذا هو ديدن أهل الغي والباطل من الوثنيين .

ونحن إذ نعرض على القارئ طرفًا مما عبر به القرآن عن هؤلاء الوثنيين ، لا نقدم ذلك إلا كمقال شاهد على ما قصدناه في هذا البحث ، وإنا لنعجز عن حصر الأساليب القرآنية في وصف هؤلاء القوم ، فإن آيات الله أكثر من أن تعد أو تحصى في مثل هذا المجال ، ولكن آثرنا أن نقدم بعض هذه النماذج من الأوصاف التي تبرز فيها الشدة والقساوة من خلال التعبير القرآني في هؤلاء القوم .. مثال ذلك : كأن يوصفوا بأنهم وقود النار ، وأن يوصفوا بأنهم أشبه بالحيوانات التي لا هم لها إلا أن تأكل وتشرب وتلهو، حتى يأتي عليها الفناء .. ذلك مبلغهم من العلم.. أو أن يوصفوا ساعة عبادتهم للأصنام أنهم مسلوبوا العقل والتفكير أشبه بالإمعة

يتبع غيره حتى ولو كان على العمى والضلال .. ناهيك عما وصموا به من صفة الإجرام التي خوطبوا بها بين الحين والآخر من آيات الكتاب العزيز ..

وإليك بعضًا من هذه النماذج القرآنيه المتسمة بقساوة اللهجة وشدة الخطاب..

قال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا وأولئك هم وقود النار** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاًأم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وردًا** ﴾[5] .

وقال تعالى: ﴿ **يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقًا** ﴾[6].

وهكذا تتوالى التقريعات تلو التقريعات ، تدوي كصوت الرعود والعواصف ، لتزيل الصمم من الآذان ، وتمحو العمى من العيون .. ولكن من كتب عليه الشقاء

١ الآية ١٠ من سورة آل عمران
٢ الآية ١٧٩ من سورة الأعراف
٣ الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الفرقان
٤ الآية ١٢ من سورة محمد
٥ الآية ٨٦ من سورة مريم
٦ الاية ١٠٢ من سورة طه

فلا يفوق إلا يوم القيامة ، ليرى الحق شاهدًا عليه ، وصدق الله العظيم :

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا ﴾[1].

---

١ الاية ٤٩ من سورة الكهف

الباب الثالث

مقاصد الإلتزام

بأدب الخصومة في الإسلام

تمهيد :

ذكرنا في فصول سابقة أن الخصومة لا تنشأ إلا حيث ينشأ الخلاف والنزاع ، وذكرنا أيضًا أن القرآن الكريم وهو الدستور الذي يلتف حوله المسلمون قد طوق هذا الخلاف وقد حاصر تلك الخصومة في عقر دارها ، بما وضعه من قيود وقواعد تجعل مداها قصيرًا وأثرها على المتخاصمين قليلاً ، لا يفتأ المتشاحنون يفترقون حتى يلتئم شملهم وتهدأ نفوسهم ، حتى لكأنهم لم توجد بينهم فرقة ولا خصام ، وذلك بفضل تمسكهم بآداب دينهم وعقيدتهم في مختلف الظروف والأحوال .. وهذا يدل على أن الإسلام دين وحدة واجتماع ، لا يضر أفراده إذا قام بينهم الخلاف إذا كان كل منهم يسعى إلى الحق وينشده ، طالما أن هذا الخلاف قد خلا من العصبية والتحزب .

فقد كان المسلمون مجموعة متينة البنيان ، ثابتة الأركان ، حتى برز فيها التعصب للهوى والجمود على الرأي ، فحادت عن جوهر دينها وسماحته ويسره ومرونته ، فأسلمها الله لما لاذت إليه من الدعوات الجاهلية والمتعصبة ، فأخذ الخلاف مجراه واستحكمت البغضاء بينهم ، واشتدت الخصومة والفرقة ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من هذا الحال[1] ، وكأنهم لم يوجد بينهم قرآن ولا سنة ، يعالجون بها أنفسهم التي علق بها من أدران الشح والغضب ، وليس هذا من طبع المؤمن ولا من سجيته ، بل المؤمن عند الحق وقاف ، وللحق ناصر ومعين ، ومن طبعه التسامح والغفران ، يؤثر رضا الله ويستجيب لندائه ، ويلتزم بشرعه .

١ نظرات في القرآن الكريم / ص ١٥٤

وإن من أهداف ما شرع الله له أن يطبق الحق على نفسه قبل غيره، وأن يلتزم بمنهج عقيدته ودينه متوخيًا ما فيها من آداب ، وهو ينازع في حقه ويسعى لاستخلاصه ، متفق مع أخيه المسلم ، غير متخلف ولا مفترق، يسعى بالود والمحبة والإخاء في غير ما خنوع ولا تكبر ..

هو ذلك المؤمن الذي يقدر قيمة الأخوة الإيمانية التي نادى بها دينه: ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[1] ، فأخوة الإيمان ثمرتها القيم والآخلاق ، وأكثر ما تبرز هذه القيم في ساحة النزاع والخلاف ، ونشوب الخصام والتشاحن .. فالمؤمن يربو على نزوات نفسه بقيم دينه وآداب عقيدته إذا جمعته مع خصمه الضرورة والحاجة .

وإن الدين الإسلامي حين ألزم أتباعه بأن يتمسكوا بمثل هذه الآداب في مثل هذه الأحوال فإنه يقرر لهذا الإلتزام أهدافًا ومعاني ، تجلي نفس المؤمن وتهذب أخلاقه .. لأن المؤمن جندي للحق وعدو للباطل ، مهما كان المنازع وأيًا كان الخلاف .. كما أن المؤمن سمح مسالم لا يعادي إلا من يعاديه ، ولا يبادر عدوه بالغدر والمباغتة ، فكيف بخصمه إذا كان مسلمًا ؟ .. وكيف بالحق إذا كان أمرًا من أمور الدنيا ؟ .. فالقضية أهون من أن تفرق بينهما أو تزرع في قلبيهما بذور العداوة والبغضاء ، ناهيك عما تذكره بموقفه بين يدي الله يوم القيامة إن هو ادعى غير حقه في الدنيا .

ذلك هو المؤمن ، وتلك هي سجاياه وطباعه بين الناس ، ولمزيد من الايضاح سوف نرى في الفصول القادمة ما هي أهداف الإلتزام بأدب الخصومة ، وكيف يحقق المسلم هذه الأهداف في حالة خصامه مع غيره من واقع تمسكه بالقرآن والسنة .

---

١ الآية ١٠ من سورة الحجرات

الفصل الأول

الوصول إلى الحق

أولاً - معنى الحق لغةً وشرعًا وعرفًا :

الحق في اللغة هو خلاف الباطل ، و (حق) الشيء : إذا وجب وثبت ولزم ، و (أحق) الرجل بماله واستحقه إذا استوجبه وليس لأحد أن ينازعه فيه ، و (المحق) هو الذي يدعي حقًا يطلب استخلاصه[1] .

أما (الحق) في الاصطلاح الشرعي ، هو وضع الشيء موضعه من الحكمة في التدبير والتصرف ، وفي معنى آخر (الحق) هو وضع الشيء في موضعه الذي هو أولى به[2] .

وبهذا يكون الحق معنى من معاني العدل والقسط والإنصاف ، كما أن الحق يدل على الصدق الذي يخالف الكذب والزور ..

أما (الحق) في العرف العام : فهو ذلك الشيء المتنازع عليه في دعوى الخلاف ، سواء كانت قضية الخلاف فيما يتعلق بحق الله أم بحق الآدمي ، أو هو ما يظهر للمعارض بالأدلة والبراهين العقلية والحسية كعلامة على التصديق به وإثباته .

ثانيًا - معاني الحق في القرآن الكريم :

وردت في القرآن الكريم معان كثيرة تبرز المعاني اللغوية والشرعية السالفة الذكر .. من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا** ﴾[3] ،

---

١ المصباح المنير / مادة (حقق) ج ١ / ١٤٣

٢ الفرق في اللغة / ص ٢٥ ، ٣٩

٣ الآية ١٦ من سورة الإسراء

وهنا جاء ذكر (الحق) بصيغة الفعل الماضي (حق) أي بمعنى استوجب واستحق .

وقال تعالى : ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** ﴾[1] ، وهنا جاء ذكر (الحق) بصيغة الفعل والاسم معًا ليكون معناه مؤكدًا لما قبله من أمر المسلمين ، حيث أنهم لم يريدوا قتالاً مع المشركين حين علموا بمرور قافلة أبي سفيان ، ولكن الله قضى بقتالهم ليثبت دين الإسلام ويظهره ويجعله هو الغالب ، وهذا مما يدل على أن من معاني (الحق) الإظهار والتمكين[2] .

وقال تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾[3] ، وهنا جاء ذكر (الحق) بمعنى الصدق والعدل .

وقال تعالى : ﴿ **فإن كان الذي عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل** ﴾[4] ، وهنا ورد ذكر (الحق) بمعنى الشيء الذي أخذ من الغير بصفة الدين أو الإعارة أو السلف ، لذلك يجب رده عن طريق اثباته لحين المطالبة به .

ويأتي (الحق) على أنه اسم من أسماء الله الحسنى ، لأن فيه معنى الثبوت والحقيقة لوجود الإله الذي يجب أن يعبد وأن تخلص له الطاعة ، قال تعالى : ﴿ **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **والوزن يومئذٍ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك**

---

١ الآية ٧ من سورة الأنفال

٢ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير / ج ٣ / ١٦٧

٣ الآية ٢١٣ من سورة البقرة

٤ الآية ٢٨٢ من سورة البقرة

٥ الآية ٦٢ من سورة الأنعام

هم المفلحون ﴾[1] ، وهنا يرد (الحق) بمعنى العدل وهو ضد الظلم، أي بمعنى أن أعمال العباد سوف توزن بميزان العدل ، والعدل صفة من صفات الله – سبحانه وتعالى–، فمن رجحت موازينه بالحسنات فهو من الناجين .

وقال تعالى : ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾[2] ، وهنا جاء ذكر (الحق) بمعنى شرع الله وهديه ومنهجه الذي جاء به الرسل والأنبياء ، والذي أمر الناس باتباعه والاهتداء به [3] .

وهكذا نجد القرآن الكريم يجلي لنا معاني الحق في صور بليغة ومؤثرة ، لأنها صادرة من الحق نفسه – وهو الله سبحانه وتعالى – ، فأليس من الأجدر بالمسلم أن يتبع الحق ويتحراه ، ويذعن له ويؤديه طائعًا راضيًا مختارًا غير مكره إن أراد الحق – سبحانه وتعالى– يرضى عنه ويرضيه .

ثالثًا – الأسس التي يعتمد عليها الحق :

ذكرنا فيما مضى أن من معاني الحق هو ذلك الشيء المتنازع عليه والمختلف فيه ، وهذا يعني أن المختلفين فيه يسعون إلى إدراكه والوصول إليه ، وهنا لا بد من افتراض وسائل وطرق يمكن أن توصل إليه وتحدده ليصبح كل من المختلفين قد اتضح موقفه من قضية الخلاف .. والأديان السماوية قامت على الحق ، ونادت به وعرفته بمعايير وضوابط ، حتى لا يترك الناس إلى أهوائهم وآرائهم ، وذلك لعجزهم عن إدراك العدل المطلق والاتفاق المحض .

هذا وللوصول إلى الحق في الشريعة الإسلامية طريقان ؛ طريق الإثبات ، وطريق الإلزام . فالأول يعتمد على الصدق ، والثاني على العدل والإنصاف .. ولكل منهما وسائله المتعددة [4] .. هذه الوسائل تعد بمثابة الأسس التي تمكن

---

١ الآية ٨ من سورة الأعراف

٢ الآية ٧١ من سورة المؤمنون

٣ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير / ج ٣ ١١٨

٤ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ص ١٥٩

طالب الحق والداعي إليه أن يعتمد عليها ، كي توصله إليه بطريق واضح مقنع ، تلكم الأسس هي :

أولاً - سياق الأدلة والبراهين الدالة على الحق :

فإذا كان الحق المختلف فيه هو من حقوق الله على عباده ، فهنا القضية عقائدية ، والفصل فيها هو جوهر الرسالات السماوية المنزلة على الأنبياء والمرسلين ، حيث هم الذين جاءوا بإثبات الحق ، وذلك بما أوحي إليهم من شرائع وكتب أمروا بتبليغها للناس ، إضافة إلى ما ميز به الإنسان من عقل يستطيع أن يفرق به بين الحق والباطل ، وما على هؤلاء الأنبياء إلا الدعوة والتبليغ ، وقد قاموا بذلك .. فمن خالف في حق من حقوق الله العقيدية أو العبادية فيلزمه الدليل على صدق ما يدعي ، وطالما أنه لم يأت بدليل على صدق دعواه ، فهو إذن خصم يحتاج إلى إقناع ، ولا يتم ذلك إلا بسياق الأدلة الحسية والعقلية على إثبات هذا الحق وإلزام الخصم به .

ولا سبيل إلى عرض هذه الأدلة إلا عن طريق إخبار الأنبياء بما جاءوا يدعون إليه ، وهذه تسمى أدلة شرعية تمت بطريق النقل المتطابق مع الواقع الحسي الذي يستدل عليه بطريق العقل ، وهنا كأنما توافقت الأدلة النقلية والعقلية لإثبات حق الله على عباده ، فمن يكذب بها كأنما يكذب الأنبياء ، ومن كذب الأنبياء فكأنما كذب الله وأنكر وجوده.

وقضايا العقيدة كثيرة ومتعددة ، والخصوم فيها أشداء ألداء ، يحتاجون من الإقناع والمجادلة ما يطول من الوقت ، وما يفحم من الأدلة ، وهذا قد فصلنا فيه القول لدى حديثنا عن المجادلة والمنطق في الفصل الثاني من الباب الأول ما يغنينا عن الإعادة والتكرار. هذا فيما يتعلق بالخلاف في حق من حقوق الله ..

أما إذا كان الخلاف مما يتعلق بحقوق الآدميين ، فهذا ما ركزت عليه الشريعة الإسلامية وأولته كل عناية واهتمام ، لأن الحقوق بين العباد من قبيل المعاملة ، والدين هو المعاملة ، لذلك أهتم الإسلام بهذا الجانب ، فجاء الفقه

الإسلامي مشتملاً على كافة المسائل التي تهم المسلم في حياته التي يرتبط بها مع الناس .

وما وجد النظام القضائي في الإسلام إلا لإظهار الحق وحسم الخلاف ومعالجة النزاع قبل أن يصل إلى درجة الخصومة والشقاق ، وما دام هذا النزاع قد حدث بخلاف على حق ، فلا شك أنه سوف يتأكد لأحد الطرفين المتنازعين ، إلا أن الإسلام قد حدد الوسائل الموصلة إليه والمطالبة به وإثباته والتأكيد عليه .. وقد وضع القضاء الإسلامي مجموعة من الضوابط والطرق لإثبات الحق المتنازع عليه، وعرفت هذه الضوابط بالأدلة والقرائن والبينات ، فما من دعوى إلا وفيها مدعي ومدعى عليه ومدعى به وهو الحق المطلوب إثباته . ولدى عرض هذه الدعوى على محكمة القرآن والسنة يتم الفصل فيها ، ويتبين الحق في كفة من من الخصوم .

وكما قلنا في البداية أن الوصول إلى الحق يحتاج إلى طرق تعمل على إثباته وتصديقه ، فقد حددت الشريعة الإسلامية طرقًا كثيرة للوصول إلى الحق ، صنفها العلماء كلاً بحسب القرائن الدالة على ثبوت الحق المختلف فيه بين المدعيين.. تلكم القرائن هي : البينة – اليد – النكول – اليمين – الشاهد – الإنكار – الإقرار – التواتر – الوثائق – القرعة – القافة .

هذه القرائن تعتبر أدلة وبراهين على ثبوت الحق وتصديقه لأحد الخصمين ، يلزم الخصم الآخر بالوفاء به .. وما دمنا نتحدث عن أدب الخصومة فلا بد أن نعرض أمثلة لقضايا حكم فيها بالحق عن طريق هذه القرائن تجلت فيها روح المثالية الأخلاقية في الإلتزام بأدب الخصومة أثناء المطالبة بالحق .. من هذه القضايا :

الحكم بالنكول كطريق من طرق إثبات الحق المتنازع عليه :

القضية الأولى :

قال أبو عبيدة ، حدثنا يزيد بن هارون عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سالم بن عبدالله : (أن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما باع عبدًا له بثمانمائة درهم بالبراءة ، ثم أن صاحب العبد -أي المشتري- خاصم فيه ابن عمر ، فتقاضيا إلى عثمان – رضي الله عنه – . فقال عثمان لابن عمر – رضي الله عنهما – : احلف بالله لقد بعته وما به من داء علمته ، فأبى ابن عمر أن يحلف ، فحكم عثمان – رضي الله عنه – برد العبد عليه) .

هذه هي القضية .. وأنت ترى أن الحق المدعى به هو العبد ، وأن المدعى عليه هو ابن عمر ، وأن المدعي هو الذي اشترى العبد ، وقد باع ابن عمر العبد خاليًا من العيب لعلمه الظاهر من حال العبد ، ولهذا لما طلب منه أن يحلف على أن العبد ساعة بيعه للمشتري لم يكن به عيب امتنع عن ذلك لعدم علمه بالعيب ، وهنا كان الفصل في الدعوى بأن حكم برد العبد على بائعه لامتناعه عن اليمين بعلم العيب فيه .. وهذا يسمى في الحكم الشرعي نكولاً ، وهو قرينة دلت على صحة الدعوى وثبات الحق المدعى به .

وفيه من أدب الخصومة أن مخافة الله فوق كل شيء ، وأن الرضا بقضاء الله وحكمه مقدم على رغبة النفس ، وأن القرينة إذا دلت على صحة قول المدعي فيما ادعاه، حكم له بها ، وكون امتناع المدعى عليه عن اليمين قرينة تؤكد على أحقية الأمر المتنازع عليه للخصم المدعي ، وجب الأخذ به كحكم شرعي نافذ ومنجز [1] .

---

١ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ص ١٧٣

القضية الثانية :

روى البيهقي وغيره من حديث سلمة بن علقمة عن داود عن الشعبي : (أن المقداد – رضي الله عنه – استقرض من عثمان – رضي الله عنه – سبعة آلاف درهم ، فلما تقاضاه قال المقداد : إنما هي أربعة آلاف درهم ، فخاصمه إلى عمر . فقال المقداد : احلف أنها سبعة آلاف . فقال عمر – رضي الله عنه – : أنصفك . فأبى عثمان – رضي الله عنه – أن يحلف . فقال عمر : خذ ما أعطاك) [1] .

هذه القضية شبيهة بالأولى ، حيث أن عثمان – رضي الله عنه – امتنع عن حلف اليمين ، على أن الحق الذي له هو سبعة آلاف ، وهذا يعد نكولاً ، مما دعا عمر – رضي الله عنه – أن يقضي بقول المقداد على أنه أربعة آلاف ، وأمر عثمان – رضي الله عنه – أن يقبلها للقرينة الدالة على صحة قول المقداد وهو نكول عثمان عن اليمين بإثبات ما يدعي ، وهذا يعد غاية الإنصاف في المطالبة بالحق والنزول عند حكم القضاء .

الحكم بالشاهد كإثبات للحق المدعى به :

عن أبي قتادة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم حنين : « **من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه** » ، فقمت فقلت : من يشهد لي، ثم جلست . ثم قلت : من يشهد ، فقال : « **مالك يا أبا قتادة** » .. فذكرت أمر القتيل لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقال رجل من جلسائه : صدق يا رسول الله ، سلبه عندي، فارضه مني . فقال أبو بكر – رضي الله عنه – : (لا ها الله ، لا نعطيه ، أضيع قريش ، وندع أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله) . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « **صدق، اعطه إياه** » ، فأداه إليّ [2] .

فالحديث واضح أن الحق المدعى به هو سلب المقتول ثبت بطريق الشاهد بين

---

١ نفس المصدر السابق / ص ١٧٤

٢ صحيح البخاري / باب قول الله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئًا » / ج ٥ / ١٩٦

يدي الرسول – عليه السلام – أن قاتله أبو قتاده .

والشاهد في الحديث أن أبا قتادة استدل على صدق دعواه بالبينة وهي شهادة الرجل الجالس عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما ثبت له الحق دون منازع ، فحكم له به .

الحكم بالقافه (الشبه) كطريق من طرق إثبات الحق :

روى يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه قال : (كنت جالسًا عند عمر بن الخطاب ، فجاءه رجلان يختصمان في غلام ، كلاهما يدعى أنه ابنه ، فقال عمر : ادعوا لي أخا بني المصطلق ، فجاءه وأنا جالس ، فقال – أي عمر – : انظر ابن أيهما تراه ؟ فقال : قد اشتركا فيه جميعًا ، فقال عمر : لقد ذهب بك بصرك المذاهب ، وقام فضربه بالدرة . ثم دعا أم الغلام والرجلان جالسان والمصطلقي جالس ، فقال لها عمر : ابن أيهما هو ؟ قالت : كنت لهذا فكان يطؤني ، ثم يمسكني حتى يستمر بي حملي ، ثم يرسلني حتى ولدت منه أولادًا ، ثم أرسلني مرة فأهرقت الدماء حتى ظننت أنه لم يبق شيء ، ثم أصابني هذا فاستمررت حاملاً . قال : أفتدرين من أيهما هو ؟ قالت : ما أدري من أيهما هو ! .. قال : فعجب عمر للمصطلقي ، وقال للغلام خذ بيد أيهما شئت ، فأخذ بيد أحدهما واتبعه) [1] .

ففي هذه القضية كان الفيصل بين المختلفين هو الشبه كقرينة دالة على الحق بين المتداعيين ، فقد أُلحق الولد بأقرب الرجلين شبهًا .

وهكذا نرى أن استيفاء الحقوق لا يتم في الشريعة الإسلامية إلا بإثبات الحق عن طريق الأدلة والبينات ، فمن كانت أدلته قد أحاطت بها القرائن الظاهرة ، فانما هذا يقوى في جانبه الحق المختلف عليه ، ويلزم الخصم بالوفاء به بلا معارض ولا منازع .

---

١ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ص ٣١٧

ثانيًا - التزام حدود الأدب في الدعوة إلى الحق :

إن هذا الحق سواء كان لله أو للآدمي فإنه ينبغي أن يكون الداعي إليه والمحكم فيه على درجة كبيرة من التقوى والورع ، ذا حكمة ووقار ، مدركًا أسرار الدعوة وآدابها ، لا تكون غايته في ذلك إلا رضا الله وانصاف المحق من المبطل ، ملتزمًا بحدود الشريعة وأحكامها حول الحق الذي يحكم فيه أو يدعو إليه ، متمسكًا بما في القرآن والسنة من آداب وأساليب لإقناع الخصم وتبصيره بالحق الذي اختلف فيه .

وقد استفاض القرآن بآداب جليلة في الدعوة إلى الحق ، آثرنا منها عرض هذه النماذج المثالية كشواهد صريحة على من يدعو إلى الحق على بصيرة وهدى، تلكم النماذج هي :

التلطف في الخطاب والاسلوب :

ينبغي على الداعي إلى الحق والفاصل فيه أن يتحلى بالكلمة الطيبة ، فإن الكلمة الطيبة عنوان الخلق المسلم وإحدى وسائل التأثير والإقناع في معرض الجدل والمراء ، والكلمة الطيبة كما وصفها تعالى : ﴿ **كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾[1] .

نعم ان الشجرة الطيبة دائمة الثمار ودائمة المنفعة ، ومثلها الكلمة الطيبة تنفع الصديق وتنفع العدو ، لا ضرر فيها ولا ضرار ، بل إنها ان لم تؤثر في السامع على الفور فإنها سوف تترك أثرًا بالغًا في النفس يذكره ساعة التأسف والندم ، كي يواسي به ما فرط فيه .

كما أن الكلمة الطيبة تعني المحبة والشفقة والرحمة عند الداعي تعبر عن حرصه لإرادة الخير لكل الناس ، تعبر عن ألمه لما يشاهد فيه أخاه المسلم من انحياز عن الحق أو الوقوع في إثم يجب اصلاحه .. والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا دعاة من هذا الطراز لأنهم كانوا على أدب رفيع وخلق عظيم

---

١ الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة إبراهيم

ورحمة واسعة شملت المؤمن والعاصي ، والمسلم والكافر ، مما مكن لهم الله الانتصار على عدوهم .

والكلمة الطيبة سلوك الداعي ، حيث كان الأنبياء – عليهم السلام – المثال العالي في السلوك ، تواضع مع الصغار قبل الكبار ، وعدل مع الفاجر قبل البر ، وتحبيب إلى نفوس الخلق ، وإيثار الغريب قبل القريب .. كل ذلك من معاني الكلمة الطيبة التي أدرك أسرارها هؤلاء الرسل الكرام ، ومن احتذى حذوهم من الدعاة والصالحين .. فها هو سيدنا ابراهيم – عليه السلام – يدعو أباه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام ، وهو يعلم أن والده أعتى خلق الله ، وأنه سوف يقف في وجه الدعوة ، ويكون أول محارب لها ، ومع ذلك نجد سيدنا ابراهيم – عليه السلام – يفضل اسلوب الاستعطاف مع والده ، لا لأنه والده ولكن لأن من أهداف الدعوة إلى الله ، ومن أسس عرض الحق الذي جاء يدعو إليه ابراهيم – عليه السلام – أن يكون لينًا رحيمًا متلطفًا بهؤلاء المخالفين ، لعله يجد أذنًا تصغى إليه ، فتتأثر حين تسمع رقة النداء وشفافية الاسلوب ، فتتقبل الحق وتذعن له ، لذلك استحق أن يسطر في القرآن الكريم ليتأسى به الدعاة من بعد الأنبياء ، قال تعالى :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا سويًا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًا ﴾[١] .

وهكذا بدأ إبراهيم – عليه السلام – خطابه متصدرًا بكلمة فيها الحنان الأبوي ليثير فيه غريزة البنوة التي هي من فطرة الله في خلقه ، وكان القصد من تقديم هذا النداء إثارة الحنان والعطف ، وتوقير المدعو لإعطائه الإحساس العميق بأنه مقدر ومحترم ، وهذا مما يلفت انتباهه نحو الشيء الذي سيكون بعده لعل

---

١ الآيات من ٤١ – ٤٥ من سورة مريم

هذا النداء يأتي باستجابة طيبة من نفس المخالف للحق ، ولو جاء إبراهيم إلى أبيه بشدة وعنف متجاهلاً مكانته من نفسه ومكانته من قومه ، لربما ألب عليه القوم وحرضهم بالامتناع عن دعوته ، ثم رميه بالعقوق والنكران . وهنا لا يكون من عرض الحق بهذه الصورة إلا الرفض وعدم الإصغاء .

ويتكرر هذا الموقف مع لقمان ، وهو يدعو ابنه إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عقيدة الشرك والأوثان ، فاختار لقمان أحب النداءات إلى فلذة كبده كي يخاطبه به، ولا شك أن هذا الاختيار الموفق سوف يحقق الهدف المنشود من الدعوة وهو عبادة الله وحده ، فذكر الله هذا الموقف ليكون ذكرى للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[1] ..

وهكذا كلما أراد أن يعظه بأمر وينهاه عن أمر يبدؤه بهذا النداء : (يا بني ، قال تعالى : ﴿ **يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾[2] .. وقال تعالى : ﴿ **يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير** ﴾[3] .

فابتدأ الخطاب بهذه الكلمة وكأنه يثير الحواس عند الابن أن يستمع إلى أبيه، خصوصًا وأن الأب قد أظهر ما عنده من حنان حين أطلق هذه الكلمة (يا بني) ، كم فيها من مشاعر المحبة والرحمة والشفقة ، ولو كان كل مسلم دعا إلى الله بهذا الاسلوب لملئت الأرض عدلاً وسلامًا .

وها هو خاتم الأنبياء يعرض الدعوة ، فيقف في وجهه القوم ، وعلى رأسهم أهله وأقاربه ، ويساومون عمه أبا طالب على منعه ، فيدعوه العم الحنون – رغم شركه – إلى مقابلة قريش والرد عليهم ، فما كان من محمد – صلى الله عليه

---

١ الآية ١٣ من سورة لقمان

٢ الآية ١٧ من سورة لقمان

٣ الآية ١٦ من سورة لقمان

وسلم – إلا أن رد رداً حاسمًا وفاصلاً لما اختلف فيه القوم وامتنعوا عن الإنصياع له وهو حق الله في توحيده بالعبادة ، إلا أنه لم ينس وهو يرد على هؤلاء القوم أن يخاطبهم مذكرًا إياهم بمكانة هذا السيد فيهم من ناحية ، وبما لهذا السيد من فضل عليه في تربيته وكفالته ، عدا كونه عمه وشقيق أبيه ، فآثر أن يتلطف معه ، وله حق في ذلك ولو كان من المشركين ، فإن ربه قد وصفه بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ .. والخلق العظيم يأبى أن يكون صاحبه فظًا غليظًا ، فأجاب عمه برقة ولين ممزوجة بشدة واحراج : « يا عم ؛ لو وضعو الشمس بيميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » .

فما كان من الشيخ الوقور بعد أن سمع هذا النداء الحبيب ، حتى قدح في قلبه أن ابن أخيه على حق ، فمكنه من ذلك بقوله : (اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فو الله ما أسلمك لشيء أبدًا)[1] .

ولو بادر عمه بعنف في القول وغضب في الخطاب لربما وجه إليه أنه لم يرع حرمة عمه فليس أهلاً أن يكون رحيمًا بغيره ولا موقرًا لأمثاله .. ومن كان هذا شأنه فلا يسمع له ولا يطاع ، وحاشى أن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كذلك .

إذن خلاصة القول أن علامة الحق الصدق والإثبات ، ولا يتأتى ذلك إلا بالبرهان ، ولا يكتسب البرهان قوة إلا بالإقناع ، ولا يؤثر الإقناع إلا بالتلطف واللين ، فإنك لو وجدت مذنبًا حالة ارتكابه للذنب وقمت بتأنيبه وفضحه ، وتقصد من ذلك ردعه عن هذا الفعل ، فإنك بهذا التصرف تزيده سوءًا وإثمًا وغطرسة وعنادًا ..

فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لما رأى أصحابه ذلك الأعرابي يبول في المسجد وأوشكوا على إيذائه ، منعهم من ذلك ، ودعاه بعد أن فرغ من صنيعه.. ثم بصره بأن عمله هذا لا يليق ببيت من بيوت الله ، لأن هذا من

---

١ روائع من أدب الدعوة في القرآن والسنة / ص ٢٢

النجاسة، وبيت الله طاهر، يجب أن يبقى كذلك .. فامتنع واستفاد .

كذلك في حديث المسيء صلاته ، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- بصره بخطئه ، ثم وجهه الوجهة الصحيحة .

فمن كان حاكمًا أو قاضيًا فعليه أن يتلطف مع الخصوم ، بالعدل بينهم في القول والنداء ، والمجلس والنظر .. وعلى المختصمين إلتزام الأدب ، وتقبل الحق .

وعلينا أن نتذكر ونحن ندعو إلى الحق ، أن نعمل على تضييق دائرة الخلاف، وذلك بأن لا نجعل من الأمر الصغير كبيرًا ، إذا قام حوله الخلاف والجدل ، فإن ذلك مما يتسع به الخرق ، ويتشتت به الرأي ، وتعم به البلوى ، فمثلا عادة التختم بالذهب عند الرجال ، وعادة التدخين ، أو حلق اللحية ، ففي مثل هذه القضايا نحتاج في دعوة أصحابها إلى لين الجانب واللطف في القول ، لا إلى اسلوب الزجر من أول وهلة أو التشنيع عليهم باعتبارهم عصاة يجب تجاهلهم واحتقارهم حتى يدعوا هذه الأمور .. فإن ذلك من مسوغات الاستمرار في المعصية ، ومن الدواعي إلى التمادي في المنكر ، وقس على ذلك أمورًا كثيرة في غنى عن الاختلاف فيها أو التصدي لها بعنف وشدة ، حيث يراها بعض الدعاة أمرًا منكرًا ، فينبري لإزالتها ، فيثبتها ويزيد من مرتكبيها بسوء تصرفه ، وعدم تمسكه بأدب الإسلام في دفع الخلاف ، والنصح للناس .

ولذلك نجد أسلوب القرآن الخطابي مع المؤمنين يبتدئ بهذا النداء : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ .. في حالة الأمر أو النهي : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[1] . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا** ﴾[2] .

وهذا النداء له أثر بالغ وعظيم في نفس المؤمن حينما ينادى به ، كأنما يتجدد عنده الإيمان ، ويبعث من جديد ، فيزداد اقباله على ربه وطاعته له واستجابته لأوامره .

---

١ الآية ١٥٣ من سورة البقرة

٢ الآية ١٠٤ من سورة البقرة

وهذا النداء لم يكن إلا للمؤمنين وحدهم في شريعة الإسلام ، ألا ترى أن المؤمنين قبل الإسلام - وأعني بذلك اليهود والنصارى - كانوا يخاطبون بأهل الكتاب ، مع أن المسلمين أصحاب كتاب كذلك وهو القرآن الكريم . ولكن خوطبوا بصفة الإيمان الظاهرة فيهم ، والمتجسدة في أفعالهم وأقوالهم ، لذلك اختار الله لهم هذا النداء ليغرس فيهم الخير ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس .

فهذا الأسلوب القرآني دليل على غرس المحبة في نفوس الناس ، واعطائهم الأمل بأن فيهم الخير ، وأن الشر ليس من طبعهم .. فلا بد أن يتألف العاصي منهم والمخالف للحق فيهم بالقول الحسن ، كالمريض الذي يود أن يسمع ما يطمئنه من الطبيب ، والداعي إلى الحق طبيب النفوس والقلوب يعالجها بالقول الفصل والدواء الناجع .. وصدق الله العظيم : ﴿ **ونتنزل من القرآن ما هو شفاء للناس ورحمة ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾[1] .. وليس بعد أدب القرآن من أدب ولا تهذيب ، فهو الدعوة الخالصة ، وهو الطريق المستقيم .

اجتناب التعصب وقت الفصل في الخلاف :

التعصب والعصبية وهو نزوع المرء إلى أصل أو لون أو رأي .. أو التشدد في أمر ، هو في غاية البساطة واليسر . وهذا يعد من دعوى الجاهلية التي نهى عنها الإسلام ، ودعا إلى نبذها .. وأي قضية خلافية إذا أحيطت بسياج العصبية ازدادت تعقيدًا ، وكلما تعقدت ازدادت بعدًا عن الحق أو الوصول إليه .. فقتل روح التعصب ، أساس من أسس الأسلام ودعائمه القوية في الدعوة إلى الحق ونبذ الخلاف ..

ولقد ظهرت مواقف مثالية اتسمت بالسماحة والنبل ، وهي في ساعة الاختلاف والتخاصم ، ابتدأ بها المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهو المبعوث رحمة ومعلمًا للناس ، وليكون لأمته قدوة وأسوة في حل خلافهم وقضاياهم بالهدوء والتؤدة ، دون ما تعصب أو تشدد ، ولو كان الحق مع أحدهم ، ولكن

---

١ الآية ٨٢ من سورة الإسراء

للحق هيبة يجب على المسلم أن يرعاها ويعظمها لأنها جزء من خلقه ودينه .

ونحن إذ نعرض لك أخي القارئ هذه المواقف لا نقصد من وراء ذلك إلا التأسي بمعناها ونتائجها ، والتحلي بها إذا كنت في موقف اختلاف حاكمًا كان أو متهمًا ، حتى يحصحص الحق وتنتهي دعوى الخلاف .. من هذه المواقف :

الموقف الأول - من صلح الحديبية :

صلح الحديبية ذلك الحدث التاريخي العظيم الذي تصالح فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع قريش على وضع الحرب بينهم مدة عشر سنين ، وقد حدث هذا الصلح في مكان قريب من مكة المكرمة يقال له الحديبية ، وقد اشتهر الصلح بها ، وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة، حيث كان الرسول - صلى إلله عليه وسلم - في تلك السنة قد عزم على دخول مكة للعمرة .. فلما وصل إلى الحديبية وعلم المشركون بقدومه، وما كان يريد قتالاً فمنعوه من دخولها ، وحالوا بينه وبين البيت الحرام .. فجرى بينه وبينهم مفاوضات ، انتهت بكتابة وثيقة تضمنت شروطًا بين الطرفين سميت بـ (صلح الحديبية) [1] .

ونحن إذ نتناول هذا الصلح لسنا بصدد البحث في شروطه ونتائجه، ولكن الذي يهمنا حول هذا الصلح هي تلك المواقف التسامحية التي نبعت من شخص رسول الله العظيم والتي ترجمت فكره السياسي كحاكم وقائد بجانب أنه رسول رب العالمين بلا شك ولا ريبة ، فما أن طلبت قريش الصلح حتى أجابها لذلك ، وهو يومئذ في عزة ومنعة من ربه ، ثم من المسلمين الذين كثر عددهم وقويت شوكتهم ، ولكن ليعلم الناس أن دعوة الإسلام دعوة الخير والسلام وليست دعوة حرب وقتال.. وهنا تنتدب قريش أقصح بلغائها وخطبائها وهو سهيل بن عمرو ليكون مفاوضًا للرسول - صلى الله عليه وسلم - على شروط هذا الصلح .

ويتقابل سهيل مع رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ، وتبدأ الجولات الحوارية بين الطرفين ، وهنا تتجلى سماحة الإسلام في تفضيل رسول الله -

١ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار / ج ٢ / ٦٠٩

صلى الله عليـه وسلم- للحلول الموصلة إلى الحق ، ويوافق على شـروط ترفع الخلاف وتنهي الخصام إذا كان ذلك مما سيجعل القوم يقبلون على الإسلام ، ويرغبون فيه طائعين غير مكرهين .

وإذا أمعنا النظر في موافقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لكل شرط طلبته قريش ، نرى أن الرسول – عليه السلام – قد تجرد من التشدد أو التعصب، وخلي من الغلظة والسباب ، وهو الذي على الحق والمشركون على باطل ، ولكن لم يثنه ذلك عن عزمه في إرادة الخير وإظهار اللين والترفق ، ولو كان مع أهل الباطل والشرك .. فها هو عليه السلام وهو يتفاوض مع سهيل بن عمرو – كما أخرج البخاري في صحيحه – : أن سهيلاً لما أقبل على الرسول – عليه السلام – قال صلى الله عليه وسلم : « **قد سهل الأمر** » ، فجاء سهيل فقال : هات أكتب بيننا وبينكم كتابًا . فدعا النبي – صلى الله عليه وسلم – بكاتبه وهو علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقال له : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو ؟ ولكن أكتب (باسمك اللهم) ..

وهنا ثار المسلمون على اعتراض سهيل ورفضه لبداية الكتاب .. وكاد أن يقوم خلاف كبير قد يصل إلى القتل بين الطرفين ، فأدرك النبي – عليه السلام – هذا الموقف ، وهو يعلم أنه على حق ، ويعلم المسلمون كذلك .. وأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أصل من أصول الشروع في أمر لا يعتبر هذا الأمر تامًا ولا مباركًا إلا إذا بدئ فيه بالبسملة، كما ورد في الهدي النبوي الشريف ، ولكن مفاوض قريش لم يعتد على ذلك حيث أن عبادته مشوبة بالشرك ، لذلك أراد أن يتشدد ويصر على موقفه الخلافي في أصل العقيدة .

فلم يشأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يتخذ نفس الموقف وهو على حق إن تمسك به، ولكنه استجاب لهذا الشرط حتى لا يفتح باب الخلاف ، وتذهب فائدة الصلح ، طالما أن المختلف عليه يحمل نفس المعنى ، وهو تعظيم الله – سبحانه وتعالى – ففي البسلة تعظيم لله ، وفي قوله (باسمك اللهم) تعظيم لله كذلك ، فعلام إذن هذا الاختلاف ؟ ، كل ذلك فكر فيه رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – وآثر موافقة المعارض القرشي ، وأقره على ذلك .. فقال – عليه السلام – لكاتبه : « أكتب باسمك اللهم » .. وهذا الموقف كم فيه من الأدب الرفيع لتسامح الإسلام ، ومعالجة المواقف الخلافية والعمل على حسمها ، بما يكفل صالح الإسلام والمسلمين .

ويبرز لنا موقف آخر أكثر تسامحًا وتلطفًا في هذا الصلح ، وهو موقفه – صلى الله عليه وسلم – حينما أراد ختم الكتاب الذي تصالح بموجبه مع قريش ، فقال عليه السلام: « **هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله** » . فقال سهيل معترضًا على هذا الإجراء : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن أكتب محمد بن عبدالله .. وهنا يرد عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلاً : «**إني لرسول الله حقًا ، وإن كذبتموني**».. ثم يقول لكاتبه أكتب : « محمد بن عبدالله » .

فنرى هنا موقفًا عجبًا ، يلقن الرسول – عليه السلام – مفاوض قريش الحقيقة التي اختلف معه فيها ، ألا وهي التصديق بنبوة محمدورسالته ، وقد أدرك سهيل ذلك ، ولكن المكابرة صدته عن استساغتها ، وكذلك أنه في موقف الخصم المفاوض ، فيأبى أن يوافق على ختم المعاهدة كما يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولكن كما يريد هو .. وهنا نجد الرسول – عليه السلام – يوافقه أيضًا على ذلك ، وهذا يدل علي تواضعه وعدم تشدده في حقيقة يعلم أن الله ناصره فيها مهما ازدادت قريش في كبريائها .

ويروى أن في هذا الموقف امتنع كاتب الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن محو ما أرادت قريش ، وازداد غضب المسلمين في اعتراض قريش ، فيطلب الرسول – عليه السلام – من كاتبه أن يريه ما يراد محوه ، فيمحوه بيده الشريفة، دفعًا للخلاف ، واستجابة للصلح ، لأنه يعلم صلى الله عليه وسلم لو تمسك برأيه وأطاعه المسلمون على ذلك – وهو حق وصدق – فقد يشتد الخصام أكثر ، وهذا الذي يأباه ويتجنبه .

وثمة موقف آخر حدث في أثناء توقيع الصلح ، إذ يفاجأ الطرفان بأبي جندل

بن سـهيل بن عـمرو وهـو يلجـأ إلـى المسلمين فـارًا بدينه ، فـيقـول سـهـيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ .. فـيرد النبي – عليه السـلام – : « **إنا لم نفض الكتـاب بعـد** ». فـيقـول سـهـيل : فـوالله إذن لا أصـالحك على شيء أبدًا..

وكان من شـروط الصلح أن يرد النبي من يأتي من قريش مسلمًا مـن حيث جاء ، وأن لا تسلم قريش من يأتي من المسلمين لمحمد – صلى الله عليه وسلم – .. وبناء على هذا الشرط ، فإن أبا جندل جاء من جهة قريش ، وقد أسلم ويريد حماية المسلمين . وهـنا نجـد رسـول الله – صلى الله عليـه وسلـم – وهو أول من يلتـزم بالعـهود والمواثيق يطلب من سـهيل أن يجيزه له ، فـيمتنـع سـهيل عن ذلك ، ويصـر على تسليمه له ورده إلى قريش، فيرده عليه السلام .

وهنا يقـوم خـلاف آخـر حـول هذا الموقف بين أبي بكر وعـمـر – رضـي الله عنهمـا – ، سـبب هذا الخـلاف أن عـمـر – رضـي الله عنه – يرى أن الرسـول على حق ، وأن الدين حق، فلم نعطي الدنيـة في ديننا إذن ؟ فـأجـابه أبو بكر : (إنه لرسول الله ، وليس يعصـي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فو الله إنه على حق) .

وهنا كأن أبا بكر يوجه عمر إلى الإلتزام بكلام النبي – صلى الله عليه وسلم – في كل ما يقطعـه من أمـر حـول هذا الصـلح ، وأن لا يعمـل برأي يراه أفـضـل من رأي رسـول الله، ولو كـان حقًا ، فـإن الحق كل الحق مع رسـول الله – صـلى الله عليه وسلم – ، فيدرك عمر خطأه ، ويعلم أن اعتراضه في غير محله ، فيندم ويفعل ما يرضـي الرسول عليه السلام[1].

والآن بعد أن تجلت لنا هذه المواقف من صـلح الحـديبية ، هل نتـخذها قدوة لنا في خصـوماتنا وخلافاتنا ؟ ، فكم من أمور دنيوية تقوم عليها خلافات الناس تبدأ صـغيرة ثم تكبر بالتعصب والتصلب برأي أو هـوى في النفس ، وهـنا يضـيع الحق وتخفى معالمه ، وتظل الخصومة ما بقى الخلاف.

١ صحيح البخاري / كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط / ج ٣ / ٢٥٦

الموقف الثاني – من معركة (صفين) :

هذه المعركة من المعارك المشهورة في التاريخ الإسلامي ، وكانت في خلافة علي – رضي الله عنه – ، وقعت بينه وبين معاوية – رضي الله عنهما – ، لأسباب لا شأن لنا للخوص فيها ، لمكانة الرجلين من صحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، ولحسن بلائهما في الإسلام .

وقد حدثت هذه الموقعة سنة ٣٦ هجرية بالقرب من مكان يقال لـه : (صفين) بين الشام والعراق ، وأن الذي يهمنا في هذه المعركة ما نحن بصدده من حديثنا عن اجتناب التعصب ساعة الخلاف ، إذا كان موصلاً إلى الحق ومنصفًا له ، ونعني بذلك ما انتهت عليه المعركة من (مسألة التحكيم) وموافقة علي – رضي الله عنه – على ذلك والاستجابة إليه ، وذلك حينما اشتد القتال بين الطرفين المتحاربين ، وكلهم من المسلمين.

ولا شك أن هذه من الفتن التي انفتحت أبوابها على المسلمين ، وذلك بتدبير من أهل النفاق والبغي الذين اندسوا في صفوف الأمة الإسلامية ، وأثاروا الفتن والقلاقل ، ابتدأت بمقتل عثمان – رضي الله عنه – ولم تنته إلى اليوم ، مما كان من مساوئها هذه المعركة والتي اشتد أوارها ، واستحر القتل بالرجال ، حتى كاد النصر أن يكون في صف علي –رضي الله عنه– وهو لا شك على حق من أمره الذي خرج من أجله لمقاتلة من شق عصى الطاعة ، وأراد تفريق الجماعة .. كما أن معاوية – رضي الله عنه – كان سبب خروجه ما أدى به اجتهاده إلى أن يطالب بدم عثمان ، فامتنع عن مبايعة علي – رضي الله عنه – حتى يسلمه قتلة عثمان – رضي الله عنه – .

هذه هي الدعوى بين الرجلين ، وهذا موضع الخلاف فيها ، ولكن حيث أننا لسنا بصدد البحث عن تفاصيل المعركة بقدر ما نريد أن ننظر في : (مسألة التحكيم) ، كموقف يسترعي الانتباه والتريث ، لما فيه من الحِكَم والعبر المتصلة بالصلح ، وإيثار التجمع على الفرقة ، والسلم على الحرب ، فإن ذلك من خصال الإسلام ومآثره ، فكيف تم التحكيم ؟ وما هي بواعثه ؟ وما هي نتائجه ؟ .. تلك هي

الأسئلة التي ترد على خاطر كل مسلم يريد أن يحتذي بأفعال العظام من الرجال ، إذا نابته نائبة ، وكان محقًا فيها ، وينازعه غيره عليها باطلاً وزورًا .

أما بواعث التحكيم فقد كانت واضحة من رفع جيش معاوية للمصاحف على أسنة الرماح ، مريدين بذلك الصلح والتحاكم إلى كتاب الله ، وذلك حقنًا لدماء المسلمين التي انتشرت في المعركة كالمياة الدافقة ، ولم يكن وراء ذلك شيء غير هذا .

وكما قلنا بأن جيش علي – رضي الله عنه – كان على حافة النصر ، والحق معه لا محالة .. ومن هو علي ؟ ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومن السابقين إلى الإسلام ، وفدائي يوم الهجرة ، وبطل خيبر ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة .. فمن كان على هذه المآثر أيسعى إلى باطل ، ويدعو إلى ظلم ؟ حتمًا كلا ، وألف كلا .. ولكن إذا كانت هذه الخلافات حدثت بين أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهم بشر ، وقد طلب منا نحن المسلمين ألا نخوض فيها بألسنتنا إذا كان الله قد نجى دماءنا منها ، هذا هو القول الفصل في مثل هذه الخلافات .

ولكن المسلمين من الجيشين لما رأوا ما حل بالمتحاربين من القتل – كما قلت – عمد أحد الفريقين إلى وقف القتال والدعوة إلى الصلح ، وهذا هو هدف التحكيم وغرضه .. وهنا يبرز موقف جدير بالأهمية ، وهو أن جيش علي – رضي الله عنه – في موقف الغالب ، وقد تكون لحظات ويهزم المعارض له ، ويركن إلى الطاعة والإستسلام . ولكن نشاهد عليًا – رضي الله عنه – يأمر جيشه بوقف الحرب ، وإجابة الخصم في طلب الصلح والتحاكم إلى كتاب الله .

وقد عَنَ لبعض الكتاب المغرضين لتاريخ الإسلام أن يصفوا دعوى التحكيم ، ورفع المصاحف على أنها خدعة وحيلة ، وهذا قول عار عن الصحة ، ومجانب للصواب ، لم يقم عليه دليل ولا برهان ، بدليل أن المسلمين الذين اجتمعوا على إرادة الصلح ووقف الحرب قد ندبوا لإجراء هذا الصلح رجلين من الطرفين من خارج الجيشين المتحاربين ، وكان بإمكان المتحاربين أن يطلبوا من زعيمي الجيشين – وأعني بذلك عليًا ومعاوية رضى الله عنهما – بالتفاوض على الصلح

وجهًا لوجه ، فلماذا يختارون رجلين بعيدين عن زعامة الحرب وقيادة الجيشين ؟ . كذلك لو كان نية الجيش الداعي إلى التحكيم الخيانة والغدر كان بإمكانه فور أن رأى استجابة الجيش الخصم لوقف القتال أن ينتهز هذا الهدوء باعتباره خدعة فينقض عليه ويقتل قادته والرأس المدبرة له ، وبهذا يتم النصر له ويتخلص مما هو فيه . هذا من ناحية ، وأما من ناحية أخرى فإن عليًا - رضي الله عنه - يعلم أنه على حق ، وأن جيشه مؤزر بالنصر ، لأن معظم الصحابة الكرام معه ، وأن جيش معاوية ليس معه سوى رجال من الشام ، بعيدين عن الصحبة النبوية ، ومع ذلك استجاب علي - رضي الله عنه - لدعوة التحكيم ، ورد على من طلبه من جيشه بعدم الموافقة على هذا الأمر قائلاً: (أنا أولى بكتاب الله من أولئك) .

وكان يرى رضي الله عنه أن الهدف من الصلح هو اجتماع المسلمين وحقن دمائهم، ولم يرد إلا ذلك ، وأن الذي دعاه إلى القتال هو اجتهاده في رأي رأى فيه أن الفئة الخارجة عليه لعلها ترعوي لهذا التهديد ، ولكن لأمر أراده الله ولا راد لقضائه في ذلك .

فمن منطلق هذه الاعتبارات التي تؤهل سيدنا علي - رضي الله عنه - بأن يتمسك بموقفه ، ويتصلب ولا يعطي للخصم فرصة ، خصوصًا وأنه أي الخصم على حافة الهزيمة ، ولكن فكر - رضي الله عنه - بأنه لو تشدد في أمر التحكيم ، وامتنع عن استجابة الخصم ، خاصة وأن الغاية هي الوصول إلى الحق ، فإن ذلك سوف يكون سببًا في اقتتال القوم من جديد ، وتشتت الكلمة ، والدولة الإسلامية آنذاك تحتاج إلى إصلاح كبير، خصوصًا بعد إنقسام المسلمين إثر مقتل عثمان - رضي الله عنه - وتحولهم إلى طوائف وأحزاب تجمعت حول زعامات منافقة ، لا هم لها إلا أن تجعل المسلمين في موقف الذل والهوان ، لا سيما وأن هذه الزعامات كان لها صلة بطوائف اليهود الذين عملوا مرارًا وتكرارًا على تغذية المنشقين لزيادة الخلافات في صفوف المسلمين .

كل هذا أدركه الإمام علي - رضي الله عنه - ولم يمنعه مركزه الديني والاجتماعي بين المسلمين أن يقبل بالتحكيم ، ويوافق خصمه على طلبه ، لأنه

يشعر بمسئولية الحكم والخلافة ، وعليه فإنه أمين على هذه الأمة ، وهو أولى من يرعى الأمانة ويحافظ عليها .. كل هذه مسوغات تدعوه إلى اجتناب التعصب أو التمسك برأي ، ولو كان هو فيه على حق، إذا كان ذلك مما يحفظ دماء المسلمين ، ويرأب به ما تصدع من بنيانهم المتين .

لذلك آثر الصلح ، وقبل بالتحكيم في موقف القادر المنتصر ، متأسيًا بفعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في صلح الحديبية ، كيف لا وهو كاتبه يوم ذاك ، فأليس الأجدر به أن يقتفي أثره ، ويتحلى بصفاته وأفعاله ؟ ..

لذلك نرى أن بعض من كان في جيشه من الأبطال الشجعان قد تصلب وتردد في أمر التحكيم ، وصمد في ساحة القتال ، رغم نداءات القوم بإيقاف الحرب ، لولا زجرهم من قبل الإمام علي – رضي الله عنه – وإرغامهم على وقف القتال ، والجلوس في التحكيم .. مما نتج عن ذلك أن خرجت عليه فرقة من الجيش تطالبه برفض هذا التحكيم، ومقاتلة معاوية ، وإلا عُدّ كافرًا يحل قتله . هكذا رأت هذه الفرقة الخارجة عليه . ولكن عليًا – رضي الله عنه – أدرك أن هذه الفئة لا تأمره إلا بالشر ، ولا تعينه إلا عليه ، وأن الذي دعاهم إلى هذا الموقف الغرور بالزعامة والجاه، والحقد الدفين على أمة الإسلام وأصحاب رسول الله الكرام .

فما كان من أمره – رضي الله عنه – إلا أن خطأها ، وأمرها بالإستتابة عما تعتقد أو يحاربها . وقد قام بحربها ، وملاحقتها حتى آخر عهده ، وكانت تعرف هذه الفرقة بـ (الخوارج) . وقد كان لها مواقف غير محمودة بعد ذلك [1] .

فهل لنا في هذا الموقف عبرة ؟ ونحن نختلف ونتخاصم وندعى إلى التوافق ، فنأبى إلا الفرقة والشتات ، خاصة ونحن في وقت تكالبت وتداعت علينا فيه الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

١ العواصم من القواصم / ص ١٦٢ ، ١٧٢

الموقف الثالث - من بيعة الحسن بن علي - رضي الله عنهما - :

انتهت خلافة علي – رضي الله عنه – باستشهاده ، وذلك في سنة (٤٠) للهجرة ، وأصبح المسلمون بلا إمام يجتمعون عليه ، وكان أمرًا طبيعيًا إذا خلت الساحة من إمام معين أن يتسابق إلى هذا المنصب من ليس بأهله ولا مستحقيه ، وهذا ما خشيه المسلمون ، خصوصًا وأنهم كانوا في حالة من التمزق والتفرقة من جراء المعارك والحروب التي اضطرمت نارها بين بعضهم البعض .. إضافة إلى ذلك أن عليًا – رضي الله عنه – لم يستخلف من بعده أحدًا ، ولم يوص لأحد بالخلافة ، وقد طلب منه ذلك فلم يفعل .

كذلك فإننا قد رأينا أن خلافة علي – رضي الله عنه – كان لها خصوم ، وهو جيش الشام الذي كان يتزعمه معاوية – رضي الله عنه – ، وكان يطمع أن تؤول إليه الخلافة .

كل هذه الأسباب جعلت المسلمين في حيرة من أمرهم ، إلى جوار ذلك نرى أن معظم المسلمين ومن بينهم جلة أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانوا يطمعون أن تكون الخلافة في آل البيت ، لما يتميزون به من قرابتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى رأسهم الحسن بن علي – رضي الله عنهما–، فهم البقية الباقية من بني عبدالمطلب ومن البيت النبوي الشريف .

لذلك نرى جموع المسلمين قد التفت حول الحسن بن علي – رضي الله عنهما – تطالبه بالخلافة وتنادي ببيعته ، وكان ذلك سنة (٤٠) هجرية ، وقد كان ذلك في الكوفة مركز خلافة أبيه .

وما أن تم له ذلك حتى تكرر الموقف الذي حدث في زمن أبيه ، وبرز الخصوم يناوؤنه ، وعلى رأسهم معاوية – رضي الله عنه – ، ففكر الحسن – رضي الله عنه – في هذا الأمر مليًا ، وقلب الأمور على وجوهها ، وهذه صفة الحكيم العاقل ، ومثل الحسن لا تنقصه الحكمة والتدبير ، فكر أن أهل العراق كانوا مختلفين على أبيه ، فلم يجتمعوا عليه ، كما أن أهل الشام قد استظهرهم معاوية – رضي الله

عنه - ليؤلبهم على الحسن - رضي الله عنه - ، إذن لم يبق معه إلا فئة الصحابة في مكة والمدينة ، وهؤلاء قد اجتنبوا الفتنة ..

وعنت هذه الأفكار في عقل الحسن - رضي الله عنه - وقدر لها حسابها ، ثم توصل بهذا كله إلى أن جمع المسلمين من أوجب الواجبات في الإسلام ، وكفى المؤمنين حربًا وفتنة ، فإن ما في الحرب إلا الاختلاف والتفرقة .. لذلك نجده يتشاور مع آل بيته والمقربين منه ، فيستشير أخاه الحسين ، فيشير عليه بمحاربة معاوية والوقوف في وجه من يخرج عن طاعته ، ولكن الحسن لم يستسغ هذا الرأي ، لعلمه اليقيني أن الأمة في حالة تفرق ، ولإن كانت قلوبها معه فسيوفها مع معاوية ، وأنه لو دخل مع معاوية في حرب فسوف يزداد المسلمون فرقة وشتاتًا ..

لذلك آثر الصلح في سبيل جمع المسلمين ، وحقن دمائهم . والتنازل عن البيعة للخلافة مع أنه أحق بها إذا كان ذلك سوف يجنب المسلمين التفرقة والحرب والقتال . فما أن استقر له هذا الرأي حتى دعا معاوية إلى الصلح ، وتنازل له عن الخلافة ، وكان ذلك في عام (٤١) هجرية ، حتى أنه سمى ذلك العام بعام الجماعة ، لما وجد من توحد المسلمين واجتماعهم على إمام واحد دون قتال ولا فتنة .

وهذه الوقفة التي وقفها الحسن - رضي الله عنه - جديرة بالإكبار والتعظيم، لأنه حل فيها أكبر نكبة حلت بالمسلمين ، ألا وهي الاختلاف على من هو أولى بالخلافة ، فكان يرى - رضي الله عنه - أنه لا بأس بخلافة المفضول مع وجود الفاضل ، وفعلاً قد تم ذلك ، واجتمع المسلمون على معاوية - رضي الله عنه - كخليفة للمسلمين ، وعاش الناس فترة طويلة من خلافته في سلام وتقارب ، كل ذلك بوقفة الحسن - رضي الله عنه- التي سطرها التاريخ الصحيح في جبين الزمن بماء من الذهب ، على أن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - واحد من زعماء الإسلام الحكماء والأفذاذ .

فلو اتخذ الحسن موقفًا غير هذا أو تصلب وتشدد ، وأخذته العصبية العربية أو النسب النبوي الشريف ، واعتبر أن أمر الخلافة من حقوقه هو فقط ،

ولا يجوز لأحد أن يدعيه ، لما حصل اجتماع للمسليمن ، ولما حافظ العقلاء على دماء إخوانهم، ولصدق أعداء الإسلام بظنهم أن الإسلام دين السيف والحرب .. وكلا أن يكون الإسلام كذلك ، فإنه دين الرحمة والوئام، بدليل هذه المواقف النبيلة من رجال عرفوا بالحق في كل زمان ومكان .

ولا غرو أن يسعى الحسن – رضي الله عنه – إلى هذا الصلح ، فإن فعله هذا جاء تصديقًا لقول جده خاتم الأنبياء والرسل – عليه الصلاة والسلام – يوم كان الحسن صغيرًا، فإن الرسول – عليه السلام – كان يجلسه بجانبه ويقول فيه: « **ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين**»[1] .

وقد تحقق هذا الخبر حينما سارع الحسن بإقامة الصلح بينه وبين معاوية – رضي الله عنهما – ومبايعته بالخلافة في سبيل المصلحة العامة، والمحافظة على دماء المسلمين ، وتجنيبهم الفرقة والخلاف .

تلك مواقف مثالية تميزت في وسط الخلاف بالتسامح والمصالحة ، حتى ضربت المثل الأعلى في تجنب العصبية والتشدد ، ولو كانت على حق .. ولنا في تلك الصفوة أسوة وقدوة إذا قام بين بعضنا الخلاف وأردنا السعي إلى الحق من غير تشدد ولا مكابرة ، إذا كان الهدف هو الوصول إلى الحق ولا شيء غيره .

ثالثًا – الصبر على الإيذاء في سبيل الحق :

الصبر خصلة من خصال الخير ، دعا القرآن الكريم إلى التحلي بها في ساعة اشتداد البلاء ..

قال تعالى : ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **والصابرين على ما أصابهم** ﴾[3] .

١ « الحسن والحسين » / ص ٢٥

٢ الآية ١٧٧ من سورة البقرة

٣ الآية ٣٥ من سورة الحج

وقال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾[1] .

لذلك أكد القرآن الكريم علي هذه الخصلة ، وأمرنا بالأخذ بها ، وندب المسلمين إلى التواصي بها فيما بينهم ..

قال تعالى : ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾[3] .

صلة الحق بالصبر :

تبين لنا مما سبق أن هذا الحق إما أن يكون لله على عباده ، وهو أن يخلصوا له بالعبادة والتوحيد ، وهذا ما دلت عليه الشرائع والرسل ، وإما أن يكون هذا الحق أمرًا من أمور الدنيا أو متاعًا من متاعها ، تخاصم عليه الناس كل يدعي أنه له ، فيلزم من كل طرف إبراز أدلته لإثبات دعواه وصحة حجته ، ولا يخرج الحق عن هذين المعنيين .

وما من شك أن الناس في حالة العبادة أو حالة المعاملة قد اعتادوا أمورًا منها ما كان فطريًا غريزيًا ، ومنها ما كان مكتسبًا بفعل خارجي .. هذه الأمور تركت آثارًا ظاهرة على العبادة والمعاملة ، واتخذت شكلاً سلبيًا على الجانبين . ومن هنا كانت الحاجة إلى إرسال الرسل لتصحيح المسار العقيدي والعبادي من ناحية ، ثم لتحديد المسار التعاملي بين الناس وبعضهم البعض من ناحية أخرى .

وكذلك الناس الذين اعتادوا الباطل ، وتشربت نفوسهم به ، ومالوا عن الحق، وتفرقت بهم السبل ، فإنهم من الصعوبة بمكان أن يتخلوا عن باطلهم بين عشية وضحاها، ويستجيبوا بصورة فورية لما دعوا إليه ، لأن الشيطان قد استحوذ على ملكات أنفسهم فترسموا خطاه ومنهجه ، فأصبحت رغباتهم وأهواؤهم معه في كل منقلب ينقلبون إليه ، فلقربهم بهذا العهد يتباطئون عن قبول الحق ، وربما يرونه

---

١ الآية ٣١ من سورة محمد

٢ الآية ٣ من سورة العصر

٣ الآية ١٧ من سورة البلد

عبئًا ثقيلاً لا تطيق أنفسهم سماعه ، فكيف بهم إذا أقاموا حياتهم عليه ؟ .

ولذلك ننظر إلى المشركين حين نزل القرآن ، فإن بعض سادتهم لم يطيقوا سماعه ، بل وأنهم لم يريدوا أحدًا يسمع له حتى لا يصغى قلبه إليه ، قال تعالى حكاية عن المشركين وموقفهم من القرآن : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم لأنهم قوم لا يفقهون** ﴾[2] ..

وهكذا نجد من أُشرب في قلبه الباطل نزع إليه ، فإذا ما جاءه وازع الحق قابله بالصد والجحود .

لهذا فالداعية إلى الحق في مثل هذا الموقف ، لا بد أن يتسلح بالصبر والأناة ، وعدم التسرع والعجلة ، خصوصًا وأنه وهو يدعو إلى هذا الحق سوف يسمع من المخالفين له أذىً كثيرًا ، فإن حاجته إلى الصبر ماسة وملحة ، وإذا علمنا هذا ، فلا يغيب عن أذهاننا أن أكثر الناس صبرًا على البلاء هم الأنبياء والأمثل فالأمثل .. وإذا كان البلاء من قدر الله ، فإن الصبر عليه من أوجب الواجبات في شريعة الله .. فصبر المسلم على المصائب والأمراض التي يصاب بها ، وصبره على المحافظة على طاعة الله ، وحبس نفسه على ترك المعاصي ، كل ذلك من واجبات الدين والعقيدة الصحيحة ، لذلك جعل الله الثواب العظيم للصابرين ، قال تعالى : ﴿**وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾[3].

وكذلك الحقوق بين العباد تحتاج إلى صبر أثناء المطالبة والآداء ، فكثيرًا ما تنشأ الخلافات حول هذه الحقوق ، ويقوم حولها الخصام والنزاع بمجرد الخلاف فحسب ، دون النظر إلى مسببات هذا الخلاف ودوافعه ومبرراته . وحين يبرز الخصمان للفصل والقضاء وتنتهي الدعوى لأحد الخصمين ، فتنتاب الخصم

---

١ الآية ٣٦ من سورة فصلت

٢ الآية ١٢٧ من سورة التوبة

٣ الآية ٣٥ من سورة فصلت

الآخر حالة من اليأس والهلع يعبر عنها بأسلوب التسخط والمجافاة ، وربما اندفع إلى الثأر والانتقام كلما سنحت له الفرصة ، وهذا ما نهى عنه الإسلام ، ووجه المسلمين إلى الابتعاد عنه ، وتجنب دوافعه ومثيراته .

والحق المختلف عليه إما أن يكون للمنازع أو عليه ، وفي كلا الحالين يحتاج هذا المنازع إلى أن يتحلى بالصبر وهو يدافع عن هذا الحق ، لأنه في حالة بأس وشدة وبلاء ، فلا بد أن يتذرع بالصبر ، خصوصًا وأنه وهو يلتقي بخصمه سوف يسمع منه أذىً كثيرًا، إما سب وشتم وإما مماطلة في دفع هذا الحق أو الإقرار به، وإما المجادلة بقصد القهر والإذلال .. فمثل هذا الخصم لا يجدي معه العنف ، بل لا بد من التؤدة والروية والصبر والإمهال ..

وفي هذا يوجه الإسلام أتباعه إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة في ساعة اشتداد الأمور، والتمسك بالصبر والابتعاد عن الغضب وكل ما يؤجج نار الخصام والنزاع ، ألا ترى إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – كيف أوجز إجابته لمن سأله الوصية : يا رسول الله أوصني ، فقال عليه السلام : « **لا تغضب** » ، فقال له أوصني ، فقال له : « **لا تغضب** » ، فقال له أوصني ، فأعاد عليه الإجابة : « **لا تغضب** »[1] .

وكلنا يعلم ماذا يثير الغضب في النفس ، وماذا يحرك فيها ، فجاء الجواب الشافي والدواء الناجع ، ولذلك جاء التوجيه النبوي يحدد مقياس القوة التي اعتاد الناس أن يعرفوا بها القوي على أنه من تميز بالعضلات المفتولة ، أو ذلك الذي يصارع قوة أكبر منه فيغلبها ، كل ذلك صرف الرسول – عليه الصلاة والسلام – النظر عنه ، وهو المعلم النفساني من لدن رب القوة والعزة ، فقال – صلى الله عليه وسلم – : « **ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[2] .. ولذلك يقول تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[3].

من هذا المنطلق على المسلم أن يتذكر وهو يخاصم في حقه أن دينه رسم له

---

١ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب الحذر من الغضب / ج ٨ / ٣٥

٢ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب الحذر من الغضب / ج ٨ / ٣٤

٣ الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

حدودًا وآدابًا يجب أن لا يخرج عنها في أي ظرف من الظروف كان ، ويجب أن يعلم بأن صبره على خصمه وعدم مبادلته الأذى سيوصله إلى رضا الله عنه وتخليص حقه له ولو بعد حين ، ومن ترك لله شيًا من متاع الدنيا وهو قادر على أن يسترده من خصمه ، فإن الله سوف يعوضه أفضل مما أخذ منه ، ولذلك نجد التوجيه القرآني يخاطب المؤمنين بأن تتميز مطالبتهم بالحقوق من بعضهم البعض بالتسامح واليسر .

قال تعالى : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان** ﴾[3] .

وأخيرًا ؛ فهل أدركنا واجبنا في هذه الحياة ، أن نكون كما وصفنا الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾ .. هل تدبرنا قيمة هذه الأخوة؟، وهل أدركنا معناها ؟ ..

فإن هذه الأخوة تحتاج منا إلى الصبر على بعضنا البعض في حل الخلافات ، ووقف نزيف الدم الإسلامي من جراء الويلات والنكبات التي خلفتها الفتن والتحزبات العصبية والقومية ، والنعرات الطائفية والعرقية .. فالمسلمون عائلة واحدة ، تحت سقف بيت واحد ، تجمع أفراده المحبة والمودة ، وتربط بين بعضهم أواصر الدين والعقيدة ، وهم المثال الأعلى لغيرهم في المعاملة والسلوك ، وهذا وضعهم بين الأمم والحضارات، فليكونوا كما أرادهم الله ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾[4] .. فلنحل خلافنا بالتعاون ، ولنكن دومًا متفقين ، طالما أن ذلك في غير مضرة ديننا وأمتنا .

---

١ الآية ٢٨٠ من سورة البقرة

٢ الآية ٦ من سورة الطلاق

٣ الآية ١٧٨ من سورة البقرة

٤ الآية ١١٠ من سورة آل عمران

الفصل الثاني

قتـــل روح العـــداوة والبغضـــاء

حالة البشرية قبل الإسلام :

مرت البشرية خلال ستة قرون من التاريخ الميلادي بفترة عصيبة ، فلقد ساد العالم آنذاك جو من الاضطراب الفكري والإنهيار السياسي والتمزق الاجتماعي .. فعلى الصعيد الديني كانت الملة السائدة في ذلك العصر هي اليهودية والنصرانية، ورغم أن هاتين الديانتين كانتا سماويتين إلا أنهما لم تسلما من التحريف والتبديل بعد موسى وعيسى – عليهما السلام – ، حتى وصل الأمر بأتباعهما إلى الفساد الاعتقادي والخلقي ، فتحول أهل الكتاب إلى وثنيين وملحدين ، ثم انقلب الأمر بهم إلى الكفر بالأديان ، وأصبح الاتجاه إلى الفلسفة اليونانية يحل محل العقيدة .. أما من الناحية السياسية فكان الصراع محتدمًا بين اليهود والنصارى، حتى وصل الاظطهاد بين الطائفتين إلى درجة التصفية الجسدية ، انتهت بتحول السلطة إلى الكنيسة ، مما مكن للمسيحية الانتشار والسيطرة على كثير من بلاد العالم .

ولو انتقلنا إلى الشرق ؛ فإننا نجد مجموعة ديانات ذات طابع وثني ، فالمجوسية في فارس ، والبرهمية في الهند ، ثم البوذية في كافة أقطار القارة الهندية ، وكلها كانت تزعم أنها تدعو إلى الإصلاح الديني والاجتماعي ؛ وهي في الحقيقة لم تعد عن كونها أفكارًا وآراء عبرت عن أصحابها بما كانوا عليه من فساد عقيدي وانحطاط خلقي ، عدا ما كانوا ينوونه في هذه الدعوات من تحويل أكبر كتلة بشرية لتأليههم وإعطائهم طابع التقديس والعبادة ، مما نتج عن ذلك كثرة الحروب وتعدد الطوائف ، وبروز الانشقاقات البشرية عن الزعامات السائدة في تلك الحقبة .

أما العرب ؛ فلم تكن حالتهم بأقل ممن كان يجاورهم من الروم والفرس ،

فرغم أنهم كانوا ينتمون بأصولهم العرقية إلى الأنبياء السابقين على الإسلام كنوح وإدريس وهود وصالح ثم ابراهيم أبو الأنبياء، ومن نسله جاء أصل قريش وهو سيدنا اسماعيل – عليه السلام – ، فهذا الأصل العربي العريق إلى الأنبياء المذكورين والذين جاءوا يدعون إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، مما ترك الأثر الكبير على الناحية الدينية عندهم ، فكانوا موحدين إلى ما بعد اسماعيل – عليه السلام – ، ثم ابتدأت الوثنية تدخل أرض العرب شيئًا فشيئًا حتى أصبحوا مغرمين بعبادة الأوثان والأصنام ، فاتخذت كل قبيلة صنمًا يمثلها بجوار الكعبة التي كانت آنذاك رمز العرب في القداسة والزعامة .

أما من الناحية السياسية ؛ فقد كان النظام القبلي هو السائد ، اضافة إلى ذلك أن القبائل العربية كان بعضها مواليًا للروم وبعضها مواليًا للفرس ، وكان بعضها مستقلاً بنظامه القبلي ، كما هو الحال في قبيلة قريش التي تمركزت في مكة ، وقبيلة الأوس والخزرج التي اتخذت من يثرب موطنًا لها ، إلى جوار هذا كان يعيش اليهود والنصارى ، وقد كانوا على اتصال دائم بالقبائل العربية ، الأمر الذي فسح المجال لكثير من العرب إلى أن يتحولوا عن عقيدة الشرك إلى التهود تارة والتنصر تارة أخرى .

ولو تتبعنا حالة العرب الاجتماعية لوجدناها عبارة عن سلسلة من الحروب والغارات بين القبائل المجاورة ، بل وبين أفراد القبيلة الواحدة وعلى أتفه الأسباب، بجانب ذلك كانت تنتشر بينهم عادات جاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ، بالإضافة إلى النظام الطبقي السائد في قبيلة قريش من تميز السادة على العبيد ، كل ذلك أوجد حالة من عدم الاستقرار النفسي والفكري عند العرب ، فقد كانوا في تقلب مستمر بين الإيمان والتوحيد تارة ، إلى عقيدة الشرك والوثنية تارة أخري ، ثم إلى اليهودية والنصرانية مرة ثالثة [1] .

وفي وسط هذه الموجة الفكرية ، وما كان يعيش عليه العالم من خلل في العقيدة ، وفساد في الأخلاق ، وانحلال في الفكر ، واختلاف في المناهج والمنازع،

---
١ خاتم الأنبياء / القسم الأول / ص ١٥

كأنما أوجد في النفس البشرية نوعًا من التهيؤ والاستعداد والتقبل لأي حدث يعمل على إصلاحها ، وجمع شتاتها ، وتوحيد عقائدها ، وتصحيح مناهجها ، والقضاء على مشاكلها وخلافاتها .. ذلكم التهيؤ هو الإسلام ذلك الحدث الذي غير مجرى التاريخ ، وأنار للبشرية طريق السعادة التي طالما كانت تنتظره قرونًا طويلة.

فجاء هذا الإسلام ، وانبثق معه النور الإلهي يبدد ظلام الجاهلية العمياء، وجاءت معه الهداية والرحمة التي بعث بها حامل هذه الرسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وكان من أهداف هذا الإسلام أن قضى على روح العداوة السائدة بين البشرية قبل ظهوره ، وألف بين قلوبهم بعد تلك التفرقة ، وحبب بعضهم لبعض بعد تلك العداوة والكراهية ، فكأنما حصل في الدنيا انقلاب أسفر عن انتهاء عهد الطغيان والتكبر ، فلا سادة ولا عبيد ، ولا جبت ولا طاغوت ، ولا أصنام ولا أوثان.. ولذلك نجد القرآن يصف حالة العرب ومن حولهم من البشر وما كانوا عليه من شتات وتناحر ، وكيف غير الإسلام من حياتهم ، فقال تعالى ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل**

١ الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

٢ الآية ٦٣ من سورة الأنفال

٣ الآية ٢٦ من سورة الأنفال

يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[1] .

هذه حالة البشرية .. وحالة العرب خاصة ، كما يجليها لنا القرآن الكريم قبل ظهور الإسلام ، فهل لنا إدراك واحساس وشعور سليم كي نفرق بين ما كنا عليه من ماض مليء بالخلاف والتناحر إلى حاضر جمعنا فيه دين الوحدة والاتحاد وعقيدة الألفة والمحبة ، لا فرق فيه بين أحمر وأبيض ، ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى : ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾ ، ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وهكذا استعادت البشرية حياتها من جديد في ظل الإسلام الحنيف بعد هذا الشتات والتمزق ..

الطرق التي سلكها الإسلام في قتل روح العداوة والبغضاء :

جاء الإسلام وقد كانت البشرية في حالة من الفوضى - كما مر معنا آنفًا - فاستقامت به العقيدة ، واصطلحت به النفوس ، وتألفت به القلوب ، والتف الناس حول قانون تشريعي واحد ، كان من مقاصده أن عمل على قتل روح العداوة ونزعة الشر عند المسلم بصفة خاصة ، وعند الإنسان بصفة عامة ، فأوجد الوسائل التي يستطيع من خلالها المسلم أن يشعر بغيره من المسلمين كأخ له في العقيدة ، ويكفي هذا الرباط الأخوي المتين أن يفخر به المسلم وسط مجتمعه وأمته ، فيا ترى ما هي الوسائل التي حددتها الشريعة الإسلامية للقضاء على الكراهية والبغضاء، وتحويل النفس الإنسانية من نزعة الشر إلى فطرة الخير والصلاح ؟ .. هذا ما سنعرفه فيما يلي :

١ - تشريع الحدود والحكمة منها :

إن الله خلق الإنسان في هذه الحياة ، وجعل له مقومات تواكب حياته ، حتى يستطيع أن يؤدي رسالته التي وجد من أجلها ، هذه المقومات لا يستطيع أن يعيش من غيرها ، ولكي يكون هذا الإنسان مستغلاً لهذه المقومات على أكمل وجه وأسلم

---

١ الآية ٦٧ من سورة العنبكوت

طريقة شرع له ما يحفظ هذه المقومات ، ويمنع ما يدنسها أو بجعلها أمرًا مشاعًا محفوفًا بالحرية الفوضوية أو الإباحية المطلقة .

فالمال مثلاً ، وهو عصب الحياة ، يقيم به الإنسان أوده ، وينشيء بموجبه حضارته وتقدمه ، ويكفل به استقراره وراحته ، وهو وسيلة التعايش بين أفراد المجتمع ، فكأن المال وسيلة للحياة الكريمة بالنسبة للإنسان ، وليس غاية ، ولذلك شرع للإنسان أن يملك هذا المال ، وأن يتمتع به في حدود الحلال ، كما شرع له أن يشبع غريزة الجنس لديه بطريقة مشروعة ، وهو بين هذا وذاك له الحق أن يتمتع بحياته الاجتماعية كريمًا عزيزًا ، لا يدنس له عرض ولا تداس له كرامة .. ونفس الإنسان أمانة لديه ، له الحق أن يبعد عنها ما يؤذيها أو يعرضها للهلاك ، دون قضاء الله وقدره .. كما أن الله متعه بالعقل ليقوم بواجبه في هذه الحياة ، كما أراد الله له ، فعليه أن يصون هذا العقل عما يتلفه أو يعطل وظيفته .. وله الحق كذلك أن يعيش آمنًا على حياته بين الناس غير مهدد ولا خائف ..

إذن فالنفس والمال والعرض والعقل هي المقومات الأساسية لحياة الإنسان ، ومن حقه أن يدافع عنها في حالة تعرضها للأذى من قبل الآخرين .

ولما كانت هذه المقومات من حق كل إنسان أن يتمتع بها ، كان لزامًا أن تنشأ حولها الخلافات التي فرضتها الطبيعة البشرية ، وما جبلت عليه من حب التملك والسيطرة ، واشباع الغريزة ، والاستجابة للانفعالات والعواطف .. فالنفس البشرية نزاعة إلى الشر والعدوان ، كما أنها تواقة إلى الخير والسلام .. لذا فإن المسلم في الشريعة الإسلامية جعل مسئولاً عن كل تصرف يتصرفه في هذه الحياة ، ولا يقبل إيمانه ولا إسلامه إلا إذا تصرف بموجب أحكام هذا الدين ، وأن من أحكام هذا الدين تلك الحدود التي شرعها الله – سبحانه وتعالي – لعباده وأمرهم بأن يقيموها فيما بينهم ، إذ أن الغاية من هذه الحدود والحكمة من تشريعها المحافظة على الدين والنفس والمال والعرض والعقل، فمن تصرف بإحدى هذه الأمور بغير وجه حق استحق الجزاء والعقاب ، وهذه الحدود هي الزواجر والعقوبات الرادعة لكل من تسول له نفسه التعدي على شيء من هذه الحقوق .

والدين الإسلامي جاء لإصلاح البشرية ، فمن يدخل فيه يجب أن يحافظ على أركانه وقواعده ، وأن يلتزم بحذوده وآدابه ، فحين ينحرف ويخرج عن الجادة الصحيحة فيه ، يصبح عضوًا فاسدًا ، يحتاج إلى اصلاح وعلاج ، وربما يصل إلى درجة الاستئصال.. فوسائل العلاج لهذا العضو وهو في هذه الحالة هي العقوبات الرادعة والتعزيرات المؤدبة ، وكأنما الغاية من تشريع هذه العقوبات حماية السلوك السوي المبني على الفضيلة والأخلاق من ناحية ، وحماية المجتمع من أن تنتعش فيه الرذيلة والمنكر فيضعف أفراده عن أداء رسالتهم التي اختصهم الله بها من ناحية أخرى .. ناهيك عما تتركه هذه الحدود من آثار على المجتمع المسلم إذا ما طبقت فيه ، فإن من آثارها تربية النشء منذ نعومة أظفاره على الفضيلة والأخلاق العالية بتعليمه المشروع والممنوع في السلوك والاعتقاد ، وأن أثر تطبيقها لا يقتصر علي من طبقت في حقه فقط ، بل يمتد إلى السوي من الناس ليتذكر هذا المصير إن هو فكر في ارتكاب ما يخالف دينه ، كما أن تطبيق هذه الحدود يربي في النفس الإنسانية تيقظ الضمير ومحاسبة النفس فيما تأتي أو تدع من أعمال ، حيث أنها محكومة بقانون الجزاء في الآخرة إن لم تتب وتقلع عن هذا الإنحراف في الدنيا .

فللإنسان أن يملك المال ، ولكن ليس من حقه أن يعتدي على أموال الآخرين بالسرقة أو النصب أو الاحتيال .. وأن للإنسان أن يشبع غريزته وشهوته ، ولكن ليست بالطريقة البهيمية فيتعدى على حرمة الناس وأعراضهم مهلكًا للنسل وقاطعًا للرحم .. وللإنسان أن يتمتع بكل ما خلق الله له في هذه الحياة بالطريقة المشروعة ، ولكن ليس من حقه أن يمنع غيره أن يحيا حياته الخاصة به ، فلا يجوز له أن يقضي على حياة الآخرين دونما سبب شرعي يبيح له ذلك [١] .

ولما كانت هذه الحقوق من قبيل المصالح المشتركة بين الناس ، استلزم الأمر أن تشرع لها أحكام تحفظها من التعدي والضياع ، وتصونها من التلف والابتذال.. فشرع القصاص في القتل لحفظ النفس ، وجاء حد السرقة لحفظ

---

١ أثر تطبيق الحدود في المجتمع / ص ١٥٩

المال، وجاء حد الزنا لحفظ العرض ، وقام حد القذف لصون العفة والكرامة الإنسانية من أن تذل أو تهان ، فإذا اختلف المسلم مع غيره على شيء من هذه الحقوق فلا يفصل بينهم إلا بإقامة حد من هذه الحدود ، كما شرع الله في كتابه وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، يقول تعالى: ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾[2] ، ويقول تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** ﴾[3] ، ويقول تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾[5] .

وفي الحديث يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه ، وماله ، وعرضه** »[6] .

فكأنما الإسلام حين شرع هذه الحدود جعلها الدرع الواقي والسياج المانع لحقوق الناس فيما بين بعضهم البعض إذا ما اختلفوا على شيء منها ، فمن أقامها أقام الدين ومن فرط فيها ضيع دينه وأمانته .. وصدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين قال : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء**

١ الآية ٢ من سورة النور
٢ الآية ٤ من سورة النور
٣ الآية ١٥١ من سورة الأنعام
٤ الآية ٣٣ من سورة المائدة
٥ الآية ٣٨ من سورة المائدة
٦ سنن ابن ماجة كتاب الفتن / باب حرمة المؤمن وماله / ج ٢ / ١٢٩٨

مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا »[1] .

وهكذا من لم يحجز ويمنع من فعل الشر ، فإنه سوف يعيث في الأرض فسادًا وخرابًا ، فهل طبقنا الحدود في مجتمعاتنا الإسلامية عن صدق واقتناع؟!!.

٢ - الحكمة من فرضية الزكاة :

لقد ثبتت فرضية الزكاة بالكتاب لقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾[2] ، وقول الله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة** ﴾[3] .

فهي ركن من أركان الإسلام الخمسة ، كما ثبتت فرضيتها بالسنة لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان »**[4] .

والزكاة في اللغة تعني النماء والزيادة ، كما تعني التطهير والصلاح والبركة..

وفي الشرع تعني النسبة المقدرة في كل مال يمتلكه المسلم ، تخرج بشروط مخصوصة كما حددتها الشريعة الإسلامية ، وتعطى للمستحقين من المسلمين ، لقول الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** ﴾[5]، ولقوله

---

١ صحيح البخاري / كتاب الشركة / باب هل يقرع في القسمة والاستهام / ج ٣ / ١٨٢

٢ الآية ٤٣ من سورة البقرة

٣ الآية ٥ من سورة البينة

٤ صحيح البخاري / كتاب الإيمان / باب دعائم إيمانكم / ج ١/ ٩

٥ الآية ١٠٣ من سورة التوبة

تعالى: ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[1] .

إذن فالزكاة يخرجها المسلم طاعة لله ورسوله أولاً ، ثم هي عبادة من العبادات التي افترضها الله عليه ، إن أنكر وجوبها أو منع إخراجها عد كافرًا بالله ورسوله وخارجًا عن ملة الإسلام .

ولما كانت الزكاة مرتبطة بالمال ، فإن هذا المال نعمة من نعم الله على عباده ، فهم متفاوتون فيه ، منهم الغني ، ومنهم الفقير ، وكل بقضاء الله وقدره ، ومن أسرار الله في خلقه أن جعل هذا غنيًا ليبتليه بما أعطاه ، وجعل هذا فقيرًا ليبتليه بما قدره له ، فمن ناله شيء من هذا المال كأنما الله أراد أن يمتحنه به ، هل سيستخدمه فيما أمر الله ؟ أم فيما يغضب الله ويسخطه ؟ ... كما أن الفقير جعله الله فقيرًا ليمتحنه بفقره ، هل سيصبر ويتعفف ويأكل بالمعروف ؟ أم سيسخط ويتبرم ويختال ويتجبر ؟ ... وهذا وذاك تحت رحمة الله وحسابه .

ولما كان هذا المال هو أساس الاقتصاد ، رتب الله عليه حقوقًا كثيرة تعود بالنفع الكبير لا على مالكه فقط ، ولكن على الجماعة والفرد على حد سواء ، فهو وسيلة من وسائل الإنفاق ، كما أنه ثمرة من ثمار الكسب والعمل ، وترشيد إنفاقه يعد عملاً من أعمال البر التي يتقرب بها العبد إلى ربه .

وحتى لا يكون هذا المال مجالاً للجشع والطمع والظلم والاستغلال ، وحتى لا تتحول غاية جمعه إلى البخل والشح والاحتكار ، وحتى لا يكون الناس حياله سادة أغنياء وسوقة فقراء ، تحكمت الشريعة الإسلامية في وجوه انفاقه ، وسبل صرفه واستغلاله، لكي يكون مظهرًا من مظاهر العدل الإلهي بين خلقه .. فالفقير ليس عالة على الغني حين يقدم له من ماله شيئًا ، ولكنه حق فرضه الله عند الغني يجب أن يقدمه طائعًا راضيًا غير ممتن ولا مرائي ، ولما كانت النفس الإنسانية قد جبلت على حب المال ، كما قال تعالى : ﴿ **وتحبون المال حبًا جمًا** ﴾[2] .

---

١ الآية ٦٠ من سورة التوبة

٢ الآية ٢٠ من سورة الفجر

وقال تعالى : ﴿ **وأنه لحب الخير لشديد** ﴾[1] .

فإن الله أراد أن يكسر حدة هذا الحب بالإنفاق والعطاء ، فجاء فرض الزكاة تطهيرًا لما يعلق بالنفس من أدران البخل والشح من ناحية ، ونماء لهذا المال بتسخيره لمنفعة المسلمين وتداوله بينهم فيما يرضي الله تعالى من ناحية أخرى ، ولأن هذا المال هو مال الله أولاً وآخراً وهبه الله لعبده ، وجعل فيه حقوقًا كثيرة منها ما يختص به سبحانه وتعالي كمشروعية الزكاة والصدقة والهبة والعطية ، ومنها ما يختص بحقوق الآدميين فيما يتعاملون به عن طريق هذا المال كالبيع والشراء والديون والقروض وغير ذلك من قبيل التعامل التجاري والاقتصادي ، إذ أن الله جعل في المال حركة لإعمار هذا الكون ، فحين تستغل حفنة من الناس هذا المال لحساب سعادتها هي فقط ، ولا تفكر في مصير الآخرين، فكأنما خانت الأمانة التي أودعها الله في هذا المال ، وحينئذ لا بد أن يسلط على هذا المال من يتلفه ، إما عن طريق صاحبه وجامعه ، وإما بمؤثر خارجي يرسله الله على صاحب هذا المال .. ولذلك حرمت الشريعة الإسلامية التعامل بالربا لئلا يكون دولة بين الأغنياء ، ولئلا يهضم حق الفقير والمعوز وذي الحاجة .

وهنا يرد التساؤل التالي : لماذا يكون المال محط الحب من قبل الأغنياء ، وبؤرة الحقد والكراهية عند الفقراء ؟ .

وليس هناك إلا إجابة واحدة ، وهي أن الغني حين يتملكه الطمع والجشع ، ويزداد جمعًا لهذا المال من غير اهتمام بالآخرين ، وما لهم من حقوق عليه ، فإن هذا المال ينقلب حسرة وبلاء عليه .. فحقد الفقراء والجوعى يتحول إلى عدوان سافر ، ناهيك عما يواجه هذا الغني من مشاكل وخلافات إذا منع حقوق الناس ، وماطل في دفعها ، فلا يعيش حياته إلا بين ردهات المحاكم وزنزانات السجون .

فلو قام المسلم بتزكية هذا المال وإخراج الحق المفروض عليه منه ، وإعطاء كل ذي حق حقه لأنصف وعدل ، ولطهرت نفسه واستقام سلوكه ، ولزادت أمواله ، وبورك له في ثروته وعمره ، ولما قامت خلافات بينه وبين إخوانه المسلمين [2] .

١ الآية ٨ من سورة العاديات

٢ فقه الزكاة / ج ١/ ٤٥

وما فرضت الزكاة إلا لتكون علاجًا لمشاكل الفقر والعوز التي يعاني منها المسلمون في كثير من البلدان ، مع وجود أخوة لهم في العقيدة قد أتعبتهم تخمة المال وابتزازه .

فهل وعينا أسرار هذه الفريضة وحكمتها ؟ أم أننا ما زلنا نعتبرها ضريبة أو منة من الغني للفقير ؟ .. إذا تذكرنا ذلك ، فعلينا أن ندرك أن إخراج الزكاة يعني اهتمام المسلم بشئون أخوانه المسلمين ، وتحسسه لمشاكلهم ، وشعوره بآلامهم ، كأسرة واحدة إذا اشتكى منها عضو سارعت بقية الأعضاء إلى نجدتها .

٣ - الحث على أعمال البر ابتغاء وجه الله :

من سماحة هذا الدين ويسره أن جعل الله أبواب الخير فيه واسعة ومتعددة، وكل عمل يمارسه المسلم وهو يبتغي به رضا الله يعد من قبيل العبادة المفروضة ، قال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون** ﴾[٦] .

هذه الآيات كلها تحث المسلم على أعمال البر ، والتي عبر عنها القرآن بالخير والحسنة والأعمال الصالحة .. فإن المسلم إذا عمل عملاً دون العبادة المفروضة وهو يبتغي بذلك وجه الله تعالى فإن الله لن يذهب جهده سدى ، بل

---

١ الآية ٧ من سورة الزلزلة
٢ الآية ٢٠ من سورة المزمل
٣ الآية ٨٩ من سورة النمل
٤ الآية ٢٧٢ من سورة البقرة
٥ الآية ١٠٤ من سورة آل عمران
٦ الآية ٩٤ من سورة الأنبياء

وربما تكون أعمال البر ما دون العبادات جوابر ومكملات لما فرط فيه أثناء تأديته للعبادة المفروضة ، لأن أعمال البر في الإسلام من قبيل التقرب إلى الله كالتطوع بالنوافل مثلاً ، وهذه لها شأن عظيم عند الله سبحانه وتعالى ، وهي مما يتميز به المسلم بين أجناس البشر التي لا تدرك سر التعاطف البشري والتكافل الإنساني إلا من خلال المادة والمصلحة والمكافأة بالمثل في العاجلة قبل الآجلة ، لكن المسلم هيأ الله نفسه أن تؤثر ما عند الله من الثواب العظيم على ما في الدنيا من متاع ولو بلغ مثل زبد البحر ، فإن المؤمن على يقين تام بأن هذا المتاع زائل لا محالة ، ولا يبقى إلا وجه الله تعالى ، وهو الذي يثيب على العمل الصالح مهما كان قليلاً بالأجر الكبير .

والمؤمن يدرك أنه فرد في المجتمع الإسلامي الكبير ، كلف أن يكون حريصًا على مصلحة هذا المجتمع مهتمًا بمشاكله ، مشاركًا له في مسراته وأحزانه ، لأنه عضو فيه يسره ما يسره ويضره ما يضره ، لا سيما وأن أفراد هذا المجتمع مع بعضهم البعض إما أن يكونوا أقارب وأرحامًا ، وإما أن يكونوا جيرانًا ، وإما أن يكونوا أباعد وأخلاء .. جمع الله بينهم بهذا الدين ، فأصبحوا أخوانا رغم بعد المسافات والأقطار ، وجعل الله لبعضهم حقوقًا على بعض ، أمرهم بمراعاتها باعتبارها علامة من العلامات الدالة على إيمان المرء بالله وبيوم الحساب الذي سوف يقفه المرء بين يدي الله سبحانه وتعالى .. لذلك لا غرو أن نجد الدين الإسلامي يحض أتباعه على أعمال البر والخير ، فإنها من تعاليم الدين وأساسياته، بها يكتمل إيمان المسلم وتقبل عبادته ، ويفوز بما أعده له ربه من جزاء يوم القيامة .

وقد جاءت السنة لتترجم هذه المعاني إلى تطبيقات عملية محسوسة وفعالة ، لتبين السلوك الذي ينبغي أن يقوم بين أفراد المجتمع المسلم ، فحثت على صلة الرحم ، وأوصت بالاهتمام نحو الجار ، وبالغت في إكرام الضيف ، ووجهت نحو الاهتمام بالمعوقين في المجتمع الإسلامي كالأيتام والأرامل والمسنين ، كما حضت على الاهتمام بحق الكبير من احترام وتوقير ، بل وقد بالغت الشريعة الإسلامية

في الاهتمام بالمرأة باعتبارها شقيقة الرجل وعضو فعال في المجتمع الإسلامي ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على التكافل الاجتماعي والرعاية الإنسانية التي أقرها الدين الإسلامي بين أتباعه وعموم البشر في أرجاء المعمورة ، وقد زخرت السنة المطهرة بهذه التوصيات والتوجيهات القيمة ، فقد جاء في الحديث عن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه** »[1] ، وعنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت** »[2] ، وعنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** » وقرن بأصبعه السبابة والوسطى [3]، وعن صفوان بن سليم مرفوعًا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل** »[4] ، وعن أبي أهريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه** »[5] .

بل وقد ذهبت الشريعة الإسلامية إلى أبعد من ذلك ، فأثبتت للمسلم حقًا على أخيه المسلم في كل حال من أحواله الحياتية ، فإذا أصابه خير وجبت تهنئته، وإن أصابه مكروه وجبت مواساته ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **حق المسلم على المسلم خمس** » قيل : وما هي ؟ قال : « **إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا**

١ صحيح البخاري / كتاب الإيمان / باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه / ج ١ / ١٠

٢ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب إكرام الضيف / ج ٨ / ٣٩

٣ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب فضل من يعول يتيمًا / ج ٨ / ١٠

٤ نفس المصدر السابق / ج ٨ / ١٠

٥ نفس المصدر السابق / ج ٨ / ٣٩

مرض فعده ، وإذا مات فاصحبه »[1] .

إذن نستطيع أن نقول أن مجتمعًا يرتبط أفراده بهذه الروابط المتينة من الحب والتقدير والعون والمواساة ، كيف يوجد للخصام مجال بينهم ، فإنهم وإن اختلفوا على شيء من متاع الدنيا ، فلا تعرف العداوة طريقها إلى التفريق بينهم وهم متمسكون بهذه الخلال الفاضلة ، خاصة وأن كل واحد منهم يتذكر وهو يقدم على عمل من أعمال البر أن الله سوف يكافؤه بما لا يخطر على باله من ثواب يوم القيامة ... ولذا نجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلي منزلة السلام كوسيلة للحب والتآلف بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية بصفة خاصة ، وعلى مستوى الإنسانية بصفة عامة ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « **والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تسلموا ، ولا تسلمون حتي تحابوا ، وأفشوا السلام تحابوا، وإياكم والبغضة ، فإنها هي الحالقة ، لا أقول لكم تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين »**[2].

٤ - محاربة الرذيلة والدعوة إلى القضاء على الفساد :

إذا كان الإسلام قد بين الوسائل والسبل التي تعمل على اشاعة الخير والحب والوئام بين أفراد المجتمع الإسلامي على اعتبار أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم يجب مراعاتها والاهتمام بها .

فإنه كذلك لم يغفل عن ذكر العوامل التي تعمل على بث روح العداوة والبغضاء ، وتأجيج نار الفتنة بغية التفريق بين أفراد الأمة الإسلامية ، وجعلهم أعداء لأنفسهم بالانحرافات الفردية والذاتية من ناحية ، وأعداء لبعضهم البعض عن طريق اهمال أو تجاهل الحقوق التي تنظم المجتمع الإسلامي أفرادًا وجماعات من ناحية أخرى ، فمن خلال التحليل التاريخي للعصور التي توالت على البشرية قديمًا وحديثًا تبين أن كلما ابتعد الناس عن القيم الدينية أو تنكروا لها ازدادوا

---

١ صحيح البخاري / كتاب الجمعة / باب الجنائز / ج ٢ / ٩٠

٢ الأدب المفرد / باب التحاب / ص ١١٦

وقوعًا في الفساد.. وأن كلما أهملوا العبادات المكلفين بالقيام بها ازدادوا قربًا للشيطان والسير في خطواته .. وأن كلما ابتعدوا عن تطبيق أحكام الشرائع السماوية ازدادوا ظلمًا وعدوانًا على بعضهم البعض ..

ولما كانت البشرية قد مرت بتغيرات تاريخية عاشت فيها تحت حماية الأديان السماوية ، وبقيادة الأنبياء والرسل الذين تعاقبوا على هذه الأرض .. فإن تلك الفترات قد اعتبرت نماذج فذة من التقوى والإخلاص والصلاح والإصلاح ، حتى إذا انحرف الناس عن استقامة الأديان، ومالوا إلى الابتداع - كما رأينا في حديثنا عن البشرية قبل الإسلام الآنف الذكر - بما اخترعه الناس من أديان ، وما شرع طواغيت الأرض من سنن وقوانين مزيفة استحلوا بها محارم الله ، فعاثوا في الأرض فسادًا حتى وصلت بهم البشرية إلى الحضيض من المستوى الفكري والإلحاد الديني .

فتدارك الله هذه الأحوال المضطربة للبشيرية بخاتم الأديان والرسل، برسول الإسلام العظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - بعث رحمة للعباد ، وقاضيًا على الشر والفساد، بما جاء به من تعليمات وقيم غيرت وجه الأرض بما عليها من حركة ، وحتى إذا تلقت الأرض تعاليم السماء اهتزت وربت ، فزلزلت أقدام الفاسدين ، وابتلعتهم إلى بطنها بمشيئة الله وقدرته ، وثبتت أقدام الصالحين ، فنهضوا بحياة الأمة الإسلامية أخوة متحابين تحت ظلال هذا الدين الحنيف .

من هنا نصت تعاليم هذا الدين على محاربة الرذيلة ، والقضاء عليها في عقر دارها، باعتبارها من عوامل الهدم في البناء الاجتماعي المتعاون المتحاب ، ولأن تفشي الرذيلة في المجتمع يعني فتح باب الفتنة والخلاف .

لذلك عمل الإسلام على سد هذا الباب بما أقره من نواهي ومحرمات ، لا يصلح إيمان المرء إلا باجتنابها والتخلي عنها .. مثال ذلك تحريم الغيبة والنميمة ، لما لها من أثر على العلاقات الاجتماعية ..

قال تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل**

لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ﴾[1] .

فهنا تصوير مقزز وأسلوب منفر ، لمن يتعاطى هذه العادة السيئة ، لأنها مما يخالف ما دعا إليه الإسلام وقرره من مبدأ الأخوة الإيمانية ، والمحافظة على أعراض المسلمين وأسرارهم ، فمن اغتاب أخاه المسلم كأنما نهش في لحمه وهو ميت ، ناهيك عما يتركه هذا الفعل من فرقة وخلاف بينهما وهما في الحياة .

كذلك تحريم الربا ، فإنه من أكل أموال الناس بالباطل ، فإن المال الذي يتعامل به الناس بقدر ما هو ضروري في الحياة الدنيا ، بقدر ما هو وسيلة فوز ونجاح في الدار الآخرة إن أحسن استغلاله وجمعه وانفاقه .. وحين تخرج حدود التعامل بهذا المال عن النظام الذي حددته الشريعة الإسلامية وجعلته يسير وفق قيم ومعايير من التعاون والتعاطف والتواد والتراحم والإيثار والإحسان وسد العوز لحاجة المسلمين فيما بين بعضهم البعض باعتبارها معايير التأكيد على الأخوة الإيمانية في المجتمع الإسلامي ، ينقلب الحال إلى تعسف وفوضى لا حدود لها .

لذلك فإن هذا النظام قد جاء وسطًا بين الملكية الفردية وحقوق الجماعة ، فلم يكن اقطاعيًا يعزز التملك الفردي على حساب الفقراء والمحتاجين ، ولم يكن شيوعيًا يذيب شخصية الفرد ، ويحرمه مما شرع له في هذا المال من تملك وثراء إذا كان بالوسائل المحلة لجمعه وانفاقه ، فللمرء أن يحب المال ويسعى إلى جمعه ، ولكن ليس له أن يجمعه من حرام أو ينفقه في حرام ، أو يمنع فيه حقوق من كلفه الله ردها عليهم .. فإن المسلم إذا سلك هذا السلوك أصبح ينفع نفسه بهذا المال ، وينفع إخوانه المسلمين ، فيزول الحقد والحسد من القلوب ، ويذهب الشح والبخل من النفوس، ويخيم الصفاء والود والرخاء في المجتمع الإسلامي.

كما حرم الإسلام الخمر والميسر (القمار) لما لهما من آثار سيئة على مروءة الشخص ودينه ومجتمعه ، اضافة إلى أضرارهما المادية من حيث الإسراف والتبذير ، ففي الخمر مثلاً بجانب تضييع المال ، ترك العبادة المطلوبة من المسلم ،

---

١ الآية ١٢ من سورة الحجرات

والمتصلة بذكر الله الذي يغفل عنه المسلم ساعة شربه الخمر ..

كما أن شارب الخمر قد يقع في أعراض الناس بطريق الاعتداء تارة ، والقذف تارة أخرى ، وذلك نتيجة سكره وغياب حواسه عن الوعي ، وهذا يترك آثارًا سيئة على علاقته بأفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، فكثيرًا ما تحدث الخلافات العائلية في بيوت السكاري والمتعاطين للمخدرات ، وبالتالي فإنهم مشهورون بين الناس بفسقهم وفجورهم وقلة هيبتهم واحتقارهم ..

أما الذين يتعاطون القمار فهؤلاء أكبر قبحًا من الذين قبلهم ، وآثارهم أكثر اساءة إلى المجتمع من حيث أكل أموال الناس بالباطل ، والدعوة إلى اللصوصية والسرقة ، فكم من مائدة خمر وقمار أورثت أصحابها الحسرة مدى الحياة ، يقول تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾[2] .

وقد حرم الإسلام الزنا لما فيه من تقطيع أواصر القرابة والنسب ، ولما فيه من تلويث للنسل وتدنيس للعرض ، واعتبره جريمة اجتماعية وفاحشة عظيمة ، ومرتكبها قارف ذنبًا عظيمًا ، نا سب أن تكون عقوبته أعظم وأشد ، لأنه هتك للحرمات ، ولا ينشأ عنه إلا مجتمع مقطوع الروابط ، ليس لأفراده أصول شرعية ، ولا علائق رحم ولا قرابة .. ولذلك لم يقتصر التحريم على اقتراف الذنب فحسب ، ولكن تعدى التحريم إلى القرب من مثيراته ودوافعه لئلا تكون مسوغًا للوقوع فيه .

قال تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من**

١ الآية ٢١٩ من سورة البقرة

٢ الآية ٩١ من سورة المائدة

٣ الآية ٣٢ من سورة الإسراء

المؤمنين ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾**[2].

وتبعًا لذلك فقد حرم الإسلام فاحشة اللواط ، لتعلقها بالسلوك المنحرف الذي تجاوز به من اعتاد هذه الفاحشة حدود الاعتدال الطبيعي لعالم الغريزة والشهوة ، قال تعالى : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾**[3] .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط** »[4] .

وهكذا الأمر في جريمة القتل والسرقة وما شابهها من جرائم الحدود والجنايات ، فكلها تؤدي إلى فساد في الأخلاق ، وانحراف في السلوك ، وحينما تفشت بين الأمم والشعوب أردتهم إلى الهلاك والدمار .

لهذا فإن من مقاصد الشريعة الإسلامية القضاء على روح العداوة الناتجة عن الخلافات التي من أسبابها هذه المفاسد والسلوكيات المنحرفة، ولأن من مبادئ الشريعة الإسلامية كذلك الدعوة إلى العدل والإحسان ، وهذا يقود الأمة إلى الخير والمحبة ، والابتعاد عن الفواحش التي تسوق المسلمين إلى مهاوي الرذيلة ، ومنعطفات الفرقة والشقاق ، قال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾**[5] .

وقد عبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن هذه المفاسد بالموبقات والمهلكات لحركة الشعوب والأمم ، فقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ ، قال :

١ الآية ٢ من سورة النور

٢ الآية ٣ من سورة النور

٣ الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ من سورة الشعراء

٤ سنن ابن ماجه / كتاب الحدود / باب من عمل عمل قوم لوط / ج ٢ / ٨٥٦

٥ الآية ٩٠ من سورة النحل

«الشرك بالله ، والسحر ،وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[1] .

فهل نؤوب إلى حظيرة الإسلام الصحيح ، ونترك الشجار والخلاف الذي لا يخلف وراءه إلا الهلاك والدمار ؟ ، وهل نسعى إلى تنقية مجتمعنا المسلم من هذه الرذائل والمفاسد بالإقبال على الله والعمل الصالح ، وإخلاص النية وحسن الخلق، والتعاون على البر والتقوى ، فإن ذلك خير .. وخير الزاد التقوى .

٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكمة من مشروعيتهما :

إن رباط العقيدة وأخوة الإيمان هما الأصل والأساس الذي يجتمع حوله المسلمون ويتصلون من خلاله ببعضهم البعض ، وهو النسب الذي يوثق عرى العلاقة بينهم إذا اختلفت الألسن والألوان وتباينت الأمزجة والطباع ، فالمؤمنون حيال هذا الأمر غايتهم واحدة ، لا يدخل معهم في هذه الأخوة إلا من كان مسلمًا، ولا يجب أن يحافظ عليه أو يحرص على بقائه إلا هذه الأخوة العقيدية والإيمانية .. ذلك هو شأن المؤمن مع أخيه المؤمن إن أحبه لا يحبه إلا لله وإن أبغضه لا يبغضه إلا لله ، بعيدًا عن مآرب الدنيا أو علاقة القربى . وحين يكون هذا شأن المؤمن مع أخيه المؤمن ، إذن لا بد والأمر كذلك أن تكون جماعة المسلمين في وضع الفرد الواحد لا يكون همه في الدنيا إلا تحقيق ما خلقه الله من أجله من العبادة ، والاستقامة على منهجه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يكون من الفائزين برضاء الله وجنته في الآخرة ، كما يحب أن يكون حسن الهيئة والمنظر معًا في البدن والحواس ، مستقيم الطريقة والمنهج ، سوي السلوك والأخلاق ، نقي السريرة والمظهر ، خالص النية والعمل لله رب العالمين .

هذا ما يجب أن يكون عليه المؤمن في الدنيا ، وإن كانت هذه التطلعات شخصية بحتة تتصل بالذات الإنسانية بطريق مباشرة ، إلا أن الإسلام قد هذبها ،

---

١ صحيح البخاري / كتاب الوصايا / باب قول الله تعالى : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا » / ج ٤ / ١٢

ووسع مفهومها وأعلى غاياتها ومراميها ، فجعلها تخرج من حدود اهتمام المسلم بنفسه إلى اهتمامه بمن يعيشون حوله من إخوانه المسلمين ، بل وجعل الاهتمام بأمر الغير جزءاً من الإيمان بالله ، تأكيدًا لرباط العقيدة وأخوة الإيمان ، بحيث لا تتحقق هذه العقيدة وتلك الأخوة إلا إذا فكر واهتم المسلم بأمر أخيه المسلم ، كما يهتم بأمره هو شخصيًا ، لأن المؤمنين في الإسلام أولياء أمور بعضهم البعض ولاية عامة ، وبحكم هذه الولاية ينبغي على كل مسلم أن يدفع عن أخيه الأذى كما يدفعه عن نفسه ، كما يتمنى لأخيه الخير الذي يتمناه لنفسه ، وهذا الواجب يسميه الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾[2] .

ونلحظ في هذين النصين أن الولاية والخيرية المرجوة في هذه الأمة لا تتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا لا يعني أن هناك إذابة للحرية الشخصية في الإسلام ، كلا .. ولكن المجتمع الإسلامي أشبه بخلية نحل ، لا يتكون الخير فيه إلا بتعاون الجميع ، كما أنه لا يتطرق إليه الفساد ولا يتقاعس أفراده عن العمل إلا بإخلال أحدهم عما أنيط به من واجب .

لذلك فإن الفرد المسلم في الوسط الاجتماعي بقدر ما هو حر التصرف إلا أنه يشعر بالارتياح إذا كانت تصرفاته مرضية ومرغوب فيها ، كما أنه في غاية من الإنزعاج والاضطراب إذا ساءه شيء من تصرفه ، وإذا كانت هذه نظرة انتقاد ومحاسبة للمسلم عن نفسه ، فمن باب أولى أن ينقد غيره ، ويحاسب الآخرين على تصرفاتهم باعتبار أن هذا من أوامر دينه وسعادة دنياه وآخرته ، وكأن هذا الانتقاد بمثابة الوقاية التي تكسب الجسم مناعة ضد الاصابة بالأمراض المستعصية والأوبئة المعدية ، وهذه هي الغاية والحكمة من مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، جعلها الله وقاية للأمة الإسلامية من أن تتسرب إليها بذور

---

١ الآية ٧١ من سورة التوبة

٢ الآية ١١٠ من سورة آل عمران

الفساد بطريق الانحرافات الفردية المؤدية إلى السلوكيات المعوجة .

لهذا أحاط الدين الإسلامي أتباعه بسور منيع من الحماية والرعاية والمسئولية الفردية والجماعية ، ذلك السور يتمثل في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي يعتمد على عاملين رئيسيين وهما : الشعور الداخلي للنفس ، وما ينتاب الضمير من إقبال وإدبار حول التصرف الشخصي ، ومراد الشرع من حيث الفعل أو الترك .. أما العامل الثاني فهو القيام بالتوجيه والوعي الفردي والجماعي بالحض على الفعل الحسن والمداومة على إتيانه ، والانكار للفعل القبيح ، والاقلاع عنه بإدراك خطورته وآثاره على الفرد والمجتمع .

من أجل هذا كما قلنا شرع الإسلام مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلف بها كل مسلم حسب ما أوتي من استطاعة ورعاية ، مصداقًا لقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته** »[1] ، وقوله – عليه السلام – : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[2] .

وهذا يعني أن هذه المهمة تعد من أكبر وسائل الإصلاح في المجتمع الإسلامي ، قد تبدو في شكلها الخارجي أنها تدخل في شئون الغير ، ولكن في حقيقتها عملية تطهير وتنقية للقلوب والنفوس من ناحية ، وللأعمال والأقوال من ناحية أخرى .. ذلك أن البناء الاجتماعي في الإسلام تتحكم فيه أسباب ومسوغات تجيز للفرد المسلم أن يكون مسئولاً عن تصرفات غيره ، تلكم المسوغات هي :

(١) التكافل الاجتماعي :

الرعاية والمسئولية في المجتمع الإسلامي موزعة بين الأفراد حسب المستويات ، ولا تسقط إلا في حالات وأسباب حددها الشرع كالسفه والمرض والجنون والقصور ، أما في الحالات العادية فإن كل فرد أنيطت به مسئولية عن غيره كمسئوليته عن نفسه ، فالكبير مسئول عن الصغير ، والأب عن أولاده ،

---

١ صحيح البخاري / كتاب الجمعة / باب الجمعة في القرى والمدن / ج ٢ / ٦

٢ صحيح مسلم / باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ج ٢ / ٢٥ / شرح الإمام النووي

والرجل عن زوجته ، والقريب عن أقاربه ، والجار عن جاره .. ثم هناك مسئولية عامة وهي مسئولية الحاكم والإمام والراعي عن رعيته .

وعلى أية حال إن كانت المسئولية عامة أو خاصة ، فإن حدودها تنتهي عند منع الشر والفساد من أن يتفشى أو يظهر بين أفراد المجتمع الإسلامي ، لأن ضرر هذا الفساد لا يؤثر على مرتكبيه ، بقدر ما تتأثر به الجماعة المسلمة ، فشارب الخمر مثلاً حين يصل إلى درجة الإسكار يخرج عن حالته السوية ، وينقلب إلى إنسان مؤذي ليس لنفسه فحسب ، ولكن لكل من يعيش معه من أهل وأولاد إلى أقارب وجيران ، وفي نفس الوقت فإن تركه بهذه الحالة ربما يعني دعوة إلى تشجيع الفاحشة وانتشار الفساد ، لهذا طلب من المسلم أن يتدخل لمنع هذا المنكر عن طريق التضامن الاجتماعي القائم بين أفراد المجتمع المسلم في أي بقعة من بقاع الإسلام .

(٢) الترابط الإنساني :

إن العلاقة بين أفراد الجنس البشري قائمة على أصل واحد وهو الإنسانية ، التي عبر عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله : « **أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب** »[١] .

هذه الإنسانية تحتم على المنتمين إليها بأن يكونوا أخوة يهتمون ببعضهم البعض تمامًا كما يهتم الشقيق بشقيقه ، فيألم الإنسان لألم أخيه الإنسان ، ويسر لسروره ، ويزداد هذا الاهتمام قوة حين تكون علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في دائرة الإسلام ، فالعلاقة هنا مزدوجة بين إنسان مسلم وأخيه الإنسان المسلم الآخر ، وبحكم هذه الرابطة الإنسانية المسلمة يحق للإنسان أن يتدخل في شئون غيره من الناس ، آمراً بالخير ناهيًا عن الشر .

(٣) الدعوة إلى الحق والسعي إلى إظهاره :

الحق يعني العدل والإنصاف والاستقامة ، وهذه معاني يسعى كل إنسان

---

١ سبق تخريجه ، راجع ص ٢٨

في الحياة أن يحققها لنفسه أولاً ، ثم يتمناها للآخرين بحكم علاقته بهم ، وعلى قدر احتياجه إليهم ، ولما كان هذا الحق متفاوتًا في الفكر الإنساني لم يجعله الله خاضعًا لحكم العقل لعدم ادراكه مطلقًا ، فتولى سبحانه وتعالى بيانه وتوضيحه عن طريق رسله وكتبه إلى الناس ، فما بلغه الرسل حق يجب أن يتبع ، وما نهوا عنه باطل يجب أن يهجر ويترك ، فمن آمن بهذا صار جنديًا للحق ، ومن خالفه صار خصمًا له ، فالمعروف في الإسلام هو دعوة إلى الخير يجب أن تنصر وتشيع، والمنكر في الإسلام هو دعوة إلى تبني الشر الذي يجب أن يمنع ويحارب، وهذا هو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام .. استقامة الطريق ونصر العدل بمنع الشر قبل وقوعه ، وإزالة الأذى قبل انتشاره، ولا يتأتى ذلك إلا بحرص كل فرد في المجتمع أن يحافظ على حياة الآخرين من أن تتعرض للشر كما يحافظ على نفسه ، وبهذا تسعد البشرية ، وتعيش في أمن وسلام .

وقد بينت السنة المطهرة أثر هذا المبدأ على الفرد والمجتمع معًا ، فقد جاء في الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « **من دل علي خير، فله مثل أجر فاعله** »[1] ، وقوله – صلى الله عليه وسلم – « **من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ومن لم يصبح ويمسي ناصحًا لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم** »[2] .

فهل نصحنا لديننا وأمتنا ؟ ، وهل قمنا بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمر ديننا ؟ ، أم أننا تركنا هذا الأمر لغيرنا ، متذرعين بأن هذه المهمة من واجب العلماء فقط ، وما نحن إلا مجتمع يسرح ويمرح ويمرغ نفسه بالفاحشة حتى إذا تراكمت عليه النكبات والخلافات فلا يستطيع لها دفعًا ولا حلاً ؟؟؟ ..

---

١ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب في الدال على الخير / ج ٤ / ٣٣٤

٢ مجمع الزوائد / باب فيمن كانت نيته وهمته للدنيا والآخرة / ج ١٠ / ٢٥٠

الفصل الثالث

وحـــــدة الأمـــــة

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية إظهار روح المحبة والتآلف ، وتوثيق الروابط والصلات بين أفراد المجتمع الإسلامي عن طريق جمع الكلمة وتوحيد الصف ، وإيثار الجماعة على التفرد والإنعزال ، وهذا لا يتم إلا بنبذ الخلاف ودفع الخصام ، والقضاء على التمزق والفرقة ، خاصة وأن الأمة الإسلامية قد توافرت لها دعائم وأسس تكفل لها استمرارية هذه الوحدة ، والعمل على تجددها ، والمحافظة عليها ، والتمسك بها كميزة خاصة لها دون سائر الأمم والشعوب .

لهذا فإن الدين الإسلامي منذ أن حكم الدنيا وهو يجسد معاني الوحدة في قلوب أتباعه ، ويترجم آثارها على الأرض تطبيقًا عمليًا يتعايش معه المسلم في كل لحظة من اللحظات في حياته ، وذلك عبر المظاهر المحسوسة التي يمارسها يوميًا خلال الشعائر العبادية والأصول العقيدية ، وكأن هذه المظاهر تذكره بأنه مهما اختلف مع أخيه المسلم أو تخاصم معه فإن أخوة العقيدة باقية بينهما ، ولا يجوز له أن يفصم عراها أو يقطع أواصرها ، وإن أقدم على ذلك فكأنما قضى على ما كان يرتجيه عند ربه من المغفرة والرضوان والفوز بالجنة في الدار الآخرة ، وذلك لعدم إخلاصه في العبادة ، ولإخلاله بشرط الأخوة التي يجب أن تقوم بينه وبين إخوانه المسلمين .

لذلك جاءت فرائض الإسلام ومبادؤه تذكر بهذه الوحدة ، وتؤكد على تحقيقها واشاعتها بين المسلمين ، على اعتبار أنها الدستور والميثاق الذي ينظم حياتهم ، وتتجدد به علاقاتهم ، كي يتذكروا ما لهم وما عليهم تجاه خالقهم وتجاه بعضهم البعض ، لذلك جاءت تعاليمه تدعو إلى الوحدة والجماعة عبر المظاهر التالية :

أولاً - وحدة الأمة الإسلامية في العقيدة :

إن المسلمين في كافة بقاع العالم وبمختلف اللغات واللهجات يرددون شعارًا واحدًا في كل يوم خمس مرات ، ذلكم الشعار هو :

« لا إله إلا الله » ، وهذا الشعار يعني إفراد الله بالعبادة بنفي الشريك والشبيه لله عز وجل ، وهذا ما يعتقد به كل مسلم غنيًا كان أو فقيرًا ، الأبيض والأسود ، والحاكم والمحكوم ، والشريف والوضيع من المسلمين ، وكأن وحدة هذا الشعار وحدة الهدف والاتجاه الذي يلتف حوله المسلمون ، وهذا يكفي أن يتذكره المسلمون في كل يوم كدرس عملي لوحدة القلوب والنفوس على طريق واحدة وغاية واحدة هي عبادة الله ، والسعي لنيل رضاه في الدنيا والآخرة .

إلى جانب ذلك فإن المسلمين في كافة أنحاء الأرض يعتقدون ويطبقون أركانًا عقيدية واحدة من الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته وباليوم الآخر والقضاء والقدر ، وهذا يعني أن وحدة المبادئ تفضي إلى اتحاد القلوب واتفاق الآمال ، مما يؤدي ذلك إلى التعاون والتراحم تحقيقًا للأخوة التي أوجدتها العقيدة الإسلامية بين المسلمين .

فإذا عرف المسلمون هذه العقيدة وما تحمله من معاني الوحدة والتجمع ، وجب عليهم أن يطبقوا أحكامها ، وأن يسيروا على منهجها ، وأن يحكموها فيما بينهم إذا ما اختلفوا أو قام بينهم شجار أو خصام ، قال تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾[٢] .

ثانيًا - وحدة الأمة في النداء القرآني :

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، أنزل ليتعبد بتلاوته ، ويتقيد بمنهجه ، فهو قانون الله في أرضه ، وهو كتاب التشريع بين عباده ، تنزلت آياته ، وهي تحمل الأمر والنهي والتوجيه والإرشاد ، وقد جاءت في غاية من الإعجاز البلاغي ،

---

١ الآية ٩٢ من سورة الأنبياء

٢ الآية ٥٢ من سورة المؤمنون

متناهية في الفصاحة والبيان في صياغتها وفي معناها وفحواها ، فالتالي لها والمتمعن في اسلوبها يشعر أن لفظ العموم في النداء الإلهي لا يوحي إلا بالوحدة والتجمع ، وكأن الله سبحانه وتعالى وهو يوجه الخطاب إلى عباده بهذا الاسلوب يريد منهم أن يكونوا متحدين متعاونين وهم يأتمرون بأمره أو ينتهون بنهية ، لكي يعلموا أن النفع وراء ما يؤمرون به فيجب أن يشمل الجميع ، وأن الضرر وراء ما ينهون عنه ليس واقعًا على فاعله فحسب ، ولكنه يمتد ليشمل الجماعة إن لم تتحد في منعه وإزالته .

هذه هي الغاية من اسلوب الجمع والعموم في الخطاب القرآني ، ليدرك المسلمون أن دينهم دين الجماعة ، ودين الرحمة والتآزر والتكاتف، وهذا يعد من أعظم الوجوه الدالة علي الوحدة بين المسلمين ، حيث أنهم في كل يوم يتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وهو يذكرهم بأن يتحدوا ويتعاونوا على الخير ، ويبتعدوا عن الشر ، فلم يأت اسلوبه قاصرًا على الفاعل وحده ، ولم يأمر فردًا بعينه بإتيان فعل الخير دون الآخرين ، ولو كان ذلك لدل على الأنانية وحب الذات ، أو اللامبالاة بفعل الغير ، سواء كان خطئًا أم صوابًا ، ولو كان كذلك أيضًا لم يحمل معنى الإعجاز ولا سر البلاغة ، وحاشا وكلا أن يكون كتاب الله في هذه المنزلة وذلك القدر ..

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، ترى أن النداء القرآني وهو يدعو إلى الخير صدر خطابه بلفظ الجماعة دون تخصيص فئة أو فرد بعينه ، وهذا يعني الغاء الدرجات والمراتب بين المسلمين ، وتثبيت مبدأ المساواة في القول والخطاب والتطبيق والعمل ، وكأنه يأمرهم بأن يتوجهوا إلى الخير جميعًا ، وأن يبتعدوا عن الشر جميعًا ، دون تفريق بين سيد أو مسود ، فنرى مثلاً في جانب الدعوة إلى الخير يرد النداء القرآني بلفظ العموم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم**

---

١ الآية ١٧٢ من سورة البقرة

كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾**[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحًا ﴾**[3] ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾**[4] .

وكذلك الأمر في جانب الدعوة إلى الابتعاد عن الشر ، أو العمل على منعه وإزالته ، فإن النداء القرآني يرد بلفظ العموم ليوجه المسلمين إلى الابتعاد عن هذا الشر جميعًا ، فيقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾**[5] ، ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾**[6] ، ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾**[7]، ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾**[8] ، ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ﴾**[9].

---

١ الآية ٢٠٨ من سورة البقرة
٢ الآية ٢٨٢ من سورة البقرة
٣ الآية ٨ من سورة التحريم
٤ الآية ٢٠٠ من سورة آل عمران
٥ الآية ٩٠ من سورة المائدة
٦ الآية ٥١ من سورة المائدة
٧ الآية ١٠١ من سورة المائدة
٨ الآية ٢ من سورة الحجرات
٩ الآية ١١ من سورة الحجرات

هذا ، والآيات في هذا الشأن كثيرة أكبر من أن تعد أو تحصى ، وما قدمناه أمثلة ونماذج لجانبي الدعوة القرآنية نحو التكافل الاجتماعي والتكامل الأخلاقي الذي يجب أن يسود الروابط والعلاقات القائمة بين أفراد المجتمع الإسلامي ، فهل بعد هذا النداء من وحدة وتعاون وحرص على الإخاء والمحبة ؟ ، وهل بعد هذا العلاج الرباني من علاج تربو فيه النفس على سخيمة الجفاء والخصام والقطيعة والهجران ، إلى حظيرة الأخوة الإيمانية المباركة ، كما دعا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ؟ .

ثالثًا - مظاهر الوحدة الإسلامية في الشعائر الدينية :

الشعائر الدينية هي تلك الفرائض والعبادات التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وكلفهم القيام بها ، طاعة له وتقربًا إليه ، واستجابة لأمره بالعبادة له ، وتحقيقًا لما خلقهم من أجله في هذه الدنيا ، لنيل ما وعدهم به في الآخرة .

فالمتأمل في هذه العبادات والحكمة من فرضيتها بهيئات مخصوصة وبمواقيت معينة وبأعداد مقدرة ، عدا ما لها من صفات مكانية وزمانية مقدسة ، يدرك أسرار العلاقة بين مضمون هذه العبادات ، وما تتركه من آثار ذات طابع تعاوني ، وكأن الهدف من إقامتها تحقيق الوحدة والتجمع والتماسك بشكل ظاهري وعلني ، بعد أن تطهر الباطن والحس الداخلي للنفس المسلمة بتأدية هذه الشعائر ، خاصة وأن هذه العبادات لم يكن وجوبها على المسلم ذا نفع أخروي فقط ، ولكن شرعت لتستقيم بها الحياة الدنيا ، وينتفع بها المسلم في دنياه قبل آخرته .

كذلك وأن هذا النفع ليس مقتصرًا على الفرد المسلم فحسب ، ولكن يمتد أثره الإيجابي ليشمل جماعة المسلمين في كل مكان دخل فيه نور الدين الإسلامي لأن معبودهم واحد ، وعبادتهم واحدة ، دينهم الإسلام ، ومعبودهم الله سبحانه وتعالى ، وعقيدتهم التوحيد ، فكيف لا يكونون متحدين ومتعاونين ومتجمعين ،

يحن بعضهم على بعض ، ويشعر بعضهم ببعض من غير عنت ولا مشقة ، ولا يدفعهم إلى ذلك إلا السعي إلى العمل الصالح الذي يحقق لهم رضا خالقهم عليهم، ذلك العمل الصالح هو ما يجتمعون عليه من خلال تأديتهم للشعائر والعبادات المفروضة ، وكأنها المستوى والوسيلة التعليمية المحسوسة التي يمرون بها على مدار الساعة لتجسيد معنى الاتفاق والوحدة في نفوسهم وأعمالهم على مستوى الباطن والظاهر ، هذه هي الغاية والحكمة من فرضية العبادات على العباد الموحدين ، والآن سنرى ما لكل عبادة على حدة من أثر في علاقتها بالوحدة الإسلامية المنشودة :

فريضة الصلاة ووحدة الأمة :

إن منزلة الصلاة في الإسلام عظيمة ، بعظم فرضيتها ، ورفعة مكانتها ، حيث أنها كانت أولى العبادات في الإسلام ، كما أنها العبادة الوحيدة التي تمت فرضيتها في السماء ، لذلك لا غرو أن يصفها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأنها عمود الإسلام ، وأنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، ويكفي أنها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بأي حال من الأحوال ، أمام هذه الأهمية البالغة في عظمة الصلاة يبرز التساؤل التالي : ما مدى تأثير الصلاة على وحدة الأمة الإسلامية ؟ وفي أي الجوانب من الصلاة تبرز هذه الوحدة ؟ .

لو تطلعنا إلى المعاني اللغوية التي تتضمنها الصلاة ، نجد أن من معانيها الصلة بين العبد وربه ، والصلة تعني العلاقة بين طرفين ، فلما كانت الصلاة هي وسيلة من وسائل الاتصال الروحي بين العبد وربه جازت أن تكون مجالا حيًا ومتكررًا لتكوين العلاقات الجماعية القائمة على الود والمحبة في الله ولله ، كذلك من معاني الصلاة أنها الدعاء الذي طلب من العبد أن يتضرع به إلى ربه بإظهار الذل والخشوع له ، وهذا ما يستوحيه المسلم من هذه الصلاة ، حين يستشعر وقوفه بين يدي ربه ، وهو يؤدي هذه الفريضة ليستمد منها تجديد العهد والإيمان مع ربه، وليؤدي حقوقه وحقوق العباد ، كما أمر وشرع ، وليبدأ حياته اليومية

مليئة بالنشاط والتعاون مع إخوانه المسلمين فيما ينفع نفسه وأمته ووطنه .

وأما إذا تمعنا في المعاني الشرعية للصلاة ، فإننا نجد أن لها تأثيرًا عظيمًا على وحدة الأمة الإسلامية من خلال هيئاتها التي تؤدى بها ، وأنواعها التي تنتهي إليها .

فأول مظهر من مظاهر الوحدة بين المسلمين استجابتهم لوحدة النداء (الآذان) لهذه الصلاة ، وكأن هذا النداء بمثابة الدعوة إلى حضور مأدبة الخير والسلام في كل مكان يوجد فيه مسلمون يستمعون إلى نداء واحد ، في وقت واحد، وفي مكان واحد ..

وقد وصف الرسول – صلى الله عليه وسلم – أهمية هذا النداء ، والمسارعة إلى تلبيته بقوله : « **لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه ، لاستهموا** »[1] .

وهنا تتجسد الوحدة بين المسلمين لاستجابتهم لهذا النداء بشكل جماعي ، وبصورة متكررة ، كلما تعاقب الليل والنهار .

وأما ثاني هذه المظاهر من وحدة المسلمين في الصلاة هو أداؤها في جماعة (صلاة الجماعة) ، فإن الحكمة من مشروعية الصلاة في الأساس أن تكون ملتقى ومؤتمرًا يدعى إليه المسلمون في كل مكان ، لذلك خير مجال يجسد هذا التجمع هو صلاة الجماعة ، والتي انتدب إليها الرجال والنساء .

ولو أمعنا النظر في كيفية أداء صلاة الجماعة ، لأدركنا الهدف المنشود من آدائها ، وهو تحقيق معنى الوحدة بالفعل والتطبيق . فصلاة الجماعة لا تتم إلا في مكان واحد وهو المسجد ، ولا تبدأ إلا بإعلان وآذان وإقامة ، ولا تنفذ إلا بإمام ومأمومين ..

وهذه الشروط هي بعينها عناصر تكوين الدولة ، كما يقول علماء الاجتماع (أرض ، وكيان ، وشعب) . فالأرض هي المسجد ، والكيان هو كتاب الله ،

---

١ صحيح البخاري / كتاب الصلاة / باب الاستهام في الآذان / ج ١ / ١٥٩

والشعب هم المسلمون . ففي صلاة الجماعة يقف المسلمون صفوفًا منتظمة متراصة ، تكسب المسلمين التعاون والتماسك مع بعضهم البعض ، كما أنهم في هذه الصفوف يقفون متساوين لا فرق بين سيد ومسود ، ولا أبيض ولا أسود ، ولا غنيًا ولا فقيرًا ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، كلهم اجتمعوا في صف واحد . وهذا ما يشعرهم بالمساواة التي يجب أن تسود العلاقة فيما بينهم ، وعدم التمايز أو التفاخر ، كذلك وقوفهم خلف إمام واحد يكسبهم روح الاتباع والاقتداء ، كما يعودهم على احترام وطاعة ولي الأمر ، والراعي لشئونهم ، طالما أنه طائع لله ورسوله .. يقول صلى الله عليه وسلم : « **إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا صلى جالسًا فصلوا جلوسًا** »[1] .

كذلك اتجاههم في الصلاة إلى وجهة واحدة (القبلة) ، وهم مجتمعون يدعوهم إلى توحيد الهدف والغاية من هذه الحياة ، وهي طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته حق العبادة بهذه الفريضة ، وعلى مثل هذه الكيفية التي تجمعهم على كلمة واحدة وصف واحد ، فكأنما صلاة الجماعة وسيلة من وسائل التربية الروحية والعملية معًا في إيثار الاتصال بالجماعة ، والمحافظة على العلاقات بينهم، ونبذ الشجار والتخاصم والمشاحنة التي لا تؤدي إلا إلى الفرقة والشتات ، وفي هذا الشأن يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو يدعو إلى تسوية صفوف الجماعة في الصلاة : « **لتسون صفوفكم ، أو ليخالفن الله بين وجوهكم** »[2] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « **سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة** »[3] .

وهذا ما يحقق معنى الجماعة والتمسك بها ، ولهذا جاء التحذير عن التخلف عنها ، وورد الترغيب في المسارعة إليها ، يقول عليه الصلاة والسلام : « **صلاة**

---

١ صحيح البخاري / كتاب الصلاة / باب إنما جعل الإمام ليؤتم به / ج ١ / ١٧٥

٢ سنن أبي داود / كتاب الصلاة / باب تسوية الصفوف / ج ١ / ١٧٨

٣ نفس المصدر السابق / ج ١ / ١٧٩

الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة »[1] والفذ: يعني الفرد .

ثم يأتي بعد ذلك معنى التكرار في فعلها خمس مرات في اليوم والليلة ، والسر في ذلك أن تكرار هذه الصلاة على اعتبار أنها عبادة تكليفية ، إلا أن من سر هذا التكرار كأن الله سبحانه وتعالى يوجه عباده المؤمنين إلى توكيد العلاقات الاجتماعية ، وتوثيق الصلات فيما بينهم من خلال هذا التكرار الذي يجمعهم ببعضهم البعض خمس مرات في اليوم والليلة ، وذلك لتجسيد معني الجماعة في قلوب المسلمين وأعمالهم ، وتجديد اللقاءات بين بعضهم البعض ، والحرص على تفقد أحوالهم ..

كأن الله أوجد بين الجماعة المسلمة حقوقًا وواجبات ، فمن حقوق المسلم على أخيه أن يهنئه في مسراته ، ويواسيه في أحزانه ومصائبه ، ويعينه في قضاء حوائجه ، فلو لم تكن مشروعية صلاة الجماعة لما عرف المسلم عن أخيه شيئًا من أحواله ، ليتسنى له مد يد العون ، ولما برزت المودة والتعاون بمعانيها السابقة ، ولأصبح كل مشغولاً في نفسه وعن نفسه ، وحيال هذا الأمر لا يتغير منكر ، ولا يؤمر بمعروف ، وحينئذ يبقى المجتمع مختزلاً للشر ، عازفًا عن الخير ، والصلاة ما شرعت إلا لعلاج هذا الفساد ، وتصحيح المسار الاجتماعي .. قال تعالى : ﴿**وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[2].

وعن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – قال : « **أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى ذلك من درنه شيء** ؟ » ، قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : « **فذلك الصلوات الخمس ، يمحوا الله بها الخطايا** »[3] .

وقد قلنا سابقًا أن الصلاة مؤتمر يجتمع فيه المسلمون ليقفوا على أحوال بعضهم البعض ، ومن هنا جاء هذا التكرار ليجدد انعقاد هذا المؤتمر ، وتبقى

---

١ صحيح البخاري / كتاب الصلاة / باب فضل صلاة الجماعة / ج ١/ ١٦٥

٢ الآية ٤٥ من سورة العنبكوت

٣ صحيح البخاري / كتاب مواقيت الصلاة / باب الصلوات الخمس كفارة / ج ١ / ١٤١

صورته التطبيقية وقراراته الإيجابية ماثلة أمام أعين المسلمين وبين أعمالهم .

ومن أجل ذلك تنوع اللقاء الجماعي في هذه الصلاة ، فمن لقاء متعدد للجماعة في مساجد الحي الواحد إلى لقاءات أكبر وأكبر في صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، لتتأكد محبتهم ومودتهم وشعورهم برعاية بعضهم البعض عن طريق التعاون في الخير وليشمل أفرادًا من غير الحي الذي يعيش فيه المسلم ليتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ **وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا** ﴾[1]..

ولا يكون التعاون إلا بالتجمع واللقاء ، واللقاء والتجمع يدعوان إلى الإصلاح والسعي بالخير لسد أبواب الفرقة والخصام .. وهنا يظهر معنى من معاني التجمع والوحدة في هذه الصلاة ، فقد تمر بالمجتمع أوقات يتعرض فيها لفتن ومصائب تدعو أفراده إلى التفكر في أحوالهم الإيمانية أولاً ، ثم النظر إلى علاقاتهم الاجتماعية وماذا تنطوي عليه من أقوال وأعمال ، وخروجًا من هذه المآزق فقد جعل لهم الله ما يسري عن أحزانهم ، ويفرج عن ما هم فيه من نكبات ، وذلك من خلال الصلاة التي وصفها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن فيها راحة للنفس ، ونورًا للوجه ، وصبرًا على الملمات ، لذلك شرعت للمسلمين صلوات مرتبطة بأسباب لا يؤدونها إلا في جماعة ، ليكونوا متحدين في نواياهم وأعمالهم ، من هذه الصلوات صلاة الكسوف ، والخسوف ، وصلاة الجنازة ، وصلاة التراويح ، وصلاة الاستسقاء ، وغيرها من صلوات التطوع ، التي تجسد معنى الجماعة والوحدة لصفوف المسلمين وعلاقاتهم [2] .

فهل أدرك المسلمون سر هذه الصلاة ، وأهمية فرضيتها ؟ ، وهل أقدموا على تأديتها على الوجه المشروع إذا أرادوا السعادة والقوة والتعاون والوحدة ، متذكرين قول الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[3] .

---

١ الآية ١٣ من سورة الحجرات

٢ من حكم الشريعة وأسرارها / ص ٥٤

٣ الآية ٤٥ من سورة البقرة

فرضية الزكاة ووحدة المسلمين :

إن من نعم الله المتوالية على عباده نعمة المال ، ليبتليهم بالانفاق ، ويمتحنهم بالشكر والثناء ، فمن أخذ هذا المال بسخاء ، ودفعه بسخاء بورك له في ماله ، ومن جمع المال بدافع الحب والتملك والاكتناز فلا يزداد إلا فقرًا واحتياجًا ، قال تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردى** ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ **الذي جمع مالاً وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة** ﴾[2] .

لذا حث الإسلام على العطاء والبذل ، وإظهار الكرم والسخاء ، وجعله من طبائع النفس المسلمة ، ومن أصول العادات الحسنة ، وكره إليها البخل والتقتير ، ونهاها عن قبض اليد مع اليسار والفضل .. ومن جانب آخر جعل هذه النفس في عزة وعفاف ، تأنف الذل وتأبى أن تكون أسيرة للمسألة والاستجداء ، ولو كانت من هذا المال في عدم وإعسار .

ولما كانت النفس الإنسانية مجبولة على حب المال وجمعه واقتنائه ، كان لا بد أن يصاحب هذا الاقتناء شيء من الحرص على المحافظة على هذا المال وعدم تبديده ، بل وانفاقه حتى ولو كان علي جامعه ، مما يتولد عن ذلك صفة البخل والشح ، والتي حذر منها القرآن والسنة النبوية الشريفة ، لما يكون وراء ذلك من التقاطع والتدابر ، وحمل المسلمين على قتال بعضهم البعض .

كل ذلك أدركه الإسلام ، وهو يعمل على بناء الشخصية الإسلامية ، بألا تكون أسيرة لهذا المال ، فيدفعها الحب له إلى درجة العبادة ، كذلك عليها ألا تكون ذليلة وهي تلهث وراء جمعه عن طريق الاستجداء والتسول ، إذا ما أرادت أن تحصل على لقمة العيش ، وحتى لا يكون هذا المال غاية المسلم ولا مبلغ علمه في

١ الآيات من ٥ – ١١ من سورة الليل

٢ الآيات من ٢ – ٤ من سورة الهمزة

الحياة ، وإنما المال بالنسبة له وسيلة للوصول إلى غاية ، وهي رضا الله تعالى والفوز بالجنة في الدار الآخرة، لذلك شرع الله الزكاة كعبادة تكليفية لتتربى النفس المسلمة على حب الإنفاق والبذل والعطاء ، كي يكون المسلم كريمًا سخيًا ، ولكي يمحو عنه حب الدنيا واستيلاء المال على عقيدته وعواطفه ، ولكي يكون هذا المال خادمًا له وليس مخدومًا ، ووسيلة نفع للمسلمين جميعًا .

لهذا جاءت مشروعية الزكاة لتعالج ما قد يعلق بالنفس من طغيان المادة عليها ، بتطهيرها من البخل والشح ، وتزكية هذا المال وتكثيره بالانفاق منه والتعامل به في ما أحله الله ، ثم حثه على الصدقة أنى استطاع إلى ذلك سبيلاً ، حتى يساهم مع إخوانه المسلمين في القضاء على الفقر ، وسد حاجة المعوزين ، بما يفضل لديه من مال على من لا مال له . قال تعالى : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيمًا ذا مقربة * أو مسكينًا ذا متربة** ﴾[4] .

ويلاحظ في هذه النصوص أنها كلها تدعو إلى الإنفاق ، وتقديم يد العون والمساعدة للطبقة المحتاجة في المجتمع ، لإشعارها أن هناك من يرعاها ويحس بإحساسها ، ويعمل على سد حاجتها دونما حاجة إلى أن تبادر بالسؤال أو تلح فيه .

---

١ الآية ٢٢ من سورة النور

٢ الآية ١٧٧ من سورة البقرة

٣ الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الإنسان

٤ الآيات من ١١ – ١٦ من سورة البلد

ومن هنا فإن فريضة الزكاة تعتبر مظهرًا من مظاهر وحدة الأمة الإسلامية في ميدان التكافل الاجتماعي الداعى إلى إظهار المحبة والتراحم والتواد بين أفراد المجتمع المسلم .. فالزكاة وسيلة تأليف وتجميع لقلوب المسلمين وتحبيب لنفوسهم ، فليس المؤمن بمناع للخير ، ولا ضياع للحقوق ، ولكن المؤمن محسن مفضال ، وخاصة إذا كان ذا مال وغنى يحسن به على الفقير المحتاج ، ليكثر ماله ، ويكسب حب أخيه المسلم ودعاءه الصالح .

فإن الفقير إذا علم أن أخاه الغني يهتم به ، ويصرف شيئًا من ماله لمواساته والإحسان إليه ، ابتهل إلى الله بأن يتم نعمته على من أعانه وسد حاجته ، وأن يبارك له في ماله ويمنع عنه الحسد والتلف ، وهذا ما يسر الغني ويفرحه ، ويزيد من عطائه ونفعه ، وبذلك تنتصر المحبة والتألف على الأثرة والأنانية والفرقة ، ويبقى للمال معناه السامي وهو نفع المؤمنين وسد حوائجهم ، ووسيلة المحبة والسلام بين أفراد المجتمع [1] .

فهل أدرك المسلمون سر هذه الفضيلة ؟ ، وهل قاموا بأدائها كما فرضها الله وحدد نصابها ومستحقيها ؟ ، وهل استعانوا بها على وحدتهم وتجمعهم ، وإظهار المحبة فيما بينهم ؟ ..

فريضة الصيام والتكافل الاجتماعي :

فريضة الصيام شرعت على الأمة الإسلامية كما شرعت على الأمم الأخرى، قال الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[2] .

والمتمعن في هذه الفريضة تتكشف له أسرار وغايات في حكمة مشروعيتها ، من هذه الغايات أنها وقاية للمسلم من الوقوع في الآثام والذنوب ، فحين يشرع المسلم في فريضة الصوم فإنه يعلم أنه يؤدي عبادة افترضها الله عليه ، وجعل لها

---

١ فقه الزكاة / ج ٢ / ٨٦٦

٢ الآية ١٨٣ من سورة البقرة

حدودًا وقواعد يجب ألا يتعداها الصائم حتى لا يعرض صومه إلى البطلان ، فلا يحصل إلا على التعب والجوع ، فمن كان صائمًا لا يجوز له أن يغتاب أو ينم على أخيه المسلم ، كما لا يجوز له أن يسب أو يفسق في نهاره وهو صائم .

كما أن من آداب الصوم أن لا يرد على من يتعرض له بالأذى بالمثل ، فإن ذلك يمحو الأجر والثواب الذي ينتظره الصائم من هذه العبادة ، يقول – عليه السلام – : « **الصيام جنة ، إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، فإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم** »[1] .

فإذا حافظ المسلم على أداء هذه العبادة بكف أذاه عن أخيه المسلم ، وبادله بالحسنى والخلق الطيب ، تقاربت القلوب وتحابت النفوس ، وقلت الخصومات والشحناء بين المسلمين .

كذلك من أسرار الصوم أنه عامل من عوامل التكافل الاجتماعي الذي أوجده الإسلام بين أتباعه ، ولكن هذا العامل جعله الله في فريضة الصوم متجددًا ومستمرًا ، فالمسلم يمر بهذه الفريضة مرة كل سنة ، بجانب ذلك فإن هناك مجالات كثيرة لصيام التطوع على مدار السنة ، وهذا يعد بمثابة الدرس العملي الذي يتلقاه المسلم بصفة دائمة خلال سنين حياته ليحس بالمعاناة التي يشعر بها من حُرم نعمة العيش ربما بالأيام والأسابيع ، وربما بالسنوات والشهور ، ليعيش حياته في بؤس وشقاء ، وغيره قد أنعم الله عليه بنعمة المال ووجود الطعام ، وهنا أفلا يحسن بمن كان غارقًا في الشبع أن يتذكر من كان جائعًا ومعدمًا ؟ .

وأنى يتذكر المسلم أخاه المسلم الجائع لولا فريضة الصيام التي يمر بها كل مسلم غنيًا كان أو فقيرًا ليحس هذا الغني بما يعانيه الفقير والجائع ، فيعطف عليه، ويبذل ما في وسعه لإنقاذ أرواح تكاد تموت جوعًا ، وأهل الفضل والغنى في لهو وغفله ، وليس لهم أن يتذكروا إلا من خلال مرورهم بهذه الفريضة العظيمة ، ومقاساة ألم الجوع والعطش والحرمان ، مما منعوا عنه أثناء صيامهم ، وحين يبرز هذا الشعور عند كل مسلم صائم يكون مدعاة إلى التماسك والتواد

---

١ سنن أبي داود / كتاب الصوم / باب الغيبة للصائم / ج ٢ / ٣٠٧

والتراحم، وهذه هي عوامل الوحدة والاتحاد بين المسلمين .

كذلك أن من أسرار هذه الفريضة أنها عامل من عوامل إدخال السرور على الفقراء ومواساتهم لئلا يشعروا أنهم طبقة منبوذة في المجتمع ، يجب أن تحتقر ، ويجب أن تبقى فقيرة إلى الأبد ، وهذا ما لا يرضاه الله ورسوله . بل أن الشريعة الإسلامية قد جعلت الثواب العظيم لمن يتسابق في فعل الخير وعمل البر ابتغاء وجه الله تعالى .

فالمسلم الصائم جعل الله له يومًا يفرح فيه هو وإخوانه ، ويظهر في ذلك اليوم آثار الشكر والثناء على النعمة التي أولاها الله له ، وقد جاء هذا اليوم في نهاية فريضة الصيام ، ليفرح بالجائزة التي سعى لنيلها شهرًا كاملاً ، وهو منقطع في عبادة الله بفريضة الصيام ، فحق له أن يفرح ، وأن يكون مسرورًا في هذا اليوم ، وسمي هذا اليوم عيدًا للمسلمين يجب أن يفرحوا فيه .

ولكن من العدالة أن تعم هذه الفرحة جميع فئات المجتمع الإسلامي ، وأن يظهر السرور وآثار النعمة على كل وجه ، وفي كل بيت مسلم ، لذلك فرض الله ورسوله زكاة في نهاية شهر رمضان ليعود بها الغني على الفقير ، ويدخل بها السرور على هذه الفئة لتشارك المجتمع في أفراحه ، ولكي تكون مسرورة وطيبة النفس ، ولئلا تظهر بمظهر لا يتناسب مع الفرحِ والزينة ، ولئلا يؤدي بها بؤسها أن لا تكون شاكرة لربها على نعمة الصيام .

فلذلك جاءت زكاة الفطر لتعالج أمر الفقير ، بجانب عوامل كثيرة كزكاة المال، والصدقة الجارية والمتكررة على مدار العام ، وهذا يعد مظهرًا من مظاهر الوحدة بين المسلمين ، يدعو إلى التماسك والمحافظة على الروابط الأخوية في العقيدة والإنسانية . ولهذا الاعتقاد فرضت زكاة الفطر كما هو وارد في الحديث عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (فرض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – زكاة الفطر ، طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمسكين) [1] ، وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : (فرض رسول الله – صلى الله عليه

١ سنن أبي داود / كتاب الزكاة / باب زكاة الفطر / ج ٢ / ١١١

وسلم – زكاة الفطر وقال اغنوهم في هذا اليوم)[١] .. ويعني بذلك الفقراء والمساكين ، بأن لا يتعرضوا للسؤال والاستجداء ، بمد أيديهم مظهرين آثار الذل والبؤس في يوم لا يتناسب مع هذا المظهر ، لذلك أمر المسلمون بأن يسارعوا إلى الوقوف بجانب إخوانهم المساكين ، وأن يبادروا بأنفسهم بسد حاجة إخوانهم قبل أن تمتد أيديهم بالسؤال في يوم الفرحة والسرور .

بجانب هذا كله تعد فريضة الصوم مبدأ من مبادئ الوحدة ، كما أنها مظهر من مظاهر الاتحاد والاتفاق بين المسلمين في كافة أقطار الأرض، هذا المبدأ هو اجتماعهم على صيام الفريضة في شهر معين في السنة ، ألا وهو شهر رمضان المبارك ، لو ترك صيام هذا الشهر من غير تبيين لكثر الاختلاف ولتفرقت أمة الإسلام إلى فرق وأحزاب ، ولكثر النزاع والخصام ، وربما يصل إلى حد القتال ، وهنا تكثر الفتن وربما يتطرق إلى أصول الشريعة وأحكامها ، وتتعطل مصالح العباد ، وهذا ما كفى الله المؤمنين شره ، بتحديد فريضة الصيام في شهر معين في السنة ، ليكون للمسلمين مظهر وحدة واتفاق بعيدًا عن الخلاف والشقاق ، فيصومون شهرًا واحدًا في السنة ، لا يجوز لهم أن يقدموه أو يؤخروه .. وهذا من فضل الله ونعمته على عباده الموحدين ، ليربيهم على جمع الكلمة ، وتوحيد الصف للوقوف في وجه الخلاف ودفعه بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمحافظة على أداء التكاليف الشرعية بنية خالصة وطريقة صحيحة[٢] .

فريضة الحج ووحدة الأمة الإسلامية :

شرع الله في الحج منافع اجتماعية واقتصادية ، بجانب المنافع الدينية التي تعود على المسلم بالثواب العظيم في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ **وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج**

---

١ أخرجه الدار قطني في السنن / كتاب زكاة الفطر / باب رقم ٦٧ / ج ٢/ ١٥٣

٢ من حكم الشريعة وأسرارها / ص ١٥٤

عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ﴾[1].

فكأنما جعل الله فريضة الحج بمثابة المؤتمر السنوي الأكبر الذي يجتمع فيه المسلمون من شتى أقطار العالم ، لتتجسد فيهم روح الأخوة الإيمانية ، ولتتلاشى بينهم فوارق اللون والجنس واللغة ، وبهذا الجمع العظيم يحصل التعارف بين عباد الله ، وتتوثق الصلات والعلاقات فيما بينهم ، مما يكون له الأثر العظيم في الاطلاع على أحوالهم الدينية والدنيوية ، والمساهمة في حل مشكلاتهم الاجتماعية والسياسية ، اضافة إلى التعرف على خبرات بلادهم والعمل على تداولها تجاريًا لرفع مستوى اقتصادهم الإسلامي ، وحمايته من الانهيار والتزعزع ، ولجعله يشمل ربوع البلاد الإسلامية وشعوبها خاصة الفقيرة منها .

وقد جعل الله في عبادة الحج مواقف ظاهرة وعملية تعين المسلمين على تفكيرهم في الاجتماع والاتحاد ليكونوا أمة واحدة لا تفصلها حدود مصطنعة ولا مقاييس مزيفة ، تلكم المواقف تتبين من خلال وحدة المناسك المشتملة عليها فريضة الحج ..

وأولى هذه المناسك تجمع الحجاج المسلمين من كل بقاع العالم في بيت الله الحرام بمكة المكرمة حول الكعبة المشرفة ..

وثاني هذه المناسك وحدة الزي (الإحرام) ، فلا يؤدي المسلمون شعائر الحج إلا وهم متساوون بزي واحد (إزار ورداء) على اختلاف مراكزهم الاجتماعية والسياسية ، ورغم تفاوتهم في المكانة الاقتصادية والمعيشية إلا أنهم لا يظهرون في هذه المناسك إلا بلباس واحد تضاءل في القيمة وعظم في المعنى ..

ويأتي ثالث هذه المناسك وهو وحدة الأداء لهذه المناسك ، فلا يرى في مجتمع الحجاج من يتميز بفعل خاص به من أفعال الحج ، بل الكل تساوى في أداء هذا الفعل ، ولو فكر أن يخرج عن هذا النظام ليأتي بنظام خاص به لما جاز حجه ، ولما قبلت عبادته ، ولهذا نجد أن قريشًا لما حاولت أن تتميز بموقف خاص لها عن سائر القبائل العربية وجموع الحجاج ، وذلك حين امتنعت أن تقف بعرفة أو تفيض منها ، أنكر الله عليها ذلك ، وأمرها بأن تدخل مع الناس ، لأن ذلك

---

١ الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة الحج

مدعاة إلى الفرقة وتعطيل الغاية المتوخاة من وحدة المناسك في هذه الفريضة ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾[1] .. وكأن الله يؤكد على تجمع المسلمين ، وأدائهم لمناسك موحدة ، حتى لا تختلف قلوبهم وتتشتت كلمتهم، فيكونوا عرضة للقهر والإذلال .

ولو كان لا يوجد في مناسك الحج إلا مظهر الحجاج وهم يطوفون حول الكعبة في شكل كتلة بشرية متلاحمة ، متعددة الألوان واللغات لكفى أن يكون هذا وحده موصلاً إلى المحبة والتآلف والتواد والتراحم والتجمع على الخير ، والتعاون في الحق وعلى الحق ، فكيف وأن في كل منسك من مناسك الحج وحدة أداء ووحدة تجمع .. وهذا ما يجسد عالمية الدين وأخوة العقيدة ، حتى أن الحجاج في غمرة هذا اللقاء أمروا بأن ينسوا خلافاتهم ، بل يجب أن لا يكون بينهم جدال أو خلاف ، لأنه لا يناسب هذا الالتفاف أن تكون في ثناياه فرقة ونفاق ، قال تعالى : ﴿ **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾[2] .

فإذا كان مؤتمر الحج بهذه المثابة ، فلماذا لا تتجه إليه نفوس القادة الإسلاميين بقلوب ضارعة إلى الله ، وبنوايا خالصة لكي يفرج الله عنهم ما هم فيه من المصائب والويلات التي تجتاح أوطان العالم الإسلامي في هذه الأيام ؟ ..

وإذا كانت عبادة الحج بهذه الأهمية لماذا لا يسارع المسلمون بالمبادرة في حل خلافاتهم والقضاء على خصوماتهم ونزاعاتهم كي يعيشوا في طمأنينة وأمان، ينعمون بالود والرحمة في ظل الشعائر الدينية التي جعلها الله بمثابة السياج الواقي والوعاء الحافظ للروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلامي الكبير ؟ ..

---

١ الآيتان ١٩٨ ، ١٩٩ من سورة البقرة

٢ الآية ١٩٧ من سورة البقرة

الباب الرابع

العوامل المساعدة على الإلتزام بأدب الخصومة

من خلال العرض الذي أسلفناه عند ذكرنا للأصول والقواعد التي وضعها القرآن الكريم كأساليب ووسائل تعامل مثالية يجب أن يتقيد بها الناس فيما بينهم على اختلاف عقائدهم ، وما تبين لنا من خلال المقاصد التي أثبتها القرآن الكريم والسنة المطهرة في إرساء قواعد الآداب بشكل عام ، وأدب الخصومة بشكل خاص ، لا للمسلمين فيما بينهم فحسب ، ولكن لكل من يعيش معهم من الطوائف والدول ، باعتبارها من جواهر الدين الإسلامي ومحاسنه التي لا تقتصر ظلاله الوارفة على مساحة الأرض الإسلامية ، ولكنها تمتد لتشمل كافة المجتمعات البشرية في أرجاء المعمورة ، مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] ، فكأن لا قيم سامية إلا قيم الإسلام ، ولا مبادئ ولا أنظمة تتسع البشر وتنشر العدل والسلام سوى مبادئ الإسلام وأنظمته .

وحين ينشيء الإسلام تشريعات ، ويدعو إلى قيم ، لا بد أن يهيىء لها الطريق ويحدد لها المسار ، في الوقت الذي يعين لمن يلتزم بهذه التشريعات مردوداتها الإيجابية عبادة ومعاملة فردًا وجماعة في الدنيا والآخرة .

وإذا كان التدرج في الشريعة الإسلامية أصلاً من أصول التطبيق العملي ، فإن اليسر والسهولة ليعتبران لب المقاصد التكليفية والقيمية في هذا الدين ، يقول تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[2] ، ويقول تعالى: ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾[3] ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « **إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه** »[4] .

---

١ الآية ١٩ من سورة آل عمران

٢ الآية ١٨٥ من سورة البقرة

٣ الآية ٧٨ من سورة الحج

٤ صحيح البخاري / كتاب الريمان / باب الدين يسر / ج ١ / ١٦

فما على المسلم إذا قصد عملاً من أعمال الإسلام إلا أن يتجه إليه بنية صادقة وعزيمة أكيدة ، ولم يغفل الإسلام عن توضيح السبل التي تعين هذا المسلم على أداء ما عزم القيام به مما أمر به أو نهى عنه طلبًا لرضا الله ، وتحقيقًا لنشر الفضيلة على الأرض التي يعيش عليها .

من هذا المنطلق نجد القرآن الكريم وهو يدعو إلى الإلتزام بمحاسن هذا الدين وأدابه في مواطن الخصومة يحث المسلم على الاستفادة بما آتاه الله من النعم التي تمكنه من الوصول إلى درجة الإيمان التي تقربه من الله تعالى من ناحية ، وتجعله الإنسان الحضاري المتمدن بتعاليم دينه من ناحية ثانية ، وذلك بإعمال الفكر ، وإدراك ما يجري حوله في هذا الكون، معتبرًا أحيانًا ، ومقتديًا أحيانًا أخرى ، ثم لم يكتف عند هذا الحد بل وجه طاقة الإنسان إلى ترسم خطى الصالحين من بني جنسه ، وجعلها الحافز له نحو المنافسة والمسارعة في عمل الخير والبر ، إذا ما التزم بتطبيق تعاليم دينه الذي يعتنقه .. كما وجه الإسلام أتباعه إلى المجاهدة والمصابرة لحمل النفس التي بطبعها تتوجه إلى التقاعس والتخاذل إذا ما استنهضت نحو فعل الخير ، وتكون السباقة إلى ميادين الشر والإثم والعدوان إذا ساقها منادي الهوى والضلال ، ولا يكبح جماحها إلا الصبر في طاعة الله ، وإدراك ما أعد لها يوم القيامة إن هي أحسنت العمل في الدنيا .

وإذا ما أراد المسلم أن يتحلى بآداب القرآن في وقت الشدة والخصام ، لا بد أن يبحث عما يساعده ويكفل له تحقيق هذه الآداب ، وثمة عوامل تعينه على أداء رسالته السامية في هذه المواطن نتبينها في الفصول التالية من هذا الباب ..

الفصل الأول

إدراك الآثار المترتبة على الإلتزام بأدب الخصومة

أولاً – محاسن الدين الإسلامي سبب للاقتناع بالدخول فيه :

انطلقت دعوة الإسلام تغزو القلوب ، وتطرق الأبواب في أحياء مكة بادئ ذي بدء ، ثم انتقلت إلى الحبشة ، فالمدينة حيث قامت دولة الإسلام الأولى بقيادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا أنها رغم ما أشادته من كيان لأمة الإسلام آنذاك ، فإنها لم تحِد أو تتوان عن المبدأ الذي قامت من أجله ، وهو دعوة الناس ، كل الناس إلى عبادة الله وحده والدخول في الدين الجديد .

وقد مكّن الله لهذه الدعوة أن تنتشر ، ويستجاب لها من قبل خلق عظيم من الناس ، ولعل مما ساق الناس إلى الاهتداء والدخول في الإسلام وحي الله وخطابه القرآني المباشر ، إلا أن قسمًا كبيرًا من الناس تأخر عن الاستجابة إبان ظهور الدعوة الإسلامية رغم سماعه لآيات القرآن تتلى عليه بالليل والنهار ، وكأن هذه الفئة كانت بحاجة إلى مؤثر عملي وحسي يدفعها نحو الاقتناع بالتخلي عما كانت عليه من دين واعتناق الإسلام عقيدة وشريعة .

وما إن آتت الدعوة الإسلامية ثمارها في الرعيل الأول من السابقين إلى الاستجابة الإلهية ، حتى تحول إلى نماذج حية تترجم ما تلقته من تعاليم السماء لتطبقه على الأرض بكل صدق وإخلاص ، والناس من حولهم بين حيرة وتردد ونزعة إلى الشيطان بالإغواء والمكابرة ، ولكن سرعان ما تبدد ذلك التردد ، وانقلبت تلك النزعة الشيطانية إلى حديث مع النفس لإعطائها مزيدًا من الاقتناع بما يدعو إليه هذا الدين ، ومشاهدة الداخلين فيه وما يمارسونه من أفعال تجسد معاني الخير وحسن العمل ، الذي لم يشاهد منهم قبل اعتناقهم هذا الدين .

لما رأى هؤلاء القوم إخوانهم على منهج شهدوا له بالاستقامة ، اتجهوا بعقول مقتنعة وأفكار مستنيرة إلى إعلان إسلامهم حتى ولو فاتهم عظيم أجر السابقين ، فلا بد أن لا يبقى إلا الحق .

وإذا نظرنا إلى هذه الفئة لا نجد لها دافعًا إلى الإسلام بعد هداية الله ، إلا ما في هذا الدين من محاسن ومميزات تتوق إليها النفوس ، ولا تأباها العقول .. وهذا يدل على مدى الإلتزام بهذه المحاسن والأداب من قبل السابقين ، حتى أصبحوا هم السبب في دخول غيرهم إلى الإسلام خاصةً أهل الكتاب من اليهود والنصارى .. وإذا طلبنا مثالاً لما نقول ، فليس أدل على ذلك من مواقف من أسلموا نتيجة أحداث تجلت فيها محاسن الإسلام وآدابه ، خاصة قضايا النزاع على حقوق مادية ، والشواهد في ذلك كثيرة منها ما تحدثت به كتب السيرة عن إسلام بعض الصحابة الكرام ، الذين تأخر بهم الوقت بعض الشيء عن الاستجابة الفورية لنداء الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - ، وما ذاك إلا ليكون دخول هؤلاء في الإسلام بقناعة تامة ، مبنية على أسباب تجلت فيها صور مشرقة عن حقائق الإسلام وأهدافه فيما يدعو إليه ، مما جعلهم يميزون بين الخير والشر ، فاختاروا الإسلام طريق الهدى ، ولنسمع إلى قصصهم تحدثنا عن إسلامهم .

إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

لم يكن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد دخل الإسلام على الفور ، كما هو الحال عند جملة من الصحابة كأبي بكر وعثمان وعلي وخديجة وزيد بن حارثة - رضوان الله عليهم جميعًا - ولعل ذلك لحكمة أرادها الله تعالى .

ولنا في قصة إسلامه من الشواهد ما تجعلنا نبرر تأخر إسلام عمر - رضي الله عنه - عن أولئك القوم ، لكي يرى في هذا الدين من المحاسن والأداب التي هيأت له الجو المناسب للاقتناع بأن ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الحق ، وأن ما عليه هو وقريش هو الباطل .

وإذا كانت المواقف تصنع الرجال ، فعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

واحـد من هؤلاء الرجـال ، الذين صنعـوا بمواقف عظيـمـة أدت إلى إسـلامـهـم .. فلننظر كيف أسلم ؟ :

كـان رضـي الله عنه من الـذين شـاركـوا قـريشًـا فـي إيذائـهـا للرسـول - عليـه السلام - والمسلمين في مكة ، وكان شديدًا في البقاء على شركه والدفاع عنه ، إلا أن المعجزة تحدث يوم أن خـرج متأبطاً سيفـه وهـو فـي غـاية من الغضب يريد قتل محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي نعته هو بأنه (هذا الذي يسفه أحلام قريش ويعيب آلهتها) ، وهو في الطريق يلقاه أحد المسلمين - نعيم بن عبدالله النحام - وهو من قرابته ، كان يخفي إسلامه وجرى الحوار بين الرجلين :

أين تريد ؟ . أريد قـتل مـحمـد ! .. ولكنك لا تستطيع ، ومن الخـيـر لك أن ترجع إلى أهل بيتك ، فإنهم قد أسلموا وتابعوا محمدًا على دينه ، فعليك بهما .. (يريد نعيم بذلك إسـلام فـاطمـة بنت الخطاب وزوجـهـا سـعيد بن زيد - رضـي الله عنهما -) ..

ومن هنا يبدأ الموقف ، يرجع عمر - رضـي الله عنه - إلى دار أخته وزوجها، فيقتحـم عليهما الباب ، فيرى صدق مقالة نعيم ، يشاهد أخته وبيدها صـحيفة كتب فيها « طه » ، وقد كان قبل دخوله على أختـه قد سمع مـقرئًا ، ودارت المعركة بين عمـر وأختـه وزوجـهـا حين طلب منهمـا أن يرياه تلك الصـحيفة .. وانتـهت المعركة بموقف دام ندم عليه عمر . وقابلتـه أختـه وزوجـهـا بالاعتـراف بإسلامـهمـا .. وكـرر عمـر الطلب للصحيفة ، فأبيا إعطاءه إياها حتى يغتسل ويتطهر ، ومـا إن فعل ذلك حتى تنـاول الصـحيفة ، وقـرأ فـيـهـا صـدرًا من أول سـورة « طه » ، ثم قـال : (مـا أحسن هذا الكلام وأكرمه) .

وكـأن مـا قـرأه قد غير فيه على الفور مـا قد جـاء من أجله ، فـقـد جـاء بوجه يريد البـاطل ، وخـرج يطلب الحق ، فـسـأل : من يدلني على مـحـمـد حـتى آتيـه فأسلم؟.. وهنا يخرج خباب بن الأرت مقرئ بيت الخطاب ، ليصحب عمر إلى بيت الرسـول - عليـه السـلام - ، ومـا إن طرق البـاب على القـوم وهم مجـتـمـعـون عند

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعرفوا أنه عمر حتى ارتاعوا ، ولكن زال خوفهم لما أعلن عمر إسلامه ، فكبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تكبيرة عرفها أهل البيت جميعًا [1] .

هذه خلاصة قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – والتي وصفها الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قائلاً : (إن إسلامه كان فتحًا ، وهجرته كانت نصرًا ، وإمارته كانت رحمة)[2].

أليس هذه القصة تدل علي عمق الحقيقة التي فهمها عمر عن الإسلام من ذلكم الموقف الخصامي والجدلي مع أخته وزوجها ؟ .. أليس هو الحريص كل الحرص على قتل محمد – صلى الله عليه وسلم – قبل هذا الحدث ؟ .. إذًا كأن في النار هدى لاح لعمر بقراءته الأولى وإجابته بأن هذا قول ما أحسنه ، ورؤيته لأهل بيته وتمسكهم بالحق الذي دعاهم محمد – صلى الله عليه وسلم – ، إليه ودفاعهم عنه ولو أدى ذلك إلى قتلهم دونه ، كل ذلك أثر أثرًا بالغًا في عمر – رضي الله عنه – مما جعله يقتنع بأن الإسلام هو الدين الذي يجب أن يعتنقه ، فساقته هداية الله راغبًا مختارًا كالذين دخلوا فيه من قبل ، ولكن تتعدد الأسباب والهدف واحد .

وهذا يعد من آثار الإلتزام بأدب الخصومة التي شاهدها عمر – رضي الله عنه – في أخته وزوجها اللذين كانا السبب في إسلامه بعد الله – سبحانه وتعالى– ، مضيفًا بإسلامه قوةً للمجتمع الإسلامي المتكون حديثًا ، والذي قد اتخذ السرية التامة سياجًا له عن أن تدري به قريش فتناله بأذى ، وكأن بإسلام عمر يتغير موقف قريش من الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين معه .

إسلام سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير - رضي الله عنهما -:

يتلخص إسلام هذين الصحابيين ، وهما من الأنصار – أهل المدينة المنورة–، في موقف قريب الشبه من موقف إسلام عمر بن الخطـــاب – رضي الله عنه –

١ سيرة ابن هشام / ج ١ / ٣٦٨

٢ نفس المصدر السابق / ج ١ / ٣٦٧

في مكة ، فبينما يجتمع المسلمون الأوائل في المدينة حول معلمهم من قبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مصعب بن عمير – رضي الله عنه – ليتعلموا أمر دينهم ، إذ تناقلت أحياء المدينة خبر هؤلاء النفر .

وما كاد يصل إلى مسامع سيدي قوميهما سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير – وهما من أشد المشركين بغضًا لهذا الدين الجديد يومئذٍ في المدينة – ، ولكن ربما كانا بعيدين عن نور الدعوة في مكة ، فلم يأتِ ما يجعلهما يتخذان موقف العداء منها ، وما إن وصلت الدعوة إلى عقر دارهم حتى انبريا يناجذانها المخاصمة والعداء ، والتصدي لانتشارها في مدينتهم ، ولكن من حيث حصل الغضب تحصل المعجزة ..

ففي الوقت الذي جلس فيه الرجلان يتشاوران كيف يردعان مصعبًا عن تعرضه للناس ، ودعوتهم إلى الإسلام ، يصل بهما الرأي إلى أن يذهب أحدهما أولاً إلى النفر المجتمعين عند مصعب ، وكان أُسيد هو البطل ، فخرج متوشحًا سيفه ، وما إن وقف على المجتمعين حتى خاطبهم بلهجة غاضبة ، موجهًا لهم الشتائم والسباب ، طالبًا من مصعب اعتزال هذا الحي من الأنصار .

وهنا يحدث الموقف ، لم يقابل أُسيد بمثل ما تلفظ به ، ولم يتخذ ضده إجراء مماثل ، كما أن القوم لم يرهبهم تهديد أُسيد ، إلا أنهم لم يثنهم واجب الدعوة أن يتقدموا بها إلى هذا الذي يقف شاهرًا سيفه في وجوههم ، فقال له مصعب – رضي الله عنه – : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره . قال : أنصفت .

وهنا يتحول موقف الشدة من أُسيد إلى الإستجابة واللين ، فوضع سلاحه ، وجلس يستمع إلى تلاوة مصعب لشيء من القرآن الكريم ، وما إن انتهى مصعب حتى قال أُسيد : ما أحسن هذا القول وأجمله .. فأسلم على الفور ، وطلب من القوم تعليمه أمر هذا الدين .

والعبرة بهذا الموقف تتجلى في صورة الحوار ، ثم حسن الاستماع ، ثم ما تحلى به مصعب والمسلمون أثناء ردهم على أُسيد ، ومدى تأثر أُسيد به حتى

اقتنع بقولهم ، واستبدل موقف الشر الذي جاء به إلى موقف الخير الذي خرج منه، ليلتقي بمن كان ينتظره بفارغ الصبر عن خبر الدعوة ، وما قام به أُسيد من إيقاف القوم عند حدهم ، ألا وهو سعد بن معاذ صاحبه في الرأي والمشورة ، ولكن سعدًا لم ير علي وجه صاحبه العائد إليه القسمات التي عهدها قبل توجهه إلى أولئك النفر ، وعندئذٍ شعر أُسيد بنظرة صاحبه ، فاتخذ موقفًا استطاع أن يؤثر فيه على سعد ، مستفيدًا من موقف إسلامه هو ، مما أدى إلى إسلام صاحبه على الفور .

وهكذا أسلم الرجلان في هذا الظرف الذي اتخذ شكل المخاصمة من الطرف الأول ، إلا أن الإلتزام بأدب الإسلام كما رأياه في هذا الموقف من الطرف الثاني ، مما أقنع الخصم بقبول الحق والدخول فيه ، ليكون أثرًا من آثار هذا الإلتزام الذي عمل على تكثير عدد المسلمين ، ودك الشرك في معاقله الأولى [1] .

إسلام عمير بن وهب - رضي الله عنه - :

انتهت معركة بدر وقد كتب الله النصر للمسلمين ، وسقط كثير من أسرى المشركين في أيدي المسلمين ، وكان هو الشغل الشاغل لقريش بعد هزيمتها في هذه المعركة ، كيف تخلص أسراها من أيدي أعدائهم ..

وموقفنا في هذه المرة مع واحد من أشراف مكة ، وقع ابنه أسيرًا في أيدي المسلمين ، وقد احتار في كيفية خلاصه وفكاك أسره ، ولكن الرجل يعاني من مشكلات اقتصادية واجتماعية ، ديون لا يستطيع قضاءها ، وكثرة عيال يخاف عليهم الفقر والضياع ، فوقفت هذه الأمور حائلاً بينه وبين قدرته على تخليص ابنه من الأسر ، إلا أن طلاب الشر يجدون من بينهم من أمثالهم ، خاصة إذا كان التفكير في الأسرى هم كل قرشي في مكة ، فكأن عميرًا هذا قد وجد من يتحمل عنه ديونه ، ويكون خليفة على أهله إن هو بادر بقتل من عكر عليهم مزاجهم ، وترك فيهم هذا التفرق والحزن - كما يزعمون - .

---

١ المصدر السابق / ج ٢ / ٧٨

وحدث الموقف حين تمت المساومة على تذليل عقبات عمير بن وهب مقابل قتل محمد – صلى الله عليه وسلم – هذا ما تم بينه وبين صفوان ابن أمية ، فما أن قبل عمير حتى تهيأ عزيمة وقوة ، وشحذ سيفه بالسم، مصرًا على قتل الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

هكذا خرج الرجل من مكة قاصدًا المدينة المنورة ، ولكنه قد وضع هدفه الظاهر ليغطي به نيته الخبيثة ، وما ذاك إلا ليضرب عصفورين بحجر واحد ، كما دله تفكيره وغواه صاحبه ، قتل محمد وتخليص ابنه من الأسر .

فدخل المدينة تحت شعار فداء ابنه ، وفكه من الأسر .. ولكن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عرفوا من هيئته إرادة الشر ، بل أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بفراسته أكد على أن الرجل لم يأت إلا لقتل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ولم يكتف عند هذا الحد ، بل أخذ بحمالة سيف عمير في عنقه ، ودخل به على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، بعد أن أخبره بمقدمه ، وما هو عليه من هيئة ، فأذن له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالدخول ، ثم أذن لعمر بتركه ، لكن عمر – رضي الله عنه – أوصى رجالاً بباب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن لا يغيبوا عيونهم عن عمير بن وهب وهو بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

ثم يبدأ الحوار بينه وبين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سائلاً له بقوله : « **فما جاء بك يا عمير** ؟ » ، فقال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم.. إلا أن الرسول – عليه السلام – لم يقتنع بهذه الإجابة وله ذلك ، فإنه الموحى إليه من قبل ربه ، ولما لم يصدق عمير بن وهب في سبب مجيئه ، فاجأه بإخباره عما دار بينه وبين صاحبه صفوان بن أمية في مكة ، والصفقة التي عقداها على أن يقتل الأول الرسول – عليه السلام – مقابل تحمل الثاني كل ما يعانيه عمير من أعباء ، ولكن الله حائل بينه وبين ذلك .

وهنا يحدث الموقف ، يُسلم عمير على الفور قائلاً : (أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك في خبر السماء وأمر الوحي ، إلا أن حديثي مع

صفوان لم يعلم به أحد سوانا نحن الاثنين ، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام) . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «**فقهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره** » .. وهكذا خسرت الصفقة بين عمير وصفوان ، إذ أسلم الأول وباء الثاني بخيبة الأمل في القضاء على الإسلام ورسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – .

تلكم هي قصة إسلام عمير ، فيها من المواقف ما نحن بصدده من خصام وغضب ونية خبيثة ، سرعان ما تحولت إلى خير وقناعة بالحق الذي كان يدحض بالباطل قبل قليل ، وما ذاك إلا لما أظهره الرسول – عليه السلام – من خلقه العظيم إزاء خصمه الذي نوى قتله ، وما رأه الخصم من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما تمثل في عدم معاملته بمثل ما جاء به من سلوك ، لإعلامه أن الدين الذي قام عمير بمحاربته ليس من مبادئه العدوان ، بل هو دين الخير والتسامح ، الأمر الذي جعله يقدم على الإسلام مختارًا طائعًا في قناعة تامة ، وكأنما هذا الموقف جاء ليسطر اسمًا لواحد من المسلمين الجدد كأثر من آثار الإلتزام بأدب الخصومة والذي كان سببًا في إسلام كثير من الناس في مكة على يديه [1] .

إسلام ثمامة بن أثال الحنفي – رضي الله عنه – :

الموقف هذه المرة مع واحد من كبار القوم ، له مكانة عظيمة في قبيلته بني حنيفة ، وربما يكون سيدهم وملك بلدهم (اليمامة) ، وقد وصلته دعوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكن كعادة العرب من القبائل وأطراف البادية يتميزون بالجلافة والشدة ، خاصة وهم يدافعون عن باطلهم وأصنامهم التي يعبدونها .

ابتدأت قصة إسلام الرجل من حين ما خرج من بلده ينوي الطواف بالبيت الحرام على عادة المشركين آنذاك ، ولكنه لا بد أن يمر به الطريق على المدينة المنورة معقل الإسلام الثاني ، هذه المدينة التي حصنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بحراس من أصحابه الكرام ، كي يأتوه بأخبار العرب من ناحية ،

---

١ المصدر السابق / ج ٢ / ٣١٦

ويقفوا في وجه من يريد الخطر للنبي – عليه السلام – ومدينة الدعوة من ناحية ثانية ، إلى جانب عرضهم الإسلام لأمر الله ورسوله لكل من يفد إليهم من العرب والقبائل ..

ويشاء الله أن يكون ثمامة هذا واحدًا من الذين يقعون في أيدي أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المكلفين بالحراسة كأسير لمروره على المدينة ليلاً ، وهو في طريقه إلى مكة ، وأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يعرفون ثمامة ، فاقتادوه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وما إن رآه الرسول – عليه السلام – حتى أحسن إساره ، وطلب من أصحابه أن يقوموا برعايته بما هو أهل له ..

وفي هذه الأثناء يعرض الرسول – صلى الله عليه وسلم – الإسلام على ثمامة ، إلا أن الرجل لا يزال حاقدًا ومعترضًا على هذه الدعوة ، فقد جاء رده متسمًا بالحدة والغضب ، وقد لجأ إلى اسلوب الإغراء في عرضه المال على الرسول – عليه السلام – كفداء لفكاكه من الأسر ، كما لجأ إلى اسلوب التهديد على أنه إن تعرض للقتل فإن قومه لن يتركوا دمه يذهب سدى ، بيد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يلح عليه ، ولم يبادره بمثل اسلوبه الذي خاطب به رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ومكث ثمامة في أسره ما يقارب من ثلاثة أيام ، والرسول يعرض عليه الإسلام ، وهو في موقف الخصم المعاند يكرر ما أجاب به رسول الله في يومه الأول والثاني ، وفي نهاية اليوم الثالث أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باطلاق سراح ثمامة واعطائه الحرية في بقائه أو ذهابه.. يحدث هذا أمام أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأمام الخصم نفسه ، فيثير حفيظتهم وتعجبهم من موقفين متناقضين ، خصم معاند وهو أسير ليس له من أمره حيلة للخلاص ، ولا ينتظر إلا القتل أو الإقرار بالإسلام ، ومنة الحرية دون شروط أو معاهدة .

ولكن حلقات الموقف تثير إعجابًا أكبر حين أصبح الخصم حرًا ، فما كان من أمره إلا أن عزم على الخروج من المدينة ، وما كاد أن يصل إلى أطرافها حتى

نزل عن راحلته واغتسل وتطهر ، ثم أقبل راجعًا إلى الرسول - عليه السلام ، فبايعه على الإسلام ، وأجرى معه حوارًا اتسمت لهجته بالمحبة بعد الخصومة والكراهية ، ومما قاله بعد إعلان إسلامه :

(والله يا رسول الله ؛ لقد كان وجهك أبغض الوجوه إليّ ، ولقد أصبح وهو أحب الوجوه إليّ .. ولقد كان دينك أبغض الأديان إليّ ، ولقد أصبح وهو أحب الأديان إليّ .. ولقد كانت بلادك أبغض البلاد إليّ ، ولقد أصبحت أحب البلاد إليّ..) [1] .

تلكم هي القصة ، وذلكم هو الموقف .. جسد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه خلق القرآن في آدابه ، وأظهر لثمامة محاسن الدين الإسلامي الذي كان يكرهه ثمامة قبل قليل ، وذلك عن طريق المعاملة والإحسان وإكرام المنزلة ، حتى في ساعة المعاندة والشدة من قبل الخصم، كذلك ما شاهده الخصم نفسه من عدم مماثلة العقاب أو التشدد فيه ، ثم المنّة عليه بإطلاق سراحه ، لدليل على أن دين الإسلام ليس دين العداء ، ولا دين المصلحة المادية ، ولا دين القتل وإزهاق الأرواح .. كل هذه المعاني أدركها ثمامة في أيام أسره ، وما وجده من تلك المعاملة المنقطعة النظير ما جعله يقدم على الإسلام بإرادة وإيباء واقتناع عن رغبة وصدق وإخلاص، ليسجل بذلك الموقف الأثر الإيجابي للإلتزام الإسلامي بالمحاسن والآداب حتى في مواقف الشدة والخصام واحتدام الخلاف والنزاع .

ثانيًا - الحكمة في التوجيه تربية للنفوس :

يقول تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** ﴾[2] .. فالآية الكريمة تأمر المسلمين بالاقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل شأن من شئون الحياة الدنيا بجانب الإلتزام بمنهجه - عليه السلام - في أمور العبادة والعقيدة .. ويكون الاقتداء به في مواطن النزاع والمشاحنة مطلوبًا بصفة إلزامية لمن يريد أن

١ المصدر السابق / ج ٤ / ٢٨٧

٢ الآية ٢١ من سورة الأحزاب

يكون متمسكًا بكتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .. وأن في منهج الرسول – عليه السلام – من التربية والتوجيه ما أسس أُمةً عاشت فترة من الزمن ينظر إليها على أنها قرآن يتحرك على الأرض ، وذلك بفضل تمسكها والتزامها بالتوجيهات النبوية الشريفة .. وأن السنة المطهرة – وهي المصدر الثاني في التشريع – لغنية بتوجيهات المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في تربية المسلم وإعداده لمواجهة الحياة ، خاصة في تعامله مع غيره ، وما يعتري علاقاته مع من يعيش معهم على اختلاف مراتبهم ومراكزهم الاجتماعية .

وإذا كان النظام الإسلامي قد ألغى الفوارق والطبقات بين أفراد المجتمع ، فالفضل يرجع في هذا إلى السيرة العملية التي كان عليها الرسول – عليه السلام– ، والتي تميزت بأعلي وصف تستحقه شخصية بشرية منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة ، ألا وهو وصف الله – جل شأنه – لنبيه الكريم بقوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] .

بهذا الخلق الراقي ربى الرسول – عليه السلام – أصحابه ، وكان لهم القدوة والمثال فيما يأتون أو يدعون ، بل وأن ما كانوا يتميزون به من تمسكهم بتوجيهات نبيهم في مواطن الخصومة والنزاع ما جعل الواحد منهم مدرسة ومنهجًا في أصول التربية والتعليم لمن جاء بعدهم من التابعين الذين حذوا حذوهم، حتى أصبحوا كيانًا إسلاميًا فذًا ، امتدت آثاره علي كل بقعة طلعت عليها الشمس.

فأية تربية وجهها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه حتى أتت هذه الثمار العظيمة ؟ .. ذلك ما نعرضه من ذكر طائفة من توجيهاته – عليه السلام – لهؤلاء الأصحاب حالة إلمامهم بخصومات مع بعضهم البعض ، سرعان ما زالت بفضل الحكمة التي أظهرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لدى الفصل بينهم من خلال التربية المباشرة التي تعاهدهم بها طيلة حياته الشريفة .. ونحن لن نحصر تلك التوجيهات النبوية في هذا الشأن ، ولن نستطيع مهما جهدنا أنفسنا

---

١ الآية ٤ من سورة القلم

لذلك ، ولكن ما نقدمه عبارة عن نماذج لمواقف خصامية اقتضت الحكمة والتوجيه والتربيـة من قبل الرسـول – صلى الله عليه وسلم – لأصحـاب هذه المواقف ، مما تأثروا بهـا ونقلوهـا إلى غـيرهـم كـأثر من آثار الإلتـزام بهـذه الآداب في مـثل هذه المواقف .. فمثلاً :

شـاب يطلب من الرسـول أن يأذن لـه بالزنا :

عن أبي أمـامـة – رضي الله عنه – أن غـلامًـا شـابًا أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقـال : يا نبي الله أتأذن لي في الزنا ؟ . فـصـاح الناس به . فـقـال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **قربوه ، أُدن** » ، فدنا ، حتى جلس بين يديه. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **أتحـبـه لأمك ؟** » . قـال : لا ، جـعلني الله فـداءك . قـال : « **كـذلك النـاس ، لا يـحـبـونه لأمـهـاتـهم . أتحـبـه لإبنتك؟** » . قـال : لا ، جـعلني الله فـداءك . قـال: « **كذلك الناس لا يحـبـونه لبنـاتـهم . أتحـبـه لأخـتك ؟** » ، وفي رواية أنه ذكر العـمـة والخـالة .. فـوضـع رسـول الله – صلى الله عليـه وسلم – يده على صـدره ، وقـال : « **اللهم طـهر قلبـه واغـفـر ذنبـه وحـصـن فـرجـه** » ، **فلم يكن شيء أبـغض إليـه منه**»[1] .

موقـف بين صحـابيين :

عن أبي عـبدالرحمن السلمي قال : سـمـعت عليًا – رضـي الله عنه – يقول : (بعثني النبي – صلى الله عليه وسلم – والزبير بن العوام ، وكلانا فارس . فقال : « **انطلقوا حتى تبلغوا روضـة كذا وكذا ، وبهـا امرأة مـعهـا كتـاب من حـاطب إلـى المشركين ، فأتونـي بهـا** » ، فوافيناها تسير على بعير لهـا حيث وصف لنا النبي – صلى الله عليه وسلم – فقلنا : الكتاب الذي معك . قالت : ما مـعي كتـاب ، فبـحثناها وبعيرها ، فقـال صـاحبي : مـا أرى . فقلت : مـا كذب النبي – صلى الله عليه وسلم –، والذي نفسـي بيده لأجردنك ولتـخـرجنه ، فـأهوت

١ مسند الإمام أحمد / ج ٥ / ٢٥٦

بيدها إلى حجزتها ، وعليها إزار صوف ، فأخرجت .

فأتينا النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقال عمر : خان الله ورسوله والمؤمنين ، دعني أضرب عنقه .. وقال : « **ما حملك** » ؟ ، قال : ما بي إلا أن أكون مؤمنًا بالله ، وأردت أن يكون لي عند القوم يد . قال : « **صدق يا عمر ، أوليس قد شهد بدرًا ؟ لعل الله اطلع عليهم فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد وجبت لكم الجنة** » .. فدمعت عينا عمر – رضي الله عنه – وقال : الله ورسوله أعلم [١] .

بين أبي ذر ورجل أعجمي :

عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال : رأيت عليه بردًا وعلى غلامه بردًا ، فقلت : لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة ، وأعطيته ثوبًا آخر . فقال : كان بيني وبين رجل كلام ، وكانت أمه أعجمية ، فنلت منها .. فذكرني إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فقال لي : « **أساببت فلانا** ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « **أفنلت من أمه** ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » ، قلت على حين ساعتي هذه من كبر السن ، قال : « **هم أخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه** »[٢] .

خبر الأعرابي الذي بال في المسجد :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن أعرابيًا بال في المسجد ، فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **دعوه ، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء ، أو سجلاً من ماء .. فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين** »[٣] .

١ الأدب المفرد / باب من قال لآخر يا منافق / حـ ٤٣٨ / ص ١٩١

٢ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب ما ينهى عن السباب واللعن / ج ٨ / ١٩

٣ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب قول النبي عليه السلام : يسروا ولا تعسروا / ج ٨ / ٣٧

الرجل الذي ولدت له زوجته غلامًا أسود :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : أن رجلاً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ولد لي غلام أسود ، فقال : « **هل لك من إبل ؟** ». قال : نعم . قال : « **ما ألوانها ؟** » . قال : حمر . قال : « **هل فيها من أورق ؟** » . قال : نعم . قال : « **فأنى ذلك ؟** » . قال : لعله نزعة عرق . قال : «**فلعل ابنك هذا نزعه**»[1] .

الجار المؤذي :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال ، قال رجل : يا رسول الله إن لي جارًا يؤذيني ! ، فقال : « **انطلق ، فأخرج متاعك على الطريق** » ، فانطلق، فأخرج متاعه ، فاجتمع الناس عليه ، فقالوا : ما شأنك ؟ قال : لي جار يؤذيني ، فذكرت للنبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : « انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق»، فجعلوا يقولون : اللهم العنه ، اللهم أخزه .. فبلغه ، فأتاه . فقال : ارجع إلى منزلك ، فوالله لا أؤذيك [2] .

أعرابي يتطاول على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يجلس معنا في المجلس يحدثنا ، فإذا قام قمنا قيامًا حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه .. فحدثنا يومًا ، فقمنا حين قام ، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه [3] بردائه ، فحمر رقبته . قال أبو هريرة : وكان رداءً خشنًا . فالتفت ، فقال له الأعرابي : احمل لي على بعيري هذين ، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **لا ، واستغفر الله . لا ، واستغفر الله . لا ، واستغفر الله ، لا أحمل لك حتى تقيدني** [4] **من**

١ صحيح البخاري / كتاب النكاح / باب إذا عرض بنفي الولد / ج ٧ / ٦٨

٢ . الأدب المفرد / باب شكاية الجار / حـ ١٢٤ / ص ٦٠

٣ جبذه : أي شده ، وهو مقلوب الفعل (جذب) ، المصباح المنير / ج ١ / ٨٩

٤ تقيدني : تقتص لي من نفسك / نفس المصدر السابق / ج ٢ / ٥١٩ ، مادة (قود)

جبذتك التي جبذتني » ، فكل ذلك ويقول له الأعرابي : والله لا أقيدكها ، فذكر الحديث ، قال : ثم دعا رجلاً فقال له : « **احمل له على بعيريه هذين : على بعير شعيرًا ، وعلى الآخر تمرًا** » ثم التفت إلينا ، فقال : «**انصرفوا على بركة الله** »[1]

تلكم هي طائفة من توجيهات المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في ميدان الخصومة والنزاع ، وهذا غيض من فيض زخرت به السنة المطهرة في كافة مجالات الحياة ، التي كرس فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جهده الشريف في تربية أصحابه ، وإعدادهم لما ينتظرهم من دور عظيم في هداية الإنسانية وبناء الحضارة العادلة .

ومن يمعن النظر في هذه التوجيهات يستشف من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حكمة القائد والمربي الناصح والمعلم لأمته ، إذا ما تقلد رجالها زمام الأمور ، وإذا ما اعتلى كبراؤها سنام المسئولية ، بماذا يجب أن يتحلوا ، وكيف يسوسون الناس ، وماذا يجب أن يصنعوا إذا حلت بساحتهم الخطوب ، وكيف يتعاملون مع الناس المختلفين في مفاهيمهم وعاداتهم وتقاليدهم .

والرسول – صلى الله عليه وسلم – بهذه التوجيهات يجسد قول ربه عز وجل : ﴿ **لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم** ﴾[2] .. فمنطق القائد والمسؤول لا بد أن يكون متميزًا عن رعيته بالاعتدال والوسطية ، ويعطي كل موقف ما يستحقه من تعامل ، غير مضيع لحق ولا ناصر لظالم ... وما منا من أحد إلا وقد علقت في رقبته المسؤولية في هذه الحياة ، فالرجل مسؤول في بيته ، ومسؤول عن جاره ، ومسؤول في سوقه ، ومسؤول في عمله ، وليس أحد بناج ولا خالٍ من الأمانة . ومواقف الحياة ليس كلها تتطلب الشدة والتصلب ، بل لا بد من اللين والرفق والحلم والأناة ، خاصة في مواطن النزاع والمشاحنة ، حيث يسيطر الغضب ويتحكم الشيطان في زمام الأمور ، يحتاج فيه المسلم إلى التذكرة

١ سنن أبي داود /كتاب الأدب /باب في الحلم وأخلاق النبيصلى الله عليه وسلم/ج ٤ /٢٤٧

٢ الآية ٧ من سورة الحجرات

والنصيحة والتوجيه بالحلم ، والتذرع بالصبر ، ورغم أن مواطن الخصومة يغلب عليها دافع العدوان البدني بين الخصمين ، إلا أن من يكف أذاه عن صاحبه في هذه المواقف يعد أقوى ممن أوتي قوة في البدن ، يقول عليه السلام : « **ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[1].

وليس أجمل من هذه التوجيهات التي تنم عن محاسن هذا الدين ومآثره الخالدة التي جاءت بمثابة الوسيلة لتربية النفس وتهذيبها ، وتوجيه طاقاتها نحو المحبة والتجمع ، ومحاربة الفرقة والكراهية ، ونبذ العصبية وقطع دابر الخلاف ..

وحين أدرك أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مغزى هذه التوجيهات تأثروا بها فطبعت في شخصياتهم ، ففتحوا بسيرتهم العطرة بلدانًا وقلوبًا كان يلفها ظلام الكفر وركام الجهل ، وكان لهم الفضل والأجر .. ونحن لنا بالاتباع لمنهجهم الأثر والقدوة الصالحة في ساعة العسرة .

ثالثًا - توقير الخصم حال ثبات الحق في جانبه :

قد تحدث المواقف الخلافية ، وقد يتمارى شخصان ويتماديان في النزاع وربما تتصعد المشاحنة ويبلغ الخصام ذروته ، ولكن لا تخرج مسألة الخلاف عن دائرة البحث عن الحجة والدليل ، إما لكليهما أو لأحدهما ، وحينئذٍ تتبين أرجحية هذا الحق عند أحد الخصمين بلا منازع .

وعلى أية حال ، فإن قضايا النزاع كثيرًا ما تحل في ساحات المحاكم ، ويحتكم فيها إلى عدالة القضاء .. وهناك خصومات قد لا يستلزم رفعها إلى القضاة بشكل رسمي ، وإنما يكون الفصل فيها عن طريق مجالس الصلح المعهودة في القرية والمدينة ، وسواء ثبت الحق لأحد الخصمين عن طريق القضاء ، أو في مجلس الصلح ، فالعبرة بموقف كل منهما من الآخر بعد حسم الخلاف والفصل في الدعوى المرفوعة ، فهل تنقطع الصلة بينهما ؟ ، أم تستمر العلاقة ولكن مع شيء من التشويه والتمزق ؟ ، أم تتجدد المحبة ويزداد القرب بينهما أكثر من ذي قبل ؟ ..

---

١ صحيح البخاري / كتاب الأدب / باب الحذر من الغضب / ج ٨ / ٣٤

اخترنا هذه الأسئلة لنقيس بها الروابط الإنسانية القائمة على أساس من الدين ، وما فيه من محاسن وآداب تعين المتمسك بها على ثبات هذه الروابط في ساعة نشوء الخلاف ، لأن الهدف طاعة الله والرضا بما قضى ، إذ كلما ازداد العبد تمسكًا بدينه ازداد قناعة بما يؤمر به وينهى عنه ، وازداد قوة في التطبيق ، وازداد رغبة في التحلي بالأخلاق الفاضلة كعلامة علي منهج الإلتزام بما في الدين من مزايا ومحاسن ، يكون أكثر احتياجًا إليها وهو يبرز حجته ويستخلص حقه من خصمه ، أو هو يذعن للتسليم بهذا الحق من غير فجور ولا انتقام ، وأيًا كان هذا الخصم ممن له الحق أو عليه ، فإذا سار على هذا المنهج ترك وراءه الأثر الحسن والقدوة الصالحة ، مبقيًا على وده لأخيه الذي كان بالأمس خصيمًا له ، موقرًا إياه ، ساعيًا في مساعدته له ، مهنئًا له في الخير ، مواسيًا له في المصيبة.. ذلكم هو موقف الخصم الذي أقر بحق خصمه ، وسارع في أدائه بنفس راضية وبنية حسنة ، يزداد له احترامًا ومودةً ، كما لو لم يكونا قد اختصما من قبل قط .

والمجتمعات البشرية على امتداد فترات التاريخ الذي عاشته ولا تزال ، قد تعرضت لمواقف حيّة ضربت من خلالها المثل العليا في المحافظة على الود ، وبناء العلاقات الممتازة بعد الخصام وهي في أوج احتدامها ، ومرد ذلك كله إلى أثر الإلتزام بأدب الدين في أوقات هذه الشدة .. وما نستقرئه من منهج القرآن في هذا الصدد ، وما نتلمسه مما جرى على أيدي الصالحين المقتدين برسول الله – صلى الله عليه وسلم – في هذا الشأن لأكبر دليل على أثر الإلتزام بأدب الخصومة، وتزداد الصورة وضوحًا من خلال المواقف التالية :

سبب نزول آية :

في غزوة أحد تعرض الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأشد أنواع الأذى الذي ناله على أيدي المشركين ، إذ كسرت رباعيته ، وشج وجهه الشريف حتى سال الدم عليه ، فقال عليه السلام : « **كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم** ؟ » .. فأنزل الله عليه قوله جل شأنه : ﴿ **ليس لك**

من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

وفي رواية أخرى أنه لما اشتد عليه - صلى الله عليه وسلم - أذى قريش ، ومن أشخاص معينين كصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، أخذ يدعو عليهم في صلاته قرابة الشهر قائلاً : « **اللهم العن فلانًا ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية** » .. فنزلت عليه الآية الكريمة المذكورة آنفًا .

وعلى أية حال ، فإن الروايات على تعددها تتفق على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حالة شعوره بأذى قريش اتجه إلى ربه بالدعاءوالتضرع ، ثم إظهار الاستياء مع تمني هلاك أولئك الذين يؤذون نبيهم ، ويكابرون في عدم استجابتهم لدعوته ، وهم يعلمون صدقه فيما يدعوهم إليه ، فكأنما جاءت هذه الآية لتعالج موقف النزاع ، وتحسم الأمر فيه بالتوجيه الإلهي لنبيه - عليه السلام - أن يتحلى بالصبر أولاً ، ثم الاقلاع عن تمني الهلاك لمن يناصبون الدعوة العداء . بل وعليه أن يترك أمرهم لله ، فهو المتصرف وحده في أمرهم ، له أن يتوب عليهم ، وله أن يعذبهم ، ولا تملك يا محمد من أمرهم شيئًا ، فلا تضيق ذرعًا بهم .. وبمجرد نزول هذه الآية الكريمة نجد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - يمتنع فورًا عن الدعاء على القوم ، امتثالاً لأمر ربه سبحانه وتعالى [2] .

والشاهد هو هذا التوجيه القرآني للنبي - صلى الله عليه وسلم - في موقف الخصومة ، وتمسكه عليه السلام به ، وما نتج عنه من دخول أولئك النفر الذين دعا عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الإسلام فيما بعد ، ولولا هذا الإلتزام بأدب الدين لما شملت دعوة الرسول - عليه السلام - هؤلاء القوم ، ولما صلحوا في أنفسهم وصلح بهم الدين.

ومثاله في آية أخرى قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين** ﴾[3] .. نزلت هذه الآية

---

١ الآية ١٢٨ من سورة آل عمران

٢ أسباب النزول للسيوطي / ص ١١٢

٣ الآية ١٢٦ من سورة النحل

أيضًا في غزوة أحد ، وأن من أسباب نزولها ذلك المشهد الرهيب الذي رآه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – غداة مقتل عمه حمزة بن عبدالمطلب – رضي الله عنه – حيث مثلت به تلك الطغمة الفاسدة من المشركين آنذاك ، ولقد آلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يرى عمه ، وقد بقر بطنه وأخرجت أحشاؤه ، مما حمله هذا المشهد على اتخاذ العقاب المماثل بقريش في المستقبل ، وقد روى ابن عباس – رضي الله عنهما – قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في هذا الشأن : « **لئن ظفرت بقريش لأمثلن بسبعين رجلاً منهم** » .. فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به * ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين** ﴾ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **بل نصبر يا رب** »[1] .

وهنا نجد المصطفى – صلى الله عليه وسلم – يفضل الإلتزام بتوجيه ربه الذي انتهت به الآية الكريمة مع أنه قد أجيز له العقاب بالمثل في نفس الآية ، وهو تشريع لكافة المسلمين ، إلا أن الغاية المتوخاة من العقاب هي الإصلاح ، فلا يتناسب ودفع الخصومة بالتعدي أو التشفي أو الانتقام ، أو جعل الأذى والتلف أكبر من الضرر اللاحق بالذي له الحق ، كل ذلك جسدته هذه الآية الكريمة بالحادث الأليم الذي تعرض له سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب – رضي الله عنه – بعد مقتله .

وإذا كانت القاعدة الفقهية تقول : (العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب) .. فما أحوجنا إلى التزود بتلك التوجيهات التي تقيد بها سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – في هاتيك المواقف ، وهو المبرأ عن الظلم أو التعدي أو الانتقام ، وهو المتصف بالخلق العظيم من قبل ربه سبحانه وتعالى ، ونحن من نحن تغلب نوازع الشر فينا نوازع الخير ، يكون الحق أحيانًا في صفنا فنغتر ونتكبر ، ولا يسعنا إذا كان الحق علينا إلا أن ندبر المكايد لخصومنا ، خاصة إذا كنا من ذوي الرتب العالية وبأيدينا زمام الأمور ، فما أحوج

---

١ أسباب النزول ، للواحدي النيسابوري / ص ١٦٣

أنفسنا إلى أن تصلحها أمثال تلك التوجيهات ، وأن تكون منهج سلوكنا في الحياة.

الرسول والمنافقون :

إن من بين سور القرآن الكريم سورة كاملة تسمى (المنافقون) ، تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى من مبدئها وحتى منتهاها عما كان يدبره أولئك المنافقون للإسلام ونبيه – عليه الصلاة والسلام – ، تارة بالكيد ، وأخرى بالتعرض بالأذى للصحابة الكرام ، وثالثة بالاتفاق مع المشركين واليهود والنصارى على التشكيك في الإسلام ورسالته الخالدة ، ورابعة بالإنهزام والإنفصال عن جيش المسلمين في ساعة العسرة .. قام المنافقون بهذه الأعمال كلها ، وهم يجاورون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في المدينة ، بل أنهم من أهلها وسكانها الأصليين ، قد تزعمهم في تدبير تلك المكايد عبدالله بن أبي بن سلول ، الذي كان يحلم بالملك على قومه ، لولا هجرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة ، ودخول الدين الجديد فيها .

وقد أظهر أولئك المنافقون الإسلام ، ولكن لما كانت أعمالهم قد جاءت على غير ما كان يأمر به الدين الإسلامي ، فقد دل ذلك على إضمارهم الشر والحقد للإسلام والمسلمين .. إلا أنهم رغم نواياهم الخبيثة وأعمالهم الفاسدة التي كانوا يوارونها عن الأنظار بستار الدين بحجة أنهم مسلمون ، فإن القرآن بآياته التي تتنزل تباعًا كان يكشف زيفهم ، وما يمكرون به لرسوله الأمين .. فسرعان ما تفشل ويذهب ريحها ، بيد أن ما يلفت الانتباه حول مواقفهم التي يقفونها من رسول الله – صلى الله عليه وسلم وكشف القرآن ما هم عليه من خبث وما يتخذه الرسول معهم من مواقف مغايرة ، فيعفو عنهم ولا يتصدى لهم بالعقاب المماثل ، بل وأن في بعض المواقف يرتكبون معه أشد أنواع التبجح والأذى المقصود لشخصه – عليه السلام – ، مما يجعل الصحابة الكرام يلحون عليه – صلى الله عليه وسلم – بالتخلص منهم ، فيمتنع – عليه السلام – عن ذلك ولا يبادلهم الأذى،

موجهًا أصحابه إلى نظرة بعيدة ربما تقال على الإسلام ورسوله لو هو أطاعهم في القضاء على هؤلاء المنافقين ، ذلك بأنه كان يقول لهم : « **حتى لا يقال أن محمدًا يقتل أصحابه** »[1] .

ونحن نسوق هذا الموقف للدلالة على ما فيها من حِكَم تبرز من خلال مقولة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – : « **حتى لا يقال أن محمدًا يقتل أصحابه** » ..

أولها : أن المنافقين موجودون في كل عصر .

ثانيها : أن كونهم منافقون فهم موجودون بين المسلمين .

ثالثها : أن أمثال عبدالله بن أبي بن سلول وعصبته متواجدون في كل أمة من الأمم .

رابعها : أن عدم معاقبتهم من قبل الرسول – عليه السلام – لا يعني رضاه بما يعملون ، ولكن الله يكفيه شرهم في عهده .

وقد ترك لنا القدوة في مسايسة هذه الفئة من الناس بالاحتراس منها وعدم التصديق بما تنقله من أخبار ، وعدم وضع الثقة في رجالاتها إلا إذا تابوا عن نفاقهم ، وأن نبقى على حذر شديد أثناء تعاملنا معهم فقد تبين أن جُل الصراعات بين جماعة المسلمين من أعمالهم وتخطيطاتهم، وأن المنافقين هم الفاسقون الذين أمرنا الله بألا نؤكد صحة ما يقولون إلا بعد التحقق من مصادر أهل الحق والعدل، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾[2] .

ويكفي أن المنافقين مجانبون للأخلاق السوية ، وبينهم وبين محاسن الإسلام عداوة وجفاء ، فإذا كانت بيننا وبينهم خصومة وكان لهم الحق ، فلا يدعنا بغضنا لهم إلى غمطهم حقوقهم وسلبهم إياها ، وإذا كان الحق لنا فلا تدعونا قدرتنا

---

١ فتح القدير / تفسير سورة المنافقون / ج ٥ / ٢٣٣

٢ الآية ٦ من سورة الحجرات

عليهم إلى القساوة والتشدد فنحملهم على الكفر وهم لا زالوا في حظيرة الإسلام.. ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلك القدوة في اللين والمداراة ، لعلها تدعوهم إلى الاستحياء وتأنيب الضمير حين يروننا نجسد لهم محاسن الإسلام بشكل عملي فيرعووا ويهتدوا .

بين معاوية وبني هاشم :

جرى حوار خصامي بين معاوية بن أبي سفيان وعبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – دار حول أمر الخلافة ، وكان مما قاله معاوية – رضي الله عنه – : (ألا تحدثوني يا بني هاشم عن ادعائكم الخلافة دون قريش ، بم تكون لكم أبالرضى بكم أم بالاجتماع عليكم دون القرابة ؟ أم بالقرابة دون الجماعة ؟ أم بهما جميعًا ؟) ..

ثم رد معاوية ادعاء بني هاشم للخلافة قائلاً : (إن أمركم لأمر يضيق به الصدر ، إذا سئلتم عمن اجتمع عليه من غيركم قلتم حق ، فإن كانوا اجتمعوا على حق فقد أخرجكم الحق من دعواكم ، انظروا فإن كان القوم أخذوا حقكم فاطلبوهم، ون كانوا أخذوا حقهم فسلموا إليهم ، فإنه لا ينفعكم أن تروا لأنفسكم ما لا يراه الناس لكم) .

فأجاب ابن عباس – رضي الله عنهما – قائلاً : (ادعاؤنا هذا الأمر بحق من لولا حقه لم تقعد مقعدك هذا ، ونقول كان ترك الناس أن يرضوا بنا ويجتمعوا علينا حقًا ضيعوه وحظًا حرموه ، وقد اجتمعوا على ذي فضل لم يخطئ الورد والصدر ، ولا ينقص فضل ذي فضل فضل غيره عليه ، قال تعالى : ﴿ **ويؤتي كل ذي فضل فضله** ﴾)

وكان مما قاله أيضًا : (ولا يعاب أحد على ترك حقه ، إنما المعيب من يطلب من ليس له ، وكل صواب نافع ، وليس كل خطأ ضارًا .. وقد انتهت القضية إلى داود وسليمان ، ففهمها سليمان ولم يفهمها داود ، ولم يضر داود شيئًا) [1] .

---

١ نقلاً بتصرف عن كتاب عيون الأخبار / ج ١ / ٦

من هذا الحوار نستخلص معالجة الموقف بين الرجلين ، أحدهما خليفة والآخر ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسابق في الإسلام ، وصحابي جليل في علمه ومكانته ، أن بعد الإدلاء بالحجج من قبل الطرفين تبين الحق عند بني هاشم ، ولم يؤثر عن معاوية وهو خليفة أن أبطل حجة خصمه ، ولم يؤثر عنه أيضًا أنه أساء له مع ثبات الحق له ، بل عاش ابن عباس – رضي الله عنهما – في دولة معاوية مهيب الجانب ، يرد الأمر إليه ويصدر عنه ، ولولا بلاغة الحجة عند ابن عباس – رضي الله عنهما – وعرضها بأدب القرآن ، وقبول معاوية هذه الحجة بأدب القرآن أيضًا ، لما انتهى الموقف على هذا الود ، رغم أنه بين الخليفة وأحد رعاياه ، ولكن التمسك بالآداب في مثل هذه المواطن يجعل الآثار الإيجابية هي الغاية بعد ثبوت الحق مع أي كائن من كان ، وكان في مقدور الخليفة أن يتعرض لخصمه بالأذى لمقامه في السلطة ، ولكن قوة الدليل أكبر من قوة السلطان ، لهذا أدرك معاوية الصواب في جواب خصمه ، فكفاه أن يؤثر السكوت، ساعيًا بكل ما وسعه من جهد أن يحترم عترة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وآل بيته الطاهرين ، ما دامت لهم الحياة في دولة خلافته .

وهذا في حد ذاته ادراك عميق لتوجيهات الدين الإسلامي التي وحدت بين طبقات الناس على أساس من وحدة العقيدة وأخوة الإيمان التي تحظى بالإيثار على أخوة القرابة والرحم .

من حكمة القاضي :

اتخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – كثيرًا من أصحابه قضاة في عهده، من بينهم عمرو بن العاص – رضي الله عنه – ، وذات يوم ترافع إليه صحابيان جليلان في نزاع على حق بينهما ، وهما طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام – رضي الله عنهما – ، وقد تخاصم هذان الصحابيان في شأن وادٍ لهما بالمدينة ، فأتيا عمرًا للفصل بينهما .. فاستخدم عمرو بين الخصمين أسلوبًا مخالفًا لما كان عليه القضاة ، حيث تبدأ الدعوى أولاً بسماع حجج الطرفين ، ولكن عمرًا لم تكن

بداية قضائه في هذا النزاع كذلك ، بل قام بتذكير هذين الصاحبيين بمكانتهما من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن سبقهما إلى الإسلام ، وبلائهما فيه البلاء الحسن ، ثم ذكرهما أيضًا بقربهما من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما قد سمعاه مباشرة منه – عليه السلام – وهو يحدث حول من تعدى على مال غيره أو ادعى شيئًا ليس بماله ، وذكرهما أيضًا بوعيد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمن يقتطع شبرًا من أرض أخيه بغير حق ماذا ينتظره من العذاب ، ثم عاب عليهما أن يختلفا وهما بهذه المنزلة من صحبتهما لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وبصرهما بمكانته منهما كقاضٍ يحتاج إلى العدل أكثر مما جاءا يدعيان فيه ، ثم قال لهما : (إن شئتما فأدليا بحجتكما ، وإن شئتما فأصلحا ذات بينكما) .

وما إن سمع الخصمان هذا التوجيه من القاضي ، حتى أنصفا نفسيهما بنفسيهما ، وكأنما جاء هذا التوجيه بمثابة الفصل في دعواهما، لأن بلاغة النصح أغنت عن الحاجة إلى القضاء في مسألة الخلاف ، فما كان من أمرهما إلا أن اصطلحا ، واعطى كل واحد منهما لصاحبه الرضى)[1] .

من أدب المناظرات :

تذكر كتب السير والتراجم أن أبلغ الخصومات وأكثرها فحشًا وفجورًا هي تلك التي حدثت بين العلماء ، مع جلالة قدرهم وإدراكهم أسرار الدين ومحاسنه ، ولكنه للأمانه نقول ليس كل العلماء على هذا المنحى من اللجج والمماراة ، وإن كتب التاريخ والسير أيضًا تثبت للعلماء الأجلاء فضلاً عظيمًا من العلم والفقه حتى في اختلافهم ، وإن كان جل ما اختلفوا عليه يدور حول نصوص الكتاب والسنة في ما لم تثبته الدلالات القاطعة واليقين الواضح من ناحية ، وبما أوتوا من ذكاء وعقل ناضج في التفكير السليم حول مسائل الخلاف .

ولعل من مناظرات هؤلاء العلماء في كثير من المسائل تكشف لنا مدى ما كان يتمتع به كثير من الفقهاء في عصورهم بتوجيهات الدين وآدابه وأخلاقه ، هم قدوة

١ عيون الأخبار / ج ١ / ٧٠

لتلاميذهم ومقلديهم عبر الأجيال التاريخية المتعاقبة إلى يومنا هذا .

ونحن إذ نذكر للعلماء فضلهم في هذا المجال نجلي بعض صور تلك الآداب، حول ما جرت بينهم من مناظرات علمية وفقهية اتسمت بالحكمة والتهذيب في مواطن الخصومة ، لتكون علامات ارشاد حول ما ينبغي على علمائنا في هذا العصر ، وهم تستجد عليهم مسائل وقضايا تستدعيها الظروف المحيطة بالمسلمين وواقعهم الذي يعيشون فيه ، فيجدوا أنفسهم بحاجة إلى حصافة أولئك العلماء في رأبهم الصدع وقضائهم على الخلاف ، والدعوة إلى الاتحاد وجمع الكلمة ، بسلوكياتهم العملية والنظرية ، لينقذوا ما تبقى للبشرية من حياة آمنة ، فلننظر مثلاً إلى مقتطفات في أدب المناظرة التالية ، وما تحمل في طياتها من سمو الغاية ونزاهة النفس وعلو الهمة ..

مناظرة بين أحمد والشافعي :

تدور هذه المناظرة بين الإمامين الجليلين حول مسألة (تارك الصلاة) هل يحكم بكفره أم لا ؟ .

وتبدأ المناظرة بسؤال الإمام الشافعي للإمام أحمد عن قوله حول هذه المسألة ، فأجاب – رحمه الله – : بأن تارك الصلاة كافر . فقال الإمام الشافعي – رحمه الله – : فإذا كان كافرًا بم يسلم إذًا ؟ . قال الإمام أحمد : بقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . قال الإمام الشافعي : لكن الرجل مستديم على هذا القول ولم يتركه . قال الإمام أحمد : إذًا يسلم بأن يصلي . قال الإمام الشافعي : لكن صلاة الكافر لا تصح ولا يحكم بالإسلام بها .. فانقطع الإمام أحمد وسكت .. انتهى .

فنجد هنا في هذا الموقف ، لو كان الرجلان يريدان بمناظرتهما الجدل والمماراة والافتخار بالعلم ، ما أنهيا هذه المناظرة بهذه الصورة ، ولما وسع الإمام الشافعي أن ينظر إلى الإمام أحمد بعد رد حجته في المسألة المذكورة ، إلا القول بجهله والتشنيع على إمام مثله ، بل ولربما حذر الناس بعدم الأخذ عنه ، وكذلك

نجد في سكوت الإمام أحمد نوعًا من الأدب مع العلم واحترام العلماء إذا ظهر الحق معهم وتوقيرهم ، فلم يعرف عنه – رضي الله عنه – رغم جلالة قدره أنه أساء للإمام الشافعي أو طعن في مذهبه ، بل وأن جل مذهب الإمام أحمد مؤسس على مذهب الإمام الشافعي – رضي الله عنهما – ، ومن يدرس مذهب الإمام أحمد لا يجد كبير فرق ولا شيئًا من الخلاف يذكر بين المذهبين ، وإن ما يذكره الإمام أحمد من فضائل الإمام الشافعي عليه لكثير ، وما يحمله الإمام الشافعي من علم توجب على أحمد توقيره والأخذ به ، وهذا يعد مثالاً واضحًا لثمرة الآداب الإسلامية التي كان يتحلى بها الإمامان الجليلان في مثل هذه المواقف ، وبهذه المناظرة وأمثالها اقتدى خلق كثير من مقلدي الإمامين في الإلتزام بالأخلاق الفاضلة والأداب العظيمة في ادارة مسائل الخلاف ، وما أحوجنا إلى مثلها في عصرنا الحاضر [1] .

تلك صور من نماذج حية لسمو السلوك الإنساني ، عاش أفراده في عصر شهد لهم فيه بالوسطية والخيرية ، بنى بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمة من الأخلاق عجز الزمن أن ينجب مثيلاً لها ، بفضل أخلاقهم وآدابهم دانت لهم الدنيا في الوقت الذي صغرت في أعينهم وكبرت في أعين الآخرين .

كانت غايتهم وهم يتقلبون في مناشط الحياة رضا الله وطاعته ، واتباع سنة رسوله – عليه السلام – ، وإيثار ثواب الآخرة الدائم على متاع الدنيا الزائل .. ولذلك أدركوا أنهم كانوا أمة متفرقة تسودها الفوضى والاعتداءات ، لا حقوق مرعية ، ولا حرمات مصانة ، يرهب القوي لسطوته ، ويهان الضعيف لانعدام ظهره، جاءهم الإسلام على هذه الحالة ، فغاصت أشعة نوره إلى أعماقهم ، ليتنقى الباطن قبل الظاهر ، وما إن تحكمت شريعة الإيمان العادلة في نفوسهم حتى ظهرت على سلوكياتهم آثارها الطيبة ، فحملوها كما تعلموها من معلمهم الأول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأدوها بأمانة وإخلاص ، فاستحقوا أن ينطبق عليهم وصف ربهم لهم سبحانه وتعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا**

---

١ طبقات الشافعية الكبرى / ج ١ / ٢٢٠

عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾[1] .. وما نالوا هذا الوسام الرباني إلا لتمسكهم وإلتزامهم بالمنهج الذي أمروا باتباعه ، وقد فعلوا فرضي الله عنهم .

ونحن إذا كنا نعد أنفسنا من تابع تابع التابعين ، فليس الفارق بيننا وبينهم إلا هذا الإلتزام ، لكي نسعد بمثل ما سعدوا به في الدنيا ، ونطمع إلى رضي الله وجنته في الآخرة .. وإذا كانت حياة أولئك الناس قد خلت تقريبًا من مشكلات المادة وطغيانها فما أكثرها عندنا ؛ وما أكثر ما تكون خصاماتنا فيها .. فسنة السلف الصالح هي المنجاة إلى دار النجاة .

١ الآية ٨ من سورة البينة

الفصل الثاني

الالتزام بتطبيق التعاليم الإسلامية

قوة المسلم مستمدة من قوة الدين الذي يعتنقه ، وأي ضعف في هذا المسلم لا يعد ضعفا في الدين ، لأن هذا الدين مصدره الإله سبحانه وتعالى ، ميزه بالكمال والثبات ، وحصنه بالحفظ والخلود ، فأنى له أن يضعف أو ينهار ٠٠

إذن بقى أن يتطرق الخلل في من يعتنق هذا الدين ، فبحكم طبيعته البشرية يسعى الى تحقيق مآربه في الدنيا ولو على حساب تهلكة نفسه، من أجل هذا جعل الله هذا الدين الواقي والمانع والحامي لهذه النفس من الطغيان والغرور والعدوان بما فيه من تعاليم وحدود وتشريعات ، تعبد الله بها هذا الإنسان على وجه الأرض، فمن دخل في هذا الدين لزمته هذه التعاليم ، وأصبح مسئولا عن تصرفاته تجاهها سواء كان فيما بينه وبين ربه ، أو فيما بينه وبين نفسه ، أو فيما بينه وبين الناس ٠

والإسلام لا يقبل أن يكون معتنقوه أنصاف متدينين أو مزاجيين في تطبيقهم لتشريعاته ، لأن هذا منهج المشركين والمنافقين ، بينما منهج المسلمين الانقياد المطلق والطاعة التامة لمن آمنوا به وعبدوه وصدقوا برسوله ، ولا يتأتى ذلك الا بالالتزام بأوامر هذا المعبود عن طريق تبليغ الرسول ٠

ولا يكفي أن تكون كلمة الالتزام عند المسلم مجرد شعار يردده متى ما شاء ، بل لا بد من ظهور العلامات الدالة على هذا الالتزام كحقيقة محسوسة تبرز فضائل هذا المسلم عن غيره من اصحاب الأديان الأخرى ٠

فما هي يا ترى حقيقة هذا الالتزام ؟ نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تجيب عن هذا السؤال ٠ منها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل**

من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[1] .

فالآية الكريمة تدعو الى الثبات على هذا الايمان ، والعمل على تعاهده وتجديده كوجه من وجوه حقيقة الالتزام به ، ويقول تعالى : ﴿ **يسألونك عن الآنفال قل الآنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين * إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾**[2] .

فهذه الآيات تبين وجوهاً أخرى من حقيقة هذا الالتزام على أنه طاعة واصلاح وأداء عبادة ، والقيام بعمل صالح ، واستشعار الخوف والخشية من عذاب الله ، والطمع في رحمته ، اذا أراد هذا المؤمن أن يكون مؤمنا حقاً .

ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ﴾**[3]

كما تدل هذه الآية على وجه من جوه حقيقة الالتزام بأمر الله على أنه الاستجابة والانقياد التام ووجوب طاعة الرسول لما فيها من الحياة والنور ، وبغير هذا الانقياد والطاعة فانه يخشى على من يسمي نفسه مؤمنا أن يتحول قلبه عن هذا الايمان من حيث يعلم أن مصيره الى الله فسوف يحاسبه ويجازيه بقدر ما أخل في ايمانه وفرط فيه .

وفي السنة يعبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن حقيقة هذا الالتزام بالحلاوة الصادقة في مذاقها وأثرها ، وذلك في قوله عليه السلام : « **ثلاث من**

١ الآية ١٣٦ من سورة النساء

٢ الآيات من ١ - ٤ من سورة الآنفال

٣ الآية ٢٤ من سورة الآنفال

كن فيه وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[1] .

نعم لا يدل على صدق ايمان المؤمن والتزامه بدينه الا صدقه في محبته لربه ونبيه ، وأنه فوق كل حب ماديا كان أو معنويا ، ثم الادراك أن المحبة الدائمة بين المسلمين ما كانت متصلة بالله ، كما أن من حقيقة الالتزام بهذا الدين اظهار البغض لنقيضه ، وهو الكفر ، كأشد ما يكره انسان أن يؤمر بالقاء نفسه في النار مختارا غير مجبر .

ولقد حدد الرسول – صلى الله عليه وسلم – منهج الالتزام في نفسه وفي عشيرته في اكثر من موقف ، فها هو يعلن في خطبة الوداع [2] ان الربا موضوع، وأن أول ربا يضعه ربا عمه العباس ، وأن دماء الجاهلية موضوعة (أي المطالبة بالثأر) وأن أول دم يضعه دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وفي موقف المرأة المخزومية التي سرقت وحل عليها تطبيق الحد ، تصدى عليه السلام لتشفع الناس فيها ، باعلانه أن الالتزام بتطبيق حدود الله لا يتغير مع مكانة الأشخاص والأزمان ، فلو كانت التي عليها الحد بنت الرسول نفسه لما منع من تطبيق الحد عليها مكانتها من أبيها ، فكيف بمن هي بعيدة عن هذه المكانة ؟ .

وقد ادرك الصحابة الكرام هذا الفهم لحقيقة الالتزام بتعاليم الاسلام ، وطبقوها على أنفسهم قبل غيرهم ، فهذا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – يطبق منهج الالتزام على نفسه حين أعلن للناس في خطبة خلافته قائلا : (أيها الناس ، وليت عليكم ولست بخيركم ، ألا وراعوني بأبصاركم ، فإن استقمت فاتبعوني ، وإن زغت فقوموني ، وأن اطعت الله فاطيعوني ، وإن عصيت الله فاعصوني)[3] .

وهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يدرك حقيقة ايمانه ، ويلتزم بها

---

١ صحيح البخاري / كتاب الايمان / باب حلاوة الايمان / ج ١ / ١٠

٢ سيرة ابن هشام / ج ٤ / ٢٥١

٣ مسند ابي بكر الصديق / ص ١٤٨

من خلال محاورته لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلا له : (لأنت أحب اليَّ من كل شيء إلا من نفسي) ، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – : « **لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك** » ، فقال له عمر: (الآن ، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي) . فقال النبي – صلي الله عليه وسلم – : « **الآن يا عمر** »[1] .. أي الآن استقام وكمل ايمانك ، وذلك باظهار علامة الالتزام بأن حب النبي – عليه السلام – أعظم من حب الانسان لنفسه وولده .

ويؤكد القرآن حقيقة الالتزام بأمر الله وأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – بشكل قاطع فيقول تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾[2] .

وقد استجاب المؤمنون الصادقون من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لهذا الأمر فامتثلوه ، فمدحهم الله بقوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه** ﴾[3] .

فهذه حقيقة الالتزام ، طاعة واستجابة ، وتمسك وانقياد للحق ، وقبول بالحق واذعان له من غير تردد أو تهاون أو جدل أو مماراة .

ولكن حتى تتشرب النفس الإنسانية حقيقة هذا الالتزام لا بد أن تكون محتاجة الى حوافز وموجهات ووسائل تعينها على ذلك بمثابة الدعائم لهذا الالتزام فما هي يا تري هذه الدعائم ؟ .

---

١ صحيح البخاري / كتاب الايمان والنذور / باب كيف كانت يمين النبي – صلى الله عليه وسلم – / ج ٨ / ١٦١ /

٢ الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

٣ الآية ٦٢ من سورة النور .

١ - ادراك أثر الايمان نتيجة التمسك به :

إن الإنسان الذي دخل في حوزة الإسلام بإعلانه الشهادتين يعتبر مسلماً ، ولكنه حين يتوغل في حقيقة هذا الاسلام ، ويغوص في أعماق أوامره ونواهيه ، ويتعرف تعاليمه وتشريعاته ، يتحول الى مرتبة أعلى من الإسلام ، ألا وهي درجة الايمان ، وهو التصديق اليقيني بالعبودية الحقة لله سبحانه وتعالى ، وأن هذه العبودية لا تتحقق الا بالايمان الباطن والظاهر عند المؤمن ، بمعنى ألا يكون ممن تخالف أعمالهم ما يؤمنون به من شعائر هذا الدين وتشريعاته من ناحية ، وألا تكون تشريعات وتعاليم هذا الدين عند المؤمنين مجرد شعارات أو ترانيم كما هو الحال عند طوائف الكفر والالحاد من يهود ونصارى ومشركين وبوذيين.

بل لا بد أن يكون ايمان المؤمن نابعا من حاجته الى من آمن به وهو الله سبحانه وتعالى لاعتقاده بأن مصيره اليه ، وأنه محاسب عن هذا الايمان من حيث أنه عمل به أو لم يعمل .

كما تأتي حاجته الي هذا الايمان كمنبه داخلي يزداد أثره بقدر ما يتمسك به، فمن كان تمكسه بهذا الايمان كبيرا اندفع الى فعل الخير أكثر.

ومعلوم أن حاجة الانسان في هذه الحياة أن يكون دائم الشعور بالأمن والصحة والغني ، وهي مطالب تستوي فيها جميع البشرية ، ولكن المؤمن ينظر الى هذه المطالب على أنها وسائل لغاية عظيمة وهي ادراك رضي الله تعالي عنه يوم القيامة وتوفيقه له في الحياة الدنيا اذا ما تمسك بهذا الايمان حق التمسك .

لهذا نجد التوجيه القرآني يجلي لنا صورا بارزة في مجال التمسك بالايمان وما لها من آثار على أصحابها في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

يقول تعالي : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[١] .

وعبادة الله تعنى الايمان به وتوحيده بالألوهية ، فمن أراد أن يجعل له

---

١ الآية ٢١ من سورة البقرة .

الوقاية من شرور الدنيا والآخرة فعليه بالايمان والتمسك به والالتزام بأركانه وواجباته .

ويقول تعالى : ﴿ **إن الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين** ﴾[1] .

والصلاة مظهر من مظاهر الايمان العملي لا يشعر بعظيم أثرها الا المؤمن المحافظ عليها . .

ويقول تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2] .

والاستقامة تعني التمسك بالايمان ، وتأدية شعائر الدين ، مما ينتج عن ذلك حصول الأمن والفرحة بالفوز برضا الله يوم القيامة .

ويقول تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت انفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾[3].

وهذا مشهد آخر تصوره الآيات القرآنية لمن سينعمون بالنجاة من النار ، والفوز بالجنة والأمان من أهوال يوم القيامة ، بل وأن هناك من سيستقبلهم ليزف لهم خبر هذا النعيم ورضا الله عنهم ، كل ذلك بفضل تمسكهم بإيمانهم والمحافظة عليه في الدنيا .

ويقول تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[4] .

---

١ الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة المعارج

٢ الآية ١٣ من سورة الأحقاف .

٣ الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة الأنبياء .

٤ الآية ٩٧ من سورة النحل .

فكل عمل صالح يعتبر ثمرة من ثمار الايمان ، وعد الله عباده المؤمنين بأن يكفل لهم بسببه حياة طيبة في الدنيا ، ويجازيهم في الآخرة بأفضل مما كانوا يتقربون به اليه ..

هذه آثار الايمان لمن يتمسك به ، وما من شك أن المؤمن اذا حافظ على ايمانه في ساعة اشتداد الفتن والخصومات ، اعانه الله في طلب حقوقه ، برفع الظلم عنه.. بينما نجد أن من كان ضعيف الايمان أو المفرط فيه سرعان ما ينهار أمام خصمه فينقلب إما الى جاهل أرعن أو الي عالم متكبر يتنكر للقيم والاخلاق ، يريد الوصول الي الحق بادعاء الباطل ..

وصدق الله العظيم اذ يقول : ﴿ **ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾[1] .

وهذا وعد من الله صادق وحاصل لكل من يتمسك بدينه بأن الله سينصره ويدافع عنه بأسباب قد لا تخطر له على بال .

فكأن التمسك بهذا الايمان والمحافظة على تعاليم الدين يوجد لدى المسلم الوقاية من الوقوع في الشر أو التفكير فيه ، كما يعينه على مدافعة خصمه بالسبل التي ترضي عنه ربه وخالقه ، خاصة اذ تذكر انه محاسب عن هذا الايمان ، ومجزي بحسب ما يسلك في الحياة الدنيا ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، مصداقا لقول الله تعالي : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾[2] .

٢ - اتخاذ العبادات منهجا في الحياة :

العبادة بمفهومها الواسع تعني كل عمل صالح يتقرب به العبد الى ربه ، يكون موافقا لما جاء في الكتاب والسنة ، فالصوم والصلاة والزكاة والحج من العبادة ، وكل قول أو عمل من أعمال البر سواء كان ظاهرا أو باطنا فهو عبادة .

---

١ الآية ٣٨ من سورة الحج .

٢ الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

والعبادة هي جوهر الالتزام العملي والحسي ، باطنها الايمان وظاهرها الفعل ، وعلامتها المواظبة والاستمرار .

وإذا أمعنا النظر في المعنى اللغوي للعبادة ، نجده الخضوع والطاعة والاستسلام والانقياد والاذعان لمن تعبدنا وهو الله سبحانه وتعالي ، وهي في نفس الوقت الغاية التي من أجلها أوجدنا الله جل شأنه ، مصداقا لقوله تعالي : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** ﴾[١] .

نعم أوجدنا لنعبده وحده ، ونخضع ونذل له وحده ، ونستسلم وننقاد له وحده ، من أجل هذا أمرنا سبحانه وتعالى أن نقر بهذه العبودية طيلة حياتنا في كل يوم وليلة خمس مرات ، وذلك حين نردد في صلاتنا قول الله تعالى : ﴿ **اياك نعبد واياك نستعين** ﴾[٢] ، ملتزمين بأحكام هذه العبادة ، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح ، طالبين من الله العون في أدائها ، وأن يرزقنا طريق السالكين اليه بهذه العبادة ، وهو الصراط المستقيم .

ولكن العبادة الصحيحة لا بد أن يكون لها أثر في تهذيب أخلاق العباد ، وتقويم سلوكهم نتيجة استشعارهم عظمة المعبود وهو الله سبحانه وتعالى .

فكل عبادة شرعها الله وبينها رسوله – صلى الله عليه وسلم – فيها مصلحة للفرد والجماعة ، يقول تعالى : ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾[٣] ، ويقول تعالي : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[٤] .

وإذا كان الكائن البشري بطبيعته ميال للبحث عما يلتزم به من قانون أو نظام ، فليس أعدل ولا أوفى من نظام الله في خلقه المتمثل في هذه العبادات لتكون نظاما ومنهجا لحياة هذا الانسان وما يرتبط به مع الآخرين من علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية وخلقية وسلوكية وروحية .

---

١ الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

٢ الآية ٤ من سورة الفاتحة .

٣ الآية ٣ من سورة الملك .

٤ الآية ١٦ من سورة الأنبياء .

وإذا كانت العبادات هي مظهر الطاعة والاستجابة من جانب العبد لربه ، فهي أيضا من أسباب مشروعيتها أن تكون بمثابة الضوابط لتصرفات الانسان وسلوكه في الحياة ليس مع ربه فحسب ولكن مع جميع الخلق أيضا ٠

فالله سبحانه وتعالي حين شرع هذه العبادات جعلها تكليفات وليس مجرد طاعات يستشرف بها العبد أو يمتن بها على ربه ، لهذا فان أي عبادة لا يتحقق فيها الشرطان الأساسيان ؛ وهما الاخلاص والصواب ، فهي عبادة مردودة ليس لصاحبها الا التعب ، ويترجم النص القرآني هذا المعني في قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[1] ٠

نعم لا بد أن تؤدى هذه العبادة لله وحده ، ولا يصرف شيء منها لسواه ، ولا بد أن يكون أداؤك لهذه العبادة وفق ما أمر الله ورسوله ، لا بمحض ارادتك أو ارادة الناس ٠

فاذا ما قام الانسان بهذه العبادات على أساس هذين الشرطين ، أصبح منهجه في الحياة وفق هذه العبادات بما فيها من أمر أو نهي ، فلو سأل نفسه : لماذا يصلي ؟ ولماذا يزكي ؟ ولماذا يصوم ؟ ولماذا يحج ؟ ولماذا يتقرب الى الله بأفعال مخصوصة ؟ هل لأن الله أمره بذلك ؟ هذا صدق وعدل لا شك فيه ، ولكن لا بد أيضا أن في هذه العبادات من أمور تمس طريقة حياة هذا الانسان وتؤثر في مسلكه تجاه من يعيش معهم باعتباره أرقى المخلوقات وأكرمها عند الله سبحانه وتعالى ، فهو كائن مفكر ، ذو مزاج ، وذو ارادة ، بطبعه اجتماعي ، تتداخل مصالحه كفرد مع مصالح الجماعة بما تنشأ بينهم من علاقات ، فتأتي العبادات بمثابة المنظم والمذكر والمعين والمحفز نحو مصالح وعلاقات قائمة على كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وما عداها فهو موضوع ومرفوض٠

فالمؤمن الحق هو الذي يتخذ من هذه العبادات منهجا ونظاما لحياته يلتزم به في ساعة أدائه لعبادة ما وفي غير ساعة الأداء ، فاذا كانت الصلاة مثلا من

---

١ الآية ١١٠ من سورة الكهف ٠

وظيفتها أن تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فليحذر من يلتزم بالمداومة عليها أن يكون فعله مضادا لما تنهى عنه هذه الصلاة ، وكذلك بقية العبادات وأفعال البر والطاعة اذا لم يدرك العبد وظائفها وتظهر آثارها على سلوكه ، وتشكل حياته وطريقة معيشته ، لا يسمى عابدا بحق ، بل ربما يخشى عليه أن تكون عبادته من قبيل المراءاة والنفاق خوفا من سطوة فلان ، أو طمعا في تحقيق مصلحة عند فلان ، ومثل هذا قال عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث : « **وإذا خاصم فجر** » .. نعم هو انسان عابد ، ولكن لم يؤد العبادة على وجهها الصحيح ، فلذلك لم تتأثر نفسه بها فيستقيم معوجها وتتهذب أخلاقها ، ولكن من أداها ملتزما بشروطها منفذا أمرها ونهيها ، جعل الله له فيها عونا لتذليل العقبات وازالة الكربات التي يصاب بها في حياته ، ثم تكون له سببا في مرضاة ربه عنه وفوزه بالجنة في الدار الأخرة .. فالعبادة الحقة هي التي ينتصر بها الانسان على نفسه في كل شأن من شئون حياته أينما حل أو ارتحل .

٣ – فقه التعامل وادراك آثاره الاجتماعية :

تشتمل الشريعة الاسلامية على ثلاث ركائز رئيسة وهي : العقيدة ، والعبادة، والمعاملة .. وهي بمثابة الحلقات المتصلة مع بعضها لتكون البناء الديني الذي يحيا من خلاله المسلم مكوناً البناء الاجتماعي مع اخوانه المسلمين .

فالعقيدة تشكل القاعدة للعبادة ، والعبادة تنظم صور المعاملة وتوجهها الى الوجهة السليمة ، وأي شائبة تشوب عقيدة المسلم تؤثر بالسلب على عبادته وطريقة معاملته مع نفسه ومع ربه ومع من يعيش معهم من بني جنسه وكافة المخلوقات التي تحيط به .

ولما كان جانب المعاملة يسيطر على حياة الانسان بحكم بشريته وطبعه الاجتماعي استأثر من الدين الجزء الأكبر في فرض الاحكام والتشريعات والتعاليم الآمرة والناهية فيما ينفع هذه البشرية من قبل الله الخالق سبحانه وتعالى والعالم بأصلح القوانين لها في هذه الحياة .

من هذا المنطلق تبرز الشريعة الاسلامية أهمية هذا التعامل ووجوب فهمه فهما عميقا قائما على أساس العقيدة والعبادة حتى تكون الآثار المترتبة عليه آثارا ايجابية تدعو الى الاجتماع والتآزر بين أفراد المجتمع المسلم ٠

لهذا نرى الدين الاسلامي يحث المسلمين على ضرورة احسان المعاملة والاخلاص فيها ، والنصح من أجلها ، وأن حسن المعاملة يعد عبادة ، بل ويعتبر الدين هو المعاملة ، فالدعوة الى الله معاملة ، والتوجيه والارشاد بالقول والفعل معاملة ، والعمل نفسه معاملة وجميع الشئون التي تعتمد عليها حركة الانسان مما تربطه الحاجة بمن يعيش معهم من الناس فهو في معاملة دائمة ومستمرة لا تنتهي الا بانتهاء حياة الانسان نفسه ٠

يقول تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[2] ٠٠ ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – « **إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة** » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « **لله وكتابه ورسوله وأئمة المؤمنين وعامتهم وأئمة المسلمين وعامتهم** »[3] ٠ وقال عليه السلام : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** »[4] ٠

فإذا ما فهم المسلم حقيقة هذا التعامل واستطاع ان يطبقه كما وجهه الدين لا شك انه سيدرك بهذا الفهم ما يلمسه من آثار نافعة تعود عليه شخصيا وتمتد الى من يتعامل معهم لتحقق الاخوة الايمانية التي وصف الله عباده المؤمنين بها ٠

وأحوج ما يكون المسلم اليه في فهم التعامل الذي يريده الاسلام في وقت اشتداد الأزمات وكثرة الخصومات بينه وبين اخوانه المسلمين ، أو من يشاركونه انسانيته على وجه هذه الأرض ٠

---

١ الآية ٨٣ من سورة البقرة

٢ الآية ١٢٥ من سورة النحل

٣ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب النصيحة / جـ ٤ / ح ٤٩٤٤

٤ صحيح البخاري / كتاب الايمان / باب لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه / جـ ١ / ١٠

ولكي يكون حسن التعامل محققاً للمسلم ثمار الخير ومعيناً له على دفع الخلاف بينه وبين خصمه بما يرضى الله سبحانه وتعالى ، فعليه أن يتعرف أسس هذا التعامل ويلتزم بها ، خاصة في حدوث المنازعات والخصومات والخلافات .

الأساس الأول - الدين :

يتصل الدين بهذا التعامل من حيث كونه الهدف والغاية عند المسلم، فكل تصرف يمارسه هذا المسلم هو في الحقيقة تعبد لله ، يقول تعالى : ﴿ **قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** ﴾[1] .

وإذا استشعر المسلم أن تعامله عبادة علم أنه محاسب عليه ومؤاخذ به في حالة الاساءة ، ومثاب ومجزي بالخير في حالة احسانه المعاملة ، يقول تعالى : ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[2] ، ويقول تعالى : ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه** ﴾[3] ، ويقول تعالى : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾[4] .

فاذا علم المسلم أن تعامله مع الناس جزء من دينه وجب عليه أن يحرص على حسن التعامل ، ويلتزم بآداب الدين في هذا التعامل حتى وهو في ثورة الغضب ولجام المخاصمة سواء كان الحق له أو عليه لا يخرجه ذلك عن دائرة الالتزام بتعاليم دينه وحسن آدابه .

---

١ الآية ١٦٢ من سورة الأنعام

٢ الآية ١٨ من سورة « ق »

٣ الآية ٦١ من سورة يونس

٤ الآية ٧ من سورة الإسراء

الأساس الثاني - التواصل الاجتماعي :

وهذا الأساس يعتبر ثمرة من ثمار التعامل ، إذ أن التعامل لا يجري إلا بين طرفين يجتمعان على قضاء منفعة تعود بالفائدة عليهما ، وقد جعل الله المنافع متداولة بين البشر ، وسخر بعضهم لبعض ، يقول تعالى: ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾[1] فمما ورد في تفسير هذه الآية : (أن الله سبحانه وتعالى فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة - أي ليجعل بعضهم مسخرا في الأعمال ، لاحتياج هذا الى هذا وهذا الى هذا)[2] انتهى .

فكأنما التعامل وسيلة التقاء الأفراد فيما بينهم لحاجتهم الى بعض ، كما أن هذا التعامل وليد الاحتكاك والذي بدوره أن ينشأ عنه اقتراب ومحبة بين هؤلاء الأفراد ، أو افتراق وكراهية فيما بينهم .

لذلك يستلزم على المسلم أن يدرك حقيقة التعامل المثمر حتى في أوقات الشدة وبروز المنازعات والخلافات بين الخصوم ، فاذا لم تعتمد على العدل والانصاف والاحسان ورعاية الآداب لا يجنى من ورائها الا القطيعة والتفكك . ولكن حين يبقى للود مجال بين الخصوم وتسود المعاملة الحسنة بينهم قبل الخلاف وبعده ، لا شك أن آثار هذا التعامل تكون اجتماعية متآلفة متآزرة .

ولا تدرك حقيقة التعامل أو يفهم كنهه عن طريق كثرة العبادة والتبتل والانعزال عن الناس ، إذ في ظل هذا المناخ لا يحدث احتكاك أبداً ، ولا يعرف الانسان معدن أخيه الا بمشاركته له في أعباء الحياة ، فتتكشف له طبائع وأحوال من يشاركهم لولا هذا التعامل ما تعرف عليها .

ولهذا نرى التوجيه القرآني في هذا الصدد يجعل الاحسان في المعاملة هو وسيلة الاتصال الذي يحافظ على متانة الروابط الاجتماعية بين الناس ، مهما جرت

---

١ الآية ٣٢ من سورة الزخرف

٢ مختصر تفسير ابن كثير / جـ ٤ / ٧

بينهم الخلافات والخصومات ، اذا التزموا بحسن المعاملة قضوا عليها وهي في مهدها ، وكيف ينشئون تواصلا اجتماعيا قائما على المحبة لبعضهم البعض الا إذا ادركوا دور التعامل بالحسنى فيما بينهم ، يقول تعالي مخاطباً نبيه – صلى الله عليه وسلم – والخطاب لأمته : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[1] ، وفي مجال التعامل مع الوالدين يقول تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾[2] ، وفي مجال التعامل بين الزوجين يقول تعالـــى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾[3] .. عدا ما ترد من آيات كثيرة في القرآن الكريم يكون الخطاب فيها جماعياً بلفظ المؤمنين ، وتحثهم على التمسك بالاخوة الايمانية فيما بينهم .

كما أن حسن التعامل ليس فقط مطلوباً بين المسلمين أنفسهم ، ولكن كذلك بينهم وبين غير المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين** ﴾[4] ..

ويقول تعالى : ﴿ **وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾[5] .

فاذا ساد هذا الفهم جو التعامل تقل الخلافات وتزول الخصومات ولا تبقى إلا الآثار الطيبة بين الخلق يزدادون بها اجتماعا وقربا من بعضهم البعض .

---

١ الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

٢ الآيتان ٢٣، ٢٤ من سورة الإسراء

٣ الآية ١٩ من سورة النساء

٤ الآية ٨ من سورة الممتحنة

٥ الآية ٦ من سورة التوبة

يقول الشاعر :

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تولد في قلوبهم الوصالا

وتزرع في القلوب هوىً ووداً ... وتكسوهم اذا حضروا جمالا[1]

الأساس الثالث - الأخلاق :

الأخلاق هي القيم المعنوية التي أودعها الله جميع المخلوقات بلا استثناء ، يمارسها كل نوع من أنواع الكائنات بما ركبت فيه من غرائز ، ولكنها فيما دون الكائن البشري تتم بصورة الهامية ، بينما عند الانسان نجد الأخلاق خاضعة للملكات خاصة من عقل وارادة وتفكير وعلم وعمل ، كما أن هناك دور للعادات والتقاليد والاعراف السائدة بين المجتمعات البشرية .

وهي تتفاوت هبوطا وصعودا بحسب منشؤها والباعث لها ، فالأخلاق المنبثقة من الأديان السماوية لا شك أنها أخلاق تمتاز بالكمال والرقي ، وأما ما كان منشؤها البشر فهي كثيرا ما يعتريها التناقض والذبذبة وعدم الثبات .

والأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بالتعامل ، بل هي من احدى ثمراته، يحتاج اليها البشر لتأكيد التواصل الاجتماعي الذي تفرضه عليهم طبيعتهم البشرية .

والأخلاق في الاسلام تعد من اكبر الوسائل حجماً وأكثرها أجراً اذا ترجمت الى أفعال والتزم بها العباد ، اذ أنها تعتبر من الأمور التعبدية تزيد من حسنات العبد وترفع من اجر العمل الصالح الذي يؤديه خلال حياته في الدنيا ، كما انها سبب في نقصان اجره أو اعلاء سيئاته اذا أهملها أو اتخذها وسيلة ايذاء لغيره .

وقد جعل الله في هذه الاخلاق وظيفة روحية وهي اقناع النفس بأن معاملة الناس على اساس النفع المتبادل أمر يزول بزوال هذا النفع أو عدمه ، وحينئذ لا تواصل ولا علاقات حسنة ولا جماعة . وكأنما يعيش الفرد لأحاديته ، فمن كان هذا تفكيره في الحياة فهو غليظ القلب ، حاد الطبع ، بخيل جبان ، جواظ متكبر ،

---

١ ديوان أبي العتاهية / ص ٣٨٥

ولكن من عامل الناس على اساس ادراك ما عند الله من فضل واجر امتثالا لأمر الله ، واقتداء بسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فهذا طيب النفس ، نظيف القلب، يحب الخير له ولاخوانه ، وهو في نفس الوقت يدرك دوره تجاه من يتعامل معهم تمام الادراك ان حساب الآخرة أبقى له من حساب الدنيا ، فلا يعمل من اجل المقابل الزائل ، ولكنه يطمع في الفضل المتواصل من لدن الله العزيز الحكيم .

فالرحمة والمودة والعطف والحنان والحب والاحترام ، والشجاعة والمروءة والكرم والتعاون والتسامح والنجدة والشهامة والايثار والتواضع ، ونصرة المظلوم واغاثة الملهوف واعانة المحتاج واماطة الأذى ومواساة المصاب ..كل هذه أخلاق حميدة إذا ما سادت بين أفراد المجتمع الإسلامي انتجت غرسا طيباً وأجيالاً تحافظ على وحدة هذا المجتمع واستمرارية التواصل بين أفراده .

وقد توجد مثل هذه القيم لدى المجتمعات غير الاسلامية ، ولكنها لا تقوم على وازع ديني ، وبينها وبين ما يعتقدونه من آلهة وقوانين انفصال تام ، وأغلب هذه المعاني يمارسها غير المسلمين بدافع مادي ، إلا المسلمين فإنهم يعلمون تمام العلم أن دينهم قد حثهم عليها وجعلها من معايير الصلاح لدى الفرد المسلم ، وأنزلها من أمور العبادة المكانة العالية ، واحتلت من نصوص الكتاب والسنة النصيب الوافر ، وما ذلك إلا لأن أمرها عظيم في الإسلام ، وعظيم بالنسبة لتكوين الشخصية الإسلامية المتميزة .

وفي مجال الخلاف والخصومة يبرز دور الاخلاق كموجه ودافع نحو التحلي بها في مثل هذه المواقف خاصة عند المسلم المتمسك بإسلامه والملتزم بتعاليم دينه، فيتخذ من هذه المكارم معبراً الى مصالحة خصمه، والانقياد للحق والاذعان له ، وايثار الود والتواصل على القطيعة والتدابر ، لا سيما وانه وهو يطبق على نفسه هذه الأخلاق يعلم انه يتقرب الى ربه بعمل صالح ليرفع من رصيد حسناته يوم القيامة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس**

والله يحب المحسنين ﴾[1] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾[2] ، وقوله تعالـــــى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين** ﴾[3].

فنرى أن هذه الآيات تحث على العفو والصفح ومغفرة الزلات لعثرات الإخوان ، وهي تبدأ أو تنتهى بما يربط هذه المعاني بالأمر التعبدي لله سبحانه وتعالى .

وقد جاء المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى البشرية بمكارم الأخلاق ، وهو المعلم الأول لها ، دعا الناس عامة والمسلمين خاصة الى التمسك بها واشاعتها فيما بينهم ، والحرص بالمحافظة عليها ، وجعلها بمنزلة الصوم والصلاة، واتسمت سنته وسيرته العطرة بمواقف أخلاقية لا زالت شاهدة وإلى يوم القيامة بما لهذا الدين من فضل على من يلتزم به ويقتدي بهدي رسوله الأمين – صلى الله عليه وسلم – .

فمما دعا اليه عليه السلام ، قوله : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** »[4] ، وقوله عليه السلام : « **ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا** »[5] ، وقوله عليه السلام : « **أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً** »[6] ، وقوله عليه السلام : « **وانكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن ليسعهم منكم حسن الخلق وبسط الوجه** »[7] ، وقوله عليه السلام : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** »[8].

---

١ الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

٢ الآية ٣٧ من سورة الشورى

٣ الآية ٤٠ من سورة الشورى

٤ صحيح البخاري / كتاب الإيمان / باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده / ج ١ / ٩

٥ الأدب المفرد – باب رحمة الصغير – ٣٦٣/١٦٩

٦ الأدب المفرد – باب حسن الخلق – ٢٧٢/١٣٥

٧ مستدرك الحاكم / كتاب العلم / ج ١ / ١٢٤

٨ صحيح البخاري / كتاب بدء الوحي / ج ١ / ٢

نعم اذا استشعر المسلم هذه النصوص ، وعلم أن دينه يحثه على تقديم الخير لدفع الشر اينما كان وتحت أي ظرف ليس عليه الا الخضوع والطاعة وابتغاء مرضات الله ، واتباعاً لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولو التزم المسلمون بهذا الهدي لما وجد مجال للخلاف والنزاع فيما بينهم ولساد السلام ربوع الأرض .

وهكذا نجد الأخلاق كيف تؤثر على حياة الأمم والشعوب ، الى جانب انها تمثل الجانب العملي من السلوك في حياة الأفراد ، اذا تجردت منها الأمة فقد فقدت خصائص الروح التي تميزها في عالم الاحياء ..

يقول الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

٤ - رعاية الحقوق التي نصت عليها الشريعة بين المسلمين :

من محاسن الشريعة الإسلامية أنها أصلت قواعد الأداب الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم ، وجعلت هذه القواعد حقوقاً فردية واجتماعية في آن واحد ، واعتبرت هذه الحقوق بمثابة وسائل الاتصال الاجتماعي ، فلم تكتف بالإعلان عنها أو بيانها بصورة مجردة ، بل ربطتها بالعقيدة وجعلت أداءها والقيام بها في مقام العبادة ، فيثاب الفاعل لها والمواظب عليها ، ويخشى على المفرط فيها بالمحاسبة والجزاء غير المحمود بين يدي الله سبحانه وتعالى في الدار الآخرة .

ومما شرعته العقيدة الإسلامية من هذه الحقوق ، حقوق الوالدين ، والزوجين ، والجار ، وذوي القربى ، وحقوق الكبار والصغار ، والوجهاء والعلماء ، حقوق الحاكم على رعيته ، وحقوق المرضى والمصابين ، كما انها شرعت للإنسان المسلم عامة حقوقاً بحسب الأحوال التي يتعرض لها في حياته وهو يعيش بين أظهر إخوانه المسلمين ، فألزمهم الوفاء بها والحرص على رعايتها كل حسب استطاعته ، ودرجة علاقته بأخيه المسلم .

---

١ البيت للشاعر حافظ إبراهيم

يقول الله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه احسانا** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا** ﴾[2] ، ويقول تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[3] .

وهناك من الحقوق ما شرع للتربية والإعداد للجيل المسلم كالتحية والإستئذان ، وغض البصر بين الرجال والنساء المحارم ، قال تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾[5]، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم** ﴾[6] .

وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - حقوق المسلمين فيما بينهم في نصوص كثيرة من سنته الشريفة ، منها قوله عليه السلام : « **للمسلم على المسلم ست بالمعروف : يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويتبع جنازته إذا مات ، ويحب له ما يحب لنفسه** »[7] .. وهذا الحديث يعتبر باب جامع لحقوق المسلم على أخيه المسلم ، ومن قبل قد حثت آيات الكتاب العزيز على هذه الحقوق ،

---

١ الآية ٨ من سورة العنكبوت

٢ الآية ٣٦ من سورة النساء

٣ الآية ٥٩ من سورة النساء

٤ الآية ٨٦ من سورة النساء

٥ الآية ٣٠ من سورة النور

٦ الآية ٥٨ من سورة النور

٧ سنن ابن ماجه / كتاب الجنائز / باب ما جاء في عيادة المريض / جـ ١ / ٤٦١

فماذا يبقى على المسلمين سوى رعايتها والقيام بها في حالة الصفاء والود فيما بينهم ، وهم بأمس الحاجة الى تذكرها والوفاء بها في حالة النزاع والخصومة ، اذ أن هذا مجال وظيفتها ، وذلك هو دورها ، ان تقاوم الشحناء وتزيل البغضاء ، وتقضي على الكراهية التي تخلفها الخصومات الناشئة فيما بينهم .

ولم تكن هذه الحقوق خاصة بالمسلمين ، بل تمتد لتشمل الطوائف غير المسلمة والتي تعيش في بلاد الإسلام ، ليبقى أثر هذا الدين ظاهراً ومحسوسا للبر والفاجر ، فيزداد المسلم تشريفاً وانتماءً وشكراً لربه الذي هداه الى الإسلام ، وينعم غير المسلم بسماحة هذا الدين وخصائصه التي ربما لا يجد مثيلا لها حتى في دينه الذي يعتقده ، فلعله يهتدي بهذه الخصائص فيعتنق الإسلام بمحض إرادته واختياره ، وبما يرى من مواقف المسلمين ورعايتهم لحقوق بعضهم البعض، وحرصهم على التمسك بآداب دينهم حتى في مواقف النزاع .

فكم من غير المسلمين رجعوا عن ديانتهم ودخلوا في الإسلام وهم في موطن النزاع والخلاف مع المسلمين ، أنصفهم الله في دعواهم وأظهر لهم حقوقهم المادية، وذلك بفضل امتثال المسلمين لآداب دينهم حتى مع هؤلاء منفذين قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[١] ، ومتذكرين قول الله تعالى : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾[٢] . وهم في نفس الوقت مقتدين بسنة نبيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – المعلم الأول للأخلاق والآداب، والرسول المعين لحقوق الإنسان والمطبق لها قبل أن ينادي بها قوم ليسوا لها بعاملين .

فها هو عليه السلام يجاوره يهودي ، ويتعرض له بالأذى في صباحه ومسائه، لم يكن عليه السلام يرد عليه بمثله لأن ليس ذلك من أخلاقه ، ولكن

١ الآية ٨ من سورة المائدة

٢ الآية ٣٤ من سورة فصلت

الموقف حين مرض هذا اليهودي ، فلم يمتنع الرسول – عليه السلام – من عيادته بحجة انه كافر معاند ، وكذلك انه جار مؤذي ، لم يفكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذه الأمور ، بل قام بزيارته ليطمئن عليه ، مما جعل هذا اليهودي يستعظم دين الإسلام الذي من أجله جعل يوصي ابنه بالدخول فيه ومتابعة محمد – صلى الله عليه وسلم .

وموقفه صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش حين دخل مكة فاتحا ، وقد ارتعدت فرائصهم حين ناداهم وسألهم عما يدور في خواطرهم بعد استسلامهم وخضوعهم له بعد قتال دام سنين عقدوا فيها المؤامرات تلو المؤامرات على قتله واراقة دمه بين القبائل لنصرة شركهم وأصنامهم ، فنصره الله عليهم بالحق الذي رأوه رأي العين ، فاذعنوا له واعلنوا بدخولهم فيه لما سمعوا المصطفى – صلى الله عليه وسلم – يقول لهم : «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».. نعم كلمة جمعت معاني السماحة والخلق العظيم والأدب الرفيع الذي لو تمثلت به أمته فيما بينهم وازدادت تمسكا به في حال الخصومات والنزاعات ، لحل الانصاف ورضى الطرفان بحكم الله ورسوله ، وانقلبت الخصومة والعداوة الى حب وصفاء وتقارب .

يقول الشاعر [1] :

عامل الناس برأي رفيق ... والق من تلقى بوجه طليق
فاذا أنت جميل الثناء ... واذا أنت كثير الصديق

١ ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٨٥

الفصل الثالث

مجاهدة النفس وحملها على الالتزام بأدب الخصومة

النفس بين المعنى اللغوي والمدلول العلمي :

اتفقت جميع معاجم اللغة على أن (النفس) معناها الروح[1] ، وهي كذلك ذات الشيء وحقيقته .

ويتصل لفظ (النفس) بألفاظ أخرى مترادفة لما تتضمن من معاني مشتركة بينها وهي الروح والقلب والعقل ، فإن هذه الألفاظ إذا ما وردت على اطلاقها لا تعني إلا شيئا واحدا وهو الأصل والجوهر ، فنفس الشيء روحه ، وقلب الشيء لبه وأصله ، وعقل الشيء أساسه وروحه ، فهي من هذا الباب مترادفات لمعنى واحد وهو «الروح».

وفي المعنى الأول للنفس وهو « الروح »

يقول الشاعر :

أصبحت ألعب والساعات مسرعة ينقصن رزقي ويستقصين أنفاسي[2]

وفي المعني الثاني للنفس (ذات الشيء وحقيقته)

يقول الشاعر :

نسيت منيتي، وخدعت نفسي وطال على تعميري وغرسي[3]

وإذا ما أطلق لفظ (النفس) لا يراد به إلا الإنسان الكائن البشري من بين

---

١ المعجم الوسيط – باب النون – مادة (نَفَسَ) – جـ ٢/ ٩٤٠.

٢ ديوان أبو العتاهية ، ص ٢٢٦

٣ نفس المصدر السابق ، ص ٢٢٣

المخلوقات ، على اعتبار أنه عاقل ناطق مدرك مكلف بالعبادة والعمل ، فمجزي على عمله وسلوكه .

كما أن النفس البشرية هي محل المعقولات والمدركات والمحسوسات ، وما العقل والروح والقلب إلا صفات لهذه الذات الجوهرية التي جعلها الله مستودع الأسرار ، ومجمع القوى والأفعال ، علاقتها بالعرض المحيط بها (الجسم المادي) علاقة تدبير وتصرف ، يقوم الجسد بها ولا تقوم به . تتحكم في أسبابه المادية ، ولكنها لا تتأثر بما يطرأ عليه من تغير الأحوال ، فهي فاعلة عاقلة متحركة مريدة ناطقة ، مخاطبة ومكلفة ، فإما أن تكون مؤمنة طائعة ، وإما أن تكون كافرة جاحدة، وإما أن تكون عاصية منحرفة[١] .

نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية :

لعل القرآن الكريم هو أول من وجه الكائن البشري نحو التفكر في ذاته وسبر أغوار نفسه ، بل وجعل الله التمعن والتفكر عند الإنسان أحد سبل الهداية والتعرف إليه لعبادته حق العبادة ، قال تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرًا من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[٤] .

وبنفس المعاني التي أشرنا انطلق الخطاب القرآني الى النفس البشرية موجها أو محذرا أو مرغبا اياها أن تفعل الخير ، وتبتعد عن الشر ، لأن الله الذي خلقها هو الذي جعلها موضع التكريم بما أودع فيها من غرائز الاستجابة الفطرية، فاقتضت حكمته ان يعاملها في اسلوب الخطاب معاملة الكائن الموجود

١ مدارج القدس في معارج النفس ، ص ١٥
٢ الآية ٢١ من سورة الذاريات
٣ الآية ٨ من سورة الروم
٤ الآية ٥٣ من سورة فصلت

الحي المتميز بالحركة والارادة والعقل والنطق والفعل ، فنجده من حيث يأمر هذه النفس بأن تعبده وتطيعه ينسب إليها فعل الإنسان أو تركه ، كما يجعلها موضع الذم والمدح فيما تأتي من أفعال ، ويحملها مسؤولية الإيمان بما جاء به الرسل وانها سبب الضلال والخسران في حالة نكوصها عن الحق الذي تدعى اليه ، كما أنها موضع الحساب والجزاء يوم القيامة.

قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوي فإن الجنة هي المأوى** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين** ﴾[6] .

هذه الآيات وغيرها في كتاب الله تبين مكانة النفس من أمر الدين ونواهيه ، وفي الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه** »[7] ، ويقول عليه السلام : « **ما من نفس تموت تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجع ذلك الى قلب موقن الا غفر الله لها** »[8] .

وقد عبر عنها صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور بالقلب ، فقال عليه

---

١ الآيات من ٧ – ١٠ من سورة الشمس

٢ الآية ٣٨ من سورة المدثر

٣ الآية ٤٠ من سورة النازعات

٤ الآية ١٣ من سورة السجدة

٥ الآية ٣٤ من سورة لقمان

٦ الآية ٥٦ من سورة الزمر

٧ سنن ابن ماجه / كتاب الصدقات / باب التشديد في الدين / ج ١ / ٢٤١٣٩

٨ سنن ابن ماجه / كتاب الأدب / باب فضل لا إله إلا الله / ج ١ / ح ٣٧٩٦

السلام : « **ألا وأن في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب** »[1] .

هذه النفس كما قلنا حين خلقها الله كتب لها الاكرام والرفعة على سائر المخلوقات إلى يوم القيامة وذلك باسجاد الملائكة لآدم عليه السلام الذي يمثل أول نفس انسانية ، قال تعالى : ﴿ **واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا** ﴾[2] ، وجعل هذه النفس مكرمة على كثير من المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[3] . ثم جعل هذه النفس خليفة على الارض دون سائر المخلوقات ، فقال تعالى : ﴿ **واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[4] .. فهذه النصوص تعني ان النفس الانسانية خلقت من اجل وظيفة عظيمة وهي عبادة الله سبحانه وتعالى ، ثم اعمار الأرض التي جعلها الله مستودعا ومستقرا لهذه النفس ، وذلك من وظائف الاستخلاف الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة .

إلا أن هذه النفس بما ركب فيها من طبيعة مزدوجة من الروح والجسد لم يشأ الله ان يجعلها نفسا حيوانية ، الهدف من وجودها تحقيق مطالب الجسد ، ولم يشأ كذلك أن يجعلها روحا ملائكية بحتة الهدف من ايجادها التحليق الروحاني في ملكوت السموات فقط ، ولو كان كذلك لما ناسب ان تعيش على مثل هذه الأرض ، ولكان مطلب الروح ومطلب الجسد اما امران متناقضان واما غير ممكنين وحينئذ تصبح هذه النفس سرابا لا حقيقة لها ،وكذلك لكان خلق الله لهذه النفس على هذه الكيفية لا معنى له البتة ، وحاشا وكلا ان يكون خلق الله عبثا ولهوا ، وهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا**

---

١ صحيح البخاري / كتاب الايمان / باب فضل من استبرأ لدينه / ج ١ / ٢٠.

٢ الآية ٣٤ من سورة البقرة .

٣ الآية ٧٠ من سورة الإسراء

٤ الآية ٣٠ من سورة البقرة

وانكم الينا لا ترجعون ﴾[1] .

ولكن الله مكن لهذه النفس أن تمارس غُرائزها المادية بما يكفل صلاح هذا الجسد وقوامه وذلك بما خلقه لها على هذه الأرض من زينة وشهوة ومتاع ، ليسد به هذه الغرائز المادية ، ثم جعلها تترقى عن مستوى المادة الى عالم الروح والقيم المجردة بما يتوقف عليه من تهذيب لهذه الغرائز لكي تكون متوازنة مع مطالب الجسد ثم تحقق وظيفة العبودية التي خلقت من أجلها واختيرت أن تكون مكلفة بحمل هذه الأمانة بين المخلوقات قاطبة ، فشرع لها طريق التعبد لكي يربطها الي أعلى عليين ، فإذا ما امتثلت أوامره سمت وإذا ما صدت واستكبرت انحرفت وتردت الى أسفل سافلين ، فكأنما شرع الله هذا الدين ليكون ضابطا للنفس الانسانية أثناء تحقيقها لمطالب الروح والجسد ، حتى ولو كانت هذه النفس عاقلة مدركة مريدة ، فهي عدوة ما لم توجه ، وهي مؤمنة نقية طاهرة اذا صغت وانقادت لما يحييها ويرفعها الى درجة الفردوس الأعلى .

ومعلوم أن من يشرع لنفسه قانونا لا يناقض به نفسه ، بل ولا بد وأن يأتي قانونه موافقا لرغبات نفسه ومنقادا لهواها ومصطبغا بمزاجها، من أجل ذلك خالق النفس سبحانه وتعالى جعل الوازع والموجه لهذه النفس من خارج كيانها الغريزي ولكنه مرتبط بفطرتها الطبيعية ، فإذا ما عقلته اهتدت ورشدت ، واذا ما تجنبته ضلت وخسرت وغوت ، وبهذا تتحدد نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية على أنها كائن مكلف لا مجموعة غرائز بهيمية ولا هي نسيج روحاني يصارع غرائزه المادية لأنه ممنوع من اشباعها ، بل جاء تكليفه بما يتفق وكيانه البشري الذي يحقق له التوازن بين مطلب الروح ومطلب الجسد ليجعله يسمو بروحه الى عالم القيم ويحيا بجسده في عالم المادة وفق ضوابط العقيدة ومعايير الدين .

---

١ الآية ١١٥ من سورة المؤمنون

موقف النفس الإنسانية من دعوة الحق :

اختار الله سبحانه وتعالى الإنسان من بين المخلوقات لحمل رسالة العبودية والالتزام بها ، قال تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾[1] ، والذي عليه أكثر أهل العلم أن الأمانة هنا المقصود بها أوامر الدين ونواهيه .

ولعل حمل الإنسان لهذه الأمانة في الوقت الذي أعلنت فيه من هي أكبر من الإنسان خلقا عجزها عن ذلك ، يعني أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكرم هذا المخلوق ويشرفه بعبوديته له ..

ولكن كما أسلفنا أن الإنسان لا يصلح ضابطه أن يكون من ذات نفسه فلذلك لم يجعل الله أمر الهداية إلى عبادته محل افتراضات تنبع من الإنسان تبعًا لهوى نفسه ، بل أنزل الكتب والبراهين وأرسل الرسل والأنبياء ، بعد أن زود نفس الانسان بأسباب الاهتداء إليه من عقل وإرادة وحرية لئلا تكون هناك حجة لهذا الإنسان عند ربه يوم القيامة أنه استحق العذاب لأنه لم تتحقق له الهداية في الدنيا فهو غير مسئول عن ذلك .

بلغت الرسل ما كلفت به وأنزلت الكتب تعلن دعوة الحق صريحة واضحة ، تخاطب نفوسا واعية مدركة ، فحري بها أن تستجيب بلا عنت ولا ريب ، إلا أن هذه النفوس انقسمت أمام دعوة الأنبياء والرسل إلى ثلاثة أقسام :

١ – نفس عرض عليها الحق فاهتدت إليه بفطرتها السليمة وقبلته طائعة مختارة بلا تردد أو شك ، وهذه سماها القرآن النفس المطمئنة ، وقد مدح الله أصحاب هذه النفس في كتابه العزيز مميزا صفاتهم كأمثلة ونماذج عملية في موضع القدوة والاحتذاء ، فمما ذكر عنهم سبحانه قوله جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا**

---

١ الآية ٧٢ من سورة الأحزاب

بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصباهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا** ﴾[4] .

هذه الصفات لما توافرت في هذه النفس آمنت إيمانًا حقيقيا ، وكسبت في ايمانها خيرًا فاستحقت وعد الله في الآخرة بالرضوان والجنة وعجل لها هذه البشرى قبل موتها حتى تزداد حبًا وتعلقًا به، فقال تعالى : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة *ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي** ﴾[5] .

٢ – ونفس عرض عليها الحق فأقبلت إليه ولكن تقلبت في أحوالها مع الاستقامة لهذا الحق ، فتارة تسمو بها قيم الدين إلى أعلى فتكون نقية طاهرة عابدة مؤمنة ، وتارة تخلد بها غرائز الجسد ودوافعه إلى عالم المادة والشهوة ويكون ذلك من طبعها الذي يتحكم في قيادتها فتنحرف مع وجود الضابط والمنبه ، فتعيش في صراع طيل حياتها بين القيم المعنوية العالية والغرائز المادية المتضعضعة ، فلا هي مخلصة في أمر الآخرة ولا هي مقصرة في أمر الدنيا ، ولكن بين هذا وذاك ، وكثيرًا ما تعود إلى الحق ، هذه النفس سماها القرآن النفس اللوامة ، وأصحاب هذه النفس أكثر الخلق على ظهر

---

١ الآية ٢٨ من سورة الرعد
٢ الآية ٣٥ من سورة الحج
٣ الآية ٣٧ من سورة النور
٤ الآية ٢٦ من سورة الفتح
٥ الآيات من ٢٧ – ٣٠ من سورة الفجر

هذه الدنيا ، ومن صفات هذه النفس أنها تلوم صاحبها على فعل الذنب وتجعله دائم المحاسبة مع كثرة وقوعه في المعصية ، ومن صفاتها أيضًا الاعتراف بالخطأ والإسراع إلى التوبة ، وتجديد الإيمان ، وإبدال العمل السيء بالصالح ، والابتعاد عن المكابرة والعناد ، سرعان ما تثوب إلى الحق تؤثر فيها النصيحة ، ذكر الله أصحاب هذه النفس قائلا سبحانه وتعالى : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم** ﴾[١]، وقال تعالى : ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾[٢] .

وضع الله هذه النفس موضع القسم كمنزلة اختارها الله من بين مخلوقاته ليقسم بها مما يدل على شأن هذه النفس عنده جل شأنه ، فقال سبحانه: ﴿**فلا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾[٣].

٣ – ونفس عرض عليها الحق فصدت عنه ، وجحدته وتنكرت له ، وبادرته بالعدواة ، معطلة بذلك كله ما أوتيت من منطق وعقل وحواس وشعور ، اختارت للعيش هدفًا ماديًا بحتًا وهو اشباع غرائزها ، وأسلمت قيادها للهوى والرغبة ، فعبدت ما تشتهي وفعلت ما تريد ، حتى أصبحت نفسًا غير سوية ، أينما يوجد سوء تقترن به ، فلذلك سماها القرآن نفسًا أمارة بالسوء، وأصحاب هذه النفس هم الكفار والملحدون والفساق والفجار والمنافقون ، ذكر الله من أوصافهم ما بسط في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً** *

١ الآية ١٠٢ من سورة التوبة

٢ الآية ١٣٥ من سورة آل عمران

٣ الآيتان ١ ، ٢ من سورة القيامة

٤ الآية ٧٠ من سورة الأنعام

الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا * ذلك جزاؤهم جنهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[2] .

فهذه هي مراتب النفس وأحوالها مع الحق الذي بعث به الأنبياء والمرسلون ، بين خوف ورجاء وطمع ، وشك وجحود ونكران ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا** ﴾[3] ، فالنفس المؤمنة نفس سخية ، يقودها حسن الخلق إلى كل فضيلة ، لا تبالي أين تفعل الخير ومتى تفعله ، إذا كان ذلك فيه رضوان الله وجنته ، والنفس غير المؤمنة عكس ذلك تمامًا ، مناخها المنكر ، ودينها المادة ، وإلهها الهوى ، أينما توجه لا تأتي بخير .

بقي من طبيعة هذه النفس على اختلاف مراتبها أنها مخلوقة ، والمخلوق يتصف بالسلب والايجاب ، ومن صفات السلب عند النفس أنها تغفل وتنسى وتكسل ، كما تتصف بالجبن والهلع والفتور والتراخي ، والتواكل وقلة العزيمة ، من أجل ذلك استحقت أن تذكر بين الحين والحين، وأن على المؤمن الذي يجد نفسه قد اعتراها مثل هذه الصفات المسارعة إلى علاجها ومجاهدة أمرها ليلا ونهارا حتى تفئ إلى أمر الله ويستقيم خلقها باستقامتها على أوامر الله ، واتباعها هدي المرسلين ، من أجل ذلك على كل نفس غلب عليها حب الدنيا وسيطرت شهواتها وغرائزها عليها وهي مسلمة مؤمنة أن يجاهدها صاحبها ويحملها على الحق ، وتكون مجاهدتها بعدة أمور يجب الالتزام بها والمحافظة عليها من أهم هذه الأمور :

---

١ الآيات من ١٠٣ – ١٠٦ من سورة الكهف

٢ الآية ١٧٩ من سورة الأعراف

٣ الآية ١٧ من سورة الكهف

١ - مضاعفة العمل الصالح :

ونعني بذلك الاستزادة والإكثار من الأعمال الصالحة بما في ذلك المحافظة على العبادات المفروضة ، فالعمل الصالح وسيلة العبد للتقرب من ربه ، كما أنه أمارة الإذعان والخضوع والتذلل من قبل العبد بين يدي خالقه ومولاه .

وبطبع النفس أن تميل إلى الدعة خاصة إذا ملأ الفراغ معظم ساعتها، وهنا ينشط الكسل والنسيان إلى رغبات هذه النفس فتتثاقل عن أداء الواجب التعبدي ، ولا يكون همها إلا السعي الدنيوي الذي تدأب له ليلا ونهارا ، وحيئذ تتحول إلى نفس قاسية ، حادة غليظة متكبرة ، لا مكان للقيم والعواطف عندها ، بل وتحبذ الوقوع في المنكر وفعل السوء بمحض ارادتها ، لأنه لا يوجد ما يعمل على ترقيها سوى نزر يسير مما تعودته أو رأت غيرها يقوم به فقلدته ، فلذلك لزم لها أن تمحو سيئاتها بكثرة الحسنات التي هي ثمرات الأعمال الصالحة ، وقد وجه القرآن حول هذا الجانب بآيات كثيرة ورغب في اتيانها ، منها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلي ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[٤] ، وقال تعالى : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين**

---

١ الآية ١١٤ من سورة آل عمران

٢ الآية ٩٠ من سورة الأنبياء

٣ الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة المؤمنون

٤ الآية ١٣٣ من سورة آل عمران

٥ الآية ١٧٠ من سورة الأعراف

اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[1] .

تلك هي ثمرة الأعمال الصالحة والاكثار منها تعد النفس وتربيها على الفضيلة وحسن الخلق ، وتذكرها بموقفها بين يدي الله يوم القيامة فلما تستغرق النفس في طاعة الله تلين ، وتقبل على فعل الخير لا محالة، وتنصرف عن داعي الشيطان ، خاصة وهي في موقف الخصام ، يدفعها نشاطها في العبادة أن لا تقول إلا خيرا وأن لا تفعل إلا صالحا ، هدفها الأول والأخير رضا الله واتباع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

٣ - المداومة على حضور حلق الذكر :

النفس بطبعها تواقة إلى اللهو بما ركب فيها من دوافع داخلية ، وما تشاهده من مغريات خارجية ، ومن هنا تعيش في صراع بين هذه الدوافع وتلك الضوابط التي شرعها الدين ، وبحسب قوة هذه النفس وعزيمتها على فعل الخير تسمو إلى منازل الصالحين ، ولكن قد لا يكون ترقيها إلى تلك المنازل أمرًا سهلاً ، فتحتاج إلى اتخاذ الوسائل التي تعينها على ذلك ، ومن هنا يبرز دور التذكرة والموعظة والنصيحة ، ومجالس العلم ودور العبادة وعلى رأسها المسجد ، فإن هذه كلها إذا ارتبط بها العبد المسلم سدت عليه منافذ الشيطان ووساوسه من أن تتسلل إلى قلبه وجوارحه ، فهو كلما سنحت له فرصة شد فيها رحاله إلى ملتقى العلماء ، ليتزود بما عندهم من فقه وعلم بما يهذب به نفسه وتتحسن به أخلاقه ، ويزداد به تقربًا إلى الله ويتقوى به على طاعته .

وأسمى درجات العلم تلاوة القرآن ومدارسته وتعلمه وتعليمه ، والقرآن كله ذكر وموعظة ، يقول تعالى : ﴿ **الله أنزل أحسن الحديث كتابًا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** *

---

١ الآية ٢٠١ من سورة الأعراف

٢ الآية ٢٣ من سورة الزمر

لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾[٣]، وقال تعالى : ﴿ **وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿**وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾[٧] .

وفي الحديث يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** »[٨] ويقول عليه السلام : « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** »[٩] .

قال رجل لأبي هريرة – رضى الله عنه – : (أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعته)[١٠]

فالمداومة على كتاب الله والتفقه فيه ، والتزام مجالس العلم يعالج في النفس أمورًا كثيرة ، على رأسها ذهاب الغفلة عنها ، والقضاء على النسيان والكسل

---

١ الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة يس
٢ الآية ١٦ من سورة الحديد
٣ الآية ٩ من سورة المنافقون
٤ الآية ١٢٠ من سورة هود
٥ الآية ٥٥ من سورة الذاريات
٦ الآية ٤٤ من سورة الزخرف
٧ الآية ٤٥ من سورة ق
٨ سنن الدارمي / باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه / ج ٢ / ٤٣٧
٩ سنن ابن ماجه / المقدمة/– ج ١ / ٢٢٥
١٠ كتاب أدب الدنيا والدين / ص ٥٩

الذي يعتريها ، كما يجعلها على تخوف وحذر من أمر الآخرة ، وحيئذ يصطلح أمرها في الدنيا وتكون نفسًا راضية قنوعة وثابة إلى الحق ، فاعلة للخير داعية إليه آخذة به في كل حال من أحوالها .

٣ - مصاحبة العلماء والأخيار من الناس :

لما كان لهذه النفس ألا تأنس ولا يصلح عيشها إلا في وسط جماعي ، برزت الحاجة إلى ارتباط الانسان بأخيه الانسان لحاجته اليه في كثير من أمور حياته ، وهذه سنة الله في خلقه ، ولما كان هذا الارتباط يولد علاقات تكون لها الآثار المتنوعة في طبع هذه النفس ، كما قال الشاعر :

عن المرء لا تسـأل وسل عن قـرينه

فكل قـرين بالمقـارن يقـتـدي

فإذا كان هذا القرين وهو الصاحب والصديق والرفيق والمعاشر يطبع أخلاقه وعاداته وما كانت تتصف به نفسه في نفس صاحبه فلا بد حينئذ أن تبحث كل نفس عن صديق وجليس تكتسب منه الصفات الحميدة والسجايا الفاضلة ، لهذا يشير الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حديثه عن الصديق والخليل قائلا : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** »[١] . وفي موطن اكتساب العلم وأخذ أمور الدين عن الغير يقول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - : « **إن هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون منه دينكم** »[٢] .

وقد وجه القرآن من قبل المسلم إلى مصابرة نفسه وحبسها على الجلوس مع العلماء والدعاة والمؤمنين الأتقياء ، وعدم مصاحبة دعاة المادة الذين لا يهمهم في هذه الحياة إلا السعي وراء متاع الدنيا ، فإن مجالسة العلماء عبادة ، يقول تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الدنيا ولا تطع من**

---

١ سنن أبي داود / كتاب الأدب / باب من يؤمر أن يجالس / ج ٤ / ٢٥٩

٢ صحيح مسلم / المقدمة / باب بيان أن الاسناد من الدين / ج ١ /٨٤

أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا ﴾[1] .

وفي مجالسة العلماء ومصاحبة الأخيار من الناس فوائد عظيمة للنفس ، يبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « **إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحًا منتنة** »[2].

وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : (أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبًا ولا تكن الخامس فتهلك)[3] .

فما من شك أن مجالسة العلماء ومصاحبة الأخيار تكسب النفس آدابًا جمة تجعلها تحظى برضا الله سبحانه وتعالى ، كما يعينها ذلك على قضاء حوائجها بدماثة خلق وسماحة معاملة ، فالصاحب العالم والصديق الصالح لا يأمر أخاه ولا يحب له إلا ما يحب لنفسه ، فاذا ما غفلت النفس وكادت أن تقسو وجدت من يوجهها ممن ترتبط به من أصدقاء الخير ليعينوها على فعل الخير ويردعوها عن مقارفة السوء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾**[4] .

نعم بأخلاق العلماء وبمصاحبة الأخيار يتخلق المرء دائمًا ، ويحتل بين الناس المنزلة العالية ، بل ويقتدي به غيره إذا هو أصبح موضع التقدير والاحترام ، اضافة إلى ما يكتسبه هذا الانسان من علم نافع بمصاحبته العلماء والأخيار.

٤ – الزهد في متاع الدنيا وملذاتها :

النفس بطبعها الفطري تنزع إلى حب اللذات والمتع المادية ، يقول تعالى : ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير**

١ الآية ٢٨ من سورة الكهف

٢ صحيح مسلم / كتاب الأدب – باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء / ج ٨ /٣٧

٣ كتاب أدب الدنيا والدين / ص ٦٠

٤ الآية ٩٠ من سورة الأنعام

المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[1] .

بل وأن القرآن يمنع من عدم استغلال ما خلق لهذه النفس وما أتيح لها في الحياة الدنيا مما هو مباح ومحل لها أن تتمتع به ، قال تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[2] .

ذلك بأن متع الحياة الدنيا من مستلزمات الجسد الذي يحيط بهذه النفس ، إلا أنه لما أراد الله بخلق هذا الإنسان بصورته السوية أن يكون عبدًا له اختبره بقانون الأمر والنهي ليجعل نفسه يتغلب فيها العقل على الهوى ، فتعلو وتسمو فوق مطالب الجسد ، لذلك يأتي التوجيه القرآني للنفس التي تدرك مراد الله فيها ، بألا تعيش لمتعها وملذاتها كما يعيش الحيوان البهيم ، بل لا بد أن يكون عيشها في الدنيا وسيلة يحقق لها رضا الله عنها ، ثم إكرامها بالجنة يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾[4] .

وهذا التوجيه فيه إعداد للنفس التي تتقرب إلى الله وتخلص في عبادتها له ، بأن الاخلاص الحقيقي هو تسخير ما خلق الله لهذه النفس من متاع في طاعة الله ورضاه ، لا للهو والتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، فإنما ذلك من ديدن النفس الأمارة بالسوء ، والذي يتبع صاحبها هواها أينما اتجهت به يتجه ، ومن كان على هذه الشاكلة فأنى له أن يكون ذا نفس قنوعة راضية مطمئنة ، تمتاز بالرحمة والشفقة والخلق والعدل والاحسان .

---

١ الآية ١٤ من سورة آل عمران

٢ الآية ٣٢ من سورة الأعراف

٣ الآية ٨٨ من سورة الحجر

٤ الآية ١٣١ من سورة طه

لذلك نجد تعاليم الدين ضوابط لهذه النفس التي كثيرًا ما تميل بصاحبها إلى التهلكة ما لم يكن الدين حاكمًا عليها ومتصرفًا في رغباتها ونوازعها .

يقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : (اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طلاعة ، تنزع إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مري، وإن الباطل خفي وبي ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلا)[1] .

وليس أبلغ من بيان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لهذه النفس إذا ما أرادت حب الله ورسوله ، وذلك في جوابه عليه السلام لمن سأله قائلاً : يا رسول الله دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس ؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « **إزهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبوك** »[2] .

فإذا كان الزهد عدم التوسع فيما أحله الله وأباحه من متاع الدنيا مع الاستطاعة عليه بقصد عدم الانشغال عن ذكر الله وعبادته ، واذلال النفس وحملها على التواضع لله ولعباده ، وتذكر نعيم الآخرة الباقي عند الله ، على نعيم الدنيا الفاني ، والتسابق في عمل المعروف والاحسان إلى الناس ، إذا كانت هذه المرادات من الزهد فهي خصال محمودة لمن يلتزم بها ، أما إذا كان الزهد هو اظهار التقشف والمسكنة والفقر نتيجة البخل ، فالإسلام لا يدعو إلى ذلك ، ولا يخدم الزهد النفس في شيء من هذا ، بل يجعلها نفسًا قاسية تجحد النعمة وهي بين يديها ، والله يقول : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[3] .

فمن اتخذ الزهد مركبًا للوصول إلى رضا الله ، ثم اكتسب به حب الناس وصنع المعروف ، فلا شك أنه سيكون ذا نفس غنية سخية مهذبة ومؤدبة ، تعرف قدر خالقها وتعرف قدر الناس .

---

١ كتاب أدب الدنيا والدين / ص ٣٨

٢ سنن ابن ماجه / كتاب الزهد / باب الزهد في الدنيا / ج ٢ / ح ٤١٠٢

٣ – الآية ١١ من سورة الضحى.

وإذا تعودت النفس حب القليل من المتاع واقبلت على الكثير من العبادة يكتب الله لصاحبها الغنى والتوفيق وحب الناس لها في الدنيا، كما لا يبدر من صاحبها منكر في الفعل أو سوء في الخلق ، بل لابد أن تجده سمحًا متساهلاً رحيمًا ، يفضل اليسر في كل أموره حتى وهو في حالة خصام لأخيه ، فلا تجده مجادلاً ولا فاجرًا بل يظهر المودة والحسنى لأخيه قبل أن يحاكمه أو يشتكيه .

تلكم هي أمور إذا حملت عليها النفس وألفتها تطبعت بها ، وأصبحت من السهولة أن تلتزم بآداب القرآن والسنة في جميع مناشطها ، لا سيما في حالات الخلاف والنزاع ، فتجد أن مثل هذه النفس هي السباقة للقضاء على هذا الخلاف لتطبيق ما يدعو إليه الدين وتحث عليه الشريعة الإسلامية من سماحة وحسن الخلق ، فتنطفئ نار العدواة ، وتزول الكراهية والبغضاء ، ويحل الصفاء والود بين المسلمين ، ويبرز دور الإخوة الإيمانية التي أرسى قواعدها هذا الدين لتكون هي الهدف لمسعى الناس في الحياة الدنيا لبلوغ السعادة الأبدية في دار الآخرة .

فهرس المراجع

أولاً - علوم القرآن والتفسير :

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير ابن كثير - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

٣- تيسير العلي القدير لإختصار تفسير ابن كثير - محمد نسيب الرفاعي - الطبعة الأولى - بيروت - ١٩٧٢م.

٤- مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني - الطبعة السابعة ١٩٨١ - دار القرآن الكريم - بيروت.

٥- فتح القدير - الإمام الشوكاني - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

٦- تفسير مجاهد بن جبير - تحقيق د. محمد عبد السلام محمد علي - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - البحرين - ١٩٨٤م.

٧- الكشاف - الزمخشري - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

٨- صفوة التفاسير -محمد علي الصابوني - الطبعة الثانية ١٩٨١ - مطابع الدوحة الحديثة - قطر.

٩- في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة التاسعة ١٩٨٠ - دار الشروق - بيروت.

١٠- أسباب النزول - الواحدي النيسابوري - الطبعة الثانية ١٩٨٦م - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

١١- أسباب النزول - الإمام السيوطي - إعداد محمد حسن الحمصي - دار الرشيد.

١٢- نظرات في القرآن - حسن البنا - الطبعة الأولى ١٩٧٩م - مكتبة الإعتصام - القاهرة.

١٣- مقاصد القرآن الكريم - حسن البنا - طبعة ١٩٧٩م - دار الشهاب.

١٤- المصطلحات الأربعة في القرآن - أبو الأعلى المودودي - الطبعة السادسة ١٩٧٧م - دار القلم - الكويت.

١٥- الإعجاز في دراسات السابقين - عبد الكريم الخطيب - الطبعة الأولى ١٩٧٤ - دار الفكر العربي.

١٦- دراسات تاريخية من القرآن - د. محمد بيومي مهران - لجنة البحوث - جامعة الإمام محمد بين سعود - ١٩٨٠م.

١٧- دراسات قرآنية - محمد قطب - الطبعة الثانية ١٩٨٠م - دار الشروق - بيروت/القاهرة.

١٨- عجائب القرآن - د. السيد الجميلي - الطبعة الأولى ١٩٨٥م - دار البحار - بيروت.

١٩- إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم - حسن الهضيبي - دار الأنصار - القاهرة.

٢٠- الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد - دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٢١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الثانية ١٩٨١م - دار الفكر - بيروت.

ثانياً - الحديث الشريف :

١- صحيح البخاري - دار ومطابع الشعب.

٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

٣- الجامع الصحيح - مسلم بن الجحاج الفشيري النيسابوري.

٤- صحيح مسلم بشرح النووي - دار احياء التراث العربي - بيروت.

٥- صحيح سنن الترمذي - ناصر الدين الألباني - الطبعة الأولى ١٩٨٨م - المكتب الإسلامي - بيروت.

٦- سنن أبي داود - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار احياء السنة النبوية - بيروت.
٧- سنن ابن ماجة - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء التراث العربي - ١٩٧٥م.
٨- سنن الدارمي - دار الكتب العلمية - بيروت.
٩- مسند الإمام أحمد - أحمد محمد شاكر - التراث الإسلامي - القاهرة ١٩٩١م.
١٠- شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد - محمد السفاريني الحنبلي - الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.
١١- الأدب المفرد - الإمام البخاري - مراجعة محمد هشام البرهاني - طبعة وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات - ١٩٨١م.
١٢- موطأ الإمام مالك - مراجعة وتقديم فاروق سعد - الطبعة الثانية ١٩٨١م - منشورات دار الآفاق الحديثة - بيروت.
١٣- سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - الكتب العلمية - بيروت.
١٤- طبقات الشافعية الكبرى - السبكي - هجر للطباعة - القاهرة ١٩٩٣م.
١٥- مسند أبي بكر الصديق - جلال الدين السيوطي - تحقيق الحافظ سعيد بيك - الطبعة الثانية ١٩٨١م - الدار السلفية - الهند.
١٦- كشف الخفاء ومزيل الإلتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس - اسماعيل بن محمد العجلوني - الطبعة الثانية ١٩٧٩م - مؤسسة الرسالة - بيروت.
١٧- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة - ناصر الدين الألباني - الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ - المكتب الإسلامي.
١٨- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - جلال الدين السيوطي - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

١٩- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث - دار الفكر - بيروت.

ثالثاً - كتب العقائد والإلهيات :

١- العبودية - ابن تيمية - الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ - المكتب الإسلامي - بيروت.

٢- كتاب المنطق - فتاوي ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم - الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - الرياض.

٣- كتاب علم السلوك - فتاوي ابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم - الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - الرياض.

٤- معارج القدس في مدارج معرفة النفس - أبو جامد الغزالي - الطبعة الرابعة ١٩٨٠م - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٥- مسائل الجاهلية - محمد بن عبد الوهاب - تعليق محمد شكري الألوسي - من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. (٣)

٦- مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - تهذيب عبد المنعم صالح العلي - مطبعة كاظم - دبي.

٧- اللّه - عباس محمود العقاد - الطبعة السابعة ١٩٧٦م - مطبعة دار المعارف بمصر.

٨- المنقذ من الضلال - أبو حامد الغزالي - تعليق محمد محمد جابر - مكتبة الجندي.

٩- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - ابن تيمية - مطابع المجد التجارية.

١٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى - ابن قيم الجوزية - من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. (٣)

١١- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - عبد الرحمن بن حسنت آل الشيخ - تحقيق محمد حامد الفقي - الطبعة السابعة ١٩٥٧م - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة.

١٢- حجج القرآن - أحمد بن المظفر بن المختار الرازي - الطبعة الثانية ١٩٨٢م - دار الكتاب العربي - بيروت.

رابعاً - كتب الفقه :

١- زاد المعاد في هديِ خير العباد - ابن قيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت.

٢- تحفة المودود بأحكام المولود - ابن قيم الجوزية - المكتبة القيمية - القاهرة.

٣- نيل الأوطار - الشوكاني - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٨٠م - بيروت.

٤- إعلام الموقعين عن ربّ العالمين - ابن قيم الجوزية - مراجعة وتعليق طه عبد الرؤوف سعد - دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت.

٥- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية - ابن قيم الجوزية - تحقيق الدكتور محمد جميل غازي - مطبعة المدني - القاهرة.

٦- حجة الله البالغة - شاه ولي الدين الدهلوي - الطبعة الثانية ١٢٩٦هـ - المكتبة السلفية - لاهور باكستان.

٧- فقه الزكاة - د. يوسف القرضاوي - الطبعة السادسة ١٩٨١م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٨- أقضية رسول الله ﷺ : - ابن الطلاع - تحقيق د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي - الطبعة الأولى ١٩٧٨م - دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني - بيروت.

٩- انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك - شمس الدين الراعي الأندلسي - تحقيق محمد أبو الأجفان - الطبعة الأولى - ١٩٨١م - دار المغرب الإسلامي - بيروت.

خامساً - كتب السير والتراجم :

١- السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق مصطفى الشعار ابراهيم الأنباري / عبد الحفيظ شلبي - الطبعة الثالثة ١٩٧١م - دار احياء التراث العربي - بيروت.

٢- الفصول في اختصار سيرة الرسول - الحافظ ابن كثير - تحقيق محمد الخطراوي / محي الدين مستو - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - مؤسسة علوم القرآن - دار القلم - بيروت/ دمشق.

٣- الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر العسقلاني - دار الكتاب العربي - بيروت.

٤- سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي - تحقيق شعيب الأرناؤوط - الطبعة الأولى ١٩٨١م - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٥- شرح الشفا في شمائل صاحب الأصطفا - نور الدين القاري - تحقيق محمد مخلوف - مطبعة المدني - القاهرة.

٦- خاتم النبيين - محمد أبو زهرة - مراجعة عبد اللّه بن ابراهيم الأنصاري - مؤسسة دار العلوم - قطر.

٧- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار - ابن الديبع الشيباني - تحقيق عبد اللّه بن ابراهيم الأنصاري - الطبعة الثانية ١٩٨٢م - إدارة احياء التراث الإسلامي - قطر.

٨- السيرة النبوية - أبو الحسن علي الحسيني الندوي - مراجعة عبد اللّه بن ابراهيم الأنصاري - طبعة ١٩٨١م - منشورات المكتبة العصرية - بيروت.

٩- اخبار القضاة - وكيع محمد بن خلف بن حيان - عالم الكتب - بيروت.

١٠- دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - انتشارات جهان - طهران.

١١- فقه السيرة - الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي - الطبعة السادسة ١٩٧٧م - دار الفكر - بيروت.

١٢- فقه السيرة - محمد الغزالي - إدارة احياء التراث الإسلامي - قطر.

١٣- اخبار عمر - علي الطنطاوي - الطبعة الثامنة ١٩٨٣م - المكتب الإسلامي - بيروت.

سادساً - كتب اللغة والأدب :

١- لسان العرب - ابن منظور.

٢- المصباح المنير - أحمد بن محمد علي الفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.

٣- مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٢م.

٤- القاموس المحيط - الفيروز أبادي - دار الفكر - بيروت.

٥- الفروق في اللغة - أبو هلال العسكري - تحقيق لجنة التراث العربي - الطبعة الخامسة ١٩٨١م - دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٦- جواهر الأدب - السيد أحمد الهاشمي - الطبعة السادسة والعشرون ١٩٦٥م - مطبعة السعادة بمصر.

٧- ديوان الإمام الشافعي - جمع وتعليق محمد عفيف الزعبي - الطبعة الثالثة ١٩٧٤م - دار الجبل - بيروت.

٨- ديوان الحماسة لأبي تمام - تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان - طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨١م - الرياض.

٩- جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والإسلام - أبو زيد القرشي - تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي - الطبعة الأولى ١٩٧٩م - طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

١٠- كتاب العفو والإعتذار - أبو الحسن محمد بن عمران العبدي - تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح - طبع ونشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨١م - الرياض.

١١- العقد الفريد - ابن عبدربه الأندلسي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٨٣م.

١٢- عيون الأخبار - ابن قتيبة الدينوري - دار الكتاب العربي - بيروت.
١٣- المستطرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين الأبشيهي المحلي - الطبعة الأخيرة - دار احياء التراث العربي - بيروت.

سابعاً - كتب الثقافة الإسلامية :

١- كتاب أدب الدنيا والدين - أبو الحسن الماوردي - تحقيق محمد فتحي أبو بكر - الطبعة الأولى ١٩٨٨م - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة.
٢- اظهار الحق - رحمة الله بن خليل العثماني الكيرانوي - مراجعة عبد الله بن ابراهيم الأنصاري - إدارة احياء التراث الإسلامي - قطر.
٣- تاريخ الجدل محمد أبو زهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٠م - دار الفكر العربي.
٤- النبأ العظيم - الدكتور محمد عبد الله دراز - الطبعة الخامسة ١٩٨٠م -دار القلم - الكويت.
٥- تحت راية القرآن - مصطفى صادق الرفعي - الطبعة السابعة ١٩٧٤م - دار الكتاب العربي - بيروت.
٦- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم - د.عبد الحليم حنفي - الطبعة الثانية ١٩٨٥م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٧- احياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
٨- من حكم الشريعة وأسرارها - حامد بن محمد العبادي - الشئون الدينية بدولة قطر ١٩٨١م.
٩- دراسات إسلامية في العلاقات الإجتماعية والدولية - د.محمد عبد الله دراز - الطبعة الثانية ١٩٧٤م - دار القلم - الكويت.
١٠- التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد - الطبعة السادسة - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة.
١١- دراسات في النفس الإنسانية - محمد قطب - دار الشروق - بيروت.

١٢- أثر تطبيق الحدود في المجتمع - من البحوث التي أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨١م.
١٣- نظام القضاء في الإسلام - من البحوث التي أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨١م.
١٤- بناء النفوس - عبد الحميد كشك - المكتب المصري الحديث - القاهرة.
١٥- ربانية لا رهبانية - أبو الحسن الندوي - الطبعة الأولى ١٩٨٣ - مكتبة الهدى - حلب.
١٦- دراسات في الإختلافات الفقهية - د.محمد أبو الفتح البيانوني - الطبعة الأولى ١٩٨٥م - مكتبة الهدى - حلب.
١٧- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي - أنور الجندي ١٩٧٨م.
١٨- المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة - عمر بهاء الدين الأميري - الطبعة الأولى ١٩٦٨م - دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت.
١٩- الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف - ولي الله الدهلوي - مراجعة وتعليق عبد الفتاح أبو عدة - الطبعة الثالثة ١٩٨٣م - دار النفائس - بيروت.
٢٠- أدب الإختلاف في الإسلام - د. جابر فياض العلواني - الطبعة الأولى ١٤٠٥ - رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية - قطر.
٢١- مدخل إلى الأدب الإسلامي - د.نجيب الكيلاني - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية - قطر.
٢٢- منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه - د.سيد نوح - الطبعة الأولى ١٩٩٠م - جامعة الإمارات العربية المتحدة - كلية الآداب.
٢٣- تهذيب الأخلاق - عبد الحي بن فخر الدين الحسيني - المكتبة العصرية - بيروت.
٢٤- الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - تحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين - الطبعة الثانية ١٩٧٣م - دار البحوث العلمية - الكويت.

٢٥- دستور الأخلاق في القرآن - د.محمد عبد الله دراز - تحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين - الطبعة السادسة ١٩٨٥م - دار البحوث العلمية - الكويت.

٢٦- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي - د. يوسف القرضاوي - الطبعة الثانية ١٩٨٦م - دار القلم الكويت.

٢٧- الإسلام بين العلماء والحكام - عبد العزيز البدري - الطبعة الثانية ١٩٧٦م - دار القلم - الكويت.

٢٨- صيد الخاطر - الإمام ابن الجوزي - المكتبة العلمية - بيروت.

٢٩- الخلفاء الراشدون - عبد الوهاب النجار - تحقيق خليل الميس - الطبعة الأولى ١٩٨٦م - دار القلم بيروت.

٣٠- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية - محمد الغزالي - الطبعة الرابعة ١٩٨٥م - رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية - دولة قطر.

٣١- أخلاقنا الإجتماعية - الدكتور مصطفى السباعي - الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ - المكتب الإسلامي - دمشق بيروت.

٣٢- نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور - أبو الأعلى المودوري - مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٣- من أساليب القرآن - الدكتور إبراهيم السامرائي - الطبعة الأولى ١٩٨٣م - مؤسسة الرسالة بيروت.

٣٤- العواصم من القواصم - القاضي أبي بكر بن العربي - تحقيق محب الدين الخطيب - الرئاسة العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض ١٩٨٤م.

٣٥- الأحكام السلطانية - أبو الحسن الماوردي - مراجعة الدكتور محمد فهمي السرجاني - مكتبة التوفيقية - القاهرة.

٣٦- روائع من أدب الدعوة في القرآن والسنة - أبو الحسن الندي - المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي - الهند.
٣٧- الدعوة إلى الإصلاح - محمد الخضري حسين - من مطبوعات جمعية الإصلاح والتوجيه الإجتماعي - دولة الإمارات العربية المتحدة.
٣٨- رفع الملام عن الأئمة الأعلام - ابن تيمية - من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٩٨٣م.
٣٩- العدالة الإجتماعية في الإسلام- سيد قطب - الطبعة السابعة ١٩٦٧م- بيروت.
٤٠- الحسن والحسين - محمد رضا - الطبعة الثانية ١٩٦٥م - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة.

فهرس الموضوعات